



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة قاصدي مرباح - ورقلة -

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم

في تخصص: علوم اللسان العربي والمناهج الحديثة

بعنوان:

الخطابه التداولي في كتابي

"الصناعتين" لأبي هلال العسكري (ت 382هـ) و "المثل السائر"

لابن الأثير (ت 637هـ)

إشراف الأستاذ الدكتور: أحمد بلخضر

إعداد الطالبة: أم الخير سلفاوي

نوقشت و أجزيت علنا بتاريخ: 2019/02/24

أمام اللجنة المكونة من السادة:

د/مسعود غريب (جامعة قاصدي مرباح ورقلة) رئيسا

أ.د/ أحمد بلخضر (أستاذ جامعة قاصدي مرباح ورقلة) مشرفا و مقررا

أ.د/جودي مرداسي (جامعة باتنة) مناقشا

د/سليم عواريب (المركز الجامعي ميلة)مناقشا

د/ كمال علوش (جامعة قاصدي مرباح ورقلة) مناقشا

السنة الجامعية: 2018/2017

الإهداء

إلى الروح التي اختارها ربي لجواره في المأ الأعلى

قلعة حدي، وقلعة مصبي، ابنتي المخلدة:

أروي زهره

أهدي هذا العمل المتواضع

أم الخير.

قال الله تعالى:

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُنَا بَيْنَ النَّاسِ﴾

صدق الله العظيم

سورة آل عمران ، بعض الآية: 140

شكر و تقدير

لا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدم بالحمد والشكر لله تعالى على ما وهبني إياه من العزم والمقدرة على إنجاز هذا العمل وكذلك أتقدم بالشكر الجزيل لكل من مد يد العون وساهم في تخليل الصعوبات التي واجهتني أثناء كتابة هذا العمل.

وأخص بالشكر والثناء أستاذي الدكتور "أحمد بلخضر" المشرف على هذه

الطروحة، على كل ما بذله من وقت وجهد في توجيهي وإرشادي فجزاه الله عنى خير الجزاء وجعل ذلك في ميزان حسناته.

وأخيرا أشكر سلفاً أعضاء لجنة المناقشة كل باسمه على ما سببخلونه من وقت وجهد في قراءة هذه الرسالة وتقويمها.

وأسال الله التوفيق والسداد.

الصفحة	فهرس المحتويات
...	شكر
...	إهداء
...	فهرس المحتويات
أ	مقدمة
9	التمهيد: مصطلحات ومفاهيم
9	1. الخطاب والنص (إشكالية المصطلح).
19	2. الفرق بين الخطاب والنص.
الفصل الأول: الفكر التداولي في الدرس الغربي والدرس العربي الحديث	
29	المبحث الأول: الفكر التداولي في الدرس الغربي:
29	أولاً: التداولية؛ مفهومها ، نشأتها وتطورها.
29	1. مفهوم التداولية:
29	أ. المفهوم اللغوي
31	ب. المفهوم الاصطلاحي
36	2. جذورها الفلسفية
40	3. علاقتها بالتخصصات الأخرى.
48	ثانياً: أهم المقاربات التداولية في الدراسات الغربية:
48	أ. برنامج "هانسون" الموحد.
49	ب. البلاغة الجديدة عند "بيرلمان" Chaim Perlman:
52	1. تقنيات الإقناع عند "بيرلمان" Perlman
56	2. مقومات الحجاج عند بيرلمان "Perlman" و "تيكتاه Tyteca"
58	3. العناصر البلاغية والأسلوبية كأليات عرض حجاجة عند "بيرلمان" Perlman
62	

	III. التداولية المدمجة عند "ديكرو" LA PRAGMATIQUE :INTEGREE
63	1. الحجاج في اللغة L 'Argumentation Dans La Langue.
66	2. السلم الحجاجي.
69	3. الروابط الحجاجية.
71	ثالثا: أهم القضايا التداولية:
71	1. الأفعال الكلامية Speech Acts
76	2. متضمنات القول Les Implicites
85	3. الاستلزام الحوارى Conversation Implicature
85	المبحث الثاني: الفكر التداولي في الدرس العربي الحديث:
85	أ. إشكالية الترجمة و المصطلح.
87	ب. نماذج عن بعض الدراسات التداولية في الوطن العربي.
الفصل الثاني:تداولية الخطاب في "الصناعتين الكتابة والشعر" لـأبي هلال العسكري"و"المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" لابن الأثير":	
114	توطئة
117	المبحث الأول: المقصدية من خطاب الصناعتين" و خطاب "المثل السائر".
117	1.المقصدية من خطاب "الصناعتين الكتابة والشعر" لأبي هلال العسكري.
119	أ. العسكري وسياق التأليف
126	ب. محتويات الكتاب و منهجه.
129	ج. آليات التخاطب في "الصناعتين".
133	د. استراتيجيات الإقناع.
138	2. المقصدية من خطاب "المثل السائر " لابن الأثير.

140	أ. "ابن الأثير" و سياق التأليف.
143	ب. محتويات كتاب "المثل السائر" ومنهجه.
148	ج. آليات التخاطب في "المثل السائر".
151	د. استراتيجيات الإقناع في "المثل السائر".
161	المبحث الثاني: تداولية عناصر الخطاب عن كل من "العسكري" و"ابن الأثير"
161	1. تداولية المتكلم وشروطه
196	2. تداولية المتلقي و شروطه.
207	3. المقام و السياق عند كل من "العسكري" و"ابن الأثير".
الفصل الثالث: الأفعال الكلامية و قواعد التخاطب في تصورات كل من "العسكري" و"ابن الأثير" البلاغية:	
230	المبحث الأول: تصور كل من "العسكري" و"ابن الأثير" للفعل الكلامي:
232	1. الفعل او الأداء الكلامي و المعاني النفسية.
236	2. الفعل الكلامي معايير وشروطه:
243	أ. الأمر و النهي؛ وشروطهما التداولية.
248	ب. "الاعتذار" و " الاستعطاف" وشروطهما التداولية .
251	3. الفعل التأثيري وإنجاز الفعل الكلامي
253	4. الحدث الكلامي و بناء الافعال الكلامية (أسلوب التلخص)
260	5. الأفعال الكلامية غير المباشرة والعدول البلاغي:
264	أ. الاستلزام الحواري والمجاز
269	ب. الافتراض المسبق في الكناية والاعتراض

275	المبحث الثاني: قواعد التخاطب والتفاعل الكلامي عند كل من "العسكري" و"المثل السائر" و مبادئه:
275	أولاً: قواعد التخاطب:
275	1. مبدأ التعاون لـ"غرايس Grice" وقوانينه
280	2. قواعد التخاطب لـ"ديكرو Dicro"
286	ثانياً: مبادئ التخاطب الكلامي
286	1. مبدأ الاقتضاء أو الاستلزام التخاطبي في المقولات البلاغية
286	أ. الافتراض المسبق والتقديم والتأخير
287	ب. مضمرة القول والحذف
300	2. مبدأ التأدب
الفصل الرابع: الحجاج بين "بيرلمان" و"تصورات" العسكري" و"ابن الأثير" البلاغية	
305	المبحث الأول: الحجاج من منظور بلاغي
306	1. حجاجية الألفاظ
314	2. حجاجية الصور البيانية :
315	أ. حجاجية الاستعارة
320	ب. التشبيه (التمثيل)
325	ج. الكناية والتعريض
328	3. الالتفات
335	4. التفسير بعد الإبهام
336	5. في الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية والفرق بينهما
337	6. الاطناب
339	7. التكرار

343	المبحث الثاني: الحجاج من منظور تداولي في تصورات "العسكري" و"ابن الأثير" البلاغية:
343	1. الحجج المبيّنة للواقع:
343	أ. شاهد حال (الحقائق)
345	ب. النموذج
347	ج. الاستشهاد
350	2. الروابط الحجاجية:
351	3. حروف العطف
355	4. حروف الجر.
358	خاتمة
363	قائمة المراجع
	الملاحق
	الملخص عربي/ فرنسي

الملخص:

يمتاز تراثنا البلاغي بحضور مزدوج، يجمع فيه الثابت والمتحول، ولنا أن نعتبر الثابت ما وصلنا في بطون الكتب وسطور المخطوطات التي تحفظه، وعليه فهو قار معلوم، أما المتحول فلا يظهر إلا من خلال وعينا هذا التراث وكيفية التعامل معه عبر معرفة خاصة ووعي ذاتي، وهذه المرونة المنهجية التي اتسم بها سمحت للباحثين والدارسين المحدثين بالغوص فيه، متسلحين بالمعارف والثقافات والمناهج التي تدرسه، ولو حاولنا استنطاق هذا الرصيد المعرفي الذي خلفه التراث البلاغي العربي لوجدناه يحمل بين جنباته ذخرا ثميناً من الأفكار النيرة التي نظّر لها البلاغيون العرب في مؤلفاتهم ، حيث أسهموا في إجلاء وتفسير ووضع بعض القواعد الإستراتيجية التي تسمو بالخطاب أو بالأداء اللغوي عموماً، نحو القول الفصيح والبلاغة الحقيقية بطريقة راقية وناضجة، وبذلك أصبحت خيوط التلاقي المعرفي والانصهار المنهجي بينها وبين أطروحات و تنظيرات الدرس التداولي المعاصر المختص بتقنين الأدوات والإجراءات الإستراتيجية المتعلقة بالخطاب الناجح الفعال.

من هذا المنطلق، وجدنا أن هذا الانسجام المعرفي، خليق بمعاينة فكرية ودراسة علمية منظمة، وإن كذا قد ركزنا في بحثنا على عالمين اثنين فقط، وذلك قصد أن تكون الدراسة أكثر تركيزاً ، والمعنون بـ "الخطاب التداولي في كتابي الصناعتين" لأبي هلال العسكري (ت 382 هـ) والمثل السائر لابن الأثير (ت 637 هـ)"، رامين إلى إعادة قراءة أهم المقولات البلاغية وشواهداها ومن خلال الحفر في شروطها المقامية و التداولية، وذلك بالاستعانة بآليات المنهج الوصفي التحليلي.

وبعد المضي في بحثنا، توصلنا إلى أن كل من "العسكري" و"ابن الأثير" استطاعا أن يثيرا بعض القضايا التداولية، وذلك من خلال تنظيرهما ومحاولتهما لرصد كل ما يحيط بما يسمى الصناعة الخطابية من شعر خطابة وكتابة، ومن عناصر للتداول (متكلم، سامع ومقام)، وذلك بتزويد المتكلم بالتقنيات البلاغية التي تسهم في جعل خطابه ناجحاً ومؤثراً وكذا مقنعاً، مستخدماً أبرز أنواع الحجاج من مجاز... وغيره، وذلك وفق قواعد ومبادئ تداولية ، وينبغي الإشارة في الأخير إلى أن هذا كله موجود بالقوة ولم يقصد صاحبها الكتابيين التنظير فيه التداولية.

الكلمات المفتاحية:

التداولية، الخطاب، البلاغة، التداولية المدمجة، ، الحجاج، الاستلزام الحواري، متضمنات القول ، الأفعال الكلامية...

Résumé:

Notre patrimoine est caractérisé par une double présence, dans laquelle le fixe et le transformé, et nous pouvons considérer la constante ce que nous avons dans le ventre des livres et les lignes de manuscrits qui le conservent, c'est pourquoi est connu, mais la transformation ne se manifeste que par notre conscience de cet héritage et la façon de le gérer par des connaissances spéciales et par la conscience de soi, La souplesse méthodologique qui le caractérisait permettait aux chercheurs modernes de s'y plonger, armés des connaissances, des cultures et des programmes qu'ils étudiaient, et même si nous essayions de remettre en question cet équilibre des connaissances laissé par le patrimoine rhétorique arabe, Ils ont contribué à l'évacuation, à l'interprétation et au développement de certaines règles stratégiques, qui sont plus que des performances rhétoriques ou linguistiques en général, vers l'expression éloquente et éloquente d'une manière sophistiquée et mature, devenant ainsi les fils de la rencontre cognitive et de leur fusion systématique avec les thèses et les théories de la leçon délibérative contemporaine portant sur la codification des outils stratégiques .

De ce point de vue, nous avons constaté que cette harmonie de connaissances, une inspection scientifique et une étude scientifique organisée, mais nous nous sommes concentrés dans notre recherche sur deux mondes seulement, afin d'être une étude plus ciblée, intitulée " Discours pragmatique dans " alsinaeatayn d' Abu Hilal (382) et almatal alssayir d'Ibn al-Atheer (637),Objectif pour relire les déclarations rhétoriques et les preuves les plus importantes et en fouillant dans les termes de résidence et de délibération Utiliser une approche descriptive analytique.

Après avoir poursuivi nos recherches, nous avons constaté que " d' Abu Hilal " et "Ibn al-Atheer" étaient en mesure de soulever des problèmes de délibération par le biais de leurs théories et de leurs tentatives de surveillance de tout ce qui entoure la soi-disant industrie rhétorique de la rhétorique et de l'écriture, ainsi que des éléments de

délibération (Et en fournissant au locuteur des techniques rhétoriques qui contribuent à rendre son discours réussi, influent et convaincant, en utilisant les types de pèlerins les plus en vue de la métaphore ... et autres, conformément aux règles et principes de la pragmatique, et il convient de souligner que tout cela existe par la force ne signifiait; Les linguistes arabes ne voulaient pas dire théoriser.

les mots clés:

la pragmatique, Discours, Rhétorique, La Pragmatique Integree, L'Argumentation, Conversation Implicature, Les Implicites, Actes de discours.

Summary:

Our heritage is characterized by a dual presence, in which the fixed and the transformed, and we can consider the constant what we got in the stomachs of books and the lines of manuscripts that keep it, so it is known, but the transformation shows only through our awareness of this heritage and how to deal with it through special knowledge and self-awareness, The methodological flexibility that characterized it allowed modern scholars and scholars to dive into it, armed with the knowledge, cultures and curricula that they were studying, and even if we tried to question this knowledge balance that was left behind by the Arab rhetorical heritage, They have contributed to the evacuation, interpretation and development of some of the strategic rules, which are more than rhetoric or linguistic performance in general, towards the eloquent and eloquent expression in a sophisticated and mature way, thus becoming the threads of the cognitive encounter and the systematic fusion between them and the theses and theories of the contemporary deliberative lesson concerned with the codification of the strategic tools and procedures related to successful successful speech .

From this point of view, we found that this harmony of knowledge, a scientific inspection and organized scientific study, but we have focused in our research on two worlds only, in order to be more focused study, entitled " Pragmatic Discourse in "alsinaeatayn of Abu Hilal (382) and almatal alssayir of Ibn al-Atheer (637)), Purposeful to re-read the most important rhetorical statements and evidence and through digging in the terms of residence and deliberation, using the mechanisms descriptive analytical method.

After proceeding with our research, we found that both the "Abu Hilal " and "Ibn al-Atheer" were able to raise some deliberative issues through their theories and their attempts to monitor all that surrounds the so-called rhetorical industry of rhetoric and writing, and elements

of deliberation (speaker, And by providing the speaker with rhetorical techniques that contribute to make his speech successful and influential and convincing, using the most prominent types of pilgrims of metaphor ... And others, in accordance with the rules and deliberations of the pragmatic, and should be mentioned in the latter that all this is by force does not mean the authors of the books of Arabic rhetoric..

keywords:

Pragmatics, Discourse, Rhetoric, Integral Pragmatics, Argumentation, Conversation Implicature, Implicit, Speech Acts

المقدمة

المقدمة:

شكل التراث العربي متنفساً للباحثين المعاصرين، وذلك من منطلق شغف التنقيب عن قراءة جديدة تتماشى مع الطروحات الفكرية المعاصرة؛ فتراهم حباً في ذلك يتسلحون بآليات جديدة من أجل الولوج إلى أسرار النص التراثي؛ ضمن فعل قرائي أقرب ما يكون إلى مغامرة استكشافية لتراث مشقّر وثري.

فقد شهدت الدراسات اللغوية مع مطلع القرن العشرين انفجاراً معرفياً وابستيمولوجياً منقطع النظير، تمخضت عنه عدّة رؤى ونظريات أثرت جانب البحث اللساني واللغوي، كما أنها فتحت المجال على مصراعيه بين دعاة الأصالة والتأصيل وبين دعاة الحداثة والتغريب؛ غير أن الملاحظ هو التطرف الزائد لدى كليهما؛ فالطرف الأول نظر للتراث بمنظار القداسة والاكتمال انطلاقاً من مقولة: "هل غادر الشعراء من متردّم"، ويأن البلاغة العربية قد نضجت واكتملت واستوت على سوقها وآتت أكلها ضعفين، ولم يبق المجال لمناقشتها واستنارتها لاستكناه خباياها وسير أغوارها لاستخراج دفائنها واستتفار مكانها، أما الطرف الثاني؛ فقد تنكر لهذه البلاغة، ووصفها بالجمود و التقييد المميت الذي جعل منها قوالب جاهزة تحول دون التجديد والإبداع، وهو في هذا متأثر بما جاء به الفكر الغربي من نظريات حديثة ومعاصرة. ولعل من هذا المنطلق التنافري بين النظرتين المتابيتين؛ جاءت فكرة هذا الموضوع؛ وقد نمت هذه الفكرة ونضجت بالقراءة للتحول إلى مشروع مقارنة بحثية؛ لتحاول إيجاد صلة بين ما توصلت له النظرية الغربية الحديثة في اللسانيات التداولية من جهة، وعلى ما جاء به الفكر التراثي البلاغي العربي في هذا المجال؛ وللوقوف على هذا التوارد المعرفي انتقينا من الفكر الغربي بعض المبادئ والأسس التي تبناها بعض الدارسين في معالجة الخطاب التداولي، واخترنا من الفكر التراثي العربي؛ كتابين اثنين كعينتين لما ألف حول المبادئ العامة للخطاب في صفته التداولية.

و الكتابان هما "الصناعتين الكتابة والشعر" لأبي هلال العسكري (ت 382هـ)؛ و "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" لـ" ابن الأثير (ت 637هـ) ، وللجمع بين هذين الفكرين في

موضوع بحثي واحد؛ كان عنوان هذه الأطروحة على النحو الآتي: " الخطاب التداولي في كتابي الصناعتين لأبي هلال (ت 382هـ) « والمثل السائر لـ" ابن الأثير (ت 637هـ)؛ والجدير بالذكر أن كلا الكتابين حاول أن يؤسس للخطاب بنوعيه الشعري والنثري؛ واضعاً له شروطاً للتخاطب بين الباحث والمتلقي؛ هذا الخطاب المتداول بين السامع والمتكلم، ليضمن له إنتاج خطاب مفهوم وناجح.

لقد ظهر حقل التداولية في الدراسات المعاصرة هادفاً إلى إعادة الاعتبار للعامل غير اللساني في ساحة الدراسات اللسانية، وذلك بجعل السياق؛ وظروف المقام؛ من بين شروط نجاح العملية التواصلية بين المرسل والمتلقي بتفعيل دور اللغة في التواصل والذي يظهر أثناء الاستعمال، وإذا كان نجاح الترسيمية التواصلية بين الطرفين مرهون بفهم طبيعة الطرف الذي تنشأ فيه، فإن وسيلة تجسيد هذا التواصل أمر لا يمكن إغفال دوره؛ وهذه الوسيلة تتمثل في اللغة.

المعلوم أن لكل باحث أسباب ذاتية تدعوه إلى طرق موضوع ما، وأنا لا أنكر إحساسي بضرورة خدمة البحث اللغوي؛ وهذا هو الداعي المباشر الذي جعلني أنتقيه، خاصة وأنه متعلق بترائنا الذي لا يزال بحاجة إلى السواعد التي تكشف عنه، من أجل بعث مساره الإبداعي الذي سطره علماءنا؛ أما عن الأسباب الموضوعية التي جعلتني أبحث في هذا المصنّف فقد تنوّعت وتعدّدت منها:

- تلبية لتلك الدعوة التي يحثّ فيها الدارسون إلى ضرورة إعادة قراءة التراث اللغوي بوسائل منهجية حديثة، من أجل استنباط الأسس المعرفية التي بني عليها الفكر الموروث، وبالتالي المساهمة في تفعيل التراث في الدراسات اللغوية الحديثة.

- الكشف عن الرؤية التي قدّمها كل من "أبو هلال العسكري" و" ابن الأثير " للأداء اللغوي، بنوعيه المكتوب والمنطوق، وأبعاده التداولية.

ومما ينبغي الإشارة إليه في البدء؛ أنه على الرغم من أن دارسنا القدامى - ومن بينهم "العسكري(ت382هـ)" و" ابن الأثير (ت 637هـ) - لم يتناولوا القضايا التداولية بمصطلحاتها

وعلميتها إلا أنهم قد تحدّثوا عن المفاهيم التي يقتضيها مجال تداول الكلام؛ كالبيان والتبليغ والمقصد والمقام والبلاغة في حدّ ذاتها، وهذا ما يتّضح أكثر في كلامهم عن شروط الاتّصال البليغ، والمبني على غايات معيّنة، في مثل ما نجده في أقوال "أبي هلال" و"ابن الأثير" التي تطرقت للتخاطب و التواصل اللغوي.

وإذا علمنا أن الهدف المحوري في كلا الكتابين؛ هو محاولة تزويد المتكلم سواء شفاهة أو كتابة بكل ما يجعله خطابه ناجحاً فاعلاً؛ ومن هذا الهدف تنبثق إشكالية موضوعنا هذا والتي تتمثل في طرح السؤال الآتي:

3. ما هي علاقة هذه الآليات والتقنيات البلاغية بمقومات الدراسة التداولية، وذلك بما يتعلق بالانجاز المتضمن في استعمال اللغة.

ولفك هذه الإشكالات أرتأينا تفريع وجهة ومسار البحث في جانبه التطبيقي إلى وجهتين

هما:

- الوجهة الأولى: تتحقق بتتبع مسار خطاب "الصناعتين" و"المثل السائر" باعتبارهما خطاباً موجهاً من مرسل إلى متلق معين، فهو خطاب موجه من إلى متلق أرادته، حسب تموضع المقاصد التي بني وفقها صاحبينا كتابي "الصناعتين" و"المثل السائر"، وهي التي تتصل بمقصدية تأليف الكتابين؛ باعتبارهما يدخلان ضمن كتب البلاغة والنقد.

- الوجهة الثانية: تتحقق بالنظر إلى طبيعة موضوع الكتاب والمتمثل في الطرح المعرفي في الكتابين، وطبيعة تحليلاتهما للنماذج الخطابية، أثناء توضيحهما للمواضيع التي طرقتها داخل فصول الكتابين، مستعينان بخاصية الذوق؛ هذه الخاصية التي رأينا أن اشتغالها في المدونة يظهر بما يعرف في الدراسات المعاصرة بالمعرفة الخلفية أو المعرفة الموسوعية، والتي تظهر من خلال الكفاءة التداولية.

وقد رسمنا خطى عامة لبحثنا؛ والتي تتمثل في تمهيد وأربعة فصول، ففي التمهيد تطرقنا إلى تعريف مصطلحي الخطاب والنص، أما الفصل الأول فقد عنوانه بـ "الدرس التداولي بين الفكر العربي والغربي الحديث"؛ حيث يضم مبحثين: المبحث الأول: الفكر التداولي في الدرس

الغربي بثلاث مطالب فرعية:المطلب الأول: التداولية نشأتها وتطورها، و المطلب الثاني: أهم المقاربات التداولية (برنامج "هانسون" الموحد، البلاغة الجديدة عند "بيرلمان"، التداولية المدمجة عند "ديكرو")، والمطلب الثالث: أهم القضايا التداولية(الأفعال الكلامية، الافتراض المسبق، الاستلزام الحواري)، أما المبحث الثاني: الفكر التداولي في الدرس العربي الحديث؛ تعرضنا في المطلب الأول: لإشكالية المصطلح و الترجمة، والمطلب الثاني: نماذج عن بعض الدراسات التداولية في الوطن العربي.

ثم خصصنا الفصول الباقية للدراسة التطبيقية للخطاب التداولي في الكتابين، فكان عنوان الفصل الثاني بـ"تداولية الخطاب في الكتابين: خصصنا المبحث الأول لدراسة الكتابين تداوليا بعدهما خطاب موجه من قبل مؤلفهما إلى متلق معين بعنوان " المقصدية من خطاب الصناعتين" و خطاب " المثل السائر"، وذلك من خلال مطلبين؛ المطلب الأول: مقصدية خطاب "الصناعتين"("العسكري" و سياق التأليف، محتويات الكتاب و منهجه ، آليات التخاطب في "الصناعتين"،استراتيجيات الإقناع)، و المطلب الثاني: مقصدية الخطاب "المثل السائر لـ" ابن الأثير (ت 637هـ)" و سياق التأليف، تموضع المقاصد في خطاب "المثل السائر"، آليات التخاطب في "المثل السائر"،استراتيجيات الإقناع). ومن خلاله حاولنا إبراز البعد المقصدي في الكتابين، وذلك من خلال أسلوبهما في الكتابة وكذا الخلفية التي ينطلقا منها، مما أعاننا على تأويل سياق الكتابة عندهما بحسب الطرح الذي قدمه كل منهما.

أما المبحث الثاني؛ بعنوان "تداولية عناصر الخطاب"، اهتم المطلب الأول بإبراز "تداولية المتكلم وشروطه" ، و المطلب الثاني بـ" تداولية المتلقي و شروطه"، ثم المطلب الثالث: "المقام" ، والمبحث الثالث فبعنوان " قواعد التخاطب ومبادئه عند كل من أبو هلال العسكري" و"ابن الأثير"؛ المطلب الأول: قوانين الخطاب(قاعدة الإفادة، قاعدة القصد، قاعدة الإخبار والشمول، قاعدة الصدق) والمطلب الثاني: مبادئ التخاطب(مبدأ الاقتضاء والمقولات البلاغية) التقديم والتأخير، الحذف).

يلي هذا الفصل الثالث تحت عنوان: الأفعال الكلامية عند كل من "العسكري(ت382هـ)" و"ابن الأثير (ت 637هـ)" تناولنا فيه ثلاث مطالب: المعاني النفسية و الفعل الكلامي، والمطلب الثاني: الأمر و النهي وشروطهما التداولية، المطلب الثالث: قراءة في نموذج الاعتذار والاستعطاف.

وانتهت هذه الخطة بفصل رابع خص للحديث عن الحجاج عند كل من "أبو هلال العسكري(ت382هـ)" و"ابن الأثير (ت 637هـ)" من خلال كتابيهما ؛ فللمبحث الأول بعنوان: "الحجاج من منظور بلاغي"؛ المطلب الأول: الألفاظ، المطلب الثاني: الصور البيانية (الاستعارة ، التشبيه ، الكناية والتعريض) ، و المطلب الثالث: الالتفات ، المطلب الرابع:التفسير بعد الإبهام، المطلب الخامس: في الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية والفرق بينهما ، المطلب السادس: الإطناب، المطلب السابع: التكرار.

أما المبحث الثاني:"الحجاج من منظور تداولي" بني عل مطلبين؛ تعرض المطلب الأول: لـ"الحجج المبينة للواقع(شاهد حال، الاستشهاد ، النموذج) والمطلب الثاني:"الروابط الحجاجية"(حروف العطف، حروف الجر). ثم ختم بخاتمة جمع فيها ما تم التوصل إليه من نتائج.

وقد اعتمدنا لنسج خيوط هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي القائم على عرض مسائل هذا الموضوع ثم مناقشتها وإثرائها انطلاقا مما قاله العلماء القدماء من جهة، ومما ذكره المحدثون من جهة أخرى، والإفادة من الطروحات المقدّمة في البلاغة والتداولية.

وإذا كان لا بد أن نذكر الجهود التي تناولت هذين الكتابين؛ فنقول ؛ لقد عثرنا على بعض الدراسات، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: "المقاييس البلاغية والأدبية والنقدية عند أبي هلال العسكري" لـ"بدوي طبانة"، و"صناعة الكتابة عند ضياء الدين بن الأثير" لـ"عبد الواحد حسن الشيخ، و"ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد" لـ"محمد زغلول سلام"، إلا أننا لاحظنا أن هذه الدراسات تدور حول جانب واحد من أبحاث الكاتب ولم تخرج عن الإطار التراثي الذي سار عليه القدماء، كما توجد مذكرة ماجستير لسامية بن يمينة بعنوان "الاتصال اللساني وآلياته

التداولية في الصناعتين لأبي هلال العسكري" إذ تعرضت للجانب التواصلية التداولية في الكتاب؛ و قد ساعدتنا على رسم الخطوط العريضة للموضوع؛ إلا أننا حاولنا في بحثنا هذا التركيز أكثر على المنهج التداولي وآلياته أكثر، كما عثرنا فيما بعد على مذكرة ماجستير بعنوان "الحجاج في المثل السائر"؛ وقد صمنا بعض ما جاء فيها في الجزئية الخاصة بالحجاج في كتاب المثل السائر.

كما استعنا في بحثنا بجملة من المراجع في التداولية أهمها: "المقاربة التداولية لـ"فرانسواز أرمينكو"، حيث ساعدنا هذا الكتاب على رسم وتكوين المشهد التداولي العام، والإلمام بالقضايا التداولية الهامة، فإن لم نفهم بعض المقاربات في هذا المجال أو مررنا على بعضها مرور الكرام، فليس ذلك سوى قصور منا على إدراك الشمول في مجال تشعبت فيه الرؤى وتزاحمت فيه الفلسفات والمناهج، فالثراء الشديد في المباحث التداولية قد يؤدي بنا إلى التشتت، ولتفادي ذلك حاولنا الوقوف فقط على ما رأيناه مناسباً للمدونتين، وقد ركزنا على المقاربات التي جاءت في الكتابين؛ مثلاً: برنامج هانسون الموحد للتداولية.. وسيتضح ذلك أكثر في ثنايا البحث.

ومن بين أهم الكتب التي بنى عليها البحث: كتاب "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم" وهو كتاب لفريق البحث في البلاغة والحجاج تحت إشراف "حمادي صمود"، حيث فتح لنا المجال للاطلاع على جميع النظريات الحجاجية، الأمر الذي ساعدنا على انتقاء النظرية التي تتماشى مع المدونة، وكتاب "مصنف في الحجاج: الخطابة الجديدة (Traité de l'argumentation- la nouvelle rhétorique) " لبييرلمان وتيتيكاه"، إلى جانب كتاب "اللسان والميزان أو التكوثر العقلي" لطفه عبد الرحمن".

ومن طبيعة البحث الأكاديمي مواجهة بعض الصعوبات التي حالت دون الوصول إلى الهدف المنشود؛ أولها؛ كون المدونتين مستقيضتان، بحيث وقفنا على جميع الأشكال البلاغية بكل تفاصيلها مما أدى بنا إلى أخذ وقت طويل من أجل استيعابها ودراستها؛ ثانيها؛ صعوبة ترجمة بعض المصطلحات خاصة المصطلحات البلاغية حيث نجد تعدد الترجمات للمصطلح الواحد.

كما لا يفوتنا في الأخير؛ التنويه بالجهود المضنية التي تكبدها معنا فضيلة الأستاذ الدكتور " أحمد بلخضر " الذي رعى بذرة هذا البحث وتعهدنا برعايته وعنايته حتى نمت وأينعت واستوت على سوقها، ونأمل أن تؤتي أكلها مرتين بإذن الله.

التصميم

التمهيد

قبل الشروع في دراستنا ارتأينا أن نوضح الأطر العامة لبعض المفاهيم؛ والتي تم تناولها في ثنايا البحث وأهمها الخطاب وتداخله مع مصطلحات أخرى كالنص..

1. الخطاب والنص (إشكالية المصطلح):

يعد مصطلح الخطاب من المصطلحات اللسانية التي لاقت رواجاً وتداولاً في العقود الأخيرة من القرن العشرين؛ فقد حظي بالاهتمام والدراسة من لدن الكثير من الباحثين والدارسين في مجالات معرفية مختلفة، ولا سيما بعد دخوله مجال «الدراسات الألسنية الحديثة التي تأثرت بها نظرية الأدب والنقد الأدبي مع ظهور تيار البنيوية في أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن الماضي وظهور التصورات والرؤى التداولية، ونظراً لهذا التعدد تباينت مفاهيمه وحدوده لدى الباحثين، ولعلنا لا نبلغ شططا في القول أن تلك الظروف والمعطيات قد أدلت بدلوها في غرس نوع من الغموض والخلط في عملية تحديد الإطار المفاهيمي له، ولعل ذلك قد كان هو سبب القول بأن "مفهوم الخطاب مائع ومتعدد الدلالات"¹.

وقبل الخوض في تعريفات الخطاب اصطلاحاً- وهي متاهة قد لا يسلم الباحث فيها من الإطالة والإطناب- لا بأس من توطئة تراثية تجول بنا في التعريفات اللغوية للخطاب؛ فقد ورد التعريف اللغوي للخطاب في المعاجم العربية؛ مثلاً عند "ابن منظور" (ت711هـ) لم يخرج في تعريفه لمصطلح "الخطاب" وتحديد مفهومه عن دلالة الكلام ومعاييره، وهو ما ذهب إليه كثير من علماء اللغة قديماً وحديثاً؛ إذ يقول: «الخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً، وهما يتخاطبان، والخطبة مصدر الخطيب، وخطب الخاطب على المنبر، واختطب يخطب خطابة، واسم الكلام الخطبة [...] وذهب أبو إسحاق إلى أن الخطبة عند

¹- ينظر: سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي " الزمن، السرد، التبئير، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1989، ص:20.

العرب:الكلام المنثور المسجع، ونحوه، وفي التهذيب: الخطبة مثل الرسالة التي لها أول وآخر، ورجل خطيب: حسن الخطبة»¹.

كما ورد لفظ "الخطاب" في القرآن الكريم بصيغ مختلفة؛ وبمعان تتراوح بين الدعوة والكلام البين الفاصل الذي لا لبس فيه أو القصد، أي الكلام الذي يلجأ إليه الإنسان، عندما ينفعل ويريد أن يقول ما بخاطره من أفكار وعواطف، فورد بعدة صيغ منها صيغة **الفعل** في آيات منها:

﴿قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾².

﴿وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطَبِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ﴾³؛ و تفسير كلمة الخطاب هنا ما أورده الزمخشري (ت538هـ) "في" كشافه" «ففي قوله تعالى: "وَلَا تُخَاطَبِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ" . وردت بمعنى: لا تدعني في شأن قومك»⁴. كما جاء بصيغة المصدر في ثلاث آيات وهي:

﴿قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَكْفَنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾⁵؛ و التفسير هنا شأنه شأن باقي الكتب والمعاجم؛ قد قرن الخطاب بالكلام كفعالية فردية ونشاط ذاتي يعتمد المتكلم في تعبيره عن أغراضه، و كذا الملاحظ أن الخطاب في هاته الآيات الكريمة أيضا؛ أتى بمعنى **الفهم** والإبانة عند التخاطب مع الآخر.

﴿قوله تعالى عن سيدنا داود عليه السلام : ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ

الْخِطَابِ﴾⁶، ففي تفسير هذه الآية عدّ "الرازبي (ت 606هـ)" صفة فصل الخطاب من الصفات التي أعطاها الله تعالى لداود معتبرا إيّاها من علامات حصول قدرة الإدراك والشعور، لأن

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مادة (خ ط ب) .

² - سورة الفرقان، الآية:63 .

³ - سورة هود، الآية: 37 .

⁴ - الزمخشري، الكشاف، المجلد 2، دار الفكر، بيروت، لبنان، د ط، د ت ط، ص: 268 .

⁵ - سورة ص، الآية: 23.

⁶ - سورة ص، الآية: 20.

فصل الخطاب عبارة عن كونه قادرا على التعبير عن كل ما يخطر في البال، ويخطر في الخيال، بحيث لا يختلط شيء بشيء¹، و يقول "الزمخشري": «فصل الخطاب هنا إما: البين من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به ولا يلبس عليه، أو الخطاب: القصد الذي ليس فيه اختصار مخل ولا إشباع ممل»².

﴿ وقوله عز وجل: ﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾³؛ وقوله عز وجل: "لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا"؛ أي لا يملكون أن يخاطبوه بشيء من نقص في العذاب أو زيادة في الثواب⁴.

وقد ورد لفظ الخطاب في كتب السلف؛ أيضا؛ فمثلا؛ عرفه "الأمدي" (ت 631هـ) بأنه «اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيء لفهمه»⁵، و عرفه "الجويني" (ت 748هـ) بقوله: «إن الكلام، والخطاب والتكلم، والتخاطب، والنطق، واحد في حقيقة اللغة، وهو ما به يصير الحي متكلمًا»⁶.

هذا غيض من فيض مما ورد في كتب التراث العربي من تعريفات للخطاب سقناها على سبيل الإيضاح والإبانة، أما مصطلح الخطاب في المعاجم الفرنسية فقد جاء بلفظ "Discours"، فالمعجم الفرنسي "Petite Larousse" مثلا عرفه على أنه «ملفوظ أكبر من الجملة، موجه لتوضيح وجهة نظر متعلقة به، ويعرف الخطاب في الفلسفة بأنه مجموعة من الملفوظات التي تبرهن على موضوع واحد تأسيسا على مجموعة من المعطيات»⁷؛ وعليه، يغدو الخطاب وفق هذا التصور ذا بعد طولي يرتكز على تراكيب تشتمل على مكونات أقل ما يقال عنها؛ أنها

¹ عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية الكتاب الجديد، ط2004، 1، ص ص: 34-35.

² الزمخشري، مرجع سابق، المجلد 3، ص: 365.

³ - سورة النبأ، الآية: (37)

⁴ - الزمخشري، مرجع سابق، مجلد 4، ص: 210.

⁵ - علي بن محمد الأمدي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1986، ج1، ص: 136.

⁶ - الجويني، الكافية في الجدل، تحقيق فوقيه حسين محمد، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1979، ص: 32.

⁷ - voir: Petit LAROUSSE ; LIBRARAIE LA ROUSSE, PARIS 6 ; 1980 ; P : 297

مكونات تركيبية تتجاوز الجملة الواحدة، كما أن هاته المكونات والوحدات اللغوية تدور حول فكرة جوهرية واحدة؛ أو مجموعة من الأفكار تتطوي على وجهة نظر أو تصور حول موضوع ما.

وقد أشرنا بداية؛ أن مفهوم هذا المصطلح خضع للتعدد نتيجة لتعدد مدارس واتجاهات الدراسات اللسانية الحديثة، و بهذا تضمن مفهوم الخطا ب أو جمع كل خصائص هذه الاتجاهات حتى استشكل تعريفه، أو حتى الوقوف على ميزات خاصة تميزه عن مصطلحات أخرى مثل: النص، لسانيات النص، والجملة وتحليل الخطاب، ولسانيات الخطاب...

وتبعاً لهذا التعدد سعى الباحث "إبراهيم صحراوي" في كتابه "تحليل الخطاب الأدبي"؛ أن يقدم دراسة ألفت بأصول هذا المصطلح وامتداداته؛ حيث يُرجع ظهوره في حقل الدراسات اللغوية إلى الغرب، أين نما وتطور في ظل التفاعلات التي عرفتتها هذه الدراسات، لا سيما بعد ظهور كتاب " فرديناند دي سو سير Ferdinand de Saussure " " محاضرات في اللسانيات العامة "؛ الذي تضمن المبادئ الأساسية التي جاء بها، وأهمها: تفرقه بين الدال والمدلول؛ و اللغة كظاهرة اجتماعية، و الكلام كظاهرة فردية، و بلورته لمفهوم "النسق" أو "النظام" الذي تطور فيما بعد إلى بنية. وبذلك تكون للخطاب جذور ضاربة في اللسانيات، إذ يستمد وجوده من ثنائية اللغة والكلام التي جاء بها " دي سوسير "، وقد تطور مفهوم هذين المصطلحين فيما بعد عند الدارسين و الباحثين اللغويين اللاحقين ليأخذ مفاهيم ومصطلحات أخرى لم تخرج عن إطار الثنائيات اللغوية « فصار المفهومان عند هيلمسلاف

Hilmselv (الجهاز، النص) (texte و système)، وعند نوام تشومسكي noam

chomsky (الطاقة، الإنجاز) (compétence performance)، وعند رومان جاكسون

Romane Jacobson (الدليل الرسالة) (code message)، وعند قسطاف غيوم

Gustave Guillaume (اللغة، الخطاب) (langue style)، وعند رولان بارت Rolan

Barth (اللغة، الأسلوب) (langue style) «¹، وحسب هذا الأخير فإن للخطاب جذورا في الأسلوبيات أيضا، سواء من وجهتها التراثية التي تُعنى بالبلاغة إلى جانب قواعد اللغة، أم من وجهتها الحدائثة التي دأبت على مراعاة النظام الصوتي والتركييب المورفولوجي، والبناء الدلالي، أي الملفوظ الذي يراه اللسانيون نصّا، ويراه النقاد في الحالات العامة خطابا.

ونستنج من هذا كله؛ أن نظرة اللسانيين إلى الخطاب - في البداية - كانت مرتكزة أساسا على النسق أو البنية التركيبية، و التي لا تدع مجالا إلى دخول معطيات خارجة عن النظام أو التركيب في صلب الإجراءات والآليات التي يقوم بها محلّ الخطاب، وذلك في أثناء محاولته تفسير الحقائق أو تحليل الوظائف أو دراسة المدلولات أو تفكيك الشفرات الموزعة على طول الخطابات، كما هو الحال عند "غيوم" - مثلا- الذي يعتقد أن مفهوم الخطاب يرتكز أساسا على بنيته التركيبية ذات الوحدات أو العناصر اللسانية المتوالية من الجمل².

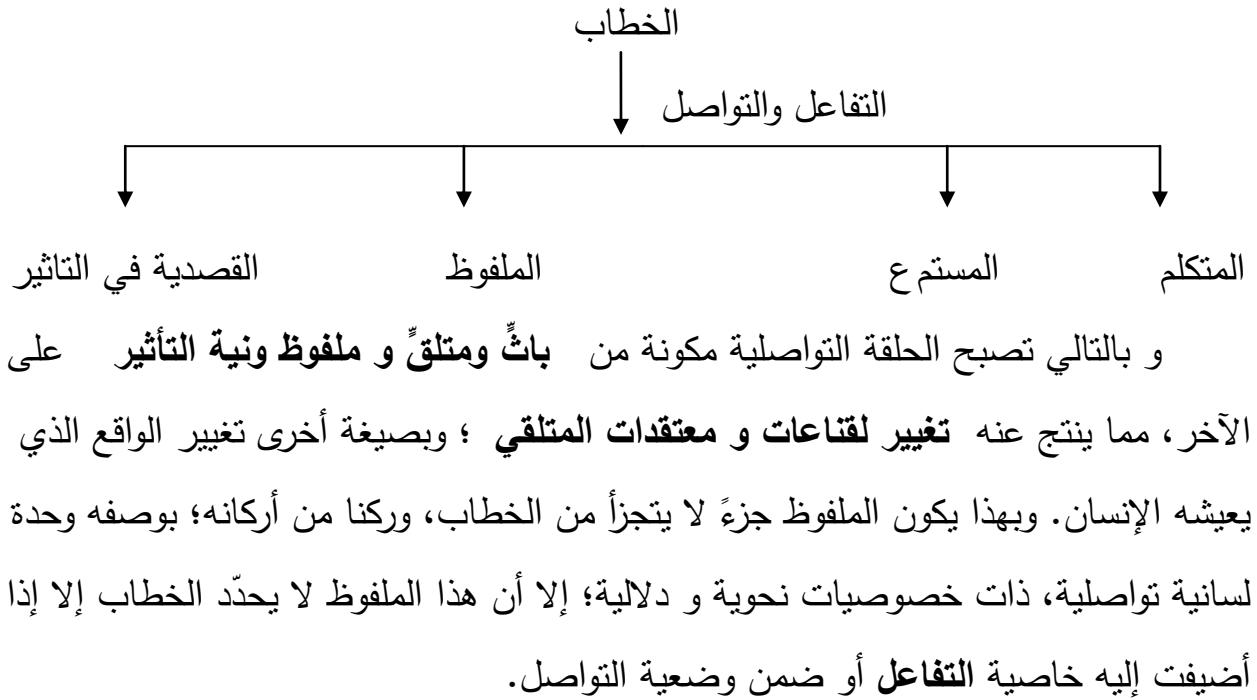
لكن من جهة أخرى نجد العالم اللغوي "بنفينيست Benveniste" ينظر إلى الخطاب نظرة مخالفة لبعض الرؤى اللسانية التقليدية - خاصة البنيوية منها- التي ركزت على مقارنة ودراسة الخطاب باعتباره جهازا نسقيا شكليا، مُفصِّيا كل ما له علاقة بالمعطيات والظروف الخارجية التي تحيط بالنشاط الإنتاجي للعبارات والألفاظ؛ إذ نظر "بنفينيست" Benveniste للخطاب على أنه ملفوظ منظور إليه من وجهة آليات وعمليات اشتغالية في التواصل؛ ومعنى ذلك أنه مرتبط بإنتاج ملفوظ ما بواسطة متكلم معين، في مقام معين، وهذا الفعل هو "التلفظ"؛ وبمعنى أكثر اتساعا فإن الخطاب « كل تلفظ يفترض متكلما ومستمعا وعند الأول نية التأثير على الثاني بشكل من الأشكال»³؛ وبهذا يكون مفهوم "التلفظ" "Enonciation" هو الفعل الذاتي في استعمال اللغة؛ وبالتالي الولوج إلى دراسة الكلام ضمن مركز نظرية التواصل ووظائف

¹ - رابح بوحوش، الخطاب والخطاب الأدبي وثورته اللغوية على ضوء اللسانيات وعلم النص، جامعة عنابة، الجزائر، 1999، ص:161.

² - Voir : Patrick Charaudeau, Dominique Maingueneau : Dictionnaire d'Analyse de discours : édition de discours ; édition du seuil ; paris ; VI^e ; 2002 ; P : 185 .

³ - Voir : Emile Benveniste , Problemes de linguistique generale 1,2 Gallimard , paris 1966, p:241 .

اللغة، وهو موضوع الدراسة وليس الملفوظ. وبالتالي لا يكون الملفوظ عنده خطابا حتى يستوفي شروط التخاطب ذات " البعد التفاعلي Interactionnel " ، ويمكن توضيح ذلك أكثر في المخطط التالي:

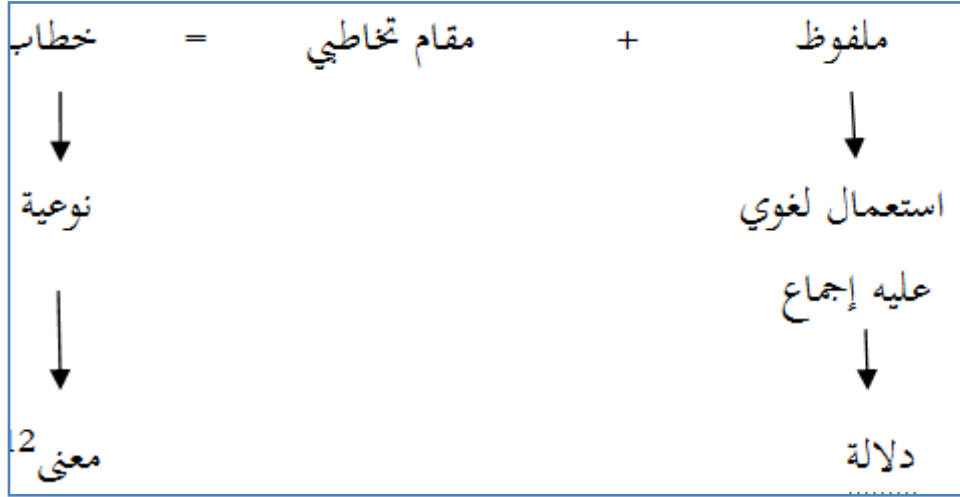


و لقد أدت جهود "بنفينيست" Benveniste هاته إلى تليين بعض المفاهيم والمصطلحات و المقولات الصارمة، إذ وضع «مكانة **للذات المتكلمة** بعدما أقصتها اللسانيات البنيوية، وفتح المجال واسعا لتشييد **اللسانيات الخطابية** ، حيث دعا إلى الأخذ بالحسبان تلك الوظيفة التي تروم بدور الوساطة في عملية التلطف، فتسمح بالانتقال من السنن إلى المرسله تاليا إلى الخطاب»¹.

وبذلك أعطى للخطاب اعتبارات مخالفة لتصورات اللسانية البنيوية التي كانت مهيمنة على مجال الخطاب واتجاهاته، من خلال إثبات الطبيعة الكلامية للخطاب؛ وهو نفسه ما دل عليه تعريف الخطاب لدى "شارودو p.charaudeau" وهو: « ما تكون من ملفوظ أو حديث في مقام تخاطبي، وأن هذا الملفوظ أو الحديث "Énoncé" يستلزم استعمالا لغويا عليه إجماع،

¹ - أحمد يونس، القراءة النسقية و مقولاتها النقدية، دار النشر، دط، 2001/2000، ص:68.

أي قد تواضع عليه المستعملون للغة، وأن هذا الاستعمال يؤدي دلالة معينة، ويمكن أن نبيّن ذلك في الخطاطة التالية¹:



و نستنتج من هذا كلّ أن الخطاب فعالية مشتركة في مبدأ الحوار باعتبار أن الظاهرة الأساسية في هذه الفعالية هي "الحوار"، أين يجسد كل من المتحاورين تنسيقاً محكماً في أقوالهما، حيث يؤخذ بعين الاعتبار في عملية التلفظ الخلفية الثقافية والدينية و الإيديولوجية، التي نستطيع بواسطتها إدراك مقاصد أقوالنا في الأخير.

إن هذه الأخيرة تفترض وجود إلحاح تلفظي اعتراضي موجه في الأساس إلى المخاطب ، الذي يستطيع في ظل هذا السياق بناء خطابه الخاص، الشيء الذي يجعل من الحوار لا يعد خطاباً بغاية الجودة، ولكنه شكل من أشكال الصنع²؛ وبذلك يكون الحوار مقابلاً للشكل العام للخطاب، كما أن الطبيعة الكلامية للخطاب يمكن أن تكون بالمشافهة أو بالكتابة.

أما "لينتش Litch" وزميله "شورت" chort « فيقران أن الخطاب وحدة تواصلية لسانية، يفترض وجود متكلم ومستمع لحظة إنتاجه، أي أنه فاعلية تواصلية هدفها تحقيق غاية

¹ - بشير إبرير، في تعليمية الخطاب العلمي، مجلة التّواصل، جامعة عنابة، الجزائر، ع 8، جوان، 2001، ص: 75.

² - Patrick charaudeau ,Domonique Maingueneau : Dictionnaire d 'Analyse de discours ,P-189 :188

اجتماعية»¹، ما يعني أن الخطاب وحدة لسانية تواصلية، تستلزم طرفين للتواصل، المتكلم (مصدر الخطاب) و متلقٍ (مستهلك الخطاب)، دون أن تتوقف ماهيته عند أحدهما، مع توفر الظروف الداخلية والخارجية المتعلقة بكل خطاب.

ونجد "طه عبد الرحمن" يحدّد مفهوم الخطاب بقوله: «إذ حد الخطاب أنه كل منطوق به موجه إلى الغير، بغرض إفهامه مقصودا مخصوصا»²، ولا يقصد بهذا المنطوق ما هو شفهي فقط بل كل ما أمكن التلفظ به، فالمكتوب أيضا كلام من الممكن أن يتلفظ به مشافهة³، ويضل الخطاب الحامل لقصد المخاطب وهدفه.

إذ يؤكد "طه عبد الرحمن" في طرحه لمفهوم الخطاب أنه يرتبط ارتباطا وثيقا بعملية الاتصال بالانطلاق من تحقيق الاقتراب أو الابتعاد، حيث يقول: «حد الخطاب أصل كل تعامل كائن ما كان، لكن ماهيته ليست مجرد إقامة علاقة تخاطبية بين جانبيين فأكثر، لأن هذه العلاقة، على قدرها وفائدتها، قد توجد حيث لا يوجد طلب إقناع الغير، بما دار عليه الخطاب، وقد يحصل الجانبيين القصدين المطلوبين في قيام هذه العلاقة، وهما قصد التوجه إلى الآخر وقصد إفهامه مرادا مخصوصا، من غير أن يسعى إلى جلب اعتقاد أو رفع انتقاد، ولا يزيد في يقين أو ينقص من شك، وإنما حقيقة الخطاب تكمن في كونه يضيف إلى القصدين التخاطبيين المذكورين قصدين معرفيين هما: قصد الادعاء وقصد الاعتراض»⁴.

فمن خلال هذا التحديد الذي صدر من "طه عبد الرحمن" نستشف بما لا يدع مجالا للشك أن الخطاب - حسب تصوره- يأخذ منحاً قصدياً، أي يقوم على البعد القسدي، وبالتالي فإن مفهوم الخطاب يبتعد عن تلك المفاهيم الشكلية التي أوكلت إليه.

¹ - نعمان بوقرة، المصطلح اللساني النصي، دراسة سياقية تأصيلية، ص: 235، عن ليندة قياس، لسانيات النص، النظرية والتطبيق، مقدمات الهمذاني أنموذج، تقديم عبد الوهاب، ص: 41.

² - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1998، ص: 36.

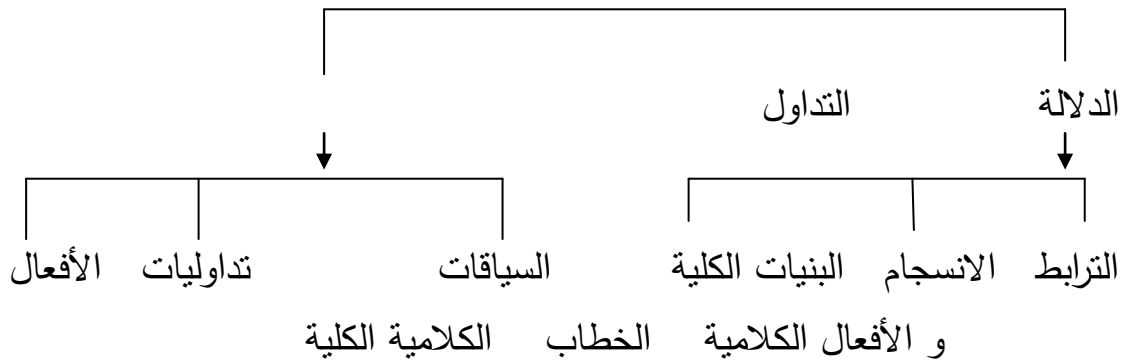
³ - المرجع نفسه، ص: 36.

⁴ - المرجع نفسه، ص: 225.

كما نستشف من كلامه؛ أن ماهيته أرقى من مجرد إقامة العلاقات التخاطبية بين أطراف عملية التواصل مع قصد التوجه إلى الآخرين (المخاطبين) وقصد إفهامهم مراداً معيناً، بل يتعدى الخطاب ذلك بتضمينه قصدين آخرين هما: **قصد الادعاء وقصد الاعتراض**¹.
 و قد حاول "سعد مصلوح" وضع تعريف شامل ووظيفي للخطاب في قوله: «رسالة موجهة من المنشئ إلى المتلقي تستخدم الشفرة اللغوية المشتركة بينهما، ويقضي ذلك أن يكون كلاهما على علم بمجموع الأنماط والعلاقات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية التي تكوّن نظام اللغة؛ (أي الشفرة) المشتركة، وهذا النظام يلبي متطلبات عملية الاتصال بين أفراد الجماعة اللغوية، وتتشكل علاقاته من خلال ممارستها كافة ألوان النشاط الفردي والاجتماعي في حياتهم»².

ولربما كان في هذا التعريف جمع بين قسمي الخطاب اللذين أوردهما "فان ديك" van dick في كتابه: النص والسياق، وهذان القسمان هما: الدلالي والتداولي، واللذان يردان في كتاب "محمد خطابي": لسانيات النص" هكذا:

الخطاب



¹ - شرح: قصد الادعاء: فمقتضاه أن المنطوق به لا يكون خطاباً حقا، حتى يحصل من الناطق صريح الاعتقاد لما يقول، تمام الاستعداد لإقامة الدليل عنه عند الضرورة.

قصد الاعتراض: فمقتضاه أن المنطوق به لا يكون خطاباً حقا حتى يكون للمنطوق له حق مطالبة الناطق بدليل على ما يعنيه الناطق. المرجع السابق: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص: 225.

² - نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دراسة في النقد العربي الحديث، تحليل الخطاب الشعري والسريدي، دار هومة للطباعة والنشر، ج2، ص: 16.

ويدعم هذا القول مفهوم "أحمد المتوكل" للخطاب إذ «يعد الخطاب كل ملفوظ /مكتوب يشكل وحدة تواصلية قائمة الذات»¹، حيث يمكن استقصاء ثلاثة أمور من هذا التعريف:

أولاً؛ تحديد الثنائية التقابلية جملة /خطاب حيث أصبح الخطاب شاملاً للجملة؛
ثانياً؛ اعتماد التواصلية معياراً للخطابية؛

ثالثاً؛ إقصاء معيار الحجم من تحديد الخطاب حيث أصبح من الممكن أن يعد خطاباً نص كامل أو جملة أو مركب...².

حيث يشير إلى أحد المصطلحات التي تتداخل مع مفهوم الخطاب ألا وهي "الجملة"، لكن ومما سقناه يتضح أن الخطاب مفهوم أوسع وأشمل من الجملة، وإنما يتحدد معناه على التلفظ أو العلاقة بين الطرفين: مخاطب ومخاطب « فالخطاب في هذا الفهم ذو طابع كليّ شموليّ، لا يتوقف على البعد اللساني وحده، ولا على البعد الاجتماعي والتاريخي الذي يعتبر النص انعكاساً لحركة الدلالة في التاريخ، كما لا يقتصر على البعد التداولي المعني بالتواصل في موقف محدد ولكنه يمازج بين هذه الأبعاد نظراً وتطبيقاً»³.

ويمكن إجمالاً الانتهاء إلى تعريف ذي صبغة ألسنية تداولية ؛ نحاول فيه الوقوف على وظيفة الخطاب وماهيته، وذلك حين يعتبر الخطاب « الملفوظ منظور إليه من وجهة آليات وعمليات اشتغاله في التواصل، والخطاب كل تلفظ يفترض متكلماً ومستمعاً، وعند الأول هدف التأثير في الثاني بطريقة ما»⁴.

وقد حاولنا هنا أن نكون مفهومنا شمولياً للخطاب بالتوفيق بين ما سبق إيراده، لأن تلك المحاولة على وجاهتها، قصد السبيل لإلمام مفاهيم أخرى لم يتسع المجال لذكرها أو هناك مفاهيم لم نتطع عليها، فترك الباب مفتوحاً لمجموع الآراء - من باب التحرز - أفضل من

¹ - أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية، منشورات الاختلاف، ط1، المغرب، 2010، ص:24.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص:24.

³ - محمد عبد الباسط، النص والخطاب قراءة في علوم القرآن، مكتبة الآداب، ط1، القاهرة، 2009، ص: 17.

⁴ - لطف الله الشلمي، تحليل الخطاب الروائي: المفاهيم و التناقضات، مجلة الراوي، ع 17، النادي الأدبي الثقافي، جدة 2007، ص:08.

حصر منهجي أن، غير أن مفهوم الخطاب يطرح انشغالا آخر عندما يتداخل مع مصطلح آخر وهو "النص". فما هي العلاقة التي تربط بينهما؟ وهل الخطاب هو النص؟ وما حدود تلاقيهما؟ وما الفرق بينهما؟.

2. الفرق بين الخطاب و النص:

يظل حديثنا عن الخطاب مرتبطا بشكل جدلي بمصطلح آخر يتداخل معه و يلتبس به، وهو مصطلح النص (texte) حيث نلاحظ نوعا من الخلط والالتباس بينهما، و لا بد من الإشارة هاهنا إلى أن محاولة الوقوف على حدود كل منهما وماهية كليهما وهو أمر قد حصل حسب أحد الباحثين « في الثقافة الغربية قبل انتقالهما إلى اللغة العربية عن طريق الترجمة، وإن كان يغلب في التقليد الأوربي استخدام النص على حين يغلب استخدام الخطاب في التقليد الأنجلوأمريكي، بيد أن التداخل بين النص والخطاب من حيث هما اصطلاحان محوريان وعلمان لسانيان، مما لم يحسم أمرهما في الأدبيات، فتستطيع عبارات مثل (خطاب النص) و (نص الخطاب) و (النص بنية خطابية) و (الأدب خطاب نصي) و (الخطاب النصي)... وغيرها، تستطيع أن تؤكد التداخل والتشابك بين هاذين المصطلحين »¹.

وقبل الخوض في المجال الاصطلاحي نعرض على الجانب اللغوي لكلمة "نص" قصد أن نستدرج المعنى من الناحية المعجمية، يقول "الفيروز آبادي" (ت 817هـ) في مادة (ن،ص،ص): « نص الحديث إليه رفعه، و - ناقتة: استخراج ما عندها من السير، و - الشيء: حركه، ومنه فلان ينص أنفه غضبا، وهو نصاص الأنف، و - المتاع: جعل بعضه فوق بعض..ونصص غريمه و ناصه: استقصى عليه وناقشه»².

¹ - محمد العبد، النص والخطاب و الاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط1، 2005، ص: 07.

² - مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، راجعه: أنس محمد الشامي و زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، دط، 2008، ص ص: 1615-1616.

ويقول "الفيومي" فيها «نصص: (نصصت) الحديث نصا من باب قل رفعته إلى من

أحدثه، ونص النساء العروس نصا رفعها وهي الكرسي الذي تقف عليه في جلأها»¹.

ونستنتج من هاذين التعريفين؛ أن النص يقصد به الرفع والإظهار، وبحسب ما ينقله لنا

"عبد القادر شرشار" فإن معنى النص بقي محصورا في الدلالة على الكتاب والسنة، بالإضافة

إلى دلالات أخرى: ك: نص الشيء رفعه وأظهره، ومصطلح نص القرآن ونص السنة؛ أي ما

دل ظاهر لفظها عليه من أحكام².

و النص في مفهومه الغربي من الناحية اللغوية « مأخوذ كما هو معلوم من اللاتينية)

(textus) وتعني النسيج»³.

وقد ورد في معنى لفظ (نص) (Text) ما ترجمته: «

-الجملة والكلمات نفسها المكتوبة (أو المطبوعة أو المنقوشة) أصلاً، الكتاب أو

المخطوطة أو النسخة التي تضم هذا.

-البنية التي تشكلها الكلمات وفق ترتيبها.

-مضمون البحث (حول موضوع ما)، الجزء الشكلي (أو الرسمي) المعتمد.

-الجملة والكلمات نفسها من الإنجيل.

-قطعة قصيرة من الأناجيل، يستشهد بها المرء كمصدر موثوق أو كشعار أخلاقي أو

كموضوع شرح أو موعظة أو حكمة أو بديهة أو مثل أو قول مأثور أو نصوص يستشهد بها

في استعمال لاحق ..يستخدمها المرء كاسم للكتاب المقرر الدراسي.

-عملية أو فن النسيج [الحبك] ، إنتاج نسيج محبوك، أي بنية طبيعية لها المظهر أو

التكوين النسجي، مثلاً نسيج العنكبوت.

¹ - أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير، مكتبة لبنان، بيروت لبنان، 1987، ص: 369.

² - ينظر: محمد الصغير بناني، مفهوم النص عند المنظرين القدماء، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد 12، ديسمبر، 1997، ص: 41.

³ - المرجع نفسه، ص: 42.

- تركيب أو بنية مادة أي شيء مع مراعاة عناصره التشكيلية المكونة أو الخصائص الفيزيائية ... للأشياء غير المادية، التكوين أو الطبيعة أو الخاصية الناجمة عن التركيب الفكري، كنسج خواص متنوعة.

- في الفنون الجميلة: تمثيل البنية وتحويل دقيق للسطح.

أما النصية فهي التمسك التام بالنص خاصة الأناجيل¹.

وفي الاصطلاح؛ يرى "ميشال آدم" *M. Michel Adam* " أن النص « وحدة التبليغ والتبادل، وليكتسب النص انسجامه وحصافته من خلال التبادل والتفاعل»².

وفي التفريق بين النص والخطاب يقول "رولان بارت" *Roland Barthes* " أن النص « يظل على كل الأحوال متلاحما مع الخطاب، فليس النص إلا خطابا، ولا يستطيع أن يتواجد إلا عبر خطاب آخر، بمعنى أن كل ما وراء الجملة يلتحق بـ(الخطاب) الذي هو علم معياري قديم وهو البلاغة»³.

ومنه فإن الباحث المتمعن الفاحص لهذا المجال من الدراسة، و الذي يحاول مقارنة المسائل المتعلقة بتحديد كل من النص والخطاب يجد نفسه أمام كمٍ معتبر من التصورات المتباينة فيما بينها، قد تصل أحيانا إلى درجة من التنافر و التناقض.

ونستطيع أن نقول أن أصحاب الدراسات اللسانية النقدية الحديثة ينقسمون في التفريق بين هذين المصطلحين إلى أربع فئات:

- فئة تقيم التفرقة بينهما على أساس تكاملي، باعتبار أن النص يمثل شكل العمل الأدبي أو بنيته السطحية الظاهرة، أما الخطاب فيمثل مضمونه العميق (البنية العميقة).

¹-voir : Webster's Third New International Dictionary of the English Language unbraided Merriam- Webster INC. Publishers Spring field, Massachusetts, U.S.A. P 2365-2366.

²- خولة طالب الإبراهيمي ، قراءة في اللسانيات النصية، مبادئ اللسانيات النصية جان ميشال آدم، مجلة اللغة والأدب، الجزائر، ع12، ديسمبر، 1997، ص:116.

³- ينظر: نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج2، دار هومة، الجزائر، د ط، د تط ، ص:31.

- وفئة ثانية أقامت التفريق على أساس ما بينهما من عموم وخصوص، أو على أساس اتفاقهما في شيء أو صفة واختلافهما في شيء أو صفة أخرى، أي هي تلك الفئة التي جعلت الخطاب مرتبط بالجانِب التركيبي، وجعلت النص مرتبط بالكتابة، مما ينتج عنه أن الخطابية مخصوصة متعلقة بعملية الإنتاج، والنصية خصوصية مرتبطة بعملية التلقي.
- وفئة ثالثة تفرق بين الخطاب والنص بالاعتماد على المظهر الكتابي الذي يتجلى به النص دون الخطاب، فاللغة الشفوية هي المعنية بالخطاب، بينما تتولى الكتابة إنتاج النصوص، ومن هؤلاء "بول ريكور" الذي كان يعتبر النص خطاب مثبت الكتابة.
- وأما الفئة الرابعة فهي تفرق بين النص و الخطاب بناء على ما بينهما من تداخل وخصائص مشتركة، ووفق هذه الرؤية فإن النص هو ما يظهره، ومن بين المنظرين لهذا الاتجاه "فان ديك" Van Dick " الذي كان يعرف الخطاب بأنه السياق التداولي للنص، وبالتالي فهو فعل الإنتاج اللفظي للنص، وثمرته الملموسة والمرئية¹.
- ولو خيّرنا بين أحد هذه الفئات؛ لاخترنا الفئة الأخيرة لأنها - برأينا - الأقرب إلى الصحة و الحقيقة، وبالتالي العزوف عن الاتجاهات والفئات الأخرى التي كانت تعتمد مبادئ وأساسات - نحسبها - غير كفيلة بعملية التفريق بين النص، وتظهر حجّة هذا المقتضى التصوري في أن "فان ديك" Van Dick " قد ركّز على الظاهرة اللغوية بالانطلاق من مظهرين (داخلي وخارجي) ، فالمظهر الداخلي يتمثل في المستويين (الصوتي Phonétique) و (التركيبي Syntaxique) ، هو مظهر متعلق بالنص أما المظهر الخارجي فيتمثل في السياق الثقافي والاجتماعي (Socioculturelle)، باعتبار أن « النظرية اللسانية تهتم بأنساق اللغة الطبيعية أعني تراكيبها المتحققة أو الممكنة التحقق، وبتطورها التاريخي وبمختلف أنشطتها الثقافية ووظيفتها المجتمعية وأسسها المعرفية، من شأنها تحديد نوع السلوك اللغوي ، كما يظهر

¹ - ينظر: عبد الواسع الحميري، الخطاب والنص "المفهوم، العلاقة، السلطة"، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 2008، ص:90.

هو ذاته في استعمال العبارة الكلامية اللفظية في كل موقف ومقام تواصلية»¹؛ كأن يكون الإنجاز أو السلوك اللغوي مناسباً لمقتضى الحال، في إطار السياق التواصلية، وبالتالي التوجه إلى قواعد تداولية واعتبارها بمثابة الضابط المركزي الذي يحكم عمليات الإنتاج الكلامية، بعبارة أخرى إن تحديد كيفية الاستخدام المنظم للكلمات المتلفظ بها في الخطاب يتم بالاعتماد على مبادئ تداولية.

كما يقدم "بشير إبيرير" مجموعة من الفروق التي يعتبرها بمثابة الحدود الفاصلة بين مفهومي النص والخطاب؛ وذلك بقوله: «يفترض الخطاب وجود متلقٍ لحظة إحداث الخطاب، بينما يتوجه النص إلى متلقٍ مؤجل يتلقاه عن طريق عينة قراءة؛ أي أن الخطاب نشاط تواصلية يتأسس - أولاً - على اللغة المنطوقة بينما النص مدونة مكتوبة.

- الخطاب لا يتجاوز سامعه إلى غيره؛ أي أنه مرتبط بلحظة إحدائه بينما النص له ديمومة الكتابة يقرأ في كل زمان ومكان.

- الخطاب تحدثه اللغة الشفوية، بينما النص تنتجه الكتابة، أو كما قال "روبار اسكاربيت R. Escarpit": «اللغة الشفوية تنتج خطابات بينما الكتابة تنتج نصوصاً، وكل منها محدد بمرجعية القنوات التي يستعملها الخطاب المحدود بالقناة النطقية أي المشافهة بين المتكلم والمخاطب، وعليه فديمومته بها لا تتجاوزها، أما النص فإنه يستعمل نظاماً خطياً، فديمومته رئيسية في الزمان والمكان»²، ووفق هذا الطرح فإن الميزة الأساسية التي تجعل النص يختلف عن الخطاب هو تميزه بالمظهر المادي الكتابي الذي يمنح النص صفة الديمومة بالنسبة للقراء، أما الخطاب فهو مرتبط بسامعه أي بمتلقيه المباشر لحظة إنتاجه ويكون عن طريق المشافهة.

¹ - فان ديك، النص و السياق (استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي)، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، ط 2000، ص: 17.

² - بشير إبيرير، من لسانيات الجملة إلى علم النص، مجلة التواصل، عدد 14، جوان 2005، ص: 93.

وبناء على المقتضيات التصورية السالفة و المتعلقة بمنح النص والخطاب تحديداً مفاهيمياً، يمكن إجمال بعض الخصوصيات المفاهيمية التي نعتقد بأنها كفيلة بوضع الحد الفاصل بين المفهومين:

- بالنسبة للنص: يمكن إجمال مميزاته الأساسية في:

هو مجموعة من الجمل البسيطة، أو المركبة التي تشكل خطاباً.

هو وحدة تواصلية تامة.

إن تحديد النص ينحو نحو إجراءات صياغة بنية الخطاب وقواعدها، أي إلى شكله ونظامه و العلاقات التي تربط أجزاءه الداخلية بعضها ببعض، وإلى الآليات التي تنظم العناصر داخل هذا الكيان اللغوي المسمى نصاً، بدون إغارة أدنى اهتمام إلى الوظائف التواصلية، وعلاقة المقال بالمقام، وربطه بعناصر التواصل.

كما يمكن اعتبار النص وحدة لغوية الخطاب ذات علاقات داخلية، ومكون من مكونات الخطاب.

- بالنسبة للخطاب: هو ذلك الانجاز اللغوي؛ سواء أكان جملة واحدة، أم كان أكثر من

جملة أو جزء من جملة فقط.

- يربط في الخطاب بين بنيته الداخلية وظروفه المقامية (أي بين المقام والمقال)

ومستعمليه (متكلم ومخاطب) ربط تبعية وتعلق، بمعنى أن بنيته لا يمكن أن تتحدد إلا وفقاً لهذه الظروف؛ أي أن البنية اللفظية خاضعة لوظائف المقام وظروف وحيثيات عملية التواصل؛ بصيغة أخرى: الانصياع لمبدأ الاستعمال.

- إن المبدأ الأخير (مبدأ الاستعمال) يفرض على المتكلم استعمال عبارات ملائمة لمقام

التواصل، كما يفرض على المخاطب أو المؤول لهذه العبارات الاعتماد والرجوع إلى المقام و الظروف المصاحبة لعملية التداول اللغوي(الخطاب) للوصول للدلالة الحقيقية المنطوية تحت البنية العميقة وبالتالي تحقيق الفهم الصحيح والناجح للصياغات اللغوية، بمعنى أن الخطاب

يُحيل « على عناصر السياق الخارجية في إنتاجه وتشكيله اللغوي، وكذلك في تأويله، مما يفترض معرفة شروط إنتاجه وظروفه»¹.

بالإضافة إلى هذا الطرح؛ يمكن أن نعتبر كل خطاب نصًا بالنظر إلى بعض مكوناته، وهي الآليات التي تشكل قوامه، إلا أن عكس المعادلة غير صحيح منطقيًا؛ إذ ليس كل نص خطابًا، لأن النص ينظر إليه باعتباره آليات بنيوية داخلية يبنى بواسطتها الخطاب، فهو يختلف عن النص باعتداده وتعويله على مكونات أخرى كأطراف وظروف التداول اللغوي؛ والتي تعتبر بمثابة الفضاء المبسوط للانجاز اللغوي الذي يتيح للفرد المتكلم التأثير في الآخر وتغيير الواقع وقلب العلاقات التواصلية عن طريق التفاعل، وبهذا احتل الخطاب مركزًا مهمًا في صلب نظرية التواصل ومقولاتها الكبرى.

كل هذه الاهتمامات توحى بأن **الخطاب هو: الكلام**، أو هو كل ما هو منطوق بعبارة أخرى، أما النص فهو ما يطلق على كل متتالية من الجمل ترتبط فيما بينها بعلاقة أو على وجه التحديد، تكون بين بعض عناصر هذه الجمل علاقات كأن يرتبط عنصر من جملة بعنصر وارد في جملة سابقة أو لاحقة لها، أو بين عنصر ومنتالية كاملة سابقة أو لاحقة². بالمقابل يكون الخطاب أيضًا سلسلة من الجمل المنطوقة، وهو بهذا لا يكاد يختلف الخطاب عن النص، وإن تجاوزه أكثر للدلالة على **الاستعمال والاستخدام الفعلي للغة**، بكونه ليس مجرد سلسلة لفظية بها قوانين لغوية، فهو كذلك يهتم **بالظروف المقامية**³.

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط 1، 2004، ص:39.

² - ينظر: محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز العربي للدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2006، ص:13.

³ - أحمد المتوكل: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان للنشر و التوزيع، الرباط، ط 1، 2001، ص:16.

وقد توسّع مجال اللسانيات النصية بتجاوزه دراسة الخطاب بعدّه نصاً إلى ربطه بالظروف المقامية والسياقية التي ورد فيها، وهذا يعد من صميم البحث التداولي ؛ وسنحاول الآن المرور للتعريف بالفكر التداولي؛ و بمصطلح التداولية و أهم قضاياها، وذلك قصد وضع الأرضية النظرية لهذا البحث.

الفصل الأول

الفكر التبادلي في الدرس الغربي
والدرس العربي الحديث

الفصل الأول: الفكر التداولي في الدرس الغربي والدرس العربي الحديث

المبحث الأول: الفكر التداولي في الدرس الغربي:

أولاً: التداولية؛ مفهومها، نشأتها وتطورها.

1. مفهوم التداولية:

- أ. المفهوم اللغوي
- ب. المفهوم الاصطلاحي
2. جذورها الفلسفية.
3. علاقتها بالتخصصات الأخرى.

ثانياً: أهم المقاربات التداولية في الدراسات الغربية:

I. برنامج "هانسون" الموحد.

II. البلاغة الجديدة عند "بيرلمان":

1. تقنيات الإقناع عند "بيرلمان".
2. مقومات الحجاج عند "بيرلمان".
3. العناصر البلاغية والأسلوبية كآليات عرض حاجية عند "بيرلمان".

III. التداولية المدمجة عند "ديكرو":

- أ. الحجاج في اللغة.
- ب. السلم الحجاجي.
- ج. الروابط الحجاجية.

ثالثاً: أهم القضايا التداولية:

1. الأفعال الكلامية
2. متضمنات القول
3. الاستلزام الحوارية

المبحث الثاني: الفكر التداولي في الدرس العربي الحديث:

- I. إشكالية الترجمة و المصطلح.
- II. نماذج عن بعض الدراسات التداولية في الوطن العربي.

الفكر التداولي في الدرس الغربي:

أولاً: التداولية؛ مفهومها؛ نشأتها وتطورها

1. مفهوم التداولية (La Pragmatiques): من البديهي ومن المنهجية

السليمة؛ أن نعرِّج على مفهوم "التداولية" اللغوي والمعجمي، ونبيِّن الجانب الذي يخدم و يوطئ للمعنى الاصطلاحي.

أ. المفهوم اللغوي:

تجمع جل المعاجم العربية على أن الجذر اللغوي لمصطلح التداولية هو الفعل الثلاثي "دول"، فقد وردت مثلاً في "مقاييس اللغة" على أصلين «أحدهما يدل على تحول الشيء من مكان إلى آخر، والآخر يدل على ضعف واسترخاء، فقال أهل اللغة: اندال القوم، إذا تحولوا من مكان إلى مكان. ومن هذا الباب، تداول القوم الشيء بينهم: إذا صار من بعضهم إلى بعض. والدولة والدولة لغتان. ويقال بل الدولة في المال والدولة في الحرب، وإنما سميا بذلك من قياس الباب، لأنه أمر يتداولونه، فيتحول من هذا إلى ذلك، ومن ذلك إلى هذا»¹.

كما جاء في "أساس البلاغة": «دالت له الدولة، ودالت الأيام بكذا، وأدال الله بني فلان من عدوهم: جعل الكثرة لهم عليه، والله يداول الأيام بين الناس مرة لهم، ومرة عليهم، ويقال: الدهر دول وعقب ونوب، وتداولوا الشيء بينهم، أي مرة لهذا ومرة لذاك والمأشي يداول بين قدميه أي: يراوح بينهما»². و "الإدالة": الغلبة، يقال: اللهم أدلني على فلان وانصرني عليه³؛ أي بمعنى اجعل الغلبة لي عليه.

¹ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام هارون، دار الجبل، ط2، ج2، ص:314.

² أبي القاسم جار الله محمد بن عمر بن احمد الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق، محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط1988، ج1، ص: 303.

³ إسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: احمد عبد الغفور عطار، دار الملايين، ط 4، 1990، المجلد4، ص:1701.

والملاحظ مما سبق أن مدار اللفظ "دول" هو التناقل والتحول، وقد اكتسب هذا المفهوم؛ أي: مفهوم التحول والتناقل من الصيغة الصرفية (تفاعل) التي تدل على تعدد حال الشيء؛ كأن ينتقل المال مثلا من هذا إلى ذاك، أو أن تكون الغلبة في الحرب مرة لهؤلاء ومرة لهؤلاء، أو أن يتحول القوم من مكان إلى مكان.

وإذا كان مفهوم التحول والتناقل يقتضي وجود أكثر من حال ينتقل بينهما الشيء فذلك أيضا حال اللغة باعتبارها نوعا من المساجلة بين طرفي العملية التواصلية أو نوعا من الاشتراك في تحقيق الفعل يقول "طه عبد الرحمن": «إن الفعل (تداول) في قولنا: (تداول الناس كذا بينهم)، ويفيد معنى تناقله الناس وأداروه بينهم»¹؛ حيث جعله بذلك مرادفا للفعل (دار) الذي من معانيه نقل الشيء وجريانه، نحو قولهم: دار على الألسن؛ جرى عليها².

ومن شواهد استخدام هذا المصطلح في القرآن الكريم، قوله تعالى في سورة الحشر: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ * وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا * وَاتَّقُوا اللَّهَ * إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾³، وبيانه: (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) أي: كي لا يكون ذلك الفيء (دولة) يتداوله الأغنياء منكم بينهم، يصرفه هذا مرة في حاجات نفسه، وهذا مرة في أبواب البر وسبيل الخير"⁴. وفيه أيضا، قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾⁵، وقد ذكر صاحب الكشاف بشأنها: «...نداولها: نصرفها بين الناس، ندبل تارة لهؤلاء؛ وتارة لهؤلاء، كقوله: وهو من أبيات الكتاب:

¹ - طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الرباط، المغرب، 1993، ص: 243.

² - المرجع نفسه، ص: 243-244.

³ - سورة الحشر، آية: 7.

⁴ - القرآن الكريم وبهامشه مختصر من تفسير الإمام الطبري للتيحني، مذيلا بأسباب النزول للنيسابوري، والمعجم المفهرس لمواضيع آيات القرآن الكريم لمروان عطية، قدم له وراجعه مروان سوار، دار الفجر الإسلامي، ط7 1995، ص: 546.

⁵ - سورة آل عمران، بعض الآية: 140.

فيوم-ا علينا ويوما لنا

ويوما نساء ويوما نسر»¹

وكل هذه المعاني تفيد التحول والانتقال من حال إلى حال أخرى، ويعود الفضل إلى للدكتور "طه عبد الرحمن" في وضعه هذا المصطلح - أقصد التداولية- كمقابل للمصطلح الأجنبي "Pragmatique" حيث يقول: « قد وقع اختيارنا منذ 1970 على مصطلح "تداوليات" مقابلا للمصطلح الغربي براغماتيقا، لأنه يوفي المطلوب حقه، باعتبار دلالاته على معنيي "الاستعمال" و "التفاعل" معا، ولقي رواجاً من ذلك الحين قبولا من لدن الدارسين الذين لأخذوا يدرجونه في أبحاثهم »².

ب. المفهوم الاصطلاحي:

لقد كانت سنة 1938 بمثابة الميلاد الأول لمصطلح التداولية على يد الفيلسوف تشارل موريس Charles Moris " الذي وزع دراسته للرموز اللغوية حسب المخطط الآتي: «الجانب النحوي (Syntax) ويعنى بعلاقة الرموز اللغوية بعضها ببعض، الجانب الدلالي (Semantics) ويعنى بالرموز اللغوية وعلاقتها بالأشياء التي تدل عليها، والجانب البراغماتي (Pragmatics) ويعني بعلاقته الرموز اللغوية بالمتلقي وبالظواهر النفسية والحياتية والاجتماعية والمرافقة لاستعمال هذه الرموز وتوظيفها»³. وما يهمنا بدرجة اكبر من هذا التعريف هو الشق الثالث منه، ولكن قبل الخوض في تعريفه ينبغي أن نشير إلى أن التداولية هي الترجمة العربية للمصطلحين الأجبيين الإنجليزي (Pragmatics) والفرنسي (la Pragmatique) على التوالي، حيث يقترن بهذا المصطلح في الفرنسية معنيان أساسيان " محسوس " وملائم " للحقيقة ⁴، أما في اللغة

¹ - الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعبون الأقاويل في وجوه التنزيل، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، (د-ت) ج2، ص: 435.

² - طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2000، ص: 28.

³ - شاهر الحسن، علم الدلالة السمانتيكية و البراغماتية في اللغة العربية، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان، ط 1، 2001، ص: 157.

⁴ - ينظر: عبد الحليم بن عيسى، المرجعية اللغوية في النظرية التداولية، دورية الدراسات الأدبية، ع 1، ماي، 2008، جامعة وهران، ص: 09.

الإنجليزية فإن كلمة تدل في الغالب على ما له علاقة بالأعمال والوقائع الحقيقية، وليس ترجمة للمصطلح الفرنسي (La Pragmatisme) لأن هذا الأخير يعني الفلسفة النفعية الذرائعية، بينما يعني الأول هذا الاتجاه التواصلية الجديد¹.

ويرجع أصل كلمة Pragmatique إلى الكلمة اللاتينية Praga، ومعناها الفعل (Action)، ثم أصبحت الكلمة بفضل اللاحقة تطلق على كل ما هو عملي أو واقعي². وما يهمنا هنا؛ في هذا المقام الضبط الاصطلاحي اللساني له، إلا أننا نلاحظ أن هذا الأخير صعب نوعاً ما، وينبغي أن نصرح بصعوبة الإلمام أو بالأحرى صعوبة إعطاء تعريف شامل ومحدد لهذا المصطلح، وهذا راجع في اعتقادنا لأسباب نذكر منها:

- حادثة هذا الحقل في المباحث اللسانية.

- تعالق وترابط هذا الاتجاه بغيره من المباحث اللغوية كعلم الدلالة الذي يتقاطع معه في مجال المعنى، و السيميائية في استثمار بعض العلامات غير اللغوية في التحليل التداولي، وكذا الأسلوبية التي استفادت من هذا الاتجاه وخاصة ما جاء به "أوستن Austin"، إضافة إلى استفادة التداولية من بعض فروع علم اللغة المهمة بالجانب الوظيفي كعلمي اللغة الاجتماعي والنفسي.

نشأتها غير القارة في مصدر معين من مصادر المعرفة الإنسانية فهي « تنتمي إلى علم اللغة كما تنتمي إلى علم النفس وعلم الاجتماع »³.

¹ - ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، بيروت دار الطليعة للنشر والتوزيع، ط 1 / 2005، ص: 15.

² - ينظر: قاموس أكسفورد الحديث لدراسة اللغة الإنجليزية، انجليزي-انجليزي-عربي، universit  presse 1998، ص: 577. و نوارى سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي، المبادئ والإجراء، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، ط 1، 2009، ص: 18.

³ - فان ديك، علم النص؛ مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة وتعليق سعيد حسن بحيري، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط 1، 2001، ص: 114.

تباين المنطلقات الفكرية والفلسفية للباحثين في هذا المجال ما أدى إلى تباين وتنوع

تعريفاتها، فارتبطت تارة بحقل نشأة التفكير التداولي، ومرة بحقل موضوعها ووظيفتها، وتارة بحقل علاقتها بعلوم أخرى.

بعد هيمنة مصطلح (التداولية) على دراسات الباحثين في هذا المجال، كمقابل عربي

للمصطلح الأجنبي (Pragmatique)، راح الباحثون على اختلاف منطلقاتهم يسوقون تعريفا

لهذا اللفظ، سنذكر منها - على سبيل المثال لا الحصر - فأول تعريف وضع لها على يد

"تشارلز موريس" (Charlis Morris) باعتبارها جزءاً من السيميائية وأحد مكوناتها، تهتم بدراسة العلاقة بين العلامات ومستعملها.

وقد تباينت تعريفات الباحثين لها فيما بعد؛ فقد عرفت على أساس التباين الموجود بينهما

وبين الدلالة فعدت «دراسة كل جوانب المعنى التي تهملها النظريات الدلالية، فإن اقتصر علم

الدلالة على دراسة الأقوال التي تنطبق عليها شروط الصدق Condition Truth، فإن

التداولية تعنى بما رواء ذلك مما لا تنطبق عليه هذه الشروط»¹، كما عدت فرعاً من فروع علم

اللغة يبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم؛ أو بعبارة أخرى دراسة معنى التكلم؛ مثلاً

إذا قال لك أحدهم: "هل هذه سيارتك؟". فليس بالضرورة أنه ينتظر منك الإجابة بنعم أو لا، فقد

يريد أن ينبهك لتبعد سيارتك من طريقه².

ولذلك قيل: «التداولية محاولة للإجابة عن أسئلة كالتالي: ماذا نصنع حين نتكلم؟ ماذا نقول

بالضبط، حين نتكلم؟ لماذا نطلب من جارنا حول المائدة أن يمدنا بكذا، بينما يظهر واضحاً أن

في إمكانه ذلك؟ فمن يتكلم إذن؟ وإلى من يتكلم؟ من يتكلم ومع من؟ من يتكلم ولأجل من؟

(...) كيف يمكننا قول شيء آخر غير ما كنا نريد قوله؟»³؛ أي كل ما يحف عملية التخاطب

و الاستعمال اللغوي.

¹ - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، (دط)، 2006، ص: 12.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص نفسها.

³ - فرانسوا أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي (د ت)، ص: 07.

وغير بعيد عن ذلك؛ نجد "ماري ديبر A.M.Diller" و"فرانسوا ريكانتي F.Licanati" يعرفانها بقولهم: «دراسة استعمال اللغة في الخطاب شاهدة على ذلك مقدرتها الخطابية»¹، وبناء على هذا فالتداولية تحاول الكشف عن المقدرة الإبلغية التي تحققها العبارة اللغوية، وتدرس بذلك دلالة اللغة في الاستعمال، فإذا أردنا أن نحلل هذا القول من أجل الوقوف على المقصود من هذا الحد؛ فإننا نسجل النقاط الآتية:

-التداولية علم يهتم بدراسة اللغة الإنسانية في الاستعمال.

-تسعى التداولية إلى الكشف في المقدرة الإبلغية التي تحققها العبارة اللغوية.

-التداولية بحث في الدلالات التي تفيدها اللغة في الاستعمال.

وهذا ما يجمعه تعريف "فرانسيس جاك F. Jacques" الذي يرى أن «التداولية تنطلق إلى اللغة كظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية معا»².

ومن التعريفات التي ركزت على فكرة الاستعمال؛ أيضا، نجد تعريف "جيف فيرستشيرن

Jef"؛ إذ يقول: «إننا لا نعني بالتداولية علم علاقة العلامة بمؤوليتها، فإنه من التمييز الدقيق

للتداولية أن تقول أنها تعامل مع الجوانب الحيوية لعلم العلامات، وهذا يعني كل الظواهر

النفسية والاجتماعية التي تظهر في توظيف العلامات»³.

وبالتمعن في التعريفات السابقة؛ نلاحظ أن كلها تجمع على أن (التداولية) تعني دراسة

اللغة في الاستعمال، وهذا يدل دلالة واضحة على وجود متكلم، ومستمع، وقناة تواصل، وهي

مكونات سياق الكلام الرئيسية، ولذلك نجد جل الباحثين قد أدركوا الأهمية الكبرى للسياق وأولوه

الدور الأساسي في تعريف التداولية، فقول: «التداولية هي دراسة جوانب السياق (Aspects of

¹ - المرجع السابق، ص: 8 .

(Δ): قسم المعنى عند بعض الباحثين إلى ثلاثة مستويات: المعنى اللغوي وهو المعنى المأخوذ مباشرة من دلالة الكلمات، ومعنى الكلام وهو المعنى المأخوذ من السياق، والمعنى الكامن أو المعنى المقصود وهو معنى المتكلم.

² - فرانسواز أرمينيكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، ص: 12.

³ - voir :Jef Verstchueren: understanding Pragmatics ; London, 1999, p: 1

(Context)«¹، وبتعريف أكثر اختصاراً؛ و انطلاقاً من علاقتها بالسياق؛ يمكننا اعتبار

التداولية هي «دراسة اللغة في الاستعمال Un Use أو في التواصل in interaction»².

ويدعم هذه الفكرة؛ ما جاء به " جاك موشلار J.Moechler " في القاموس الموسوعي

للتداوليات؛ حيث عرفها «بأنها دراسة الاستعمال اللغوي المقابلة لدراسة النظام اللساني الذي

يعد من اهتمامات اللسانيات بصفة خاصة»³.

ولعل محاولة الوقوف على تعريف موحد للتداولية يعدّ من الصعوبة بمكان؛ نظراً لتنوع

خلفياتها الفكرية والثقافية، فتعدّدت التعريفات بحسب تخصصات أصحابها، ومجالات

اهتماماتهم، فالتداولية تتجاوز الدّراسة البنيوية (السكونية) للغة إلى دراستها في سياق استعمالها،

ومراعاة كل ما يحيط من أحوال وما تخضع له من مقاصد المتكلمين، ولذلك عرّفها الباحث

"الجيلالي دلاش" بكونها «تخصّص لساني يدرس كيفية استخدام الناس للأدلة اللغوية في

صلب أحاديثهم وخطاباتهم كما يُعني من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث»

⁴، ثم يضيف محاولاً أن يقدم تعريفاً مجملاً للتداولية بتصريحه بأنها «لسانيات الحوار أو الملكة

التبليغية»⁵، لأنها تُعني بدراسة اللغة أثناء الاستعمال؛ وتهتم بعناصر التّخاطب و التّحاور

فتراعي قصد المتكلم ونواياه، وحال السامع وظروفه، وتبحث في شروط نجاعة الرسالة، وسلامة

الحوار بين المخاطبين وكل ما يحيط بهم؛ فالتداولية إذن تُعني بكل ما يتّصل بالعمل التّخاطبي

بحثاً عن المعنى، وضمناً للتواصل.

و معنى هذا؛ أن التداولية تهتم بدراسة المعنى الكامن في تداول الكلمات، بين متكلم

ومتلق في سياق محدد، وليس المعنى الكامن في الكلمات وحدها أو المرتبط بأحد مكونات

¹ - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 12.

² - المرجع نفسه، ن ص.

³ - voir :Jaque Moeschler ;Ane Reboul ;Dictionnaire de la pragmatique ;ed de suil,paris ;1994 ;p : 14

⁴ - الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1992، ص: 29.

⁵ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الرسالة اللغوية، أو بمعنى آخر فإن الدراسة التداولية لا تكتفي بالوصف والتفسير عند حدود البنية اللغوية أو المستوى الشكلي لها ؛ بل تتجاوز ذلك إلى مستويات أعمق، وأكثر استيعاباً للظاهرة اللغوية، بكل أبعادها التواصلية، ذلك أنها تدرس اللغة وعلاقتها بمستخدميها والمؤولين لها من جهة، كما تهتم بالبحث عن شروط نجاح هذه العلامات اللغوية في سياقاتها المختلفة من جهة أخرى ، مما يجعل منها "نظرية استعمالية" بالدرجة الأولى.

هذا باختصار مفهوم التداولية، لأن البحث المعمق في الجهاز المفاهيمي لهذا المصطلح يتطلب أو يستغرق رسالة كاملة ويؤدي بنا إلى الخروج عن الموضوع المطلوب، والهدف المرجو من البحث، وسنحاول فيما يلي أن نورد إطلالة سريعة على الجذور الفلسفية للنظرية التداولية.

2. جذورها الفلسفية:

بداية؛ لا أحد ينكر أن « البحث التداولي وليد الثقافة الأنجلوساكسونية Anglo-saxon، وقد تطورت في الولايات المتحدة و إنجلترا بسبب الدور الذي لعبته الاتجاهات التحليلية في الفلسفة، ومن جهة أخرى بسبب ما خلفته النظرية التوليدية في نموذجها الأول من مشاكل (إخفاق) نتيجة تمسكها باستقلالية التركيب l'autonomie de la santaxe، مما أدى بالتفكير بجد بالبعدين الدلالي semantique، ثم التداولي la pragmatique»¹.

وهي نفسها وجهة نظر "جيفري ليتش J.Leech" الذي يرى أن « في المنهج التداولي حلا لبعض المشكلات، من وجهة نظر كل من المرسل والمرسل إليه، فالمرسل يبحث عن أفضل طريقة لينتج خطابا يؤثر به في المرسل إليه، كما أن المرسل يبحث عن أفضل كيفية للوصول إلى مقاصد المرسل كما يريد لها عند إنتاج خطابها لحظة التلفظ، وهذه الإجراءات لا تتبلور عبر منظومة خوارزمية تجريدية كما هو الحال في النحو، بل عبر تقدير ذهني عام

¹ - مقبول إدريس، البعد التداولي عند سيبيويه، عالم الفكر، المجلد 33، العدد 1، سبتمبر 2004، ص: 245.

ومحتمل وفقا لعناصر السياق»¹، كما يصرح أيضا؛ بأننا «لا نستطيع فهم طبيعة اللغة ذاتها إلا إذا فهمنا التداولية»².

ومع تعدد مصادر الدرس التداولي، نجد أن لكل مفهوم من مفاهيمه الكبرى حقلاً معرفياً قد انبثق منه فالأفعال الكلامية؛ مثلا؛ منبثق من مناخ فلسفي عام، هو تيار "الفلسفة التحليلية" بما احتوته من مناهج وتيارات وقضايا، وكذلك مفهوم نظرية المحادثة الذي انبثق من فلسفة "غرايس Grice"³.

ويتقصي جذور التداولية؛ نجد أن المنبع الذي انبثقت منه؛ والذي كان بمثابة الأرضية التي بنيت عليها؛ يطلق عليه اسم: "الفلسفة التحليلية".

وقد تزعم هذا التيار أو التوجه الفيلسوف الألماني "غوتلوب فريجه Gottlob Ferge"

(1848-1925)، وذلك بما طرحه في كتابه "أسس علم الحساب" les fondements de

l'arithmétique، حيث ميّز بين اللغة العلمية واللغة العادية « فالأولى ضرورية في البرهنة

الحسابية، ويجب أن تكون أحادية المعنى صريحة ليس لها من هدف سوى وضع حقيقة، أما

اللغة العادية فيجب أن تكون متعددة المعاني كي تتمتع بثناء الممكنات التي تهيب لها تأدية

وظائفها التواصلية بالشكل الملائم»⁴، وكذا تمييزه بين مقولتين لغويتين هما: اسم العلم والاسم

المحمول اللذان يعدان عماد القضية الحملية، حيث بيّن في هذا الصدد أن المحمول يقوم

بوظيفة التصور؛ أي إسناد مجموعة من الخصائص الوصفية الوظيفية إلى اسم العلم، في حين

يشير اسم العلم إلى فرد معين، أو بعبارة أخرى فإن الوظيفة الأساسية لاسم العلم هي إشارته

إلى فرد معين، في مقابل الوظيفة الأساسية للمحمول وهي الدلالة على مجموع الخصائص أو

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب؛ مقارنة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص: 24.

² - عادل ثامري، التداولية ظهورها وتطورها: <http://daifimontadarabi.cim/t915-topic>

³ - ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب؛ دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، ص: 17.

⁴ - فليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة صابر حباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، اللاذقية،

2007، ص: 30.

بعضها، والتي تسند إلى اسم العلم، إضافة إلى هذا نجده قد ميز بين المعنى والمرجع أيضاً، وهذا التجديد اللغوي في الفلسفة إنما ينم عن رؤيته الدلالية، وبذلك أحدث قطيعة بين الفلسفة القديمة والفلسفة الحديثة¹.

ثم سار على درب "فريجه" G.Frege؛ الفيلسوف النمساوي "لودفيغ فيتغنشتاين" (Wittgenstein) (1889-1951)، والذي كان منتقداً لمبادئ الوضعانية المنطقية مؤسساً اتجاهاً جديداً سماه "فلسفة اللغة العادية"، التي أقرت - إن صح التعبير - بزئبقية المعنى، عند بحثها عن طبيعة هذا الأخير في كلام الرجل العادي؛ فوصلت إلى نتيجة مفادها أن المعنى ليس ثابتاً ولا محدداً، ودعت بذلك إلى تقادي البحث في المعنى المنطقي الصارم².

وهكذا اتخذت الفلسفة التحليلية "اللغة" موضوعاً للدراسة، باعتبارها الأداة المعرفية التي نستطيع بواسطتها فهم الكون فهماً صحيحاً، ضاربة بذلك ما جاءت به الفلسفة الكلاسيكية، وخاصة مبدأ اللغات الطبيعية، الذي لم تلتفت إليه هذه الأخيرة، ولم تله ما يستحق من الدراسة والبحث، وهو نفس المبدأ الذي اهتمت به الفلسفة التحليلية، والذي يعد من صميم البحث التداولي³.

وقد تأثر بهذا المنهج كل من "أوستين" Austin و"سيرل" Searle، وهما من الفلاسفة اللغويين الذين أسهموا في تطوير هذا الاتجاه، وإرساء دعائم الاتجاه التداولي، حيث مهدا لدراسة ما يسمى بنظرية "أفعال الكلام"، والمقصود بها الأفعال المحققة فعلاً من قبل مستعملي اللغة في مواقف لغوية محددة؛ حيث أتى "أوستين" Austin في هذا المجال بقسم ثانٍ من العبارات أطلق عليه اسم "العبارات الإنجازية" أو "الأفعال الإنجازية" (Act Performatifs) "في مقابل الأفعال الخبرية" (Act Constatifs)، متجاوزاً بذلك المسلمة التي كانت تعتمدها الفلسفة الوضعية المنطقية كمقياس وحيد للحكم على دلالة جملة ما، وهي مسلمة "الصدق والكذب"، أو بعبارة

¹ - ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، مرجع سابق، ص: 19-20.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص: 20.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص: 21.

أخرى فإن صدق الجملة من كذبها يتعلق بمدى مطابقتها للواقع فإذا قلنا؛ مثلاً: " الجو حار "؛ فإن هذه الجملة صادقة في حال واحدة هي حرارة الجو واقعا، أما في غير ذلك فهي كاذبة.

وبذلك أثبت "أوستين Austin" بأن دلالة الجملة في اللغة العادية ليست بالضرورة إخباراً، ولا إحالة دائماً على واقع فتحتمل الصدق أو الكذب، بل إنها تقاس في الدرس التداولي بدرجة

الإخفاق أو التوفيق¹، والعبارات أو الأفعال الإنجازية هي « التي تحض على فعل أو تنهى عنه،... أو التي ترد أوصافاً لأحداث، وميزتها هو أن تلفظاً إنما ينجز الحدث الذي تصفه»².

والأمثلة على الأفعال الإنجازية كثيرة؛ نذكر منها على سبيل التوضيح: أفعال العقود؛

مثل: بعت، و اشتريت، وكذلك: أهب وأوصي، فإذا قال لك أحدهم؛ مثلاً: " أعدك بالزيارة غداً إن شاء الله "؛ فالفعل (وعد) يعني إنجاز فعل في الواقع هو (الزيارة).

كما أنه إذا قال أحدهم في جلسة عقد قران: "أقبل بها"، فإن قوله هذا يطابق القول: "أخذ هذه المرأة زوجة لي"، وكذلك الحال بالنسبة لبعض الأقوال من مثل: " بعتك بيتي "؛ فالملاحظ على

هذه الأفعال أنها أفعال إنجازية مباشرة، صريحة واضحة الدلالة حيث جعل الخبر في صيغة الخبر، غير أن هناك أفعالاً إنجازية أخرى ترد في غير صيغها، كأن يرد الطلب في صيغة

الخبر في مثل؛ قول الأستاذ وهو يدخل حجرة الدرس: " الجو خانق "؛ فيهم أحد الطلبة مثلاً؛ لفتح النافذة دون أن يطلب منه، أو أن يقول الأستاذ لبعض الطلبة المشاغبين: "الباب مفتوح".

وقد تبلورت فكرة أفعال الكلام هذه واتضحت أكثر على يد تلميذه "سيرل Searle"، الذي

أعاد تقسيم الأفعال اللغوية وميز بين أقسامها، كما كانت لـ"غرايس Grice" مساهمة في تطوير ذلك من خلال بحثه في قضية " الاستلزام الحواري "، من خلال محاضراته التي كان

يلقيها في جامعة (هارفارد) عام 1967؛ منطلقاً في ذلك من نقطة مفادها أن الناس في

¹ ينظر: فان ديك، علم النص؛ مدخل متداخل التخصصات، مرجع سابق، ص: 118.

² خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، ط1، 2009، ص ص: 90-91.

حواراتهم قد يقصدون أكثر مما يقولون ، وقد يقصدون عكس ما يقولون ¹ ، واضعاً بذلك حدوداً بين ما يقال What is said وما يقصد What is meant ، أو ما يطلق عليه: المعنى الصريح و المعنى الضمني، من خلال "مبدأ التعاون principale Co-operative" هذا الأخير الذي تحكمه أربع قواعد.

سنحاول الإطالة على هذه القضايا في الصفحات القليلة القادمة، و هذا باختصار المناخ الفلسفي الذي نشأت فيه التداولية، وكما ذكرنا سابقاً؛ فقد ساهمت علوم واختصاصات كثيرة في رسم المعالم الكبرى لهاته النظرية المترامية الأطراف؛ و سنحاول فيما يلي توضيح علاقتها ببعض التخصصات الأخرى.

3. علاقة التداولية بتخصصات أخرى:

أ. علاقتها باللسانيات البنوية:

بعد التقسيم الثلاثي للظاهرة اللغوية الذي أجراه عليها " دوسوسير Saussure " (لسان، لغة، كلام)، وحصره موضوع الدراسة في اللغة دون الكلام، فإن جل الدارسين عند حديثهم عن العلاقة بين التداولية واللسانيات البنوية يشتركون في قولهم أن التداولية مكمل للبنوية ، لأنها تهتم بالكلام الذي هو غير اللسان المبعد من مجال دراسة علم اللسان في نظر "دوسوسير Saussure"، وذلك يتضح من قوله: «اللغة تختلف عن الكلام في أنها شيء يمكن دراسته بصورة مستقلة»².

ومعنى هذا أن اللسانيات البنوية تهتم أساساً بدراسة نظام اللغة ؛ دون الاعتداد بنوايا المتكلم ولا بسياق الكلام، ويذهب " دوسوسير " كذلك إلى عد اللغة ظاهرة اجتماعية؛ فهي: «مجموع كلي

¹ - ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص:33.

² - فريدنار دوسوسير، علم اللغة العام، ترجمة: يونيل يوسف عزيز، مراجعة النص العربي مالك يوسف المطليبي، دار الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيت الموصل بغداد، 1988، ص:33.

متكامل كامن ليس في عقل واحد، بل في عقول جميع الأفراد الناطقين بلسان معين»¹؛ واللغة حسب هذا التعريف؛ ما هي إلا نظام يمثل في الأصل الذاكرة الجماعية، لما يحتويه من علامات لا يستطيع الفرد أن يخترنها في دماغه، وإنما تتكامل بضم جماعة من الأفراد يربطهم لسان موحد، إذ « إن اللغة توجد على شكل معجم تقريبا، حيث تكون النسخ المتماثلة موزعة بين جميع الأفراد ... و هي لا تتأثر بإرادة المبدعين، ويمكن صياغة نمط وجودها بهذا الشكل: 1+1+1+1.....= ا (نموذج جمعي)»²؛ فاللغة إذن؛ كنز جماعي من الوحدات والقوانين التي لا يمكن للفرد أن يحيد عنها، أما التغيرات التي تطرأ عليها، فهي نتاج التغيرات التي يحدثها الأفراد في الكلام.

وعليه فالكلام عند "دوسوسير Ferdinand de Saussure" نشاط فردي، وهو مطابق لمفهوم الأداء عند "تشومسكي Chomsky"؛ أي «الاستعمال الفعلي للغة في المواقف الحقيقية»³، وعلاقة هذا الاستعمال بالأفراد الناطقين للغة يعد من صميم البحث التداولي، ذلك أن التداولية «هي إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي، والتفوق على القدرات الإنسانية للتواصل البشري، وتصير التداولية من ثم جديرة بأن تسمى (علم الاستعمال اللغوي)»⁴، ولذلك عدت التداولية لسانيات كلام، في مقابل لسانيات اللغة التي أرسى دعائمها "دوسوسير Saussure" في محاضراته.

غير أن ما ينبغي التنبيه إليه في هذا الصدد؛ هو أن حصر التداولية في مفهوم "لسانيات الكلام" قد يحصر حدود التداولية، كما أن الكلام ليس معزولاً عن اللغة إلا افتراضاً، لأن هذه الأخيرة لا تتحقق إلا في مستوى الكلام؛ أي أن الكلام مظهر من مظاهر تحقق اللغة

¹ - أحمد مؤمن: اللسانيات: النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية - بن عكنون - الجزائر، ط 2008، ص:123.

² - المرجع نفسه، ص نفسها.

³ - المرجع نفسه، ص: 210.

⁴ - voir :Katherine Karbrat- Orchéoni « Ou en sont les acts de langage ?» in l'information gramaticale, paris, 1995, N°66,P:5

واستخدامها واستعمالها، وهنا تبرز جلياً العلاقة بينهما، مما يفرض ضرورة اللجوء إلى دراسة متكاملة للظاهرة اللغوية ببعديها الاجتماعي والفردي، وهنا تكمن صعوبة التمييز بين ما هو بنيوي وما هو تداولي، لأن اللسانيات علم يشتمل على عدد كبير من النظريات المترابطة، بما فيها النظريات التداولية، فإذا أردنا أن نحلل جملة ما تداولياً لا بد لنا أن نعتد قبل ذلك ببنييتها اللغوية.

ب. علاقتها بعلم الدلالة:

سيقت تعريفات عديدة لعلم الدلالة منها: «هو علم دراسة المعنى، أو هو ذلك الفرع من علم اللغة الذي يهتم بدراسة المعنى، أو هو فرع من علم اللغة يدرس العلاقة بين الرمز اللغوي ومعناه»¹، وكانت التداولية هي: «دراسة كيف يكون للمقولات معان في المقامات التخاطبية»²، ما الفرق بينهما إذن؟.

يمثل علم الدلالة أحد فروع علوم اللسان و اللسانيات الحديثة؛ والتي لها علاقة بالتداولية - كما ذكرنا سابقاً - بذلك فهو علاقة بالتداولية؛ إذ أن كلا من علم الدلالة والتداولية يدرس المعنى في اللغة، على الرغم من وجود بعض الاختلافات في دراسة المعنى؛ إذ التمييز « بين السيمانتيكية³ والبرجماتية⁴ ينطوي على ظلال رمادية في التطبيق العملي حيال تحليل المعنى الذي تؤديه اللغات، وهما وإن اشتركا في الموضوع (دراسة المعنى) فقد يختلفان في العناية ببعض مستوياته»⁵؛ أي أن اشتراك كل من التداولية والدلالة في موضوع دراسة المعنى يضيفي

¹ خليفة بوجادي، محاضرات في علم الدلالة مع نصوص وتطبيقات، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، ط1، 2009، ص:24.

² محمد يونس علي، مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، دار الكتب الجديد، بيروت 2004، ص:13.

³ السمانتيكية: علم الدلالة.

⁴ البرجماتية: التداولية.

⁵ شاهر حسن، علم الدلالة السيمانتيكية والبرجماتية في اللغة العربية، دار الفكر، الأردن-عمان، ط 1، 2001، ص

ص:159-160.

كثيراً من الغموض، حيال تحليل المعنى الذي تؤديه اللغات، لأن هناك من الدارسين من يجعل التداولية امتداداً للدرس الدلالي؛ على نحو ما يذهب إليه "لاترفاس"¹.

إلا أن التداولية وعلم الدلالة يختلفان في مستويات المعنى التي يركز عليها كل منهما؛ فمثلاً « المعاني اللغوية ومقاصد المتكلمين (أو مراداتهم) وثيق الصلة بالفرق بين علم الدلالة وعلم التخاطب²؛ فالمعاني اللغوية (التي هي معانٍ وضعية تفهم من مفردات اللغة وتراكيبها) تنضوي في إطار اهتمامات علم الدلالة، لأن استنباطها لا يحتاج إلى عناصر خارج البنى اللغوية، أما مقاصد المتكلمين فلا يمكن التوصل إليها إلا بمعرفة السياقات التي قيل فيها الكلام ومعرفة المخاطب، والمخاطب، وإعمال القدرات الاستنتاجية التي يمتلكها المخاطب عند التعامل مع الكلام»³.

ويمكن أن نميز الفرق بينهما؛ أيضاً من خلال فكرة (الكفاءة) و (الأداء)، حيث يصنف علماء اللغة علم الدلالة ضمن القدرة أو الكفاءة، أما التداولية فتصنف ضمن الأداء، أو بمعنى آخر؛ فإن الدلالة تهتم بدراسة المعنى، بينما تبحث التداولية في سبل استخدامه، مثلاً في الجملة: " في هذه الغابة نئاب ماكرة"؛ فالمعنى الحقيقي لهذه الجملة أن هذه الغابة حقيقة و بها نئاب مفترسة حقا، غير أن مفهوم هذه الجملة قد يتجاوز الحقيقة إلى المجاز، ويؤدي أيضاً معنى التحذير ، كأن يخبر أو يسرب أحد العارفين بشؤون السياسة هذه الجملة للرئيس مثلاً تحذيراً له، وتنبهياً لأجل إعادة النظر في من حوله من ساسة.

¹ - خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية، ص: 128.

² - علم التخاطب: يقول الدكتور محمد محمد يونس علي: إن استعمال اللغة هو التخاطب بها، وهذا ما يسوغ لنا ترجمة اسم العلم المعروف في اللسانيات الغربية Pragmatics بعلم التخاطب، لكون معناه الحرفي - كما يذكر اللسانيون: دراسة الاستعمال the study of use . ينظر: محمد محمد يونس علي، مقدمة في علم التخاطب الاسلامي - دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص، دار المنار الاسلامي، ط 2006، 1، ص: 08.

³ - محمد محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات، دراسة الكتاب الجديد المتحدة، ط 1، 2004، بيروت لبنان، ص ص: 19-20.

يمكننا أن نقول بصورة أدق؛ بأن الدلالة تبحث في المعنى بعيداً نوعاً ما عن السياق الحقيقي، لترتبط التداولية دراسة المعنى **بالسياق** الذي يرد فيه، وهذا التمايز لا يعني استقلال أحدهما عن الآخر بقدر ما يعني تكامل الجانبين.

ج. علاقتهما بالنحو الوظيفي:

يعد النحو الوظيفي أهم رافد للدرس التداولي؛ بل هناك من الدارسين من جعل التداولية امتداداً للوظيفية¹، من منطلق أن خصائص البنيات اللغوية تتحدد انطلاقاً من ظروف استعمالها.

وقد أرسى دعائم هذا النحو الباحث الهولندي "سيمون ديك"؛ من خلال كتابه "النحو الوظيفي (grammar functional)"، والذي ضم مجموعة من الأبحاث مست مجال الدلالة، والتداول والمعجم والتركيب في لغات مختلفة، وبذلك أسس لنظرية لسانية احتلت مكانة علمية متميزة بين النظريات اللسانية المعاصرة بصفة عامة، والنظريات النحوية على وجه الخصوص؛ بحيث أصبحت الوريث الشرعي للنظريات النحوية الوظيفية، ونموذجاً أكثر توسعاً من النظرية النحوية التوليدية.

ولا يخفى على أي باحث في مجال التداولية أو النحو الوظيفي؛ ما قدمه الدكتور "أحمد المتوكل" من بحوث في هذا المجال، من خلال رسوخ قدمه في التراث اللغوي العربي، وحسن استيعابه للنظريات اللغوية الحديثة، مكنت من اغناء الدراسات النحوية العربية بمصطلحات حديثة، تكاملت في إطار نظرية رشحت أكثر من غيرها لتكون رؤية معاصرة للنظرية النحوية القديمة ومكملة لأسس البحث في هذا المجال اللغوي². و هذا النحو الذي أسسه "سيمون ديك" وطوره "أحمد المتوكل" بالشرح والتفسير - كما سبق الذكر - يجمع بين المقولات النحوية، وبين ما

¹ - ينظر: أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1985، ص:8.

² - ينظر: يحي بعيثش، نحو نظرية وظيفية للنحو العربي، أطروحة دكتوراه في اللسانيات الوظيفية الحديثة، إشراف عبد الله بوخلخال، كلية الآداب واللغات جامعة منتوري، قسنطينة، 2006، ص:77.

عرضته نظرية أفعال الكلام¹، ولذلك يمكننا القول أن النحو الوظيفي بمثابة نظرية موسعة؛ تكامل فيها النحو و اللسانيات التداولية.

د. علاقتها باللسانيات التعليمية:

يبدو أن تصريح "تشومسكي Chomsky" بقوله: «إن اللسانيات لا تقدم أي شيء لتعليمية اللغات»²، والذي فاجأ به معلمي اللغات في ملتقى الولايات المتحدة الأمريكية، قد أزيل من الوجود، ودليل ذلك الثراء الكبير الذي عرفته التعليمية في العصر الحديث استناداً إلى مقولات اللسانية، وبخاصة اللسانيات الاجتماعية، بحيث تجاوز التعليم مبدأ تلقين البنى اللغوية إلى الممارسة الميدانية التي تسمح للمتعلم بالتعرف على قيم الأقوال، ودلالات العبارات في مجال استخدامها، وأغراض المتكلم ومقاصده التي لا تتضح إلا بربطها بسياقات استعمالها، وبهذا عد البعد التداولي أحد منابع العملية التعليمية، إذ بفضلها تجاوز التعليم -كما سبق الذكر- مهمة التلقين إلى مهمة التحصيل وذلك بالاختصار على تعليم المتعلم ما يحتاج إليه، مبتعداً قدر الإمكان عن الأساليب والشواهد التي تثقل ذهنه.

وهذا ما يؤكد "الجيلالي دلاش" بقوله: «هناك شعار واحد يشغل أهل هذا الاختصاص الملكة والتبليغ: أي تزويد المتعلم أو المتعلمين بالأدوات التي تمكنهم من التحرك بواسطة الكلام تحركاً يلائم المقام والمقاصد المراد تحقيقها، إن الأمر لم يعد يتعلق بتلقين بنية نحوية معينة، بل إنه يتعلق بتوفير الوسائط اللسانية التي تسمح للمتعلم بإجراء اختيار بين مختلف الأقوال، وذلك بحسب المقام»³؛ و الظاهر من هذا القول؛ أن اللسانيات التداولية قد ساهمت بشكل كبير في صناعة التعليم، وذلك بدعوة "الجيلالي دلاش" إلى ضرورة استثمار القواعد والقوانين اللغوية حسب ما تتطلبه المواقف الكلامية؛ أي أن هذا الأخير؛ قد أعطى الأولوية والأسبقية لمفهوم

¹ ينظر: أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص: 09.

² أحمد حساني، دراسات في اللسانيات التطبيقية، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية - بن عكنون -، الجزائر، ص: 134.

³ الجيلالي دلاش، محاضرات في اللسانيات التداولية، ص: 46.

التبليغ على اللغة؛ حيث يقول: « لقد بات أساسيا توسيع مجال المكتسبات من جهة وقلب ترتيب الأولويات من جهة أخرى، ذلك لأن مفهوم التبليغ هو الذي يجب أن يكون الأسبق والمحرك، وليس اللغة، لأن الاهتمام بالمتعلم يعني الاعتراف الكلي بأن هدفه هو التبليغ لا أحكام اللغة وحثقها، و أن هذا الوجه الأخير ليس سوى وسيلة وليس غاية في حد ذاته، ووسيلة واحدة ضمن وسائل أخرى»¹، وهي دعوى صريحة منه إلى تجاوز تدريس أنماط الترميز (القواعد اللغوية) إلى تدريس أنماط التأطير؛ أي الاهتمام بالملكة التبليغية للفرد المتكلم.

هـ. علاقتها باللسانيات النفسية والاجتماعية:

نبدأ بمثال؛ قد يدخل أحد إلى الغرفة؛ فيقول: "الجو حار اليوم"؛ فيهم أحد الجالسين فيها بفتح النافذة، إن استجابة هذا الفرد تستند إلى سرعة البديهة، وقوة الذاكرة، وبعض جوانب الطبع، فعلى الرغم من أن المتكلم لم يطلب إلى سامعه فتح النافذة، إلا أن هذا الأخير فهم قصد المتكلم، وكل هذا؛ يندرج فيها يسمى **بملكة التبليغ** الناتجة عن الموقف الكلامي، وهذا التواصل بين الطرفين وفهم مقاصد بعضهم يعد بعداً تداولياً، ولذلك نقول أن التداولية تعتمد في درسها على مقولات اللسانيات النفسية، ولا دليل على ذلك خير من "نظرية الملاءمة" أو ما سميناه سابقاً "مبدأ التعاون"؛ فإيراد الخطاب بالكم المطلوب، والكيف المناسب نابع من شخصية الفرد وهو بعد نفسي تداولي.

أما عن علاقتها باللسانيات الاجتماعية فيمكن أن يؤرخ لها بظهور المدرسة الاجتماعية اللسانية بزعامة "فيرث" Firth، الذي تأثر بنزعة "دور كايم" الاجتماعية للغة، هذه المدرسة التي نشأت كرد فعل على اللسانيات البنوية التي أبعدت المكون الاجتماعي عند التحليل اللغوي، حيث وجدت صداها ضمن ما يسمى باللسانيات التداولية، فلكي نقوم بتحليل اللفظ ضمن السيرورة الاجتماعية، لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار الاهتمامات المنطقية والفلسفية فضلا عن مفهوم البراغماتية، فإذا سمعنا مثلا عبارة: "الطقس حار"؛ من غير معرفتنا طبيعة الظروف

¹ - المرجع السابق، ص ص: 48-49.

التي قيلت فيها، فإننا نفهم لا محالة أنها مختلفة عن عبارة: "الطقس ممطر". غير أنه من المحتمل أن يلجأ أحد السامعين لهذه العبارة إلى فتح النافذة أو تشغيل المكيف الهوائي، فقيمة هذه العبارة والتي دفعتنا إلى القيام بهذا العمل تسمى "براغماتية"، ولهذا لا يمكننا أن نعتد بالبعد التداولي دون البعد الاجتماعي، على الرغم من كون الأول حديث العهد؛ إلا أنه يعد أحد أهم المعارف التي تناولت الخطاب¹.

في آخر هذا نستطيع أن نقول أن التداخل وعلاقة التداولية بعدة مجالات وتخصصات له أثران: الأول ايجابي؛ حيث هذا التعدد جعلها منجاً غنيا قادراً على كشف معظم الأبعاد النفسية والاجتماعية وغيرها.. التي تحيط بإنتاج الخطاب من أجل الوصول إلى المعنى المراد والمقصود.

أما الثاني فسلبي؛ حيث هذا التعدد جعلها تتسم بفوضى مصطلحية، حيث يصعب في معظم الأحيان الوصول إلى مفهوم واحد وموحد، لذلك تعددت التداوليات والمقاربات التداولية.

¹ - ينظر: بيار أشار، سوسبيولوجيا اللغة، تعريب عبد الوهاب تزو، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، دط، 1995، ص ص:

ثانياً: أهم المقاربات التداولية في الدراسات الغربية:

بما أن التداولية تداوليات كثيرة، فمنهجياً لا بد علينا أن ننتقي منها ما يناسب بحثنا -ونرجو أننا وفقنا في ذلك - مع يقيننا - طبعاً - بأن هناك محاذير وخطورة في اعتماد نظرية دون أخرى أو الاستعانة بمصنف دون آخر، إلا أننا مرتبطون بمدونة معينة، تفرض دراسة تكون موافقة لها، فالمعيار الضابط للنظريات التي استعنا بها، هو أقربها إعانة وإفادة لنا في إضاءة مباحث المدونة البلاغية التراثية التي نشغل عليها؛ و بما أن هدفنا يتأسس على إقامة جسور أو حوار بين ما هو منثور في التراث العربي وما طرحته المباحث التداولية من طرق في تحليل الخطاب؛ مثل: البلاغة الجديدة، التداولية المدمجة، برنامج "هانسن" Hanson.

I. تصور "هانسون" Hanson تكوين تداولية ذات درجات ثلاث:

الذي قدمه سنة 1974م، والذي يهدف من خلاله إلى توحيد فروع الدرس التداولي؛ وفق درجة تعقد السياق من جزء إلى آخر، ويعتبر "هانسون" Hanson أول من حاول التوحيد بين مختلف أجزاء التداولية؛ وعبارة الدرجات المختارة عوضاً عن أجزاء توحى إلى فكرة المرور التدريجي من مستوى إلى آخر، حيث يتعقد السياق من درجة إلى أخرى، وذلك وفق التقسيم الآتي¹:

1) تداولية الدرجة الأولى: تخص بدراسة المشيرات أو الرموز التعبيرية المبهمة ضمن

ظروف استعمالها؛ أي أنها تدرس الأقوال و الصيغ التي لا تتجلى مرجعيتها ودلالاتها إلا في سياق الخطاب أو الحديث؛ أي أنها تكون غامضة المعنى إذا درسناها خارج سياق الكلام، وتعتمد على جملة من المعطيات: كالسياق الوجودي؛ المتمثل في المتخاطبين، وإحداثيات الزمان و المكان، وتعكسها أعمال دارسي الإشارة والرمز من مثل: "بيرس"، "روسل"...

2) تداولية الدرجة الثانية (تداولية المعنى الحرفي والمعنى التواصلية): تدرس كيفية

انتقال الدلالة من المستوى الصريح إلى المستوى التلميحي، وفي هذا المستوى يتم التوسع أكثر

¹ - ينظر: فرنسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص ص: 41-73.

في دراسة السياق « من سياق الموضوعة وكشف الإحالات والمنفذين، إلى السياق المتعارف عليه عند المخاطبين كـ "حدس"، وكما في سياق الموضوعة يقع التدخل لرفع الإبهامات في الجمل كذلك، حتى وهي لا تشمل على إشارات وتعبر عن قضايا مختلفة بحسب السياق»¹؛ فقد يكون معنى الجملة مبهما على الرغم من عدم وجود إشارات. والنظريات التي تتناول هذا النمط بالدراسة هي «نظرية قوانين الخطاب، وأحكام أو مسلمات المحادثة- حسب التسمية- وما ينبثق عنها من ظواهر خطابية كالفرض المسبق والأقوال المضمر، والحجاج، أما السياق في هذا النمط؛ فهو مجمل المعلومات والمعتقدات التي يشترك فيها المتخاطبون»²، وللكشف عن مقصدية العبارة اللغوية ينبغي تجاوز المعنى الحرفي والبحث عما يتضمنه القول من معنى غير مباشر.

3) تداولية من الدرجة الثالثة أو نظرية الأفعال الكلامية (Speech act theory): و

التي تشمل نظريات الأفعال الكلامية، والتي «تطلق من مسلمة مفادها أن الأقوال الصادرة ضمن وضعيات محددة تتحول إلى أفعال ذات أبعاد اجتماعية»³، وتختلف هذه الأبعاد حسب الأغراض التي تتحقق من " الإنجاز اللغوي Performative" وسيأتي التفصيل فيها فيما سيأتي من صفحات البحث.

II. البلاغة الجديدة عند "بيرلمان Chaïm Perelman":

اهتم البلاغيون الغربيون المحدثون بالبلاغة، خاصة ما أصبح يعرف في البحث التداولي بالبلاغة الجديدة التي أثارت إشكالية الحجاج؛ من خلال " الوجيز في الحجاج- البلاغة الجديدة"⁴ Traité de L'argumentation- La Nouvelle rhétorique لـ"شايم بيرلمان Chaïm Perelman"، و"ولبرخت تيتيكا Olbrechts Tyteca"، إذ أن «البلاغة الجديدة

¹ - المرجع السابق، ص: 51.

² - عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي، ص: 13 .

³ - المرجع نفسه، ص: 14.

⁴ - ترجمه محمد صولة: الخطابة الجديدة، ينظر: نظريات الحجاج، ص: 11. و صلاح فضل " البلاغة الجديدة"، ينظر: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 65.

تختلف عن أي بلاغة غير حجاجية، كما أنها تختلف عن التراث الديكارتي الذي لا يرى العقلانية إلا في الرهان المنطقي، لقد حاول بيرلمان أن يستعيد، بطريقته الخاصة، المحاولة التي شرع فيها أرسطو، الذي كان يبحث عن تحديد قواعد بناء المعرفة المشتركة، وقد اعتمد بيرلمان في عمله هذا على البلاغة التي جدد فيها تصنيف الحجج¹، منطلقاً من فكرة أن كل خطاب يسعى إلى تغيير وضع قائم أو تدعيمه، أو التأثير في المتلقي وإقناعه لاتخاذ موقف تجاه قضية ما، وكل تلك الخيارات لا بد أن تتأسس على خطط حجاجية يتوجه بها على متخاطبين².

وهو يؤكد أن موضوع الحجاج هو «درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، وأن تزيد في درجة ذلك التسليم»³، فالغرض من الحجاج هو الإقناع والتأثير والتداول والتواصل والتخاطب، ومن ثم **فالحجاج فعالية تداولية** جدلية فعالة، تستلزم وجود أطراف تواصلية، بينهما قواسم مشتركة. والحجاج مثله مثل أي فعل كلامي تداولي يحكم عليه بمعيار النجاح والفشل ومتى ما كان المتكلم قادراً على إقناع المتلقي كان فعله الحجاجي ناجحاً موقفاً.

و بذلك تكون البلاغة الجديدة عند "بيرلمان Perelman" ليست «معنية بشكل الخطاب من أجل الزخرف أو القيم الجمالية؛ بل من جهة كون ذلك وسيلة للإقناع وخاصة وسيلة للإبداع أي الحضور»⁴؛ فهي بلاغة تُعنى بالإقناع وليس بالأسلوب، وقد جعل البلاغيون المحدثون الحجاج محور الآلة البلاغية، فقد عرّف ميشال مايير " Michel Meyer "

¹ - فيليب بروتون و جيل جوتيه، تاريخ نظريات الحجاج، ترجمة محمد صالح ناحي الغامدي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز ، السعودية، ط 1، 2011، ص:42.

² - ينظر: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، إفريقيا الشرق، ط 2، 2012، ص:69. الهامش

³ - عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج- البلاغة الجديدة" لبيرلمان وتيتيان، ضمن كتاب "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، مجموعة من الباحثين، إشراف حمادي، جامعة الآداب والفنون، كلية الآداب منوبة، تونس، (دط)، (دنتط)، ص: 299.

⁴ - صابر حباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، الإصدار الأول، 2008، ص:16.

الحجاج بأنه «جهد إقناعي وبعد جوهري في اللغة لكون كل خطاب يسعى إلى إقناع من يتوجه إليه»¹، واهتم "ومايير" بالصور البلاغية والحجاج في نظرية المساءلة.

وقد انتعشت نظرية "بيرلمان Perelman " مع الفيلسوف "ميشال مايير" Michel Meyer؛ إذ تجاوزت البلاغة في نظره حدود فن الإقناع أو فن التعبير فقط، بل أصبحت طرعا إشكاليا، يُعنى بكل القضايا داخل نظام اللغة وخارج الذاكرة والعقل ومعارف موسوعية، والتي تعد أساس العلاقات التواصلية وتداول الأسئلة والأجوبة بين الناس، ف«القول الحجاجي هو جزء من اللغة يبدأ في الوقت الذي يعطي فيه الإنسان لنفسه الحق في القول والفعل»²، فكل سؤال يثير سؤالا آخر، ويكون الإقناع فيه مجرد طرح للمشاكل والتساؤلات التي يثيرها المتكلم والمستمع فيما بينهما.

وقد عرّف "ميشال مايير Michel Meyer " البلاغة بأنها « ذلك الحوار حول المسافة بين الذات أو هي ذلك الحوار حول المسافة بين الناس بصدد مسألة أو مشكل ما... هذه المنهجية البلاغية تؤسسها بنية عميقة... بنية الذات Ethos والآخر patitos بينهما اللوغوس Logos، حيث هو كلام ولغة قبل أن يكون عقلا، في حين أن البنية الأساسية للبلاغة هي بنية إشكالية تعتمد سيرورة تساؤلية Questionnement تقصي من فضائها الأجوبة الضرورية والنهائية»³، فقد ربط "مايير" البلاغة بالمساءلة والعمليات الحوارية والآليات الرياضية والمنطقية والنفسية التي تصب في النظرية الحجاجية.

كما يرى " ليتش Leech " أنّ البلاغة « تداولية في صميمها إذ أنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسّامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير على

¹ عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير - مقارنة تداولية ومعرفة الآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق، المغرب، (د.ط.)، 2006، ص: 19.

² محمد سالم محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة (مقال) مجلة عالم الفكر الكويت مجلد 28، العدد 3 يناير، مارس 2000 م ، ص: 56 .

³ - المرجع نفسه، ص: 7 .

بعضهما»¹، فالتداولية والبلاغة تشتركان في اعتماد التأثير على المتلقي وجعله يذعن للأطروحة ويقبلها.

وبذلك تكون الدراسة البلاغية التي تناولت الحجاج هي البلاغة الجديدة La nouvelle Rhétorique، ويمكن تعريفها بأنها «نظرية عامة للمحاجة بكل أشكالها الشرعية والسياسية والأخلاقية والجمالية والفلسفية، حيث تناولت هذه النظرية كيفية الإقناع في اللغة»². ولهذه البلاغة الجديدة تقنيات ومقومات نحاول الإشارة إليها فيما يلي:

1. تقنيات الحجاج عند "بيرلمان Perelman":

تتمحور نظرية "بيرلمان Perelman" حول تقنيات الحجاج، التي هي تقنيات خطابية مستمدة من بنية التراكيب اللغوية التي يتم توظيفها، وتتلخص في كل الوسائل اللغوية والبلاغية والمنطقية التي يتوسل بها الخطاب من أجل تحقيق الإذعان، وقد حصر "بيرلمان" التقنيات الحجاجية في ضربين³: ضرب يقوم على طرائق الوصل، وضرب يقوم على طرائق الفصل، ويقصد بالضرب الأول: «الطرائق الاتصالية التي تقرب بين العناصر المتباينة في أصول وجودها، فينتج بذلك قيام ضرب من التضامن بينها لغاية إبراز تلك العناصر في بنية واضحة، ولغاية تقويم أحد هذه العناصر بواسطة الآخر تقويماً إيجابياً أو سلبياً»⁴، أما الضرب الثاني؛ فيقوم على الفصل ويسعى إلى فصل عناصر سبق للغة أو لممارسة ما أن ربطت بينها، وهو «تلك الطرائق التي تقوم على الفصل بين عناصر تقتضي في الأصل وجود وحدة بينها، ولها مفهوم واحد»⁵.

¹ - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، العدد 162، أغسطس 1992، ص ص: 97-98.

² - ينظر: محمد الولي، الاستعارة في محطات يونانية عربية وغربية، ص: 385.

³ - ينظر: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج- دراسات وتطبيقات-، مسكيلياني للنشر، ط1، 2011، ص: 42.

⁴ - عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط 1، 2001،

ص: 32.

⁵ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

أ. طرائق الوصل:

هناك ثلاثة أنماط للحجج: الحجج شبه المنطقية، والحجج القائمة على بنية الواقع، والحجج القائمة على إعادة بناء الواقع (المؤسسة لبنية للواقع)¹، ويندرج تحت كل نوع مجموعة من الأقسام:

1. **الحجج شبه المنطقية:** وهي الحجج التي أخذت من المنطق بنيته، وقبولها الصياغة المنطقية، لكنها تختلف عنها في كونها غير ملزمة، كما هو الحال في الحجج المنطقية؛ وهي نوعين:

1) الحجج شبه المنطقية التي تعتمد على البنى المنطقية: وتتفرع من هذه الحجج مايلي:

أ. التناقض وعدم الاتفاق **Incompatibilité**: يكون هناك تناقض إذا كان هناك قضيتان في نطاق مشكلتين، إحداهما نفي للأخرى ونقض لها. أما عدم الاتفاق فيكون لما نضع ملفوظين أمام الظروف أو المقام من أجل اختيار إحدى القضيتين وإقصاء الأخرى².

ب. التماثل والحد في الحجاج: التحديد عبارة دورية؛ كأن نقول: "المال هو المال" أو "الدنيا هي الدنيا"؛ فهذا التحديد يفتقد إلى حجة منطقية صارمة، لكن يفهم هو معناه حتى وإن تكرر اللفظ، فمعنى الثاني يحيل إلى معنى آخر غير اللفظ الأول.

ج. الحجة القائمة على العلاقة التبادلية **Arguments de réciprocité**: ومن أمثلتها؛ "السن بالسن والشر بالشر..."، "حلال عليكم حرام علينا"، أو "ضع نفسك في مكاني".

2) الحجج شبه المنطقية التي تعتمد على العلاقات الرياضية³: من الحجج التي تعتمد على العلاقات الرياضية:

أ. تقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له **Argument de division**.

¹ - عبد الله صولة، في نظريات الحجاج، ص: 41.

² - voir : Chaïm Perelman et Lucie Olbrechts- Tyteca, (1992) Traité de l'argumentation- la nouvelle rhétorique, Préface de Michel Meyer, 5ème édition, édition de L'université de Bruxelles, p 211.

³ - ينظر : عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، مرجع سابق، ص ص: 46-48.

ب. إدماج الجزء في الكل أو حجة الاشتمال **L'argumentation par inclusion**.

ج. الحجج القائمة على الاحتمال **L'argumentation par le probable**.

II. الحجج المؤسسة على بنية الواقع: وهي حجج تركز على الواقع المعترف به كما هو،

ولكنها لاتصف هذا الواقع؛ وإنما تبني عليه حججها، وتوضح العلاقات الرابطة بين عناصره ومكوناته، وتعرض الآراء المختلفة فيه سواء أكانت هذه الآراء وقائع أو حقائق أو افتراضات¹؛ أي أن هذه الحجج تقوم على علاقات تربط بين الأشياء والعالم، وهذه العلاقات ليست منطقية؛ بل هي علاقة تفسير وتوضيح للوقائع والأحداث، وتتدرج ضمن هذه الفئة من الحجج العلاقات الكنائية والمجازية المرسلة؛ فعندما يقوم المتكلم بتفسير أحداث الواقع وتوضيحها تبدو أكثر إقناعاً ويكون خطابه أقدر على التأثير في المتلقي، ومن الحجج المؤسسة على بنية الواقع²:

أ. التابع: الحجة السببية والحجة التداولية.

ب. الغائية: حجة التبذير، حجة الاتجاه، حجة التجاوز.

ج. التعايش: حجة السلطة، حجة الشخص وأعماله.

III. الحجج المؤسسة لبنية الواقع: إذا كانت الحجج المؤسسة على بنية الواقع تكتفي بالربط

بين وقائع متعايشة أو متتابعة؛ فإن الحجج المبنية للواقع تستند إلى الجمع بين أحداث وأشياء مترابطة مكانياً أو زمانياً، أو رمزياً، حيث نستدل على شيء بآخر يرتبط به³، ومنها:

(1) الشاهد illustration: ويهدف «إلى تقوية حضور الحجة بجعل القاعدة المجردة

ملموسة بواسطة الحالة الخاصة يستشهد عليها بها»⁴، فالاستشهاد صورة تدعم القاعدة وتوضحها، ويكون الشاهد في الربط بين المتفقات في الجنس، أما التشبيه فهو مقارنة بين المتباينات ويمكن للفكرة الخيالية أو الخرافية أن تضطلع بوظيفة إقناعية «عندما نجردها من

¹ - عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطقاته وتقنياته من خلال مصنف في البلاغة، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص: 332.

² - ينظر: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 48-52.

³ - ينظر: محمد الولي، الاستعارة في محطات يونانية عربية وغربية، ص: 399.

⁴ - عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، ص: 55.

سياقها التاريخي والأصلي، إنها في حد ذاتها قابلة لوصمة الكذب ولكنها حينما تسلك في شاهد ما تتغلب على فنائها لكي تكتسب شرعية جديدة بتحولها إلى البرهنة عليه بأية طريقة»¹، ومن هنا فإن الشاهد يدعم الحجة ويقويها.

(2) **المثال l'exemple**: يكمن دور المثال في تأسيس القاعدة، ويؤتى بالمثال في الحالات « التي لا توجد فيها عادة مقدمات Des prémisses . إنَّ المحاجة بواسطة المثل تقتضي وجود بعض الخلافات في شأن القاعدة الخاصة التي جيء بالمثال لتكريسها»². و يستعمل المثال لتوضيح الفكرة وتقويتها.

(3) **القدوة**: وتسمى كذلك النموذج، فإن تحت شخصاً على الاقتداء بنموذج معين يحتم عليك أن تقتدي به أولاً حتى لا تصبح محل سخرية.

(4) **المقارنة**: وهي تقنية حجاجية إنها « عملية تجريبية منشدة إلى عملية بناء الواقع خاصة، وأن المقارنة حين تعقد بين طرفين لا تكون بالضرورة واقعية؛ بل قد تكون مبتدعة لا أساس لها إلا سياق النص وخيال المحتج»³.

(5) **التناسب**: تظهر تقنية التناسب الحجاجية في كونه يتألف في بنيته العميقة من أربعة أطراف، وشرط التناسب هو « التأليف بين علاقيتين وتتحقق كل علاقة بين شيئين منتميين إلى جنس غير جنس الطرف المقابل؛ أي أن الموضوع والشبيه ينتميان إلى جنسين مختلفين»⁴.

ب. طرائق الوصل:

تطرقنا فيما سبق إلى ثلاثة مظاهر للاتصال الحجاجي، وهي الحجج شبه المنطقية الحجج المؤسسة على بنية الواقع، والحجج المؤسسة لبنية الواقع، وفيما يلي عرض لأهم مظاهر

¹ - محمد الولي، مفاهيم بلاغية، الكناية والشاهد والتشبيه والاستعارة والتمثيل والأسطورة، مجلة علامات، العدد 17، ص: 93.

² - عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، ص: 54.

³ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 248.

⁴ - محمد الولي، الاستعارة في محطات يونانية عربية وغربية، ص: 4.

الانفصال الحجاجي، إن الميزة الأساسية للطرائق الانفصالية، هي الفصل بين المفاهيم الموحدة والمتحمة فيما بينها، حيث إن هذا الفصل يكون على مستوى المفاهيم مردها إلى زوج الظاهر/الحقيقي، حيث إن الظاهر هو الحد الأول والحقيقي هو الحد الثاني¹.

و يضيف "بيرلمان" أن الظاهر الذي يمثل الحد الأول هو ما يخطر بالذهن ويدركه الفكر منذ الوهلة الأولى، فهو المعطى الراهن المباشر، بينما الحد الثاني الذي هو الحقيقي الذي لا يمكن تمييزه إلا من خلال علاقته بالحد الأول، فإنه لا يمكن أن يكون إلا نتيجة فصل نحدثه داخل الحد الأول نفسه، وذلك من أجل القضاء على ما يمكن أن نلمحه في مظاهر الحد الأول. ويزودنا الحد الثاني في هذه العملية بالمقياس أو القاعدة التي تسمح لنا بالتمييز داخل مظاهر الحد الأول بين ما له قيمة وما ليس له قيمة. أما فيما يخص الفصل في الأقوال والخطابات²، فإن ذلك يكمن في التمييز بين ما هو ظاهر/حقيقي، كذلك استعمال بعض الطرق مثل شبه كقولنا شبه علمي أو شبه منطقي إلى جانب استعمال بعض العبارات مثل لا كذا، غير كذا، كقولنا لا فلسفي، غير فلسفي.

-وضع بعض الأقوال بين قوسين أو مزدوجين.

-استعمال بعض الأفعال مثل يتوهم، يتخيل التي تسهم حسب "بيرلمان" في وضع حاجز أمام معرفة الحقيقة.

-استعمال بعض الجمل الاعتراضية؛ كقولنا: هذا الرجل شجاع إن صح أنه شجاع.

2. مقومات الحجاج عند بيرلمان "Perelman" و"تيتيكااه Tyteca":

يتأسس الحجاج عند "بيرلمان Perelman" على عدد من القضايا والتصورات والفرضيات التي ينسج منها المحاجج خطته الحجاجية، التي يعول على تسليم الجمهور بها؛ فلكل خطاب قبل أن يستوي كياناً مشكلاً من تقنيات حجاجية يواجه بها المتكلم المخاطب لإيقاع التصديق؛

¹ - نقلا عن: نعيمة يعمران، الحجاج عند ابن الأثير، مذكرة ماجستير، اشراف عمر بلخير، مذكرة ماجستير تخصص بلاغة وخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، ص:36.

² - نقلا عن المرجع نفسه، ص:37. Perelman et Tyteca, Traité de l'argumentation, Op.cit, p 62.

من منطلقات حاجية مدارها على مقدمات "Des prémisses"، تؤخذ على أنها مسلمات يقبل بها الجمهور، و تتمثل المقدمات وبما هو مشترك بين عدة أشخاص أو بين جميع الناس¹، والواقع أنها لا تكون عرضة للدحض أو الشك، وهي تشكل نقطة انطلاق ممكنة للحجاج، واختيار هذه المقدمات وطريقة صوغها، وترتيبه لها في حد ذاته قيمة حاجية؛ ومن أهمها:

(1) **الوقائع:** وهي تقوم على فكرة الربط بين الوقائع، وتتأسس غالباً على مفاهيم دينية أو فلسفية أو نظرية علمية².

(2) **الافتراضات:** هي مثل الوقائع والحقائق تحضى بالموافقة العامة، ولكن التسليم بها والإذعان لها لا يكون قويا، حتى يؤيد بأدلة وأنساق برهانية تدعمها وتقويها، وهذه الافتراضات ليست ثابتة لأنها تحدد بالقياس العادي والمحتمل، يتغيران بتغير الحالات³.

(3) **القيم:** وعليها مدار الحجاج؛ فهي عنصر أساس من عناصر الحجاج، ولها دور بارز في مجال العلوم الإنسانية؛ إذ يعتمد عليها في تغيير مواقف السامعين، ودفعهم إلى الفعل المطلوب، وهي نوعان: قيم مجردة؛ مثل: العدل والشجاعة، وقيم محسوسة: وهي القيم التي ترتبط بشخص أو جماعة أو مؤسسة منظور إليها في أحاديثها؛ مثل: المسجد⁴.

(4) **الهرميات:** تتأتى من كون القيم ليست في درجة واحدة، وإنما تخضع لتراتبية ووعي

المحاجج، وبتراتبيتها أهم من القيم نفسها، لأن هذا الترتيب يختلف من مجتمع إلى آخر.

(5) **المواضع:** وهي مقدمات أعم من العناصر السابقة، وقد أولاهـا "أرسطو" عناية فائقة،

وخصص لها كتاب "الطوبيقا"، و « تمثل المواضع رافدا للقيم وهرميتها عند عملية الإقناع التي يروم الخطيب تحقيقها، فهي بمثابة المقدمات الثواني والمعاني التي يركن إليها الخطيب،

وبدونها لا يستمد خطابه أي شرعية عند الجمهور، وعليه نعتها "بيرلمان" Perelman

¹ ينظر: عبد الله صولة، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص: 308.

² عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الخطابة لبيرلمان، مقال، ضمن كتاب "أهم نظريات الحجاج"، ص: 309.

³ ينظر: عبد الله صولة، في نظريات الحجاج دراسات وتطبيقات، دار الجنوب للنشر والتوزيع، ط1، 2011، ص: 25.

⁴ الطلبة سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط 1، 2008، ص: 112.

بالمقدمات العامة، وهي متخصصة عنه للاستدلال وهي متمحضة عنده للاستدلال الجدالي»¹.
وتنقسم قسمين:

أ . مواضع الكم: وهي التي تثبت أن شيئاً ما أفضل من شيء آخر لمعايير كمية، مثل:
أن الكل أفضل من الجزء².

ب . مواضع الكيف: التي تستمد خاصيتها الحجاجية من وحدانيته الشكلية في مواجهة
الجمع؛ مثل: موضع "الحق" الذي يبين ما عداه من الباطل³.

ولا يكفي أن يمتلك المحاجج هذه المقدمات؛ بل عليه أن يحسن توظيفها بما يتوافق مع
المتلقي والمقام، وعناصر العملية الحجاجية الأخرى؛ فهي «ليست ذات فعالية في ذاتها، ولا هي
بمعزل عن كفاءة الخطيب، ووعيه اللذين بهما تكتسب عناصر الحجاج شحنتها الحجاجية»⁴.

3. العناصر البلاغية والأسلوبية كآليات عرض حجاجية عند "بيرلمان Perelman":

تساهم بعض العناصر البلاغية والأسلوبية في العملية الحجاجية: كالنفي والتوكيد
والإطناب، و الالتفات؛ إذ تحدث تغير في وجهة نظر المتلقي وتجعله يقتنع بالموضوع المراد
إيصاله له.

1/الإطناب: يرى "بيرلمان" أن « من طرائق العرض الحجاجية اعتماد أسلوب يكون بطيئاً
لا عجولاً»⁵، ويعقب "عبد الله صولة" على هذا: «وقد فهمنا البطء هاهنا بمعنى الإطناب
والترديد والعجل بالإيجاز»⁶؛ إذن اهتم "بيرلمان" بالإطناب كطريقة عرض حجاجية وذلك من
خلال الدور الهام الذي يلعبه في الاقتناع، حيث يرى أن بعض العناصر في موضوع ما تحتاج
إلى التردد والتطويل حول دلالتها وأهميتها، وذلك من أجل الزيادة في حضور هذه العناصر في

¹ - عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين للنشر والتوزيع، صفاقس، تونس، ص: 82.

² - الطلبة سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 115.

³ - المرجع نفسه، ن ص.

⁴ - المرجع نفسه، ص: 114.

⁵ - عبد الله صولة، في نظريات الحجاج، مرجع سابق، ص: 34.

⁶ - المرجع نفسه، ص: 34.

ذهن السامعين للإقناع أكثر، على عكس الإيجاز الذي يكتفي فقط بذكرها؛ إذ إنه إذا كان الأسلوب السريع (الإيجاز) يصلح في الاستدلال، فإن الأسلوب البطيء (الإطناب) ينشأ الانفعال والتأثير؛ وذلك كما قال "عبد الله صولة": «إن الأسلوب العجل يدعم توجه الخطاب الاستدلالي والأسلوب البطيء يحدث لدى سامعيه الانفعال ويحرك عواطفهم»¹.

(2) **التكرار**: اعتماد التكرار لإبراز شدة حضور الفكرة المقصود إيصالها و التأثير بها، حيث يقول "بيرلمان Perelman": «يكون التكرار التقنية الأكثر ببساطة لإنشاء هذا الحضور»²، فالمتكلم لما يكرر الكلمة عدة مرات، فإنه ينشئ في ذهن السامع نوعاً من الحضور أو التخيل لذلك الموضوع كأنه يعيشه في الواقع وبالتالي يحصل التأثير والتصديق. للتكرار دور آخر؛ فمن خلال التكرار يظهر الملفوظ الثاني الذي يهز النفوس، عوض الملفوظ الأول وحده الذي يظهر كتعبير عادي.

(3) **اللفظ الحسي**: يختلف اللفظ الحسي عن اللفظ المجرد من خلال الأثر الذي يتركه في نفسية المتلقي؛ أي أنه كلما كان اللفظ خاصاً (حسياً) كانت الصورة موحية وحية، وكلما كان اللفظ عاماً (مجرداً) كانت الصورة أضعف، وعلى هذا الأساس فإن اللفظ الحسي عند "بيرلمان Perelman" يساهم بشكل فعال في التأثير على الإحساس وذلك عن طريق حضور الصورة في الذهن، وهذا كله يؤدي إلى التسليم والإذعان. ومثال ذلك: وصف مقتل شخص بالرصاص بقولنا: "واخترقت الرصاصة صدر الرجل"؛ عوض القول "قتل الرجل"، فلفظة "اخترقت" تصف المشهد وصفاً، وكأن المتلقي الذي ننقل له الخبر قد عاش هذا المشهد.

(4) **انتقاء اللفظ**: إن انتقاء اللفظ ذو قيمة حجاجية، حيث إن هذه الظاهرة في النصوص الأخرى كالشعر تلعب بالأساس دوراً كبيراً في بناء شكل النص وإحداث التنعيم والإيقاع، وبينما انتقاء اللفظ في النص الحجاجي فهو غير ذلك، إذ إن النص الحجاجي مرتبط ارتباطاً وثيقاً

¹ عبد الله صولة، الحجاج أطره و منطقاته وتقنياته؛ مقال ضمن كتاب "أهم نظريات الحجاج"، ص: 318.

² نقلا عن: نعيمة يعمران، الحجاج عند ابن الأثير، مرجع سابق، ص: 40.

بالمقام، فاستخدام الكلمة دون مرادفها يكون حسب المقام¹، لذلك يجب على المتكلم أن يحترس في انتقاء الألفاظ التي تخدم ذلك السياق (المقام) الذي ورد فيه الخطاب، لأنه إذا خرج عن حدود ذلك الموضوع أو السياق، فإنه لن يشد انتباه المتلقي لأنه يتحدث عن موضوع بألفاظ لا تناسبه.

5/النفى: النفى هو عبارة على رد فعل على إثبات فعلي أو محتمل حصوله من قبل

الغير؛ فالفكر السالب -النفى- لا يكون إلا إذا كانت المتكلم في مواجهة الغير، أي أن الأمر متعلق بالحوار الحجاجي.

6/الروابط الحجاجية: هناك أدوات حجاجية أخرى كأدوات الاستئناف تربط بين القضايا

في الخطاب؛ فهي تبني النتيجة على السبب²، مثل: الواو، أو، لكن، إذن.. إلى جانب عبارات أخرى مثل: رغم إن، إن كذا..، وهي آليات تساهم في الحجاج وتساعد الخطيب على جلب السامعين إليه؛ فمثلاً؛ أدوات الربط هذه تدل على علاقة منطقية بين القضايا والمستمع لما يلاحظ هذه العلاقة المنطقية بين القضايا يخضع ويسلم لها، وسنفصل فيها في أكثر في نظرية "ديكرو" لاحقاً.

7/الالتفات في الأزمنة: يشير "بيرلمان" إلى تأثير استخدام الأزمنة في الخطاب على

السامع وذلك حسب اللغات المختلفة، ففي الفرنسية مثلاً: يرى أن زمن الحاضر له دور فعال بالإحساس بالحضور بمعنى حضور الفكرة في ذهن المتلقي، وذلك أن زمن الحاضر هو الزمن الذي يعبر عن العام والعادي والقانون، وزمن الحكمة والقول المأثور، هو زمن حالي دائم الوجود، كما أن زمن الحاضر له دورين: فهو الذي يعبر عن العادي في مساره نحو المبادئ والأحكام، ومعنى ذلك أن هذه الأحكام والمبادئ التي يقتنع بها الناس، كانت وليدة الحاضر فبعدما كانت مجرد أفكار عادية في الحاضر أصبحت مبادئ وأحكام. كما أن الحاضر موضع

¹ - عبد الله صولة، في نظريات الحجاج، ص: 308.

² - المرجع نفسه، ص: 308.

الثقة واليقين عند السامعين ذلك أنه كما قلنا هو زمن العادي وزمن القانون، وهذين الأخيرين اللذين لا يحملان أي شك في صحتها.

(8) **التلميح**: لا يفهم التلميح إلا من خلال السياق، فبنيته ليست لا نحوية و لا سيميائية،

إلا أن له علاقة مع شيء ليس هو الموضوع الفوري للخطاب، بمعنى له علاقة غير مباشرة بالموضوع، والتلميح له تقريبا، دائما دور حجاجي حسب "بيرلمان"، لأنه عنصر الربط والاتحاد بين المخاطب والجمهور¹، وهذا النمط من الحجاج يحتاج إلى فطنة المتلقي وذكائه من أجل ربط بين قضايا الموضوع، وبالتالي استنتاج قصد المتكلم غير المباشر.

(9) **التفسير**: يعد التفسير من بين أهم الصور البلاغية ذات الدور الفعال في الميدان

الحجاجي؛ حيث يهوى "بيرلمان" أن التفسير القوي هو كأمر معطى يمكن أن يعتبر كصورة حجاجية أو كصورة أسلوبية، وذلك حسب الأثر المنتج على المتلقي؛ فإذا كان المتلقي مت أثرا بهذا التفسير مهتما بالجانب التزييني للخطاب فهي صورة أسلوبية، والتفسير عند "بيرلمان" ه و توضيح لعدد من الجمل من خلال عدد آخر، وبهذا يسهم هذا التوضيح في نزع كل الابهامات والتساؤلات التي تتبادر إلى ذهن المتلقي؛ وبالتالي إقناعه إقناعاً قوياً².

(10) **التعريف الخطابي**: التعريف الخطابي « هو صورة تستخدم لا على سبيل شرح

معنى، وإنما لتبرز بعض المظاهر الحاقّة بواقعة ما مما من شأنه أن يعزب عن ذهن السامع»³؛ أي لتذكير المتلقي ببعض مظاهر الحقيقة التي يمكن أن يتناساها أو ويغفل عنها، ويشترك هو التفسير في أن كليهما يعطي التفاصيل عن الظاهرة ويشرحها، وذلك لجلب المتلقي واستمالاته.

¹ عبد الله صولة، الحجاج أطره وتقنياته، ضمن كتاب "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، ص: 323.

² ينظر: نعيمة يعمران، الحجاج عند ابن الاثير، ص: 29.

³ عبد الله صولة، الحجاج أطره وتقنياته، ص: 323.

11) الاستشهاد: يعد الاستشهاد صورة من صور التكامل والاتحاد بين المخاطب

والمستمع، مثل الأمثال والحكم التي توصل ثقافة معينة وترسخها¹، ويتجلى ذلك بوضوح حتى في كلامنا اليومي؛ إذ يلجأ المتكلم دائماً إلى الاستشهاد بأمثال وحكم مختلفة للتأكيد على صحة كلامه وإقناع المتلقي به، حيث يقارن هذا الأخير وبين المثل أو الحكمة التي أوتي بها، ولما يجد ما بينهم من تطابق وانسجام، يخضع ويسلم لكلام هذا المتكلم.

12) الالتفات في الضمائر: إلى جانب الالتفات في الأزمنة، نجد الالتفات في الضمائر

والذي له أيضاً دور فعال في الحجاج، مثل تغيير الضمير "أنا" أو "أنت" بالضمير "نحن"، من أجل وضع المتلقي في وسط الأحداث والتفاعل معها، كذلك تغيير الضمير المفرد بضمير "نحن"، وبهذا يظهر لنا أن الالتفات في الأزمنة والضمائر، تأثير على المتلقي فالانتقال من ضمير لآخر، ومن زمن لآخر يجعل المتلقي يعيش الحدث الحقيقي، وبالتالي ينجذب إلى الموضوع ويقنع به، أما إذا كان الضمير واحداً والزمن واحد فإنه ينفر من الكلام ويميل منه.

III. التداولية المدمجة* La Pragmatique Intégrée:

التداولية المدمجة وهي مقاربة تروم البحث في « الدلالة التداولية (لا الخبرية ولا الوصفية) المسجلة في أبيئة اللغة، والوقوف عند حدود استعمالاتها الممكنة»²، ومؤسس هذه النظرية "ديكرو Ducrot" (1973) و"انسكومبر Anoscombe"؛ وهي نظرية حجاجية تداولية تدرس الوسائل اللغوية التي يمتلكها المتكلم ليقنع مخاطبه حيث يكون الحجاج بتقديم

¹ - نعيمة يعمرانن، الحجاج عند ابن الأثير، ص: 31.

* تخالف التداولية المدمجة في الدلالة التوجه القائم على التصور الخطي للعلاقة بين التركيب والدلالة والتداول، فالتركيب يعنى بقواعد التأليف في البنية اللغوية لتحديد درجة نحويتها، وتعنى الدلالة بالعلاقة بين العلامات ومراجعها التي تحيل عليها، أما التداول فيعنى باستعمال الجمل في مقام محدد، أما في إطار التداولية المدمجة فإنه لا وجود للمعالجة الخطية للقول، بل يوجد جمع بين معلومات لغوية (منتمية إلى المكون اللغوي)، ومعلومات غير لغوية (منتمية إلى المكون البلاغي). ينظر: القاموس الموسوعي في التداولية، ص: 35 وما بعدها.

² - شكري مبخوت، الحجاج اللغوي، مرجع سابق، ص: 351.

المتكلم قولاً (ق1) أو (مجموعة أقوال) يقضي إلى التسليم بفعل آخر (ق2) أو (مجموعة أقوال)¹.

كما تعتبر نظرية في "الحجاج اللغوي"؛ إلا أنها تختلف في تصورها للحجاج عن التصور الكلاسيكي للحجاج الذي يرى أن الحجاج عبارة عن نشاط ليست له أي علاقة بالبنية التركيبية للغة، و يتعلق بآثار الكلام فقط، وطريقة استعمال القول في الخطاب الحجاجي؛ فديكرو Ducrot " يرى أن الحجاج يندرج ضمن بنية اللغة، ويتأتى من بنية الأقوال اللغوية، لا من مضمونها الإخباري.

1. الحجاج في اللغة (L'argumentation dans la lanque) :

تتعلق التداولية المدمجة (La pragmatique intégrée) من « مبدأ أن اللغة ليس لها بالأساس وظيفة (التمثيل والوصف)، حيث أن القيمة المرجعية للأقوال في المستوى التداولي، لذا فإن الوقائع الدلالية لا تتعلق بالقيمة الصدقية للأقوال، وإنما بالقيمة الحجاجية للجمل»². أي أن نظرية "ديكرو Ducrot" التداولية في الأساس هي نظرية حجاجية، وقد خرجت هذه النظرية من رحم نظرية الأفعال الكلامية؛ وفي هذا الصدد يقول "العزاوي": « لقد انبثقت نظرية الحجاج في اللغة من داخل الأفعال اللغوية التي وضعها أوستين و سيرل، وقد قام ديكرو بتطوير أفكار وآراء أوستين بالخصوص، واقترح في هذا الإطار إضافة فعلين لغويين هما: فعل الاقتضاء وفعل الحجاج»³.

وبذلك يكون الحجاج- برأي "ديكرو"- لغوي لساني؛ أي أنه مرتبط بالفعل اللغوي، وليس بالمنطق غير الصوري؛ وبناء عليه هذا؛ عرف "ديكرو" الانجاز (التلفظ): « بأنه فعل لغوي موجه إلى إحداث تحويلات ذات طبيعة قانونية، أي مجموعة الحقوق والواجبات، ففعل الحجاج

¹-voir: J. c. Ancombre et Ducrot : L'argumentation dans la langue, philosophie et langage, troisième édition, MARDAGA , P:08

²-كمال بخوش، الأسس المعرفية لمقاربة النصوص الحجاجية،(مقال)، مجلة تعليميات، جامعة يحي فارس، المدينة، 2016، ص:342.

³- أبو بكر العزاوي، الحجاج في اللغة، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص:57.

يفرض على المخاطب نمطا معيناً من النتائج باعتباره الاتجاه الوحيد الذي يمكن أن يسير عليه الحوار»¹.

ويضيف "شكري مبخوت" و الذي اجتهد في توضيح نظرية "ديكرو" في الحجاج؛ قائلاً أن الحجاج في "التداولية المدمجة" هو «علاقة دلالية تربط بين الأقوال في الخطاب، ينتج عن عمل المحاجة، ولكن هذا العمل محكوم بقيود لغوية، فلا بد من أن تتوفر في الحجة (ق1) شروط محددة حتى تؤدي إلى (ق 2)، لذلك فإن الحجاج مسجل في بنية اللغة ذاتها، وليس مرتبط بالمحتوى الخبري للأقوال، ولا بمعطيات بلاغية مقامية»²، ومنه نستنتج أن التداولية المدمجة كما حصرت الدراسات التداولية في بنية اللغة؛ كذلك قامت بحصر الحجاج داخل أبنية اللغة؛ فالحجاج قائم على بنية الأقوال اللغوية، وعلى تسلسلها وكيفية توظيفها ضمن الخطاب.

أما الهدف من الحجاج كما حدده الباحثون فهو "التوجيه"، وهذا التوجيه يحصر على مستويين:

- مستوى السامع؛ وذلك بالتأثير فيه، أو مواساته أو إقناعه، أو جعله يأتي فعلاً ما، أو حتى إزعاجه، أو إحراجه... أو غير ذلك.

- مستوى الخطاب: حين يكون القول (ق1) مؤدياً بالضرورة إلى ظهور (ق 2) صراحة أو ضمناً³.

¹ - أبو بكر العزاوي، الحجاج و المعنى الحجاجي، ضمن كتاب: التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 134، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، المغرب، ط1، 2006، ص:56.

² - شكري مبخوت، الحجاج في اللغة، ضمن كتاب "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى يومنا هذا، المرجع نفسه، ص:351.

³ - حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي عناصر استقراء نظري (مقال)، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، تقديم حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، اريد ، الأردن، ط 1، 2010، ص:153.

مثلاً؛ في قول أحدهم: "أنا مريض؛ إذن أنا في حاجة إلى الخلود إلى الراحة". تتضمن هذه الجملة دلالات حجاجية، فالمتكلم يقدم حجة في (ق 1) وهي "المرض" والذي يستدعي النتيجة "الراحة" في القول (ق 2)، والدليل على الطبيعة الحجاجية لهذه الجملة وجود رابط حجاجي "إذن". وقد تحدث "ديكرو Ducrot" عن مفاهيم الحجة، وذلك في سياق عرضه لنظريته؛ والتي تمثل عنصراً دلالياً يقدمه المتكلم لصالح عنصر دلالي آخر، قد يرد في شكل قول أو نص أو مشهد طبيعي أو سلوك غير لفظي كما تكون ظاهرة أو مضمرة بحسب السياق¹.

وتتميز هذه الحجج اللغوية بجملة من الخصائص منها²:

- أنها سياقية: يقدم المتكلم حجة قد تؤدي إلى حجة أخرى، وذلك حسب السياق الذي يمنحها صبغة حجاجية؛ مما يعني أن له دوراً فاعلاً في الحجاج.
 - أنها نسبية: إذ تحمل كل حجة قوة حجاجية معينة، فقد يقدم المتكلم حجة ما يدافع بها عن قضية معينة، لكن في المقابل يستدل الخصم بحجة أقوى، تكون مناقضة ومضادة لها تكون أكثر قوة منها، أي أن هناك حججاً قوية و أخرى ضعيفة، وهي تترتب بحسب درجتها.
 - قابلة للإبطال: يمكن للحجة أن ترفض أو تنقض، بواسطة حجة أخرى أقوى منها.
- إذن؛ نستطيع أن نقول أن الحجاج يربط بين الأقوال بحيث يقدم المتكلم قولاً يعتبر حجة، يُحمل به المتلقي على قبول قول آخر يعتبر نتيجة صراحةً أو ضمناً، وهذه العلاقة تسمى العلاقة الحجاجية، وهي علاقة خطابية لا يحكمها الاستلزام المنطقي، بل تُسَيِّرُها و تُؤَطِّرُها المواضيع الحجاجية.

ويمثل الموضوع مبدأً حجاجياً عاماً من المبادئ التي يستعملها المتكلم ضمناً للجمل على قول نتيجة ما، فالموضوع فكرة مشتركة، مقبولة لدى جمهور واسع، وعليها يركز الاستدلال في اللغة³.

¹ - أبويكر العزاوي، نظرية الحجاج في اللغة، مرجع سابق، ص: 58.

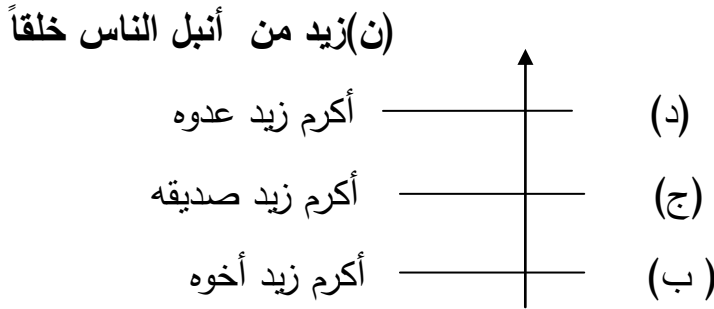
² - المرجع نفسه، ص: 58.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص: 350.

وكل علاقة حجاجية تتطلب وجود موضع بين الحجة والنتيجة؛ أي مساراً مبرراً يعتمد في الانتقال الحجاجي، وترتب هذه الحجة بحسب قوتها وضعفها في سلم يسمى "السلم الحجاجي".

2. السلم الحجاجي:

يعرفه "أبو بكر العزاوي" السلم بأنه « علاقة تراتبية للحجج »¹، ثم يوضح ذلك بالرسم الآتي:



حيث أن؛ (د) و (ج) و (ب) حجج وأدلة تخدم النتيجة (ن).

فنجد في هذا المثال أن الأقوال (د) و (ج) و (ب) حجج تستلزم نتيجة واحدة هي: "زيد من

أنبل الناس خلقاً"، وهي بذاك تنتمي إلى فئة حجاجية واحدة (مجموعة تدليلية) مرتبطة بهذه

النتيجة(ن)، وتجمعها علاقة ترتيبية ضمن سلم حجاجي واحد²، وعرفه "طه عبد الرحمن"

بأنه: « مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية»³، وتقوم على شرطين:

1) كل قول يرد في درجة ما من السلم يكون القول الذي يعلوه دليلاً أقوى منه بالنسبة إلى

النتيجة.

2) إذا كان القول (ب) يؤدي إلى النتيجة (ن)، فهذا يستلزم أن (ج) أو (د) الذي يعلوه

درجة يؤدي إلى النتيجة نفسها، والعكس غير صحيح.

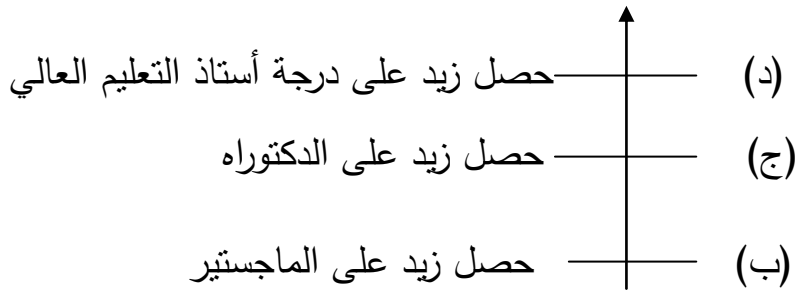
ويمكن توضيح ذلك بمثال⁴، تقول:

¹ - أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة للطبع، الدار البيضاء المغرب، ط 1، 2006، ص: 24.

² - أبو بكر العزاوي، الحجاج في اللغة، مقال ضمن كتاب الحجاج في مفهومه ومجالاته، ج1، ص: 59.

³ - ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 277.

⁴ - ينظر: أبو بكر العزاوي، الحجاج في اللغة، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص: 60.



هذه الجمل الثلاث تتضمن حججاً تنتمي إلى سلم واحد، وهي تؤدي إلى نتيجة مضمرة من قبيل "كفاءة زيد العلمية" أو "مكانته العلمية"، فنلاحظ أن القول الأول يقع في أعلى درجات السلم بعده أقوى الحجج في تدليله على الكفاءة "زيد العلمية ومنزلته"¹.

ومنه نستنتج؛ أن نظرية السلام الحجاجية تعتمد على وجود تلازم في عمل المحاجة بين القول الحجة (ق) ونتيجة (ن)، ومعنى التلازم هنا هو: أن الحجة لا تكون حجة بالنسبة للمتكلم إلا بإضافتها إلى النتيجة، قد يصرح بها وقد تبقى ضمنية.

وينبغي أن نوضح؛ أن أهمية السلام الحجاجية تكمن في أنها تخرج قيمة القول الحجاجي من حيز المحتوى الخبري للقول، وبذلك تكون قيمة القول قيمة حجاجية، وليست قيمة خبرية يحكم عليها بالصدق والكذب؛ لأنها ليست قيمة مضافة إلى البنية اللغوية بل مسجلة فيها، و السلم الحجاجي بتركيزه على هذا الطابع المتدرج، والموجه للأقوال يبين أن أقواله ليست مطلقة، وإنما هي رهينة اختيار هذه الحجة أو تلك بالنسبة لنتيجة محددة². وتحكم "السلم الحجاجي" مجموعة من القوانين الداخلية؛ منها:

أ. قانون النفي (Loi de Négation): ومفاده إذا كان قول ما (أ) مستخدماً من طرف متكلم ما، ليخدم نتيجة معينة، فإن نفيه (لا - أ) يصبح حجة لنتيجة مضادة³؛ مثال: محمد

¹ - ينظر: المرجع السابق، ن ص.

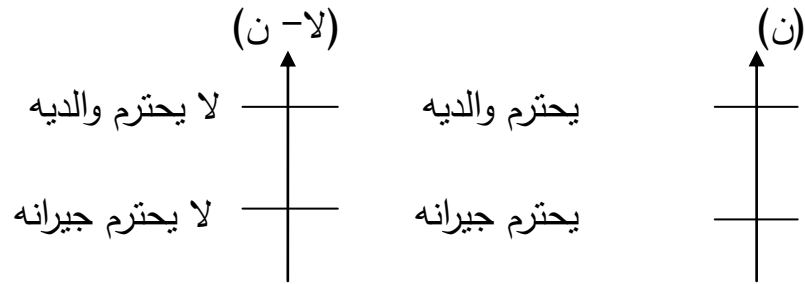
² - ينظر: شكري مبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن كتاب "أهم نظريات الحجاج في التقاليد العربية، مرجع سابق، ص: 370.

³ - أبو بكر العزاوي، الحجاج والمعنى الحجاجي، ضمن كتاب التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ص: 62.

مجتهد، فقد نجح - محمد ليس مجتهد، إنه لم ينجح، فإذا جعلنا (أ) ينتمي إلى النتيجة (ن) في المثال الأول، فإن المثال (لا-أ) ينتمي إلى النتيجة المضادة (لا - ن).¹

ب. قانون القلب (Loi D'inversion): يرتبط هذا القانون بالنفي؛ ويعد مكملًا له،

ومقتضاه أن السلم الحجاجي للأقوال المنفية يكون عكس سلم الأقوال الإثباتية، أي إنه عندما تغدو إحدى الحجبتين أقوى من الأخرى في قوتها الحجاجية لدلالة على نتيجة معينة، يصبح نقيض الحجة الثانية أقوى من نقيض الحجة الأولى في التدليل على نتيجة مضادة²، مثال ذلك: "زيد يحترم والديه، و حتى جيرانه" / "لا يحترم زيد جيرانه، بل و والديه". والمخطط الآتي يوضح ذلك:



قانون الخفض (Loi d'abaissement): وينص هذا القانون على أن القول إذا صدق في مراتب معينة من السلم، فإن نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها³، مثال: "الجو ليس بارد" / "لم يحضر كثير من الأصدقاء إلى الحفل".

و ينبغي الإشارة هنا؛ إلى صعوبة ترتيب هذه الأقوال التي تخضع لقانون الخفض الناتج عن النفي في سلم حجاجي واحد، وذلك لأنها لا تنتمي للفئة الحجاجية نفسها، ومن ثم لا تكون في سلمية تدرجية؛ فيتحتم علينا الرجوع إلى القاعدة السابقة - التي سبق وأن ذكرناها - عن الخفض⁴. كما ننبه إلى أن السلم الحجاجي مقترن بمحدد لوجهته هو "الاتجاه الحجاجي".

¹ - أبو بكر العزاوي، الحجاج في اللغة، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص: 61.

² - ينظر: المرجع نفسه، ن ص.

³ - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 277.

⁴ - ينظر: أبو بكر العزاوي، الحجاج والمعنى الحجاجي، مقال ضمن كتاب التحاج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ص: 62.

3. الروابط الحجاجية:

تتجلى طبيعة اللغة الحجاجية من خلال بنيتها؛ حيث تتضمن أدوات وروابط حجاجية لا يمكن أن نعرف قيمتها الحجاجية إلا بالعودة إلى سياقاتها، ولذلك يعد "الحجاج فعلاً لغوياً مؤشراً عليه بروابط وأدوات وعبارات، مهمتها الرئيسية توجيه الملفوظ وجهة حجاجية¹ .

وقد زاد اهتمام "ديكرو" بالروابط الحجاجية لما لها من دور في انسجام الخطاب، في ذلك تقول "آن روبول": «قد أدت أعمال أوزوالد ديكرو إلى شيوع الروابط التداولية أو الخطابية في علم الدلالة وفي التداولية أساساً»²، هذه الروابط تسهم في تسهيل عملية تأويل الخطاب³؛ أي فهم الخطاب وكذا توجيه العمليات التأويلية، إذ «تقوم الروابط بدور مهم في عمليات فهم الخطاب... بل تسهم بصورة أساسية في توجيه العمليات التأويلية، ولا يمكن التأويل من دونها»⁴، فالروابط الحجاجية تتعلق بالطبيعة الإجرائية والخطابية، وقد حددت وظيفتها في ثلاث وظائف⁵:

- ربط الوحدات اللسانية الكبرى أو الوحدات الخطابية.
- الكشف عن بنية الوحدات اللسانية وتناسقها (الكلمة، والنص).
- الكشف عن نتائج الملفوظ التي بدونها لا يمكن الظفر بأي معنى أو غاية من الملفوظ.

ويمكن التمثيل لذلك بقولنا: "لن نفتقر، فما ثمن التذكرة إلا ثلاثون دينارا"؛ فنجد أن رابط الحصر جاء في الجملة التي استعملت حجة، ليوجه الملفوظ نحو نتيجة إيجابية هي: "لن نفتقر".

¹ - ينظر: عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ص: 32.

² - آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم - علم جديد للتواصل-، ص: 169.

³ - ومنه يعني الحجاج من خلال تأويل الخطاب، جيل ديكلارك، التداولية والحجاج (مقال)، ضمن كتاب تلوين الخطاب فصول مختارة من اللسانيات والعلوم الدلالية المعرفية والتداولية والحجاج، ص: 197.

⁴ - آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، ص: 197.

⁵ - عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ص: 23.

وهنا نشير؛ إلى أن الروابط متنوعة ومتعددة؛ فقد تكون إما روابط حجاجية تربط بين الأقوال من خلال عناصر نحوية، من قبيل: الواو، الفاء... أو مختلف حروف العطف، وإما روابط استنتاجية تلخيصية مثل: (إذن، هكذا، وعليه)، أو روابط حجاجية مضادة نحو: (لكن، رغم ذلك، غير أنه...)¹.

ولو عدنا للغة العربية نجدها تحوي الكثير من الروابط؛ مثل: لكن، بل، إذن، لا سيما، إذ، لأن، بما أن...مع ذلك، ربما، تقريبا، إنما، ما...إلا...إلخ. والملاحظ مما سبق؛ أن للروابط الحجاجية دورا بارزا في الحجاج؛ لذلك اهتم بها اصحاب نظرية الحجاج وفي مقدمتهم "ديكرو" وأن روبول" و"جاك موشلار" وراحوا يفردون لها المقالات؛ إذ أنها تعد ركنا من أركان الحجاج.

ونستنتج مما تقدم ذكره، أن توجه نظرية الحجاج اللغوي لـ"ديكرو Ducrot" للحجاج يختلف عنه عند "بيرلمان Perelman"؛ إذ توجه هذا الأخير بلاغي جدلي، إذ أن نظرية "ديكرو" تبتعد عن المنطق، وتهتم أكثر بدراسة الخطاب، و هذا يبدو جليا في قوله: «إن البرهنة والحجاج بالنسبة إليّ يتصلان بنظامين مختلفين تماما، نظام نسميه عادة "المنطق"، ونظام أسميه الخطاب»².

وبذلك يعد الحجاج عند "ديكرو" لغويا، ينطلق من البنية الداخلية للغة أو الخطاب، بالتحديد من التلفظ؛ والذي بحثه كل من: "أوستين Austin" و"سيرل Searle"، والتي سنعرض لها في الآتي من صفحات هذا البحث.

هذه أهم المقاربات التي سنحاول إن شاء الله؛ البحث والاستقصاء عنها ضمن مدونتنا التراثية؛ بالإضافة إلى هاته القضايا التداولية قضايا أخرى من مثل: الأفعال الكلامية، الافتراض المسبق، الاستلزام الحوارية... التي سنذكرها في الصفحات الموالية.

¹ ينظر: شكري مبخوت، الحجاج في اللغة صمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، ص: 376.

² أوزفالد ديكرو، السلام الحجاجية، ص: 7-12. نقلا عن: صابر حباشة، تلوين الخطاب فصول مختارة من اللسانيات والعلوم الدلالية والمعرفية والتداولية والحجاج، ص: 204.

ثالثاً: أهم القضايا التداولية:

يعالج المنهج التداولي قضايا كثيرة، ولعل أهمها الآتي:

1. الأفعال الكلامية (Speech acts):

انطلاقاً من مفهوم التداولية المبني على أساس أنها نظرية تبحث في "علاقة العلامة بمستعملها"، متجاوزة بذلك استعمال اللغة إلى الإنجاز؛ حيث تركز نظرية "أوستين Austin" على فكرة "الإنجازية"، والتي مفادها أن بعض الملفوظات في حقيقتها لا تصف شيئاً في العالم، ولا يمكن الحكم عليها بمعيار الصدق أو الكذب، ولكنها تؤدي أفعالاً؛ من مثل: الوعد والتحذير ويحكم عليها بمعيار الفشل أو النجاح في الإنجاز.

والفعل اللغوي الكلامي هو «... كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي، إنجازي، تأثيري، وفضلاً عن ذلك يعد نشاطاً مادياً نحوياً يتوسل أفعال قولية acts locutoires لتحقيق أغراض إنجازية acts illocutoires (كالطلب والأمر والوعد والوعيد... إلخ) وغايات تأثيرية acts perlocutoires تخص ردود فعل المتلقي (كالرفض والقبول)، ومن ثم فهو فعل يطمح إلى أن يكون فعلاً تأثيرياً، أي يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطب اجتماعياً أو مؤسسياً، ومن ثم إنجاز شيء ما»¹، وكان "أوستين Austin" قد وضع ذلك عندما قسم الفعل الكلامي إلى ثلاثة أقسام²:

1. فعل القول³ (Acte-locutoire): ويراد به إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء

نحوي سليم وذات دلالة¹، حيث جعله يحوي عدة مستويات: (المستوى الصوتي، والمستوى التركيبي)، غير أن "أوستين Austin" أطلق بدل لفظ مستوى.

¹ - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص: 40.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص ص: 40-41.

³ - اعتمد هذه الترجمة بعض الباحثين؛ منهم: طالب هاشم الطبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية، الكويت، منشورات جامعة الكويت، 1994. وينبغي الإشارة إلى أن هناك ترجمات أخرى لهذه الأفعال الجزئية؛ منها: ترجمة "طه عبد الرحمن" في كتابه اللسان والميزان" المرجع المذكور سابقاً، وكذا "عبد القادر قنيني" في ترجمته لكتاب أوستين بعنوان "نظرية أفعال الكلام العامة،

2. الفعل المتضمن في القول (Acte-illocutoire)²: ويقصد به الغرض الانجازي

للفعل، أو الأفعال المنجزة حقيقة، بحيث يلزم المتكلم أو غيره (مقلبه) بعمل شيء من خلال أقواله كالوعد، والتحذير، والأمر والنهي، ويشكل الفعل الانجاز الحقيقي أساس النظرية التداولية لأنه يجسد الجانب التواصلية منها، ويرتبط بالغرض أو القصد، إذ يصرح بذلك في قوله- أقصد "أوستين"-: «وغيرنا من هذه المحاضرات متجه بالاساس إلى أن نتمكن من حصر المقولة الثانية الوسطى؛ وقوة فعل الكلام، ومقابلتها مع المقولتين الأخرتين. وفي الفلسفة يوجد ميل عام ثابت قار إلى طي ذكر هذه المقولة الوسطى لفائدة الأخرتين مع أنها متميزة عنهما»³، ولذلك اقترح تسمية الوظائف اللسانية الثأوية خلف هذه الأفعال "القوى الانجازية"، أو "الإنجازيات".

وقد زواج "فان ديك Van DiJk" بين الفعل الانجازي و السيمائية، لأنه يرى أن هذا النوع من الأفعال يتطلب متلقياً لتأويل الفعل، و وكذا قدرة المرسل على تبليغ خطابه، والتعبير عن قصده لتحقيق التواصل: «فاستعمال اللغة ليس عملاً فردياً بل عملية اجتماعية تتم من خلال تفاعل الأفراد فيما بينهم»⁴، وهذا النوع من الفعل يحيلنا مباشرة إلى النوع الثالث وهو:

3. الفعل الناتج عن القول (Acte Perlocutoire): أي الناتج عن إصدار سلسلة من

الأفعال القولية المصحوبة بقوى إنجازه؛ أو الآثار المترتبة عن الفعل الانجازي؛ أي «.. التسبب

الدار البيضاء، المغرب، 1991. ترجمه "علي آيت أوشان" فعل التلطف في السياق والنص الشعري، ترجمه أحمد المتوكل ب"فعل القول في اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، ص:20.

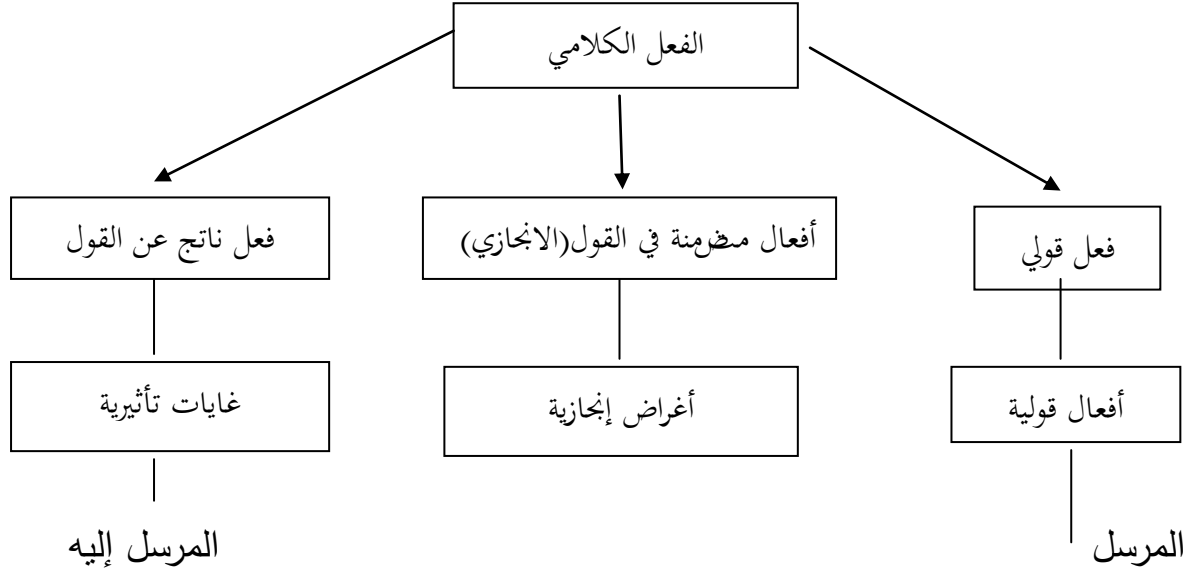
¹ – Austin : quand dir, c'est faire, le seuil, Paris 1970, P109.

² – تتوعدت المقابلات ههنا كذلك، منها؛ "الفعل التمريزي" في ترجمة سعيد الغانمي في ترجمة كتاب جون سيرل "العقل و اللغة والمجتمع"، ص:202.

³ – أوستين، كيف ننجز الأشياء بالكلام، ص:133.

⁴ – فان ديك: النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة: عبد القادر قنيني، افريقيا الشرق، 2000، ص:227.

في نشوء آثار في المشاعر، والفكر ومن أمثلة تلك الآثار: الإقناع، التضليل، الإرشاد»⁽¹⁾،
ويطلق عليه أيضا اسم "الفعل التأثيري"². والرسم الموالي يوضح ذلك:



كما يقترح "أوستين" تقسيما على أساس قوتها الإنجازية " illocutionary Force " إلى
خمسة أقسام للأفعال الكلامية:

- 1) **الحكميات (Verdictifs)**: وتتمثل في الحكم نحو التبرئة، الإدانة، الفهم، إصدار أمر، الإحصاء، التوقع، التصنيف، التشخيص، الوصف...
- 2) **التنفيذيات (Exercitifs)**: أو الأمريات: وتقضي بمتابعة أعمال مثل الطرد، العزل، التسمية، الاتهام، الاستقالة التوسل ... وتندرج التنفيذيات ضمن الصنف الأول فهي أعمال تنفيذ أحكام ولكنها ليست في حد ذاتها حكميات.
- 3) **الوعديات (Promissifs)**: وتسمى كذلك الإلزاميات أو أفعال التكليف، لأنها تلزم المتكلم بإنجاز فعل معين مثل "الوعد، الموافقة، التعاقد، العزم، النية...

¹ - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، مرجع سابق، ص:42.

² - عبد القادر قنيني، أوستين "نظرية أفعال الكلام"، مرجع سابق، ص:123.

4) السلوكيات (Comportatifs): والهدف منها هو إبداء سلوك معين يتفاعل مع أفعال الغير، مثل الشكر و الاعتذار وتقديم التهاني والتعازي والقسم و التحدي.

5) العرضيات (Expositis): وتسمى كذلك " التفسيريات "الهدف منها الحجاج والنقاش والتبرير، وتختص بعرض مفاهيم منفصلة مثل التأكيد، النفي، الوصف، الإصلاح...¹. ويمكن تلخيص تصنيف " أوستين " كما يلي « إنَّ الفعل المتعلق بحكم هو ممارسة لحكم، والفعل المتعلق بممارسة توكيد لنفوذ أو ممارسة سلطة معينة، والفعل الإلزامي هو اتخاذ تعهد أو إعلان عن قصد، والفعل السلوكي هو اتخاذ موقف، والفعل التفسيري هو توضيح مبررات وحجج ومعلومات»².

ونخلص من هذا التقسيم عند "أوستين " إلى أن وظيفة اللغة عنده هي استعمال وإنجاز لمجموعة من الأفعال اللغوية، وبذلك تصير الوحدة اللغوية الصغرى المعتمدة في التواصل هي الفعل بدل الجملة.

يبدو تصنيف " أوستين Austin " مفتوحاً ومرئياً، لذلك حاول "سيرل Searle " تطوير نظرية أفعال الكلام عند "أوستين"، واقترح معايير أخرى لتصنيف الأفعال الكلامية. إن اختلاف الهدف من الفعل الكلامي هو ما جعل "سيرل Searle " يعيد هذا التصنيف، فقد يكون الهدف منه هو القيام بفعل معين من جهة، وجعل الأفعال مطابقة للعالم، أو جعل العالم مطابقاً للأفعال من جهة أخرى، كما قد يختلف الهدف من الأمر، على أنه جعل المستمع يفعل شيئاً، والهدف من الوعد هو تعهد المتكلم بإلزام نفسه أن يفعل شيئاً و هكذا، فالهدف الإنجازي من " الأمر " و " الطلب " هو ذاته، كلاهما يجعلان المستمع يقوم بفعل شيء ما، ولكن القوة الإنجازية تختلف عن ذلك.

¹ - ينظر: فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص:62.

² - صالح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص: 224 .

وما قدمه " سيرل Searle " بالموازاة مع ما جاء به " أوستين Austin " أنه أعاد تقسيم الأفعال الكلامية، وميَّز بين أربعة أقسام:

1. فعل التلفظ (الصوتي والتركيبى).
2. (الفعل القضوي) الإحالي والجملى.
3. الفعل الإنجازي.
4. الفعل التأثيري¹.

كما أعاد تصنيف الأفعال الكلامية إلى خمسة أصناف؛ وهي²:

(1) **التأكيديات (التقريرات Assertifs)**: هدفها « هو تعهد المرسل بدرجات متنوعة بأنّ شيئاً ما هو واقعة حقيقية، وتعهد ذلك بصدق قضية ما وتهدف إلى جعل الكلمات تطابق العالم»³.

(2) **التوجيهيات (Directifs)**: هدفها دفع المرسل إلى فعل شيء ما، و يحاول تحقيق هذا الهدف بدرجات متفاوتة؛ تتراوح بين اللين وذلك بالإغراء والاقتراح أو النصح، والعنف والشدة وذلك بالإصرار على فعل الشيء وتسمى كذلك (الأوامر)، وهدفها جعل العالم يطابق الكلمات.

(3) **الالتزاميات (Commissifs)**: هدفها التزام المرسل بدرجات إنجاز فعل ما في المستقبل (التعهد) مبنية على شرط الإخلاص، وهنا يجب أن يطابق العالم الكلمات وهي توافق الوعديات عند " أوستين ".

(4) **التعبيريات (Expressifs)**: والهدف منها هو « التعبير عن حالة سيكولوجية محدّدة»⁴ وشرط هذه الحالة النفسية هو عقد النية والصدق في محتوى الخطاب، ومن أمثلتها :

¹ - ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص:99.

² - ينظر: الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص:124.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص: 123 .

⁴ - صالح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، مرجع سابق، ص:234 .

الاعتذار والشكر والتهنئة والنقد والقسم و« بأداء الفعل المعبر لا يحاول المتكلم أن يؤثر في العالم ليمائل الكلمات لتمائل العالم»¹، والملاحظ أنّ التعبيرات توافق إجمالاً السلوكيات في تصنيف "أوستين".

(5) التصريحيات (Déclarations): وتسمى كذلك الإدلاءات هدفها جعل العالم

يطابق الخطاب والخطاب يطابق العالم، مثل: أعلن، أصرح...

ويمكن تلخيص تصنيف "سيرل Searle" بالتالي: «لو اتخذنا الهدف الغرضي بوصفه فكرة محورية نصنف بها استعمالات اللغة، لوجد إذن عدد محدود إلى حد ما لأشياء أساسية نفعلها باللغة، نخبر الناس كيف توجد الأشياء، ونحاول التأثير عليهم ليفعلوا أشياء، ونلزم أنفسنا بفعل أشياء، ونعبر عن مشاعرنا ومواقفنا، ونحدث تغييرات بواسطة منطوقاتنا، وفي أحوال كثيرة نفعل أكثر من واحد من هذه الاستعمالات بمنطوق بعينه في آن واحد»²، و قدرة الشخص على فهم أفعال الكلام وإنجازها هي التي تجعله يعرف الطريقة التي تستخدم هذه الجمل لإطلاق الأحكام أو إلقاء الأوامر أو الوعود... أو غير ذلك.

2. متضمنات القول Les implicites:

كثيراً ما نقصد أكثر مما نقول، بمعنى أننا نضمّن في قولنا أموراً لا نذكرها بصريح العبارة، وهذا ما يدعى بـ"متضمنات القول" Les implicites " ويتعلق هذا المفهوم بـ « رصد جملة من الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية وخفية من قوانين الخطاب، تحكمها ظروف الخطاب العامة كسياق الحال وغيره»³، وتتشكل متضمنات القول من نمطين وهما: "الافتراض المسبق Présupposition" و "القول المضمّر Les sous-entendus" فالمتخاطبون ينطلقون من معطيات وافتراضات معترف بها ومتفق عليها بينهم؛ فالافتراض المسبق هو « الخلفية

¹ - المرجع السابق، ن ص.

² - المرجع نفسه، ص ص: 237- 238.

³ - مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب، ص: 30 .

التواصلية الضرورية لتحقيق النجاح في عملية التواصل، وهي محتواة ضمن السياقات و البنى التركيبية العامة»¹.

يختلف تأويل كل قول حسب السياق الذي يرد فيه، والطبقات المقامية التي ينجز ضمنها، لذلك فإنّ أوركينيوني "Orecchioni" تعرف القول المضمّر أو الضمني بأنّه «كثلة المعلومات التي يمكن للخطاب أن يحتويها، ولكن تحقيقها في الواقع يبقى رهن خصوصيات سياق الحديث»²؛ فالقول المضمّر هو معنى خفي متضمن في القول يُفسّر ضمن السياق الذي وُجد فيه، وقد يكون مخالفا تماما للمعنى الحرفي.

ومتضمنات القول في الخطاب هي مفهوم تداولي إجرائي يتعلق برصد جملة من الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية وخفية تحكمها ظروف عامة كسياق الحال وغيره، بمعنى أنّ أيّ حديث أو حوار يدور بين شخصين أو أكثر، هناك جانب صريح وآخر ضمني وهذا الأخير يُفهم من خلال حيثيات الكلام، فمثلا: "عندما يقول لك صديقك أشعر بخير اليوم أو أنّي في أفضل حال اليوم فأنت تلقائياً تفهم أنّه لم يكن كذلك بالأمس" ولهذا المعنى الذي استنتجه جاء معنى ضمناً من خلال قوله ويمكننا أن نستخرج عدة معاني ضمنية أخرى من هذا المثال البسيط:

- أنّ هذا الصديق كان يشكو من مرض بالأمس.

- أنّه بإمكانه إنجاز أي عمل اليوم

إضافة إلى ذلك فإنّ أقوالنا وحواراتنا لا تتم دائما بالتصريح، فهناك معوقات تمنعنا من التصريح في أقوالنا دائماً» والتداوليون على اختلافهم يجمعون على أنّ الإخبار لا يتمّ بالتصريح فقط ويعود ذلك إلى وجود العديد من المحظورات التي تمنع المتكلم من التصريح، وهذه المحظورات قد يكون مصدرها المجتمع، ممّا يحتويه من أخلاق وعادات و دين أو سياسة ... و ينعكس ذلك على اللّغة باعتبارها وليدة المجتمع»³.

¹ - المرجع السابق، ص:31.

² - المرجع نفسه، ص32

³ - عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، ط1، 2003، ص: 111.

و يلعب المجتمع دورًا كبيرًا في عملية التواصل « والكلام لا يعني تعويض كل فكرة بكلمة و إنما يعني أنّ إنشاء الكلام يتم انطلاقًا من تجربة تواصل »¹، وهذا ما يجعلنا نُشير بالضرورة إلى العلاقات أو الشكل الذي يكون عليه التضمينات أو المضمرات في علاقة هي التضمين. و قد عرّفه "غرايس" بقوله أنّ: « بعض الأقوال التي تتأى عن شروط حقيقة للجملة يطلق عليها تضمينًا »².

أو بمعنى آخر تُسمّى هذه العلاقة أيضًا بالمعاني الضمنية، يمكن تحديدها من خلال طبيعة المحادثة أو الخطاب فكلّ المعاني المتطرّق إليها في الحوار هي مُسمّيات متعارف على مدلولاتها ف« هناك معاني ضمنية متعارضة يحدّدها حسب قول "غرايس" "Grice" بالمعنى المتعارف للكلمات المستعملة »³.

المقصود أنّ كل الأحاديث المتداولة تخوض في معاني مُتعارف عليها أو تُعارف عليها أبناء المجتمع الواحد فمثلا عندما تقول كلمة: " مكتب " ؛ فالمتلقي أيضًا يعرف هذه الكلمة، وهذا الشكل كل المعنى يحيل إلى معنى، والنتيجة يكون معاني ضمنية والعلاقة الثالثة فهي تضمينًا صرفيًا أو معجميًا وهذه العلاقة « تستند إلى اللّغة أو المعجم أي إلى الدلالات الصرفية المرتبطة بالكلمات »⁴، معناه أنّ لكلّ جملة حوارية عدّة دلالات منها ما هو منطقي وحقيقي ومنها ما هو خاطئ وغير معقول، وهذا مرتبط بطبيعة الحال المتكلم، فتأويل الكلام يكون على أساس الناطق به.

ومثال ذلك يخطأ أحدهم وبدلاً من أن يقول: " محمد زميلي وليس صديقي " . يقول: " محمد زميلي ولكنّه صديقي " . فالسامع يؤوّل الحديث على أساس ما سمعه.

¹ - عيد السلام عشير، عندما نتواصل نتغير) مقارنة تداولية معرفية آليات التواصل و الحجاج (، إفريقيا شرق، المغرب، ص: 46.

² - المرجع نفسه، ص: 52 .

³ - جورج يول؛ جورج براون، تحليل الخطاب، ترجمة محمد الزليطي و منير التركي، جامعة الملك سعود، الرياض، 1997 م، ص: 96 .

⁴ - فرانسوا أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الأنماط القومي، بيروت، ص: 61 .

و على هذا الأساس يكون للمعنى الضمني احتمالات دلالية عديدة كالتالي:

- أن المتكلم يقصد أن محمداً زميل أولاً ثم صديق .
- أو أن الزمالة تعني له شيئاً و الصداقة شيئاً آخر .
- أو أنه يقصد أنه ليس كل زميل صديقاً .

والمعنى الثالث هو المعنى الصحيح بالنسبة للسامع، وعليه فالسياق هو وحده من يجعل أيّ من هذه التضمينات أصح.

ومصطلح متضمنات القول يرتبط بمفهومين هما: الافتراض المسبق والأقوال المضمرة:

أ. الافتراض المسبق **presup position**:

من أبرز مفاهيم التداولية "الافتراض المسبق"، ويُعدّ هذا الأخير ذا أهمية في كل تواصل لساني يعتمد على معطيات وافتراضات مُعترف بها وذلك لتحقيق النجاح في عملية التواصل، و قد عرّفه الكثير من الدارسون منهم "ديكرو" «على أنه العنصر الدلالي الخاص بالقول أو تحويله إلى الاستفهام هل؟ أو نفي لا»¹، ومثال على ذلك؛ قول أحدهم: "توقف عمر عن الدراسة." و إذا ما حولناها إلى صيغة "الاستفهام": "هل توقف عمر عن الدراسة؟"، والنفي: "لم يتوقف عمر عن الدراسة". نستنتج من هذه التغيرات الثلاثة أنّ "عمر كان يدرس"، هذا يعدّ افتراضاً مسبقاً، فقد تمكنا من معرفة حال "عمر" من خلال الصيغ التي قدّمها المتكلم.

والافتراضات المسبقة « لا يُصرّح بها المتكلمون وهي تشكّل خلفية التبليغ الضرورية»²، أي يقصد بها معطيات الموقف والافتراضات المعترف بها، والمتفق عليها من طرف المشاركين في العملية التواصلية، وتشكل هذه الافتراضات الخلفية التواصلية لتحقيق نجاح عملية التواصل، وهي محتواة في القول؛ ففي المثالين: "أغلق النافذة." و"لا تغلق النافذة". كليهما يعتبر خلفية "افتراض مسبق"؛ فحواها أن "النافذة موجودة"، وفي مثال آخر مثلاً؛ يسأل الطرف الأول الطرف الثاني: "هل صالحت أباك؟"؛ فيرد الطرف الثاني: "نعم، شكراً"؛ فمن هذين الملفوظين

¹ - عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص: 113 .

² - الجبالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، مرجع سابق، ص: 3 .

نستنتج أن الطرفين تربطهما علاقة تسمح بطرح مثل هذا السؤال، والسؤال يتضمن افتراضاً مسبقاً؛ هو أن الطرف الأول له والد وهناك مشكل حاصل بينهما، والطرف الثاني على علم بذلك، أما إذا كانت الخلفية الإخبارية غير مشتركة، فإن الإجابة قد تكون: " من قال لك أنني متخاصم مع أبي؟ ليس لي والد".

وعلى هذا الأساس ميز الباحثون بين نوعين من الافتراضات المسبقة¹: " الافتراضات المسبقة الدلالية"، و" الافتراضات المسبقة التداولية"، وللتمييز بينهما اعتمدت قضية الصدق والكذب أساساً لذلك، فالأول مشروط بها، فإذا كانت القضية (أ) مثلاً؛ صادقة استلزم صدق القضية (ب)، فإذا قلنا مثلاً: "إن المرأة التي تزوجها زيد كانت أرملة".

وكان هذا القول صادقاً لزم صدق القول الآخر؛ وهو: "زيد تزوج أرملة".

أما " الافتراضات التداولية" فهي غير مشروطة بقضية الصدق والكذب، فإذا قلت مثلاً:

"مكتبتي ثرية بالكتب"؛ ثم قلت: "مكتبتي غير ثرية بالكتب"؛ فعلى الرغم من التناقض الحاصل

بين القولين فإن " الافتراض السابق" أو المسبق وهو: " أن لي مكتبة" لا يزال قائماً.

وعليه؛ يمكننا القول أن الافتراض المسبق يلعب دوراً مهماً في عملية التواصل، فنجاحها يتعلق

بوجود خلفية مشتركة من الافتراضات المسبقة، في حين يؤدي الافتقار إلى مجموع الافتراضات

المسبقة الضرورية لعملية التبليغ إلى سوء التفاهم.

ب. الأقوال المضمرة: تعتبر الأقوال المضمرة نمطاً من أنماط متضمنات القول، بحيث

ترتبط بوضعية الخطاب ومقامه على عكس الافتراض المسبق الذي يحدّد على أساس معطيات لغوية.

فالقول المضمّر لا يتحقّق في الواقع إلا وفق خصوصيات سياق الحديث ومثال ذلك قول

أحدهم: "إنّ السماء ممطرة"، وربما من خلال هذا السياق يحاول المتكلم الإشارة إلى الإسراع

¹ - ينظر: خديجة بوخشة، محاضرات في اللسانيات التداولية، ص: 37

حتى لا يفوته موعد العمل، أو لا بدّ له من المكوث بالبيت، أو أنّه يشير إلى حمل المظلة معه...

وقائمة التؤوليات كثيرة وإذا حاولنا المقارنة بين متضمّنين « فإنّ الافتراض المسبق وليد السياق الكلامي والثاني ملابسات الخطاب»¹، أي أنّ هذا النوع أو النمط يكون خاصًا بالمتكلم، فهو على علاقة بأقواله و يُستنتج من خلال الخطاب ومغزى المتكلم منه إذ يعني كل المعلومات المصاحبة للقول.

تعرفه "أوركينيوني" بقولها: « هو كل المعلومات التي يمكن للكلام أن يحتويها ولكن تحقيقها في الواقع يبقى رهن السياق»²؛ ومثال ذلك عندما تقول لصديقك: " تحرّ الصدق ". إمّا أنّك تحاول أن تشير إلى أنّك لا تحب الكذب، أو أنّك تريد الدقة في الخبر، أو أنّك تكره صيغة الكذب فيه.

فالقول المضمّر عبارة عن استنتاج بما أنّ محلّ الخطاب شأنه في ذلك شأن المخاطب لا يملك طريقة مباشرة للوصول إلى المعنى المقصود من طرف المتكلم عند تلفظه بالقول، فهو في الغالب يحتاج إلى عملية الاستنتاج تُمكنه من الوصول إلى فهم المقولات»³، وللقول المضمّر ميزتان هما:

أولاً؛ أنّه غير مستقر أي أنّه يصعب تحديده.

ثانياً؛ أنّ المتكلم يمكنه أن يتخفى وراء المعنى الحقيقي الذي يريده هروباً من ردة فعل المتلقي إذا كان قد انزعج إلى معنى آخر⁴.

¹ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العرب)، ص: 32.

² عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص: 1.

³ جورج يول؛ جورج براون، تحليل الخطاب، ترجمة محمد الزليطي و منير التركي، ص: 32.

⁴ ينظر: عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص: 1.

وهذا كما في المثال السابق فإنك عندما تقول لصديقك: " تحزّ الصدق " ربما قد ينزعج منك لاعتقاده بأنك تصفه بالكذاب عندها قد تضطر الاختفاء وراء المعنى الآخر فتقول له: "لم أقصد هذا، وإنما قصدت التأكد من صحة الخبر".

وهناك مفهوم قريب من القول المضمّر وهو التلميح "Allusion": « الاستدانة غير الحرفية المستترة، ويُمكن للتلميح أن يُرسل أيضًا إلى نص سابق دون أن يؤدي إلى التنافر كما هو الحال في الاقتباس، ويكون التلميح، أحياناً، دلاليًا، صرفاً دون أن يكون تناصاً بالمعنى الحرفي للكلمة، و تلك حالة التلميح الجنسي في عبارة " لا يفكر إلا ذا"، و يُرسل التلميح أحياناً إلى كوكبة نصوص، بدل الإشارة إلى نص محدد»¹؛ فالتلميح هو القول الخفي المضمّر في الخطاب.

سَعَت " أوركبوني " إلى التمييز بين القول المضمّر والافتراض المسبق، فرأت أنّ الافتراض المسبق يتعلّق مباشرةً بالبنى التركيبية العامة على عكس القول المضمّر الذي يتم استنتاجه انطلاقاً من الملكة البلاغية التداولية- الموسوعة والمنطقية - وكذا المتكلم²؛ فهي تشير إلى طبيعة كل منهما كافتراض المسبق يمكن أن يحدّد في نفس الكلام ويعتبر التوتر الشائع بين المتكلمين على غرار القول المضمّر الذي ترى فيه مسؤولية المتلقي.

3. الاستلزام الحوارية (Conversational Implicature):

ترجع نشأة البحث في هذا الموضوع من موضوعات البحث التداولي إلى الفيلسوف "غرايس Grice"، من خلال محاضراته التي كان يلقيها في جامعة "هارفارد" سنة 1967، فقد لاحظ أن الناس في حديثهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون، جاعلاً بذلك كل همه هو إيضاح الاختلاف بين ما يقال what is said و ما يقصد what is meant، فما يقال هو ما تعنيه الكلمات بقيمتها اللغوية، وما يقصد هو ما يريد المتكلم إبلاغه على نحو غير مباشر، ويتضح ذلك أكثر من خلال الحوار الآتي:

¹ - تيفين ساميول، التناص ذاكرة الأدب، ترجمة نجيب غزاوي، منشورات الكتاب العربي، دمشق، 2007 م، ص: 32 .

² - عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص: 116 .

حيث يسأل أحد الآباء أحد الأساتذة؛ من أجل التوجيه الصحيح لابنه: "هل هذا الطالب مستعد لمتابعة دراسته الجامعية في قسم الفلسفة؟". فيجيبه الأستاذ: "إن هذا الطالب لاعب كرة قدم ممتاز"¹.

لاحظ الفيلسوف "غرايس Grice" أن الحمولة الدلالية لإجابة الأستاذ تدل على معنيين أحدهما حرفي والآخر مستلزم، المعنى الحرفي و هو المستخلص من الجملة، أي أن الطالب من لاعبي كرة القدم الممتازين، أما الثاني فهو أن هذا الطالب ليس مستعداً لمتابعة دراسته في قسم الفلسفة، ويمكن أن يطلق على الأول (المعنى الصريح) وعلى الثاني (المعنى الضمني)، ويعتمد على قدرة السامع على الوصول إلى المقصود من الكلام، وذلك بما يتاح له من أعراف الاستعمال، ووسائل الاستدلال، وهذا الجسر الذي أقامه بين ما يحمله القول من معنى صريح و بين ما يحمله من معنى متضمن؛ وهو ما نشأت عنه فكرة "الاستلزام"². وينقسم الاستلزام إلى قسمين:

1. عرفي: قائم على ما تعارف عليه أصحاب اللغة من استلزام بعض الألفاظ دلالات

بعينها لا تتغير بتغير التراكيب والسياقات.

2. حوارية: متغير بتغير السياقات التي يرد فيها³.

ولوصف هذه الظاهرة أكثر اقترح "غرايس Grice" "نظرية المحادثة"؛ والتي مفادها أن

التواصل الكلامي محكوم بمبدأ عام⁴، هو مبدأ التعاون و بمسلمات حوارية.

و"مبدأ التعاون" يقتضي أن المتكلمين يتعاونون فيما بينهم لتسهيل عملية التخاطب، ويبنى

هذا المبدأ على أربعة مبادئ فرعية؛ هي:

1. مبدأ الكم: اعط مقداراً صحيحاً من المعلومات بلا زيادة أو نقصان.

¹ - ينظر: الجيلالي دلاش، مرجع سابق، ص: 34 وما يليها، ومحمود أحمد نحلة: مرجع سابق، ص: 26 وما بعدها.

² - ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ص: 32-33.

³ - المرجع نفسه، ص: 33.

⁴ - لمزيد من التوضيح ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، مرجع سابق. ومحمود أحمد نحلة: مرجع سابق.

2. مبدأ الكيف/الصدق: حاول أن يكون إسهاماً حقاً وصواباً، لا تؤكد ما تعتقد كذبه.

3. مبدأ المناسبة/العلاقة: تحدث كلاماً في محله، وليكن كلامك على علاقة مناسبة

للموضوع.

4. مبدأ الطريقة/الأسلوب: كن واضحاً ومحددًا، أوجز وتجنب الغموض واللبس، وحافظ

على الترتيب والنظام.

إلا أن الملاحظ؛ أن الناس أو المتكلمون كثيراً ما يخلفون هذا المبدأ، مما جعل الباحثين

يعتبرونه معياري ومثالي.

وبعد هذه الإطلاقة السريعة على أبرز المفاهيم التداولية في النظرية الغربية؛ نخرج الآن

للدراسات العربية الحديثة، وهنا نطرح التساؤل التالي: هل يا ترى تأثر الباحثون العرب

المحدثون بهاته التداوليات؟، وإن كان ذلك؛ فما إسهاماتهم في هذا المجال؟.

المبحث الثاني: الفكر التداولي في الدرس العربي الحديث:

شاع مصطلح التداولية - على اختلاف تسمياته- في مؤلفات العديد من الباحثين العرب المحدثين، فأخذ يتردد في مؤلفاتهم في أزيد من موضع، و في أكثر من مرجع. و المتفحص و المتأمل في أبعاد هذا المصطلح؛ سيجده منثورا في ثنايا كتب التراث العربي، بمختلف العلوم من: فقه وأصوله، وبلاغة و نحو، فقد التفت القدامى على اختلاف تخصصاتهم وتوجهاتهم إلى موضوع التداولية، وذلك واضح وبيّن فقد اهتموا بالمخاطب، والمخاطب، والمقام الذي يجري فيه الحدث الكلامي، والعناية الفائقة بمقاصد المتكلم وعملية التواصل عموماً، والواضح أنهم لم يغفلوا عن التمثيل للبعد التداولي للغة، وهو الأمر- أيضاً- الذي لم يغفله العرب المحدثون ممن استقرغوا الجهد في سبيل دراسة البعد الاستعمالي للغة، وقبل التعرض لجهود بعض هؤلاء الباحثين ؛ سنحاول أن نسلط الضوء أولاً على الإشكالات المطروحة حول ترجمة المصطلح إلى الدراسات العربية.

1. إشكالية الترجمة و المصطلح:

ترجمت "التداولية" في الدراسات العربية الحديثة إلى عدة تسميات، فقبل: "البراغماتية" و"البراغماتيك" وقيل: "التداولية" و"التداوليات"، و"المقامية"، و"الذرائعية"، و"النفعية"... ، و"علم التداول" و"المقاصد"¹، وهذا الكم الهائل من المصطلحات نتج عنه تلك الفوضى المصطلحية التي تشهدها الدراسات العربية الحديثة، والتي لا تخدم بأي حال من الأحوال الدرس اللغوي العربي.

كما حدث خلط في مؤلفات الباحثين المحدثين بين علم "التداولية" Pragmatics و"المذهب البراجماتي" Pragmatism ؛ إذ « يجب ألا نخلط بين علم التداولية Pragmatics والمذهب البراجماتي Pragmatism وهو المذهب الفلسفي الذي يحدد التركيز على كل ما له

¹- ينظر: عبد الحليم بن عيسى، المرجعية اللغوية في النظرية التداولية"، مجلة دراسات أدبية، مركز البصيرة للبحوث و الاستشارات والخدمات التعليمية، الجزائر، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، العدد الأول 1429هـ/2008م، ص:9-10. وخليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص:65.

أهمية عملية للبشر، وتجنب البحث في القضايا المطلقة والمجردة»¹ حيث ينطلق هذا المذهب الفلسفي من مبدأ أن الفكرة ليست في الصور والأشكال التي تثيرها في الذهن وليست في انطباقها على حقائق الموجودات، وإنما في الأعمال التي تؤدي إليها هذه الفكرة، في حين تتجاوز التداولية تفسير اللغة في ذاتها إلى تفسيرها حال استعمالها في الواقع العملي².

ومن الباحثين الذين وقعوا في هذا الخطأ وهذا الخلط؛ مثلاً: الباحثة "راضية بوبكري"؛ إذ ترى أن "البرجماتية" غير "الذرائعية" في حين أنهما واحد، ويتضح ذلك بقولها: «يمكننا أن نرجع أصل التداولية إلى اتجاهين مختلفين: اتجاه ينطلق في دراسته التداولية من كونها نظرية في التعامل الاجتماعي، تهتم بالجانب الاستعمالي، أي استعمال اللغة، بزعامة أوستين، واتجاه فلسفي منطقي تعود جذوره إلى بيرس الذي أطلق عليها اسم البرجماتية عام 1905.

كما نعثر على مصطلح "برغماتية" في ترجمة "سعيد حسن بحيري" لكتاب علم النص مدخل متداخل الاختصاصات "فان ديك"³، والذي استعمله أيضاً؛ "نعمان بوقرة" في كتابه المدارس اللسانية المعاصرة⁴، في حين فضل "سيد هاشم الطبطبائي" في كتابه "نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب؛ مصطلح "علم التداول"⁵، وغيرها من المصطلحات التي يضيق المقام على ذكر جميعها.

ولنا أن نردّ هذا الاختلاف المصطلحي لدى الباحثين العرب المحدثين إلى اختلاف مرجعياتهم الفكرية؛ فهي ليست واحدة، فبعضهم لا يتجاوز الترجمات الحرفية للدراسات الغربية، وبعضهم وقع في الخلط والوقوع في فخ الترجمات الخاطئة وهذا ما يجعل الكثير من القراء أمام

¹ - ينظر: محمد عناني، المصطلحات الأدبية الحديثة، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، مصر، (د . ط)، 1996، ص:77-78.

² - ينظر: عيد بلع، "التداولية، إشكالية المفاهيم بين السياقين الغربي والعربي"، مجلة الفكر، مجلد8، العدد 3 يناير /مارس، 2000، ص:15-44.

³ - ينظر: فان ديك، علم النص "علم متداخل الاختصاصات"، ترجمة حسن البحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، 2011، ص:11.

⁴ - ينظر: نعمان بوقرة، المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، 2000، ص:165.

⁵ - سيد هاشم الطبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية بين الفلاسفة المعاصرين والبلاغيين العرب، ص:30.

ركام من الترجمات، إلا أنّ هذا لا ينفى وجود ثلّة من الباحثين صرفت بحوثها إلى دراسة الأحداث الكلامية والدراسات التداولية عموماً، أي دراسة اللغة بوصفها نشاطاً أو حدثاً لغوياً؛ كما أولت العناية بمقاصد المتكلمين، وكذا العنصر الدلالي والتداولي المحدّد للقول... ونذكر منهم: "أحمد المتوكل"، "طه عبد الرحمن"، "محمد العمري" ... وكثيرون سنذكر ثلّة منهم في الآتي من الصفحات.

2. نماذج عن بعض الدراسات التداولية في الوطن العربي:

ركزت الدراسات الغربية الحديثة على دراسة الجانب الاستعمالي للغة، وفق نظرية تخضع إلى مراحل الملاحظة والمقارنة والتحليل، بوصفها بناء تراكمياً، وقد تأثر بهذا التيار الجديد الكثير من الباحثين العرب المحدثين، إذ حاولوا دراسة البعد الاستعمالي للغة، استناداً على المنطلقات النظرية للسانيات الغربية، فاهتموا بدراسة أطراف التواصل ومقاصد المتكلمين، وحال الخطاب و مقامه، من وجهة نظر يبدو تأثير المناهج الغربية فيها بيّناً لا لابس فيه؛ ومنهم:

1. طه عبد الرحمن:

هو الفيلسوف المغربيّ وأستاذ المنطق وفلسفة اللّغة في جامعة الرباط بللمغرب الأقصى، و« هو أحد المفكرين العرب الأوائل، الذين حاولوا التعريف بالفكر التداولي و تطبيقه في بعض مناحي الثقافة العربية الإسلامية لقد اهتم طه بالقضايا التداولية من وجهة نظر منطقية و فلسفية مستمداً وسائله النظرية والمنهجية من عِلْمين، حقّقاً نتائج باهرة هما: اللسانيات و المنطق»¹.

ولقد حاول "طه عبد الرحمن" أن يستقلّ عن المعايير الأجنبية في الوصف، حيث صرّح بذلك في كتابه "أصول الحوار وتجديد علم الكلام" في قوله: «اجتهدنا قدر المستطاع في الأخذ

¹ - مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، دراسة نقدية في المصادر و الأسس النظرية و المنهجية، ص: 249.

بأسباب اللغة العربية في التعبير والتبليغ، ووظفناها في التنظير لموضوع هذا البحث»¹، فهو يحاول أن يوصل لهذا العلم اللغوي في التراث العربي.

كما عاب على بعض الدارسين تأثرهم الشديد بالدراسات الغربية، فيصفهم بقوله: «غلب على الباحثين العرب في وضع مصطلحاتهم العلمية، و بناء أجهزتهم الوصفية والتفسيرية الاشتغال بقوالب ومعايير اللغة الأجنبية، الفرنسية والانجليزية، فلا نكاد نجد عند معظمهم من المعاني العلمية إلا ما كان نقلاً حرفياً لمصطلحات أجنبية من غير وعي بأصول بعضها النسبية، و فائدتها المحدودة، وبلغ سلطان هذه المعايير على هؤلاء درجة أصبحت معها ألفاظهم «أشكالاً» منقطعة الصلة بدلالاتها اللغوية، و فاقدة لأسباب الإنتاج و التغيير في الفكر العلمي»².

فهو يحاول تخليص الفكر العربي من أسرار الفكر الغربي ومن سطوة المصطلحات الأجنبية وغلبتها على الدراسات العربية.

ومن أبرز جهوده، محاولته تقسيم اللسانيات إلى ثلاث أقسام؛ وهي³:

➤ **الداليات**: هي الدراسات التي تختص بوصف الدال الطبيعي، في نطقه و صورته و

علاقاته، وبذلك تكون الداليات على ضوء هذا المفهوم شاملة للأقسام الثلاثة المشهورة: الصوتيات والصوفيات، و التركيبات.

➤ **الداليات**: هي الدراسات التي تختص بتفسير العلاقات التي تجمع بين الدوال الطبيعية

ومدلولاتها، سواء اعتبرت تصورات في الذهن أو أعياناً في الخارج .

➤ **التداوليات**: هي الدراسات التي تختص بتحديد العلاقات التي تجمع بين الدول الطبيعية

،ومدلولاتها و الدالين بها .

¹ - طه عبد الرحمن، في أصول الحوار و تجديد علم الكلام ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، (ط 2) ، 2000م، ص:29.

² - المرجع نفسه، ص: 29.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص: 28.

والملاحظ من هذا التقسيم؛ أنه اختار مصطلح "التداوليات" مقابلاً للمصطلح الغربي "Pragmatics"، حيث قسّم هذا الباحث "التداوليات" إلى ثلاثة أبواب هي: باب "أغراض الكلام"، وباب "مقاصد المتكلمين"، وباب "قواعد التخاطب"، و الملاحظ أن هذا المصطلح - تداوليات- لاقى رواجاً كبيراً لدى الدارسين، لأنه يوفي المطلوب حقه، باعتبار دلالته على معنَيي "الاستعمال" و"التفاعل" معا¹.

ثم يضيف مبرراً سبب اختياره لمصطلح "التداولية"؛ فالتداوليات من فعل "تداول"، الذي يفيد معنى "تناقله" الناس وأداروه فيما بينهم، أو قُلْ معنى "التواصل" و معنى "التفاعل"، فيكون التداول تبعاً لذلك جامعاً بين جانبيين هما: التواصل والتفاعل²، واستناداً للمعنى اللغوي للفظ حدّد "طه عبد الرحمن" "التداوليات" بقوله: «فالتداول عندنا، متى تعلق بالممارسة التراثية، هو وصف لكل ما كان مظهراً من مظاهر التواصل والتفاعل بين صانعي التراث من عامة الناس و خاصتهم»³.

كما حاول "طه عبد الرحمن" تسليط الضوء على الدراسات التراثية، ومحاولة قراءتها قراءة خبير متميز متمكن حيث خص دراسته بـ "المجال التداولي"، ويتضح تعريفه بقوله: «كما أن المجال في سياق هذه الممارسة، هو وصف لكل ما كان نطاقاً مكانياً و زمنياً لحصول التواصل و التفاعل...؛ هو إذن محل التواصل و التفاعل بين صانعي التراث»⁴. و كان ناتج ما توصل إليه أنه وضع شروطاً للتداول اللغوي، والتي يمكن تلخيصها فيما يلي⁵:

¹ - ينظر: المرجع السابق، ن ص.

² - ينظر: طه عبد الرحمن، تحديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، (ط 3)، 2007، ص: 244.

³ - طه عبد الرحمن، «الدلالات و التداوليات (أشكال و حدود)»، ندوة البحث اللساني و السيميائي، كلية الآداب و العلوم الإنسانية الرباط، جامعة محمد الخامس -المغرب، (ط1)، 1405 هـ -1984 م، ص: 299.

⁴ - طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ص: 244.

⁵ - ينظر: طه عبد الرحمن، في أصول الحوار و تجديد علم الكلام، ص ص: 37-38.

- 1 -المنطقية: التي يجب أن يمتاز بها كل محاور ناطقا حقيقيا إلا إذا تكلم لسانا طبيعيا معينا، و حصل تحصيلا كافيا صيغه الصرفية و قواعد النحوية و أوجه دلالات ألفاظه و أساليبه في التعبير و التبليغ؛ و لهذا المنطوق شروط هي:
-أوله ا: أن لا تنفصل الصورة اللفظية عن مضامينها، التي كلما كانت صلتها بالمعتقدات و المقاصد، كان تأثيرها في المخاطب أعمق.
-ثانيهم ا: أن يكون هذا المنطوق متعدد الوظائف و متداخل المستويات تتراوح فيه الأقوال، و يتمازج فيه الاعتقاد بالانتقاد.
-ثالثهما: أن يكون المنطوق موجها توجيهيا عمليا، تتداخل فيه الوقائع مع القيم و المعطى و المبني، و المعنى مع المبني.
-رابعهما: أن تبني موضوعاته بناء تدرجيا، فيكون بذلك مفتوحا فتحا مستمرا، ذلك أن الموضوعات تنقلب في أحوال دلالية متعددة، تنتقل فيها من الإجمال إلى التفصيل، و من الإشكال إلى التبيين، و من الخفاء إلى الظهور.
- 2 -الاجتماعية: يمتاز الحوار بين الطرفين ببعده الاجتماعي، فالمحاور يُطع مُحاوره على ما يعتقد و ما يعرف، و يطلب منه أن يتفاعل معه تفاعلا يزيد البعد الاجتماعي رسوخا، فالحوارية تقوم على مبدأ التعاون.
- 3 -الإقناعية: إن مطالبة المحاور مشاركة غيره في اعتقاداته هي مطالبة لا تكتسي صبغة الإكراه، بل قوامها الاقتناع برأي المحاور.
- 4 -الاعتقادية: لا يقتنع المحاور برأي غيره إلا إذا اعتقد أن هذا الرأي مقبول، و يعتقد صحة هذا الاعتقاد، و ما يلزم عنه، و صحة الدليل الذي يقمه على رأيه.
والمتمثل لدراسات "طه عبد الرحمن" التداولية يلحظ أنها تمتاز بنظرة شمولية وتكاملية للتراث، إنها نظرة بعيدة كل البعد عن الاختيار التجزيئي في تقويم التراث، مركزاً فيها على مفهومين هما: مجال التداول و التقريب التداولي.

ومن اجتهاداته أيضا؛ محاولته وضع شروط للمناظرة؛ حيث يرى "مصطفى غلفان" أن في « محاولته تحديد شروط المناظرة المادية و المعنوية، ووظائفها و أخلاقيات المتناظرين، و تبعا لذلك سعى الباحث إلى تحديد مكونات البنية الخطابية و المنطقية و تباين السمات التداولية لوسائل الاستدلال التي اعتمدت في المناظرة من قبل علماء الكلام المسلمين ، مثل القياس و الاستنباط و الاستقراء »¹؛ إذ توصل بعدها إلى حقيقة تداولية هي أن "الأصل في التفكير هو المناظرة"، فلا ن فكر إلا و نحن اثنان، بل لا ن فكر إلا و نحن زوجان، سواء أكان هذا التفكير مع الغير أو مع النفس، و ذلك أن التفكير مع النفس هو مناظرة داخلية متفرعة عن الأصل الأول الذي هو التفكير مع الغير، يقول: « لا كلام إلا بعد اثنين و لو كان كلام المرء مع نفسه، و لا اثنين إلا عارض و معترض، و لا عارض إلا بدليل، و لا معترض إلا لطلب الصواب، و لا طلب للصواب إلا بجملة من القواعد»².

و هذا يعكس رؤية منهجية ناقدة خاصة ب"طه عبد الرحمن"، والتي بدورها تعكس وعيه الكبير بأهمية المنهج العلمي وضرورة التسلح به لاستثمار مبادئ التحليل العلمي المضبوط، الذي يمكننا أن نستعمله في دراسة واعية للفكر العربي قديمه و حديثه؛ فهو قامة سامقة في مجال الفكر التداولي بلا ريب.

¹ - مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر و الأسس النظرية و المنهجية، ص: 250. طه عبد الرحمن، في أصول الحوار و تجديد علم الكلام، ص: 93. و اللسان و الميزان و التكوثر العقلي، ص: 214، و القضية ذاتها ناقشها محمد قنديل في مقاله « الكوجيتو الديكارتي »، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الأدب، الكويت، العدد 2، المجلد 33، أكتوبر - ديسمبر 2004، ص: 252.

² - طه عبد الرحمن ، في أصول الحوار و تجديد علم الكلام ، ص : 93 و اللسان و الميزان و التكوثر العقلي، ص : 214 و القضية ذاتها ناقشها محمد قنديل في مقاله « الكوجيتو الديكارتي »، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الأدب ، الكويت ، العدد 2 ، المجلد 33 ، أكتوبر - ديسمبر 2004، ص: 252.

2. أحمد المتوكل:

صنّف الباحث "مصطفى غلفان" مؤلفات "أحمد المتوكل" من أهم البحوث التي تتحو

منحاة وظيفية بالمعنى اللساني المعاصر، لعدة أسباب لخصها فيما يلي¹:

- إثراؤها النظري و المنهجي للدرس اللساني العربي الحديث بإضافة إطار نظري جديد

لوصف بنيات اللغة العربية و تفسيرها.

- تكامل الدراسات و الأبحاث التي قدمها " أحمد المتوكل"، بحيث تم اتخاذ الوظيفة عامة

و النحو الوظيفي بصفة خاصة إطارا نظريا و منهجيا لتحليل اللغة العربية تحليلا شموليا

متكاملا.

- تقيدها بصرامة البحث العلمي وشروطه النظرية و المنهجية المتمثلة في تحديد

الموضوع و توضيح الإطار النظري و الدقة في التحليل.

+ اهتمامها بتحديد الإطار النظري المعتمد من خلال انخراط المتوكل نفسه في الكتابة

التمهيدية التي تعرف بالأصول العامة للسانيات الوظيفية ومبادئها.

ومن أفكاره الرائدة في ما يخص تصوراتهِ التداولية قوله أن القدرة التواصلية لدى مستعمل

اللغة الطبيعية، تتألف من خمسة ملكات على الأقل، وهي: الملكة اللغوية، الملكة المنطقية،

الملكة المعرفية، الملكة الإدراكية، الملكة التواصلية، لدى مستعمل اللغة الطبيعية، وهذا بيانها²:

1. **الملكة اللغوية:** تمكن مستعمل اللغة الطبيعية أن ينتج أو يؤول عبارات لغوية ذات

بنيات متنوعة في مواقف تواصلية مختلفة .

¹- ينظر: مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر و الأسس النظرية و المنهجية ص ص

244-245، و صلاح الدين ملاوي، التراكيب النحوية العربية في ضوء التحليل الوظيفي، ص: 256.

²- ينظر: أحمد المتوكل، آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، سلسلة بحوث و دراسات رقم 05، منشورات كلية الآداب و

العلوم الإنسانية الرباط -المملكة المغربية -، دار الهلال العربية المغرب، (ط 1)، 1993، ص8-9 و قضايا اللغة العربية

في اللسانيات الوظيفية (البنية التحتية أو التمثيل الدلالي التداولي)، دار الأمان للنشر و التوزيع، الرباط -المغرب، (د.ط)

، 1995، ص 25.

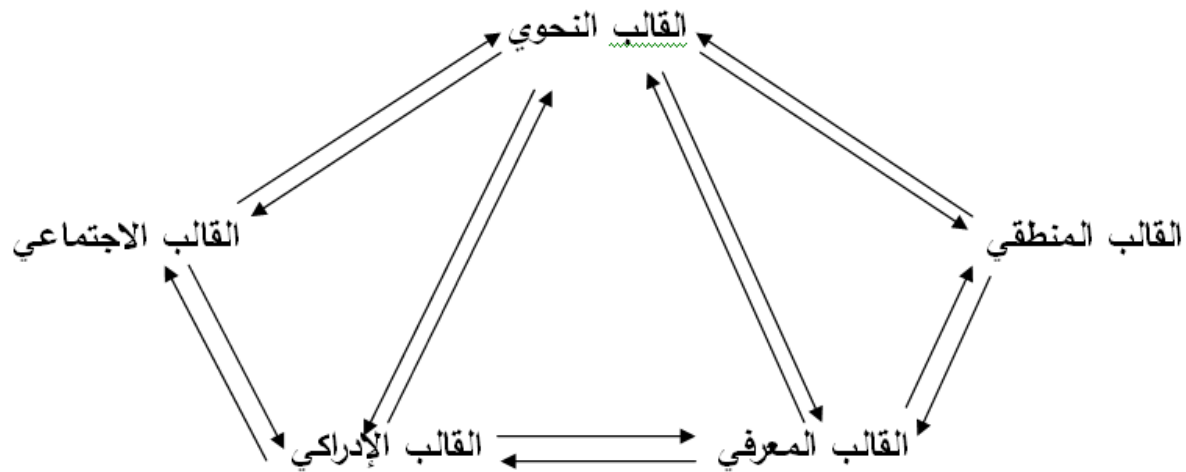
2. **الملكة المنطقية:** بما أن مستعمل اللغة الطبيعية مزود بمعارف معينة فإنه يستطيع أن يشتق معارف أخرى، بواسطة قواعد استدلال تحكمها مبادئ المنطق الاستنباطي و المنطق الاحتمالي.

3. **الملكة المعرفية:** تمكن مستعمل اللغة الطبيعية أن يكون رصيذا من المعارف المنظمة، كما أن لديه القدرة على تخزين هذه المعارف لاستحضارها و توظيفها في إنتاج العبارات اللغوية و تأويلها.

4. **الملكة الادراكية:** بواسطتها يستطيع مستعمل اللغة الطبيعية، أن يدرك محيطه، و أن يشتق من إدراكه ذلك المعارف، و أن يستعمل هذه المعارف في إنتاج العبارات اللغوية وتأويلها.

5. **الملكة الاجتماعية:** تمكن مستعمل اللغة الطبيعية من موقف تواصلية معين قصد تحقيق أهداف تواصلية معينة.

و تتفاعل هذه الملكات فيما بينها، بحيث يشكل كل منها مخرجا أساسيا بالنسبة لسائر الملكات الأخرى على النحو الآتي¹:



كما اهتم " المتوكل " بتحديد طبيعة الوظائف التداولية في اللغة العربية، علما بأن النحو الوظيفي يقسم هذه الوظائف إلى وظائف داخلية و أخرى خارجية² ، الغاية منها تحديد المنزلة

¹ - ينظر: أحمد المتوكل، أفاق جديدة غي نظرية النحو الوظيفي، ص:10.

² - ينظر: مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر و الأسس النظرية و المنهجية، ص: 271.

المعلوماتية لمكونات التعابير اللغوية بالنظر في مقومات معينة¹، أما الوظائف الداخلية، فتتمثل في المحور و البؤرة، في حين أن الوظائف الخارجية تتمثل في: المبتدأ و الذيل و المنادى، و هذا بيانها:

الوظائف الداخلية: تستند إلى أحد موضوعات الحمل، و تتمثل في:

1. المحور (TOPIC): هي الوظيفة التي تسند للمكون الدال على الذات التي تشكل محط الحديث داخل الحمل².

2. البؤرة (Focus): وتسند للمكون الحامل للمعلومة الأكثر أهمية أو الأكثر بروزا في الجملة³، و يتعلق « البعد البؤري في العبارات اللغوية بالجانب الإخباري الذي يعده المتكلم غير متقاسم بينه و بين المخاطب، و تسند الوظيفة البؤرة إلى العنصر من الجملة الدال على المعلومة التي يفترض المتكلم أنها المعلومة غير المشتركة»⁴، و يمكن التمييز بين نمطين من البؤر هما:

*بؤرة الجديد: هي « البؤرة المسندة إلى المكون الحامل للمعلومة التي يجهلها المخاطب»⁵، كما هو الشأن في المحاور التالية⁶:

(أ) : ماذا شربت بعد الأكل ؟

(ب) : (شربت) كأس شاي .

و تقسم بؤرة الحديد إلى بؤرتين اثنتين هما⁷:

¹ - voir :Simon Dick , Functional Grammar , Publications , in language Sciences , Series , Foris publications , Dordrecht* Holland, USA , 1981 , P 13.

² - voir:Simon Dick , Advances in Functional Publications Grammar , In language Sciences ; Series , Foris Publication , Dordrecht- Holland , 1983 , p 7

³ - ينظر: أحمد المتوكل، أفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، ص:10.

⁴ - أحمد المتوكل، أفاق جديدة في النحو الوظيفي، ص: 51 .

⁵ - أحمد المتوكل الوظائف التداولية في اللغة العربية، منشورات الجمعية المغربية للتأليف و الترجمة و النشر، دار الثقافة،

الدار البيضاء - المغرب، ط1 ، 1405هـ -1985م، ص: 28.

⁶ - ينظر: أحمد المتوكل، أفاق جديدة في النحو الوظيفي، ص: 51 .

⁷ - ينظر: المرجع نفسه، ص: 51-52. و ينظر: دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ص: 128.

-بؤرة تميم: تسند إلى المكون الذي يدل على المعلومة المراد بها اغناء معلومات

المخاطب.

-بؤرة طلب: تسند إلى المكون الحامل للمعلومة التي يتوخاها المتكلم من المخاطب ، و

يمكن التمثيل لهذين النوعين من البؤرة بالمكونين " لماذا" و " كأس شاي" في الجملة السابقة (أ) و الجملة (ب) على التوالي.

و من الوارد أيضا التمييز بين أنواع متعددة من بؤر المقابلة هي: على الأقل "بؤرة

الانتقاء" و " بؤرة التعويض" و " بؤرة الحصر" و " بؤرة المصادقة"، و هذا بيانها:

*بؤرة المقابلة: تعرف بأنها « الوظيفة التي تسند إلى العبارة الحاملة للمعلومة التي يتردد المتكلم في ورودها»¹، و نميز من خلالها بين أنواع متعددة².

بؤرة الانتقاء: تسند إلى المكون الحامل للمعلومة المنتقاة من بين حشد من المعلومات، باعتبار أنها المعلومة الواردة.

بؤرة التعويض: تسند إلى المكون الحامل للمعلومة التي يعوض بها المتكلم معلومة غير واردة.

بؤرة الحصر: تسند إلى المكون الحامل للمعلومة التي تحصر مجموعة من القيم، في قيمة واحدة أو أكثر مما يعد قيمة واردة.

بؤرة المصادقة: تسند إلى المكون الحامل للمعلومة التي يصادق المتكلم على ورودها³.

أما الوظائف التداولية الخارجية، فتتمثل في⁴:

-المبدأ (Thème): هو المكون الذي يدل على مجال المخالب الذي يعد الحمل

الموالي واردا بالنسبة إليه.

¹ - أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ص: 131. و ينظر: آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، ص: 52. و ينظر: الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص: 29.

² - ينظر: الوظيفة و البنية (مقارنة وظيفة لبعض قضايا التركيب في اللغة العربية) ، ص:133، وآفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، ص:52.

³ - ينظر: الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص:31-32.

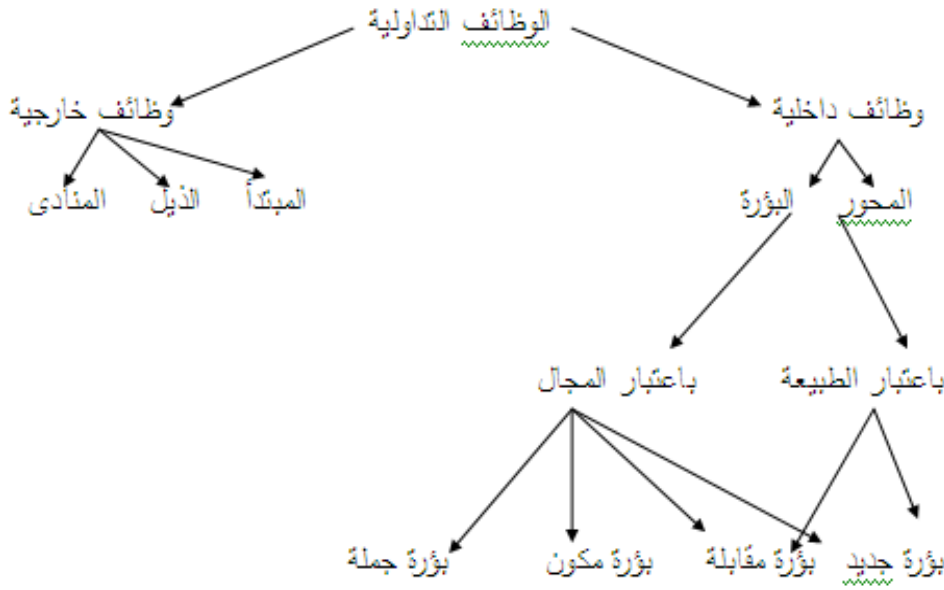
⁴ - ينظر: المرجع نفسه، ص:115، 160، 147.

-الذيل (Tail): هو المكون الذي يوضح أو يعدل أو يصحح معلومة واردة في الحمل، و

قد أضاف "أحمد المتوكل" وظيفة خارجية ثالثة هي:

-المنادى: هو مكون يدل على الذات محط النداء في الجملة، و يمكن لنا أن نلخص

الأنماط التداولية السابقة في المخطط الشجري الآتي¹:



حاول "أحمد المتوكل" إبراز المعالم الرئيسية للوصف العربي القديم لمجموعة من المحاور التداولية، و ذلك من خلال درس " نظرية المعنى عند العرب" ، و من بينها " نظرية الاستلزام التخاطبي"، إذ خصها بالدراسة و التحليل، حيث استقصى هاته النظرية عند القدامى و تحديدا عند "السكاكي"، و أقام موازنة بينه و بين اقتراحات فلاسفة اللغة المحدثين، و خلص إلى أن اقتراحات "السكاكي" تمتاز بالدقة و بقدرتها التنبؤية².

و ما يثبت التوجه التداولي الوظيفي عند العرب - حسب رأي "المتوكل" - اهتمام القدامى على اختلاف مشاربهم و تخصصاتهم، بـ"القصد" و"الغرض"، و هو ما يترجمه الكاتب بـ"المعنى

¹- ينظر: صلاح الدين ملاوي، التراكيب النحوية العربية في ضوء التحليل الوظيفي، ص:156.

²- ينظر: أحمد المتوكل، آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، ص: 96 - 103.

التداولي "pragmatique Sens"، و لعل تعريفهم للغة يؤكد وظيفتها و هي التواصل¹، حيث يبدو هذا التوجه التداولي أكثر وضوحاً عند النحاة؛ مثل "سيبويه (ت 180هـ)" و "ابن هشام (ت 761هـ)" الذين تنبها إلى دور المقام في العمل التواصلية، كما أكد الأصوليون أن النحو الذي يكتفي فيه بوصف الأشكال و البنى المجردة عن وظائفها نحو لا يعتد به، و لا يوثق بعلم أصحابه؛ فكان لزاماً إقامة نحو شامل يجمع بين الصرف و التركيب و المقام². هذا غيظ من فيض، فالمقام لا يسمح باستقطاب جميع ما ورد في كتابات المتوكل من أبحاث متعلقة بالجانب التداولي.

3. مسعود صحراوي:

يعد من الباحثين المتميزين في هذا المجال التداولي؛ فقد عد " عيد بلبع " كتاب "التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة « الأفعال الكلامية » في التراث اللساني العربي" عملاً جديراً بالاهتمام³؛ فقد استطاع الباحث من خلال كتابه تحديد مفهوم التداولية؛ إذ يعرفها بقوله أنها: « ليست علماً لغوياً محضاً بالمعنى التقليدي، علماً يكتفي بوصف و تفسير البنى اللغوية و يتوقف عند حدودها و أشكالها الظاهرة، لكنها علم جديد للتواصل يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال، و يدمج من ثم مشاريع معرفية متعددة في دراسة ظاهرة التواصل اللغوي و تفسيره »⁴.

¹ - حظي البعد التواصلية للغة باهتمام علماء العرب فعد ابو سعيد السيرافي (ت 385هـ) أن النحو الفصيح من أفهم غيره ما بنفسه يقول: « وإن قال لك أخركن نحوياً فصيحاً فإنما يريد : أفهم عن نفسك ما تقول ، ثم رم أن يفهم عنك غيرك »، ينظر: أبو حيان التوحيدي، الإمتاع و المؤانسة، تقديم مختار نويوات، سلسلة أنيس، موفم للنشر الجزائر، 1989، 167/1.

² - ينظر: عبد المجيد العطواني « نظرية المعنى عند العرب بين المنوال التداولي و المنوال السيميائي دراسة نقدية في قراءة أحمد المتوكل »، حوليات الجامعة التونسية، العدد 49 ، 2005، ص: 277.

³ - ينظر: عيد بلبع، التداولية إشكاليات المفاهيم بين السياقين الغربي و العربي، مجلة سياقات، فصلية محكمة، مركز الاستشارات البحثية واللغات، كلية الآداب جامعة المنوفية ع1، السنة الأولى، 2008م، ص: 42 .

⁴ - مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب دراسة تداولية لظاهرة « الأفعال الكلامية » في التراث اللساني العربي، ص: 16.

كما صرح بأن التداولية مصطلح فضفاض ذو أوجه متعددة، و قد تداخلت التداولية مع بعض العلوم و المعارف؛ وذلك بقوله: « نحن نرى أن التداولية تمثل حلقة وصل هامة بين حقول معرفية عديدة، منها الفلسفة التحليلية، ممثلة في فلسفة اللغة العادية، ومنها علم النفس المعرفي ممثلا في "نظرية الملائمة Théorie de pertinence" على الخصوص، و منها علوم التواصل، و منها اللسانيات بطبيعة الحال»¹.

إن هذا التدخل بين التداولية و بعض العلوم و المعارف؛ قاد الباحث لطرح تساؤلات عن المعيار الذي يكون أساسا في تحديد مفهوم التداولية، ليصل بعد ذلك، إلى أن مسألة تحديد مفهوم التداولية بناء على معيار البنية اللغوية، أو وفق الاستعمال اللغوي وحده مسألة فيها نظر، لأن مثل هذا القرار ليس له أن يرسم حدا شاملا للمصطلح، و هو ما قاده إلى الاستقرار ختما على مفهوم لها قوامه الأساسية تعالق البنية اللغوية البنية اللغوية بمجال استعمالها، دون إغفال شبكة العلاقات التي تربط هذا المصطلح بمختلف العلوم الفلسفية، و علم النفس المعرفي ، و علوم الاتصال².

وقد حدد "مسعود صحراوي" مهام التداولية في النقاط التالية³:

- التداولية هي دراسة كلام محدد صادر عن المتكلم و موجه إلى مخاطب محدد، و في مقام تواصلية محدد، لتحقيق غرض تواصلية معين.
- الوقوف على الأسباب التي تجعل التواصل غير المباشر و غير الحرفي أبلغ وأفضل من التواصل الحرفي المباشر.
- الوقوف على الكيفية التي تتم بها العمليات الاستدلالية في معالجة الملفوظات.
- الوقوف على أسباب فشل المعالجة اللسانية البنيوية للملفوظات.

¹- ينظر: المرجع السابق ، الصفحة نفسها.

²- المرجع نفسه ، ص: 16.

³- المرجع نفسه، ص ص: 26-27.

كما دعا إلى إزالة بعض التصورات الخاطئة عن التداولية؛ كاعتبارها سلة مهملات للسانيات، تبحث في كل ظاهرة لغوية عجزت اللسانيات عن حلها، و هي بهذا المفهوم تسعى لإزالة الغموض عن عناصر التواصل اللغوي، شرح طرق الاستدلال و معالجة الملفوظات، و قوام التداولية في هذه الدراسة، علم النفس المعرفي، و الاستدلالات، و الاعتقادات و النوايا وأغراض المتكلمين واهتماماتهم و رغباتهم، كما حاول الفصل بين التداولية و اللسانيات البنوية لأن التداولية، لا تعد مرحلة أخيرة للتحليل اللساني، فهي دراسة لاستعمال اللغة عوضاً عن دراسة اللغة¹.

أما في الجانب التطبيقي في كتابه "التداولية عند العلماء العرب"؛ فقد قدم تطبيقاً للمفهوم التداولي على اللغة العربية وهذا ما يحسب له، الأمر الذي يساهم في وصفها، و رصد خصائصها و تفسير ظواهرها الخطابية، حيث ركز على "ظاهرة الأفعال المتضمنة في القول" بين الفكر المعاصر و التراث العربي، انطلاقاً من اعتقاده أن البحث في هذا المجال « سيسهم في اكتشاف و تثمين جوانب من الجهود الجبارة التي بذلها أولئك العلماء الأجلاء»². إذ يهدف الباحث من خلال مؤلفه هذا؛ إلى ما يلي³:

أ - أن يبيث أن التراث العربي تراث نفيس، و أن ما حصله القدامى على اختلاف مشاربهم و توجهاتهم يقف في شموخ و كبرياء أمام ما حصلته الدراسات التداولية اليوم؛ وخاصة من ناحية الأفعال الكلامية.

ب - تعريف القراء عموماً والمتخصصين خصوصاً بجهد متواضع ينضم إلى الجهود التي تهدف إلى قراءة جديدة لهاته النظرية.

ونحن نوافق هذا التوجه، وهو ما جعلنا نخوض غمار هذا البحث.

¹ - المرجع السابق، ص ص: 27-28.

² - مسعود صحراوي، الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر و التراث العربي، ص: أ .

³ - ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة « الأفعال الكلامية » في التراث اللساني العربي، ص: 11-12.

4. طالب سيد هاشم الطبطبائي:

يعد كتابة الموسوم بـ " نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين و البلاغين العرب" عملاً رائداً لهذا الباحث في المجال التداولي، وذلك بتركيزه على أحد أهم محاور الدرس التداولي و هي "نظرية أفعال الكلام".

حيث قدم " الطبطبائي" في مؤلفه عرض موجز للنظرية الغربية المعاصرة كما تأسست عند " أوستين" وتطورت عند " سيرل"، والمميز أنه قام بتجميع النصوص العربية المتعلقة بهذا الموضوع من كتب النحو و البلاغة و أصول الفقه و المنطق، و من ثم عرضها بترتيب يتوافق مع المنهج المعاصر، و على نحو يبسر من المقارنة و المقابلة بينها و بين النظرية العاصرة، و ختم دراسته بمحاولة لتمثيل آراء مبتكرة في هذه النظرية¹.

و تركيزه على نظرية "أفعال الكلام" يعود سببه لما تتمتع به من « أهمية خاصة في فلسفة اللغة المعاصرة، إذ أنها جلبت إلى أضواء التحليل الفلسفي جميع الجمل المفيدة، بعد أن كانت كلها مهمة ماعدا أقسام من الجملة الخبرية، و هي كذلك جلبت إلى تلك الأضواء موضوعاً آخر كان مهملاً، هو ذلك الصنف الخاص من النشاط الإنساني الاجتماعي الذي اصطلح عليه بـ " الفعل الكلامي"، و صار اسم النظرية على إثره نظرية الأفعال الكلامية»².

و مما توصل إليه الباحث أن هذه النظرية لا تدرس الأفعال فقط؛ بل «توفر سبل تقييمها بتحديد شروط تحقق كل واحد منها، و ما يلزم عن كل واحد منها من التزامات على الأطراف المعنية، و هذا كله يوفر أساساً عقلياً لا غنى عنه في تحديد المقصر و المسؤول عن حدوث خلاف»³، وبذلك تشكل هذه النظرية-حسب "الطبطبائي"- منطلقاً لبناء أساس منطقي

¹ أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ص 6. و عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص 11. و ينظر: طالب سيد هاشم الطبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين و البلاغيين العرب، ص 167-168.

² ينظر: المرجع نفسه، ص: 169.

³ ينظر: المرجع نفسه، ص: 170.

لصور التعامل بالأفعال الكلامية، و تبقى بحاجة لمزيد من الدراسة و التحليل بغية إدراك خفاياها مما يفتح الآفاق لتطوير التعاطي البشري للأفعال الكلامية.

5. عبد الهادي ظافر الشهري:

بخاصة كتابه " استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية "، واستراتيجيات الخطاب عنده تعنى " بدراسة اللغة في الاستعمال"¹ .

ينطلق الباحث في مؤلفه عن فكرة أن اللغة من المنظور التداولي وظيفتين رئيسيتين، ترتبطان بمقاصد الإنسان الذي يستعملها و بوضعه الاجتماعي و أهدافه، هما²:

- **الوظيفة التفاعلية** : التي تبرز من خلالها قيمة الاستعمال اللغوي ، بين المرسل و المرسل إليه.

- **الوظيفة النفاغلية**: و تتمثل في قدر كبير من المعاملات اليومية الذي تحدث بين أبناء الجماعة اللغوية.

انطلاقاً من هذه الوظائف أورد "الشهري" التعريفات المختلفة للتداولية التي لاحظ أنها تختلف بناء على مجال اهتمام كل باحث؛ ليتبنى في الأخير التعريف الذي يجعل من التداولية "دراسة أثر السياق في بنية الخطاب و مرجع رموزه اللغوية ومعناه، كما يقصد المرسل"³. وتكمن أهمية الدرس التداولي -من وجهة نظره- في كونه " دراسة للمنجز اللغوي في إطار التواصل من غير إهمال لمدى تأثير السياق في نظام الخطاب المنجز"⁴.

إن ما حصله الباحث في سياق دراسته للمنهج التداولي ضمن كتاب " إستراتيجية الخطاب" جدير بالمتابعة؛ فقد حاول اكتشاف مقاربات تداولية ثرية للدرس العربي عموماً على اختلاف التخصصات في اللغة و البلاغة و المنطق و غيرها، و هي لا تقل أهمية عما توصل إليه الغربيون، و هو ما درج الباحثون عموماً على تأكيده « فالواضح أن النحاة و البلاغيين لم

¹- ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص: 4.

²- المرجع نفسه، ص: 10.

³- ينظر: المرجع نفسه، ص: 22.

⁴- ينظر: المرجع نفسه، ص: 23.

يغفلوا فيما أقاموه عن التمثيل للبعد التداولي للغة، كما لم يفقوا فيما استنبطوه عند حدود الأشكال اللغوية فقط، بل تجاوزوا الألفاظ في المعاني، فكانوا بها أعنى وأشد اتصالا¹.

برأيه، فقد ألم الأصوليون بأدوات المنهج التداولي و آلياته للبحث في خطابات متنوعة ذات سياقات مختلفة، فكانت دراساتهم « من أبرز الدراسات القديمة التي عالجت بعض جوانب المنهج التداولي، مثل ما يتعلق بإنتاج المعنى و تأويله وشروط ترجيح معنى على معنى آخر، كما أن دراسات الشاطبي في الموفقات، و الغزالي في المستصفي، و القرافي في التنقيح و من نحا نحوهم ومن جانب آخر، تعد أعمال الفقهاء من الأعمال التي لامست بعضا مما يندرج في الإطار التداولي، و من ذلك ما ورد عن ابن تيمية في الفتاوى، و ابن القيم الجوزية في إعلام الموقعين و غيرهم كثر، فقد تم التركيز لديهم على بعض الجوانب في الأبواب التي تعالج المعاملات و العقود »².

ولقد أشار إلى بعض الباحثين المحدثين الذين يعود لهم فضل السبق في المزج الواعي بين الدراسات العربية و النظريات الغربية، مثل "طه عبد الرحمن" و "محمد يونس علي" الذي بحث في كيفية تحليل الفقهاء للخطاب الفقهي تحليلا تداوليا، في سبيل استخراج الأحكام الشرعية و التقعيد لها و تصنيف مراتبها و كذلك دراسات "أحمد المتوكل"؛ الذي اتخذ من النحو الوظيفي منطلقا للجمع بين الدراسات العربية القديمة و بين المناهج الحديثة، أما في الاتجاه البلاغي، فعمل أبرز الدراسات ذات المنحى التداولي هي دراسات "محمد العمري" و تلك التي أنجزها فريق البحث في البلاغة و الحجاج من جامعة منوبة في تونس³.

وختاما؛ نستطيع القول أن الباحث انطلق من فكرة مزوجة الجهود النظرية التي استقرت في التراث العربي بالنظريات الحديثة عند الغربيين، فاكتشف بذلك مقاربات ثرية في علم الفقه و أصوله و البلاغة و النقد، هذه المقاربات التي لا تقل أهمية عما توصل إليه الباحثون الغربيون

¹ - صلاح الدين ملاوي، التراكيب النحوية العربية في ضوء التحليل الوظيفي، ص: 203.

² - ينظر: عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص: 11.

³ - ينظر: نفسه، ص: 11-12.

في هذا المجال، كما تعرض لدور الكفاءة التداولية في صنع الخطاب و تشكيله لغويا ، وقد اعتمدنا على بعض آرائه في دراستنا هاته.

6. محمد محمد يونس علي:

من الباحثين الذين استعملوا مصطلح "علم التخاطب" بدل مصطلح "التداولية"، و يعد من الباحثين المهتمين بالمناهج التخاطبية في علم الأصول، متبعا في نقاشه تلك المناهج النظرية التداولية التي تعنى بمسألتي اللغة و التخاطب، و من أشهر مؤلفاته في هذا المجال و قد خصص في بحوثه على علم الأصول من أهمها: "علم التخاطب الإسلامي- دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص"، حيث يهدف إلى « صوغ الأصول و النظريات اللغوية التي تبعثرت أجزاؤها وفروعها في كتب الأصول، وغاب عنها السياق النظري الشمولي، والإطار العام الذي يوجه، و يفسر تلك الأجزاء و الفروع، وقد تطلب صوغ تلك الأصول قراءة معمقة و دقيقة لأصول الفلسفية الوجودية منها المعرفية التي تنبثق عنها النظريات اللغوية للأصوليين»¹. وبذلك تكون ثمرة التلاحق بين دراسات الأصوليين و الدراسات اللسانية هي علم جديد آثر الباحث أن يسميه بـ " علم التخاطب الإسلامي " الذي يقابل في اللسانيات الغربية الحديثة بمصطلح " Pragmatics " ².

و يقول مصرحاً عن الهدف من بحثه؛ هي معرفة كيفية حدوث التفاهم بين المتخاطبين، و تشمل مسائله كل العناصر التي تساهم في إحداث التخاطب من وضع و استعمال و قرائن و أنواع الدلالة المختلفة، و النظريات الدلالية ذات الصلة بالاستعمال و السياق، و بحيث هذا العلم - علم التخاطب- في فقه اللغة، و الصرف، و النحو، و البلاغة، و اللسانيات، و تحليل

¹ محمد محمد يونس علي، علم التخاطب الإسلامي دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص، دار المدار

الإسلامي، بيروت لبنان، ط1، كانون الثاني -يناير، 2006، ص:7.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص: 80.

الخطاب و النص، و علم الأصول، و علم التفسير، و علم الحديث، و المنطق، و الفلسفة ما أشبه¹.

و قد حاول ضمن كتابه " علم التخاطب الإسلامي " أن يوضح أهم الأسباب التي أدت إلى نشأة علم "التخاطب الإسلامي"، والتي لخصها في ما يلي² :

- تمتاز دراسات علماء الأصول بضخامة المادة العلمية المتعلقة بالمسائل اللغوية و التخاطبية، مما نتج عن تراكم علمي و معرفي، فكان لزاماً أن يستقل هذا العلم بذاته، ولا يقتصر هذا العلم على الحاجة الأصولية فحسب، بل يشمل أيضاً النصوص القانونية، و المعاهدات السياسية، والاتفاقات الاقتصادية، و أنواع الخطاب المختلفة، التي تستدعي معرفة الطرائق الموصلة إلى تخاطب ناجح، و تحليل سليم للخطاب -إضافة إلى الدراسات اللغوية و البلاغية و اللسانية.

- شيوع الفوضى في تحليل الخطاب و النص، حيث أصبح المجال مفتوحاً لكل من هب و دب لاقتحام الموضوع.

- عدم وجود مجال مستقل في العلوم العربية يبحث مسائل هذا الحقل المعرفي.

لا ريب أن الغاية الأساسية لعلم الأصول هو بلوغ تفسير سليم لمراد الله تعالى و رسوله (ص)، فالفهم السليم للكلام لا يقاس بفهم معنى الجملة فقط، بل بالإدراك السليم لمراد المتكلم منه، و أن يتجاوز المتخاطبون في تعاملاتهم المعنى الظاهري للكلام، و هو ما حدا بالأصوليين، أن يولوا التخاطب غير المباشر عنايتهم و هو الذي ابتعث الباحث إلى التركيز عليه³.

¹- ينظر: المرجع السابق، ن ص.

²- ينظر: المرجع نفسه، ص:9.

³- ينظر: المرجع نفسه، ص ص: 28-29.

و قد ارتكزت دراسة " محمد محمد يونس علي " على منهجين للتخاطب هما ¹: منهج جمهور الأصوليين، و المنهج السلفي، مع التركيز على المنهج الأكثر تعقيدا و هو منهج الجمهور، ثم يتناول الفريق بين الوضع و الاستعمال، و هو المفتاح لخوض غمار المناهج الأصولية ، فيفسر الكلام الذي يستخدمه متكلم ما بالرجوع إلى فكرتي الوضع و الاستعمال. كما بحث موضوع الحمل بوصفه المكون الثالث لأنموذج الجمهور، من خلال شرح خمسة أصول تخاطبية هي: البيان و الصدق و الإعمال، و التبادر و الاستصحاب، و قد حاول وضع ما سماه ب "نظرية العمل السياقي عند ابن تيمية " ، و التي تتطوي على نظريات ابن تيمية في نسبية الإدراك، و نظرية الحد السياقية، وآراء في اللغة، والإفادة والتفريق بين الوضع و الاستعمال، و بين المعني و المراد و بين الحقيقة والمجاز، في حين خصص الفصل الأخير لنوعين من التصنيف الدلالي: التصنيف العلامي، و التصنيف النصي، و يشتمل التصنيف العلامي: الدلالة الطبيعية، و الدلالة العقلية، و الدلالة الوضعية (المقسمة إلى دلالة مطابقة، دلالة تضمن، و دلالة التزام)، أما التصنيف الثاني (التصنيف النصي) فيحتوي على طريقتين: طريقة الأحناف، التي تتضمن عبارة النص، و إشارة النص، و دلالة النص، واقتضاء النص، و طريقة الشافعية التي تقتضي بتقسيم الدلالة إلى: دلالة الاقتضاء، و دلالة الإشارة، ودلالة التنبية و الإيماء، و دلالة المفهوم، و مفهوم الموافقة الذي يقربه الأحناف، و مفهوم المخالفة الذي ينكرون حجيته.

و توصل الباحث في ختام دراسته لمجموعة من النتائج الهامة؛ ورأى أن هناك الكثير من العمل الذي ينبغي القيام به لبلوغ تقويم دقيق لنماذج التخاطب النصي التداولي عند علماء الأصول ².

¹ - ينظر: المرجع السابق، ص ص: 38-40.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص ص: 293-305 (الخاتمة).

7. محمد العمري:

يعتبر "محمد العمري - فيما أعلم - من أوائل من نبه إلى خطأ المفهوم الشائع للبلاغة في الساحة الأدبية والتعليمية العربية، وهو خطأ ناجم عن اعتماد شروح التلخيص التي انصبت على عمل "السكاكي" "مفتاح العلوم".

فقد شاع في الأوساط التعليمية العربية أن البلاغة تنحصر في ثلاثة علوم هي: البيان والمعاني والبدیع، وهو المعنى التي تقدمه الكتب التعليمية المشهورة: "علوم البلاغة" ل. مصطفى المراغي، وغيرها من الكتب التي حذت حذوه النعل بالنعل¹.

وقد استطاع الدكتور "محمد العمري" في مجمل ما كتب حول البلاغة تصحيح المسار البلاغي العربي؛ من خلال وضع الأنساق العربية الكبرى التي تشكل الأسلوب رافدها الوحيد، بل هناك روافد أخرى تداولية، و حاجية وإقناعية... مما يعني أن البلاغة العربية تختزن مفهوما مغايرا للذي كرسته عصور الانحطاط عنها.

كما يرى أن هذه المجهودات المبذولة اليوم في التنظير البلاغي العربي يمكن أن تفتح باباً جديداً لإعادة قراءة البلاغة العربية القديمة، والكشف عن مكوناتها الحاجية والإقناعية والتداولية، خاصة إذا نظرنا إلى الفكر العربي في شموليته؛ حيث يمكن أن نجد تقاطعات عديدة للدرس البلاغي وبين علوم أخرى كالنحو وعلم التفسير والمنطق.

ونتاج لذلك أن توصل إلى ما يعرف **بالبلاغة العامة والجامعة**؛ والتي تجمع بين البلاغة القديمة والجديدة لتطرح نفسها كبديل في تحليل الخطاب وفق المعطيات التي رسمها المنظرون القدماء و المحدثون، كما يصرح بأن في هذا الطرح نوع «من المثاقفة يقوم على الاستعانة بالتراث في فهم المسائل اللغوية الحديثة، خاصة تلك العلوم التي لها جذور تراثية»²؛ حيث يدعو إلى قراءة البلاغة العربية القديمة قراءة حدائثة تبرز جوانبها التداولية و الحاجية

¹ - ينظر: محمد العمري، البلاغة العامة و البلاغات المعممة، ضمن مجلة فكر ونقد، العدد 20، يناير 2000، ص 69-70.

² - حامد أبو حامد، الخطاب و القارئ، بمركز الحضارة العربية، ط2، القاهرة، 2002، ص:149.

والاقتناعية، ونحن نؤكد هذا أيضا، وسنحاول ذلك من خلال قراءة هذين المصنفين (الصناعتين، و المثل السائر)، وإبراز الملامح التداولية في طرحهما البلاغي.

ويثار بعد سردنا لجهود هؤلاء الباحثين تساؤل على مدى جدوى التقريب التداولي للدراسات اللغوية العربية؛ ذكرنا سابقا ما ذكره "مسعود صحراوي" في قوله: «بأن هذا النوع من البحوث سيسهم في وصفها ورصد خصائصها وتفسير ظواهرها الخطابية التواصلية، كما تعتقد أن استثماره في قراءة الإنتاج العلمي لعلمائها سيسهم في اكتشاف و تثمين جوانب من الجهود الجبارة التي بذلها أولئك العلماء الأجلاء»¹. و بالتالي فإن التقريب التداولي لنصوص التراث سيسهم في إضاءة الجوانب الحية منه، و إعادة بعثها من جديد بما يتلاءم مع معطيات الدرس اللساني الحديث و المعاصر مما يضمن لنا :

أولاً: إيجاد مصطلحات فنية و علمية ملائمة، عند ترجمة المصطلحات الغربية إلى اللغة العربية فتكون لغتنا متسقة و موحدة في مصطلحاتها .

ثانياً: استكشاف ما توصل إليه علماءنا من نتائج تعين في التأريخ لتطور العلوم اللسانية.

ثالثاً: إعادة عرض دراسات علمائنا البلاغيين، وغيرهم بلغة معاصرة يمكن من خلالها تقييم أعمالهم بطريقة موضوعية ثم تمثيل نتائجهم في أبحاثهم في نظريات مبتكرة إذا توفرت الشروط الملائمة².

فما يستفاد من اللسانيات التداولية هو أدواتها؛ التي تساعد على استكشاف نصوص

البلاغة العربية، و النظر في مدى قدرتها على المثاقفة و الحوار مع بعض النظريات اللسانية

المعاصرة، مما يسهم في تحقيق التقريب التداولي للبلاغة بصورة جلية، خاصة إذا علمنا

¹ - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، مرجع سابق، ص: 6.

² - ينظر: سيد هاشم طالب الطببائي، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين و البلاغين العرب، مطبوعات جامعية، ص: 102.

أن "النظرية الثاوية خلف مختلف العلوم اللغوية، كما يقول أحمد المتوكل هي نظرية تداولية"¹.
و بالتالي فهي قابلة للقرض و الافتراض مع النظريات التداولية الحديثة.

فالتداولية بصفة عامة، تعد مصدرا ثريا يمكن له أن يغني التراث اللغوي العربي بعامة،
بأبعاد لسانية و معرفية مهمة، تمكن من تقويمه بطريقة موضوعية « فلا سبيل إلى تقوم
الممارسة التراثية ما لم يحصل الإسناد إلى مجال تداولي متميز عن غيره من المجالات الثقافية
بأوصاف خاصة و منضبط بقواعد محددة يؤدي الإخلال بها إلى أفات تضر بهذه الممارسة»².
لذلك فإن البلاغة في دراستها لخطابات متنوعة من قرآن و حديث و شعر و خطابة؛ اهتمت
بتقديم توصيف لعناصر العملية التواصلية (متكلم، سامع، رسالة، مقام و مرجع و حتى القناة
التواصلية)، و في إطار هذا التوصيف عنيت بمقاصد الخطاب و أحوال المتلقين له، و شروط
الخطاب الناجع الذي يحقق الفائدة لدى المتلقي، المؤشرات اللغوية و غير اللغوية المتحكمة في
ذلك مما أكسب البلاغة العربية أبعاد لسانية و تداولية مهمة تضمن لها التواصل المعرفي مع
معطيات الدرس الحديث و المعاصر.

و قبل ختام هذا الفصل؛ ينبغي الإشارة إلى إن هؤلاء الباحثين المذكورين سابقا يمثلون ثلثة
سلكت طريقاً إلى البحوث التداولية، و نحن لا نقصرها أو نحصرها عليهم، فالغاية كانت هي
الإشارة إلى النماذج التداولية في الدراسات العربية لا غير، ونرجو أن يكون في المذكور غنى و
فضل بيان، وخاصة و أن هذه النماذج تتفاوت فيما بينها قوةً و ضعفاً، و تتمايز مكانا و زمانا.
كما ينبغي التنويه - ومن باب الأمانة العلمية- فيما يخص دراستنا الحالية عن الخطاب
التداولي في كتابي "الصناعتين" و "المثل السائر"، وجود دراسات سابقة تناولت جوانب تداولية
معينة، وقد أفادتنا مع أننا حصلنا عليها بعد مدة من المضي في البحث؛ وهما دراسة لـ"يمينة
بن سامية" بعنوان "الاتصال اللساني وآلياته التداولية في كتاب الصناعتين" لنيل درجة الماجستير
من جامعة وهران، و مذكرة "الحجاج في المثل السائر" لـ "نعيمة يعمرانن" وهي أيضا مذكرة

¹ - أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص: 10.

² - طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ص: 16 . و ص: 243.

ماجستير من جامعة تيزي وزو، ونحن لا ننفي وجود تشابه أو تطابق في بعض النقاط، فالنسبة للمذكرة الأولى فقد ركزت صاحبها على الخطاب الشفهي والكتابي وشروط نجاحهما اتصاليا مع بعض إشارات التداولية، ف ي حين ركزت دراستنا على تسلط الضوء على أهم القضايا التداولية و محاولة استقراء أوجه التوافق مع النظرية التداولية في تناول العسكري للقضايا البلاغية، أما المذكرة الثانية فقد قمنا بالعمل على نفس الخطة التي اعتمدها، كما قمنا بالنقل عنها في بعض القضايا في الحجاج، ولقد حاولنا أن ندلي بالجديد؛ إذ تسلط هذه الأطروحة الضوء على أهم القضايا التداولية الكبرى من أفعال كلامية وحجاج، وقد حاولنا أن نسهم في هذا المجال، وذلك في قراءة هاذين الكتابين قراءة حدائثة تداولية، نثبت فيها مدى صحة القول بأنه يمكن المزج أو التقارب بين الدراسات اللغوية العربية والدراسات الغربية الحديثة.

وفي ختام هذا الفصل يمكننا رصد أهم النتائج المتوصل إليها، و جملها في النقاط

التالية:

- تعد الفلسفة التحليلية و تحديداً فلسفة اللغة العادية القاعدة التي بني عليها صرح التداولية، بدأ الاهتمام بمقاصد المتكلمين و باستعمالات اللغة، وبدأت بذلك المقاربة التداولية تسلك طريقها نحو النمو و الازدهار، كما كانت أعمال فلاسفة أكسفورد بمثابة إرهابات لما يعرف اليوم بمحاور تداولية.

- مصطلح التداولية مصطلح فضفاض حمال أوجه، اختلف الباحثون في تحديد

ماهيته، و ضبط حدوده، و بيان أقسامه، فضلاً عن التمثيل له، تبعاً لما يصدر عن من مناهج مختلفة.

- قوام الدرس التداولي مجموعة من الأدوات الجزائية التي يمارس بها المتخاطبون

طقوس التواصل، الذي لن يحقق الهدف المرجو منه إلا إذا ارتاد آفاق الفعل و الممارسة، لذلك اعتمد الدرس التداولي على شبكة تحليل معاصرة، تعتمد على مفاهيم من قبيل الأفعال الكلامية، و الافتراض المسبق، و الاستلزام التخاطبي.

مثلت أبحاث " أوستين Austin" في أفعال الكلام منطلقاً جديداً للكثير من اللسانيين الذين جاؤوا بعده ك"سيرل Searle" و " أوزوالد ديكرود" و " غرايس Grice"، الذين طوروا هذه النظرية و أضفوا عليها أبعاداً جديدة .

-حاول "سيرل Searle" بناء نظرية مكتملة الأواصر منتظمة في أفعال الكلام، تقوم

على فكرة أن الكلام محكوم بقواعد مقصدية مستعينا بجهود من سبقه، فقام بتعديل

تقسيم "أوستين Austin" للأفعال الكلامية، كما تنبه "سيرل" إلى نوع آخر من الأفعال الكلامية غير المباشرة، ترتبط بما يسمى " الاستلزام التخاطبي".

كما تحلل الافتراضات المسبقة أهمية قصوى في عملية التواصل، فهي تتيح لنا إمكانية

توضيح بعض علاقات التضمن بين جمل النص.

لاق مصطلح "Pragmatics" في الدراسات العربية الحديثة رواجاً، كما ترجم للعديد من

المصطلحات، مما سبب نوعاً من الفوضى المصطلحية و التي تعرفها الساحة العربية، والتي لا

تخدم بأي حال من الأحوال الدرس اللغوي العربي، وينبغي أن نشير إلى أننا اعتمدنا في بحثنا

على مصطلح "التداولية"؛ لأنه الراجح في الدراسات و البحوث اللسانية الآن؛ ولأنه يعكس ما

نود كشفه من هذه المدونة المختارة (الصناعتين / المثل السائر) من أبعاد تفاعلية وتبادلية أو

تداولية بين عناصر الخطاب (متكلم / سامع) وكذا ملامح تأثير كل منهما على الخطاب،

وأمر أخرى سيتكفل البحث في الآتي من الفصول بشرحها.

كما لاحظنا أن الدراسات التداولية العربية تتفاوت وتتباين فيما بينها قوة و ضعفاً، فمنها

لا يتجاوز حدود الترجمة الحرفية للدراسات الغربية، و آخر قوامه الترجمة و الخلط أحياناً بين

المصطلحات، مما يجعل القارئ أو الباحث يقع في مزلق هذه الترجمات المتعددة، إلا أن هذا

لا ينفي وجود ثلة من الباحثين تستفرغ الجهد في سبيل العناية بالبعد التداولي للغة و تأصيله،

كما طبعت كتاباتهم بالمزاوجة بين التراث و المعاصرة.

و نحن في بحثنا هذا نحاول أن نضع و لو فكرة بين هاتاه الأعمال الضخمة التي تؤسس

أو تزوج بين التراث و المعاصرة، وسنحاول استقراء و استخراج ما في هاذين الكتابين من أوجه

للتقارب و التشابه مع المنهج التداولي، وذلك من خلال تنظيرات هاذين – المأدبين – "العسكري" في كتابه "الصناعتين: الكتابة والشعر"، و"ابن الأثير" في كتابه "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"؛ للخطاب وتحليله؛ وذلك في طرحهما البلاغي والنقدي.

المعلمين في تربية الطالبين كما في

"المنافع الكافية للعلم" أي خلال العسكري

و"المعلمين في تربية الطالبين" لأن الأثر

الفصل الثاني: تداولية الخطاب في كتابي "الصناعتين الكتابة و الشعر" لأبي هلال العسكري و " المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر" لابن الأثير
*توطئة

المبحث الأول: المقصدية من خطاب الصناعتين" و خطاب" المثل السائر".

1. مقصدية من خطاب "الصناعتين":

- أ. العسكري وسياق التأليف
- ب. محتويات الكتاب و منهجه.
- ج. آليات التخاطب في " الصناعتين".
- د. استراتيجيات الإقناع.

2. مقصدية من خطاب "المثل السائر":

- أ. "ابن الأثير" و سياق التأليف.
- ب. تموضع المقاصد في خطاب "المثل السائر".
- ج. آليات التخاطب في "المثل السائر".
- د. استراتيجيات الإقناع.

المبحث الثاني: تداولية عناصر الخطاب عند كل من "العسكري" و "ابن الأثير":

1. تداولية المتكلم وشروطه
2. تداولية المتلقي و شروطه.
3. المقام و السياق عند كل من "العسكري" و "ابن الأثير".

المبحث الثالث: قواعد التخاطب عند "العسكري" و "المثل السائر" مبادئه:

1. قواعد الخطاب:

أولاً: قواعد "مبدأ التعاون":

ثانياً: قواعد "ديكرو"

2. مبادئ الخطاب: مبدأ التأدب

توطئة

مما توصلنا إليه في الفصل السابق؛ أن من أهم ما ركزت عليه الأبحاث التداولية في مجال فهم الخطاب والتخاطب هو النظر إلى "الأداء الكلامي ضمن السياق"، إذ لم يعد ذلك الأداء متعلقاً بفهم اللغة بوصفها موضوعاً مستقلاً عن الممارسة؛ بل بتمييزها وتفسيرها وفقاً لتحديد الاستعمال اللساني، فالتواصل مبني على التبادل الكلامي بين متكلم يوجه كلامه نحو متلقي قصد الفهم والتفاهم.

وقد تكفلت كل من الطروحات البلاغية والتداولية على حد سواء؛ و على طول الخط الدراسي القديم والحديث بكشف العلاقة الوثيقة بين المعالجتين؛ إذ أن كل من البلاغة والتداولية ترميان إلى النظر في أحوال المتخاطبين أثناء الحديث ضمن الترسيم التواصلي، فالعلاقة بين المرسل والمتلقي التي حرصت البلاغة على إبرازها قد وجدت طريقها في حقل التداولية، حيث عنيت هذه الأخيرة بالسياقات المختلفة وأطراف الموقف التواصلي، الأمر الذي نجد له حديثاً في البلاغة العربية بما يعرف بـ"مطابقة الكلام لمقتضى الحال"، لتضمن البلاغة بهذه الرؤية محورين جوهريين وهما المحور اللساني والمحور غير اللساني - السياق:

-يعتمد المحور اللساني على كفاءة المخاطب والمخاطب وتتجلى مقوماته من خلال الخطاب الجامع بينهما في كيفية إنتاج الكلام بوصفه حاملاً لمعنى، وكذا استيعابه وتحليله وفق توفر عامل الكفاءة، ويمكننا القول بأن البلاغة العربية قد ركزت على تلك الأسس التي أرساها اللغويون المحدثون في ميدان الدراسات التداولية؛ إذ تشمل دراسة الخطاب ومعالجته وتحليله وصولاً إلى إبراز المعنى المقصود من انجازه؛ والذي لا يمكن الوصول إليه إلا بالتمعن في اللغة المستعملة والتي تتعالق مع المنحى المقاصدي للمتكلم أو المخاطب وهذا ما يدخل في دائرة اهتمام درس القصدية في أحد فروع الدراسات التداولية.

-أما المحور غير اللساني - السياق - فهو ذلك الموقف الذي ينتج فيه الخطاب، وذلك بربطه بطرفي التخاطب (المخاطب والمخاطب) للوصول إلى الهدف من التواصل، والذي يتمثل

في التأثير، ويتأتى ذلك بتأثير ضمني للسياق في فهم الخطاب، وكل هذه العناصر المتقرعة والمشاركة بين المحورين تجتمع ضمن الاتجاه التداولي الذي يعنى بالأطراف الأربعة المساهمة في إنتاج الخطاب (الخطاب، المخاطب، المخاطب والموقف الخارجي) للوقوف عند مقاصد التواصل ومضمرات الخطاب، من أجل الوصول إلى الفهم والإفهام، وهنا تبرز لنا مواطن التلاقي والتشابه والتشابك بين مفهوم البلاغة ومفهوم التداولية، بالنظر إلى الالتقاء القائم بين مباحثهما، وهذا ما يؤكد قول " جيفري ليتش J.Leich " بلأن البلاغة: « تداولية في صميمها، إذ أنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع، ذلك أن البلاغة والتداولية تعتمدان على اللغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقي بحسب موقف التواصل والتلقي»¹.

والملاحظ أن كلاهما يهتم بعملية التلفظ والعوامل المتحكمة فيها، قبل الكلام أو أثناء التلفظ بالخطاب؛ وإلى غاية إنجازها؛ فالبلاغة والتداولية علمان يتفقان في « دراسة الوسائل اللغوية التي يستعملها المتكلم في عملية التواصل وعوامل المقام المؤثرة في اختيار أدوات معينة دون أخرى، للتعبير عن قصده، كالعلاقة بين الكلام وسياق الحال وأثر العلاقة بين المتكلم والمخاطب على الكلم والمقاصد من الكلام»².

و بناء على هذه المعطيات؛ سنحاول أن نكشف عن طبيعة العلاقة بين البلاغة و التداولية، انطلاقاً من مدونتين نفترض بداية؛ أنهما توافرت على آراء و أفكار على صلة مباشرة بذلك؛ و اللتان ستعملان على أنهما مدونة واحدة، والمتمثلتان في كتاب "الصناعتين" لـ"أبي هلال العسكري" و كتاب"المثل السائر" لـ"ابن الأثير"، وسنحرص على بيان الطروحات التي قُدمت من منطلق التفاعل بين التراث و الحداثة، قصد استجلاء الأبعاد النظرية التي يمكن الاستفادة منها في الدراسات المعاصرة.

¹ - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 89 .

² - جون براون؛ جون يول، تحليل الخطاب، ترجمة وتعليق: محمد الزليطي، منير التريكي، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، دط، 1997، ص:32.

إلا أنه ينبغي بداية التعرض للكاتبين؛ قصد التعرف على منهجهما، وقد لاحظنا ضرورة معالجة الكاتبين كخطابين بمعرفة المقاصد وراء التأليف وكذا سياقه، وآليات تخاطب في كل من كتابين؛ في قراءة تداولية تضمن لنا معالجة المدونتين من جهتين؛ الجهة الأولى باعتبارهما نفسيهما كخطاب موجه من متكلم المتمثل في - "العسكري" في "الصناعتين" و"ابن الاثير" في "المثل السائر" - إلى متلقي آخر في قراءة تداولية سريعة، ومعرفة المقصدية من التأليف، منهج كل منهما في الكتابة والتأثير في المتلقي، وإقناعه بما جاء به من تنظيرات وتصورات؛ إلا أننا ركزنا على الجهة الثانية التي رحنا ندرس فيها مدى التقارب بين الطرح البلاغي والنقدي الموجود في الكاتبين وبين الدرس التداولي الحديث، في محاولة منا الإحاطة بشكل عام و وبصورة كاملة بالموضوع بإذن الله.

المبحث الأول: المقصدية من خطاب الصناعتين و خطاب "المثل السائر".

1. المقصدية من خطاب "الصناعتين الكتابة والشعر" لـ"أبي هلال العسكري":

بداية ينبغي الإشارة إلى أننا نعتبر كتاب "الصناعتين" خطاب موجه من قبل مؤلفه "أبو هلال العسكري" (ت 395هـ)¹ إلى طرف آخر متلق له نسميه "المخاطب"، استناداً إلى ماهية الخطاب ومفهومه في الدراسات اللسانية- والذي سبق وأن ذكرناه في فصل سابق-؛ إذ يؤكد "طه عبد الرحمن" ارتباط الكلام بالخطاب، فيقول: « لا كلام بغير خطاب»²، إذ أنه مرتبط بقصدية التخاطب والتواصل بين طرفي الخطاب.

كما ينبغي أن ننوه أننا نتبنى - في بحثنا هذا- الرأي الذي لا يفصل بين الخطاب و

النص، وذلك لتقادي التشتت بين آراء الاتفاق والاختلاف، و طبعا خطاب "الصناعتين"

باعتباره خطاب موجه مقصدياً، يحمل هدفاً في ذاته يتمثل في التأثير الذي يصبو إليه

"العسكري" في المتصفح والقارئ لكتابه.

والمعلوم أن أي خطاب لا يخل من خطوات يتبعها منشئه، منها أن يستعمل ما يعرف

بخطاب "المقدمات"؛ وهو خطاب يستعين به المتكلم ليعقد توصالاً مع متلقيه عن طريق

الحمولة الدلالية التي يحملها هذا لخطاب "المقدمات" قصد جلب انتباه المتلقي عامة، وهذه

الإستراتيجية وظفها "العسكري" في كتابه "الصناعتين" وهو ما أسميناه "خطاب الافتتاح"، ومن

خلاله يحاول "العسكري" عرض الجوانب التي اشتغل عليها في خطاب "المتن" - إن صح

¹ - أبو هلال العسكري الحسن بن عبد الله بن سهل سعيد بن يحيى بن مهران من أعلام القرن الرابع هجري نشأ بعسكر بمكرم، امتاز بحبه للفضائل...عاش مجاهداً يعمل بساعده ليتمكن من الحياة، مؤثراً ذلك على زخرف الجاه والمنصب، متصلاً برجال النهضة الفكرية الأدبية والسياسية، في عهده اتصال صداقة وأخوة، وكان ممن اتصل بهم صاحب بن عباد الوزير المتوفى 385 هجري، وقد قنع أبو هلال بصداقته، ولم يتطلع إلى ما في يده من مجد وجاه ومال، كما أشار السيوطي "إلى أنه كان يبرز احترافاً من الدناءة من الطمع والدناءة". و مما كان يتصف به تفقهه وعلمه الواسع، إلا إن الغالب عليه الأدب والشعر. ينظر: محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في العصر العباسي، ط1، دار الوفاء، ص:374. وينظر: السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، 506/1.

² - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان و التكوثر العقلي، ص: 213.

التعبير-، و بالتالي فخطاب الافتتاح يوضح مقاصد "العسكري" التي دفعته لتأليف الكتاب، ونستطيع أن نعتبر الصفحات الأولى خطاب افتتاح لما تتميز بها عن باقي الصفحات، حيث بدأ خطابه بعد الحمد والصلاة على الرسول وعلى آله...تحدث عن فضل البلاغة والفصاحة لفهم القرآن وإعجازه، وكذا مناقب هذا العلم؛ وفي رأيه حتى منشئ القصيدة أو الرسالة يحتاج لهذا العلم ليكون خطابه مؤثراً ناجحاً.

وبعد عرضه لعدة أبيات شعرية يُخلط فيها، بنعتها تارة بالفصيحة والحسنة تارة رغم

ثقلها؛ و مثال ذلك قوله:« ما سمعنا بأحسن ولا أفصح من قول ذي الرمة:

رَمَيْتِي مَيِّ بِالْهَوَى رَمِي مُمْضَغٍ مِّنَ الْوَحْشِ لَوْطٍ لَّمْ تَعْقَهُ الْأَوَانِسُ

بِعَيْنَيْنِ نَجْلَاوِينَ لَمْ يَجْرِ فِيهِمَا ضَمَانٌ وَجِيدٌ حُلِيٍّ الدَّرِّ شَامِسُ

وهذا كما ترى كلام فج غليظ، ووخم ثقيل، لا حظ له من الاختيار¹.

متخذاً في ذلك كله عرض الرأي وبسط الحجة، وتفعيل دور المتلقي؛ وذلك يظهر جلياً

في قوله: " كما ترى "؛ حيث يقصد به المتلقي أو القارئ لكتابه، وبذلك يتضح مقصده؛ فما

دفعه لتأليف الكتاب ما رآه من تخليط هؤلاء الأعلام².

ثم تعرض بعد ذلك لسبب تأليفه لكتابه؛ ليصرح بذلك في قوله:« فرأيت أن أعمل كتابي

هذا مشتملاً على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام، نثره ونظمه، ويستعمل في محلوله و

معقوده، من غير تقصير أو إخلال، أو إسهاب أو إهذار»³، ومن بعد ذلك يعرض مباشرة

تقسيمه لكتابه؛ حيث جعله عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلاً.

و هذا العرض يحيل إلى تدعيم الرأي بكون خطابه في الصفحات الأولى خطاباً افتتاحياً،

وكأننا بـ"العسكري" يسعى إلى شدّ انتباه "المتلقي" أو "القارئ" إلى القصدية التداولية للكتاب،

¹ - العسكري، الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط 2، 1989، ص:12. الممضغ: المطعم

للقصيد، اللوط: اللازق، في ط الأوالس ورواية اللسان: الأوانس. الضمان: العامة، والشمس: معلاق القلادة في العنق، والجمع

شموس، وجيد شامس: ذو شمس على النسب، وف رواية للسان: وجيد على الشذر.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص:13.

³ - المصدر نفسه، ص:5.

وذلك من خلال إطلاعه -نقصد المتلقي- على الموضوع العام للكتاب منذ البداية من أجل بث فعل الإغراء عند المتلقي، وهذا ما يظهر « كشبكة من التعليمات التي تمكن المخاطب من بناء المعنى، ويقوم المتكلم بتقديمها كفرضيات موجهة إلى المرسل إليه، وكفرضيات يوجهها المرسل إليه إلى المتكلم»¹، وعملاً بهذا القصد فإن توحد خطاب الافتتاح بخطاب المتن، يمكن من الظفر بمقاصد "أبي هلال العسكري"، لهذا فإن دراسة خطاب "الصناعتين" تكون بالتوحيد بين خطاب الافتتاح وخطاب المتن، وذلك بالنظر إلى الآليات التي توحد بينهما، لتظهر البنية الكبرى للخطاب في كتاب "الصناعتين".

أ. العسكري وسياق التأليف:

يعتبر السياق من بين العناصر المهمة في عملية التواصل، ويتميز بخصائص تتصل بوضعية الخطاب بصفة مباشرة، كما تبرز قيمته أيضاً في خطى التأليف، والكتابة عامة. إذ يشكل - إلى جانب التخاطب - أهم مباحث التداولية، نظراً لأهميته في دراسة العلاقة بين الرموز، والعلامات، والمستعملين لها². ونظراً لأهميته فإنه « يضطلع بأدوار كثيرة في التفاعل الخطابى مثل تحديد قصد المرسل ومرجع العلامات»³؛ فالسياق عملية شاملة تستدعي كل ما يحيط بالخطاب من عناصر تساعد على ضبط المعنى، فيستغلها المتكلم باعتبارها آليات تكشف عنه وتسهم في تأويله حتى يستطيع الوصول إلى مبتغاه من مقاصد وأهداف⁴، وهذا ما أدى إلى اهتمام الدارسين به على مختلف الحقول المعرفية.

يعرف "جون ديبوا J.Dubois" السياق أنه « مجموع شروط الاجتماعية التي تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي واستعمال اللغة... وهي المعطيات

¹-Voir : D. Maingueneau, pragmatique pour le discours littéraire, p:18.

² - فان ديك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2000 م، ص: 215 .

³ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 40

⁴ - ينظر: حافظ إسماعيلي علوي وآخرون، التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، ط1، 2011، الأردن، ص:

المشتركة بين المرسل، والمرسل إليه والوضعية الثقافية والنفسية والتجارب والمعلومات القائمة بينهما¹، أما تعريفه في حقل التداوليات فنجد "فرانسواز أرمينكو" تعتبره الوضعية الملموسة التي تُوضع وتُتق من خلالها مقاصد المتكلمين بحسب المكان والزمان، فهو ما يتمثل في كل ما نحن في حاجة إليه من أجل فهم دلالة ما يقال، ومن هنا تظهر أهمية السياق وعدم حضوره في عملية نقل المقاصد إلى عدم وضوحها وظهور إبهامات كثيرة فيها²، وقد عُرّف أيضا بكونه مجموعة الظروف التي تحفّ حدوث فعل التلطف بموقف الكلام (...). وتسمى هذه الظروف في بعض الأحيان بالسياق (contexte)³.

يتوجب علينا أثناء البحث عن المقاصد التي ألف كل من "العسكري" و "ابن الأثير" خطابهما وفقها؛ أن نبحث في الخلفية الاجتماعية، والدينية، التي طبعت عصر كل واحد منهما، وما يميز العصر الذي نشأ فيه "العسكري"، وهو العصر العباسي عصر عرف فيها ما يعرف بمذهب الصرفة⁴، ولقد انبرى للرد على هؤلاء المشككين جماعة من العلماء الذين أ

¹ ، نقلا عن عمر. 121- 120، J.Dubois : Dictionnaire de Linguistique, Larousse, Paris, 1973, P120-

بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص:7.

² ينظر: فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، د.ط، ترجمة، سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، ص: 5.

³ عبد الهادي بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ص: 41.

⁴ يعتبر مفهوم الصرفة من بين المفاهيم التي أوجدتها المعتزلة، وقد ردوا من خلاله بلاغة النص القرآني إلى صرف الله الناس عن المجيء بمثل هذا النص، وقد أشار عبد القاهر إليهم في موضع واحد في دلائل الإعجاز فيقول فيه: " ثم إن هذه الشناعات التي تقدم ذكرها تلزم أصحاب (الصرفة) أيضا، وذلك أنه لو لم يكن عجزهم عن معارضة القرآن وعن أن يأتيوا بمثله، لأنه معجز في نفسه، لكن لأن أدخل عليهم العجز عنه، وصرفت همهم وخواطهم عن تأليف كلام مثله، وكان حالهم على الجملة حال من أعدم العلم بشيء قد كان يعلمه، وحيل بينه وبين أمرٍ قد كان يتسع له لكان ينبغي أن لا يتعاضمهم، ولا يكون منهم ما يدل على إكبارهم أمره وتعجبهم منه، وعلى أنه قد بهرهم، وعظم كل العظم عندهم، بل كان ينبغي أن يكون الإكبار منهم والتعجب للذي دخل من العجز عليهم، ورأوه من تغير حالهم، ومن أن حيل بينهم وبين شيء قد كان عليهم سهلاً، وأن سدّ دونه باب كان لهم مفتوحاً، رأيت لو أن نبياً قال لقومه: إن آيتي أن أضع يدي على رأسي هذه الساعة، وثمنعون كلّم من أن تستطيعوا وضع أيديكم على رؤوسكم" وكان الأمر كما قال، مم يكون تعجب القوم، أمّن و ضعه يده على رأسه، أم من عجزهم أن يضعوا أيديهم على رؤوسهم؟". ينظر: دلائل الإعجاز، ص: 390- 391، فهنا يظهر رأي أصحاب الصرفة في مسألة إعجاز القرآن، في أن الله صرف عباده في أن يأتيوا بمثله؛ وهذا ما نفاه عبد القاهر داخضا رأيهم بحجة إعجاز القرآن بنظمه وتأليفه؛ ومفهوم الصرفة أوجده النظم وطائفة من المعتزلة وبعض البلاغيين من غير المعتزلة والصحيح أن وجه الإعجاز في القرآن هو صرف العرب عن معارضته، وأن فصاحته قد كانت في مقدورهم لولا الصرف، وهذا هو المذهب الذي

خلصوا لدينهم وعقيدتهم، فأخذوا يدفعون عن كتاب الله هذه الفرية، بتجلية وجوه الإعجاز فيه، وكان أبو هلال أحد أولئك المدافعين عن دينهم¹.

و هو ما يؤيده "محمد العمري" الذي يرى أن "أبا هلال العسكري" ألف كتابه لاعتبارات معينة؛ وقد ردّها إلى اعتبارين اثنين أساسيين هما²:

- **الاعتبار الديني** : باعتبار أن الإعجاز القرآني لا يمكن الوقوف عليه إلا عن طريقة البلاغة، يقول: « إن حق العلوم بالتعلم وأولها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه علم البلاغة و معرفة الفصاحة، الذي يعرف الإعجاز كتاب الله تعالى»³؛ فمعرفة البلاغة و الفصاحة هي السبيل إلى إدراك الإعجاز القرآني، فإذا أغفل الإنسان « علم البلاغة، و أخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن، من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف، و براعة التركيب، و ما شحنه به من الإيجاز البديع، و الاختصار اللطيف، و ضمنه من الحلاوة، و جلله من رونق الطلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها و عذوبتها و سلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها، و تحيرت عقولهم فيها»⁴، ومن هذا الاعتبار نلاحظ أن "العسكري" أراد أن يقف على خصوصيات البلاغة و الفصاحة من أجل ضبط آليات صنعة الكلام في تجلياته المختلفة، فإذا عرفها المتكلم استطاع أن يمتلك ناصية التأليف.

- **الاعتبار الأدبي**: و يأتي بعد الأول، و يتعلق بفضائل هذا العلم و قيمته في انجاز الكلام و إدراك جمالياته، يقول "أبو هلال" : «و لهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة و مناقب معروفة، منها أن صاحب العربية إذا خل بطلبه، و فرط في التماسه، ففاته فضيلته، و علقت به رذيلة فوته، عقى على جميع محاسنه، و عمى سائر فضائله، لأنه إذا لم يفرق بين كلام

يعول عليه أهل هذه الصناعة وأرباب هذا العلم، وقد سطر عليه من الأدلة ما ليس هذا موضع ذكره "ينظر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 444.

¹ - ينظر: بدوي طبانة، أبو هلال العسكري و مقاييسه النقدية، ص: 94.

² - محمد العمري، البلاغة العربية أصولها و امتداداتها، المغرب، أفريقيا الشرق، سنة 1999م، ص: 289.

³ - العسكري، الصناعتين، ص: 07.

⁴ - المصدر نفسه، ص: 09.

جيد، و آخر رديء، و لفظ حسن، و آخر قبيح، و شعر نادر، و آخر بارد، بان جهله، و ظهر نقصه، و هو أيضا إذا أراد أن يصنع قصيدة، أو ينشئ رسالة، و قد فاته هذا العلم، مزج الصفو بالكدر، و خلط الغرر بالعرر، و استعمل الوحشي العكر، فجعل نفسه مهزأة للجهل، و عبرة للعاقل»¹.

وأدنى تأمل لهذا التوضيح؛ نرى أن صاحبه أراد أن يوضح أهمية البلاغة والفصاحة، و تركز على أمرين أساسيين:

1- تمكن المنتمي للعربية من التمييز بين الكلام الجيد والمقبول من الرديء المرفوض.
2- اكتساب آليات صناعة الكلام المنظوم والمنثور وما يمكن ذكره أيضا؛ أن الاعتبار الديني كان عند "العسكري" من أولى الأولويات، وقد كان هذا التصور سائدا في ذلك العصر، مثلما كان عند "الرماني" (ت386هـ)، و "الباقلائي" (ت403هـ)، وتكاد تهمين الوظيفة الأدبية على كتابه، كما كانت كذلك عند البلاغيين الذين اهتموا بالحياة الأدبية²، وبالتالي فقد اتبع سابقه، الذين اشتغلوا في حقل البلاغة، المنطلقين من القرآن الكريم.

3- كما أن هناك غاية أخرى ثالثة؛ لم يصرح بها "العسكري" إلا في آخر مقدمة كتابه يقول: « فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام: نثره ونظمه، و يستعمل في محلوله ومعقوده، من غير تقصير وإخلال، وإسهاب وإهدار»³.

وهذه ربما هي الغاية الأساسية من تأليف الكتاب؛ خاصة إذا علمنا أن مسألة معرفة الإعجاز في كتاب الله قد انتفت بعد المقدمة الأولى ولم يبقى الكتاب معنياً بها، حيث يقول "محمد العمري" معلقا على هذا: « فهذه في الواقع هي الوظيفة المباشرة والغاية القريبة التي أدت إلى تأليف الكتاب»⁴، وهي نفسها القضية التي أشار إليها "إحسان عباس"؛ ولو من وجهة نظر

¹ - المصدر السابق، ص: 10.

² - ينظر: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها و امتداداتها، ص: 290 .

³ - العسكري، الصناعتين، ص: 13.

⁴ - محمد العمري، البلاغة العربية أصولها و امتداداتها، ص: 291.

منتقدة؛ حين قال: « لا نرى لهذا الكتاب في تاريخ النقد أي قيمة ... وكتابه علامة على أن ترتيب الآراء وتنسيقها أصبح حاجة ملحة لدى طلاب النقد والبلاغة في أواخر القرن الرابع»¹. و الملاحظ أيضا؛ أن "أبا هلال" أراد من صناعه استقصاء ما يجب معرفته من المعطيات اللغوية التي تمكن صاحب العربية من إنتاج و إدراك الكلام الفصيح و البليغ؛ فقد رأى أن « الكتب المصنفة فيه قليلة ... فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملا على جميع ما يحتاجه إليه في صنعه الكلام نثره و نظمه، و يستعمل في محلوله و معقوده، من غير تقصير و إخلال و إسهاب و إهذار»²؛ فلقد أحس صاحب "الصناعتين" بالحاجة الملحة إلى تأليف كتاب شامل لما يحتاجه الناظم و الناثر؛ لذا تحري ما يحقق له ذلك.

فبالعودة إلى العنوان الذي صدر به " العسكري (ت 382هـ)" سِفره على قسمين: فأما الأول فهو الرئيسي "كتاب الصناعتين"، أما الرديف فاختر له "الكتابة والشعر"، وإذا عدنا إلى المعاجم اللغوية فإننا نجد لفظ "صناعة" بالمفرد؛ تعني: حرفة، قالوا: صانع من صناع، ماهر في صناعته و صنعته، و رجل صَنَعٌ ماهرٌ، و صَنَعُ اليدين، و امرأة صناع، و قومٌ صَنَعٌ. ثم استعملوا هذه المادة في الفنون و الأدب، فقالوا رجل صنع اللسان، و لسان صنع ذلك الشاعر و لكل بليغ³.

ولعل أول من استعمل هذا المصطلح "محمد بن سلام الجمحي" (ت 232هـ) ، فهو يرى أن « الشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم و الصناعات»⁴ ، أيضا نجد "قدامة بن جعفر" (ت 337هـ) يجعل من الشعر صناعة؛ حيث يقول: « ولما كانت للشعر صناعة، وكان الغرض في كل صناعة إجراء ما يصنع ويعمل بها على غاية التجويد والكمال،

¹ - إحسان عباس، تاريخ النقد عند العرب، ط4، دار الثقافة، 1983، ص:375.

² - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص: 11.

³ - ينظر: الزمخشري أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمي، ط 1، سنة 1981، مادة (صانع).

⁴ - محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر، مصر مطبعة المدني، (د-ت)، ص:6.

إذ كان جميع ما يؤلف ويصنع على سبيل الصناعات والمهن، فله طرفان: أحدهما غاية الجودة، والآخر غاية الرداءة»¹.

وقد ارتبطت كلمة "الصناعة" - التي ذكرها العسكري- في كتابه بـ " الفن " ، وقد حاول أن يميّزها عن العلم؛ فهي « تلك الملكة الحاصلة بالتمرّن »²، و"الفن" هو المهارة سواء أكانت قيما تثقيفية اليد، أو يتقفه اللسان فهو صناعة فالدمية صناعة اليد، ولا يزولها إلا الفنان أو الصانع الذي يختار لها المادة الجيدة و الأوضاع الجيدة»³، و"المادة" يقصد بها في مجال الاتصال الأدبي "الألفاظ" و"المعاني المنتقاة"، وتقتضي حسن التأليف و الاستخدام في المقام المناسب بينهما، بحسب ما يريد الصانع الوصول إليه أو بحسب مقاصده، و إذا «اجتمعت جودة المادة إلى جودة الهيئة الحاصلة عد الفنان متمكنا من صناعته»⁴، و لذلك أعتبر الأدب صناعة « لما فيه من المهارة في إصابة المعنى، أو ابتكار الخيال أو جمال الفكرة و حسن الصياغة و التآلق في الأسلوب»⁵، ولقد كانت كلمة "الصناعة" من أكثر الكلمات تداولاً في كتابه.

أما اختيار "العسكري" للتركيب الإضافي " كتاب الصناعتين" بالثنائية، كعنوان رئيس تحكمه رؤية دلالية؛ مفادها أنه حاول أن يعالج الكلام بنوعيه: المنظوم والمكتوب، ودليل ذلك أنه أرفد "الصناعتين" بلفظتي " الكتابة والشعر".

إلا أننا نجد "بدوي طبانة" قد انتقد هذه التسمية، و صرح بأنه لو سمي كتابه " النثر و الشعر" لكان أقرب إلى الصواب⁶، ونحن نوافق "العسكري"؛ فبعد قراءة الكتاب لاحظنا أن

¹ - قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مصر مكتبة الخانجي، سنة 1963، ص: 16.

² - تمام حسان، الأصول دراسة ابستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، عالم الكتاب، القاهرة، 2004، ص: 16.

³ - بدوي طبانة، أبو هلال العسكري و مقاييسه البلاغية و النقدية، بيروت دار الثقافة، ط3، سنة 1981، ص: 125.

⁴ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁵ - المرجع نفسه، ن ص.

⁶ - ينظر: بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية و النقدية، ص: 126.

"العسكري" كان يبغى الوصول إلى التنظير للكتابة ككل، العادية و الفنية و في كل مستوياتها، وبذلك تكون لفظة "الكتابة" أكثر دقة.

و من هذا كله نستنتج؛ أن غاية "أبا هلال" من لفظة "الصناعتين" كانت التطرق إلى مستويات الكلام دون التفرقة بينها، والتي تبدأ من الكلام العادي إلى أن تصل إلى الكلام المعجز (القرآن الكريم)، و يتوسطها الكلام الفني.

و قد ربط **الغاية** من هذا المؤلف ككل بهذا المصطلح- مصطلح الصناعة-؛ إذ يقول بعد عرضه للأدوات والآلات اللغوية التي تتعلق بها صناعة الكلام: «إنما عملنا هذا الكتاب لمن استكمل هذه الآلات كلها، وبقي عليه المعرفة بصناعة الكلام و هي أصعبها وأشدّها»¹، إذا ف**الاتصال اللغوي** أوالتخاطب بين مخاطب ومنتلي؛ لا يقف عند حدود المعرفة بما تقتضيه قواعد اللغة؛ بل هو مؤسس على **الإجراء والاستعمال**؛ أي على **التوظيف السليم** والصحيح، والمناسب لما يتطلبه **الموقف المعين**، و هذا ما ركز عليه "أبو هلال" في مؤلفه؛ حيث قال: «فأريت أن أعمل كتابي هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه في صنعه الكلام نثره و نظمه، و يستعمل في محلوله و معقوده، من غير تقصير وإخلال وإسهاب وإهذار»²؛ وهنا يظهر جلياً **التوجه والقصد التداولي** لـ"أبي هلال العسكري" من تأليفه لكتابه.

و ينبغي أن نشير إلى أن كتاب "الصناعتين" يعتبر من المحاولات القيمة التي أراد بها صاحبها قراءة شاملة لأعمال البلاغيين الرواد الذين سبقوه؛ إذ كانت غايته الخروج بطرح عام يجمع المتفرق، و يحقق في المتفق عليه، و هذا من أجل صياغة رؤية شاملة لصناعة الكلام، لذا حاول بطريقة ممنهجة جمع المعارف التي انتهت إلى عصره و تصنيفها و قراءتها، ثم تنظيمها تنظيماً يسهل الإفادة منها في **صناعة الكلام**³.

¹- تمام حسان، الأصول دراسة ابستمولوجية للفكر اللغوي العربي، ص: 13.

²- المرجع نفسه، ص: 11.

³- ينظر: الحاج لونيس بلخياطي، نظرية الكلام في بلاغة أبي هلال العسكري، رسالة ماجستير إشراف الدكتور محمد طول، جامعة تلمسان، سنة 2005، ص: 75.

وبذلك يمكننا اعتبار كتاب "الصناعتين" من أهم الكتب التي شكلت لبنة في صرح الثقافة العربية، خاصة تلك تتسم بالمنحى التقويمي التعليمي، حيث وقف - كما سبق وأن أشرنا - من خلاله "العسكري" على خلاصة ما توصل إليه سابقه من بيان و بلاغة و نقد.

وبهذا الخصوص يقول "الخفاجي" (ت 466هـ): «لقد حار بعض الأدباء في تسمية الصناعتين كتاب أدب أو كتاب نقد، أو كتاب بلاغة أو بيان، والآراء التي جمعت فيه في النقد، هي خلاصة ثقافات علماء الأدب والشعر حتى وسط القرن الرابع، وتمتاز بأنها عن ذوق وطبع وشعور أدبي، وعن حكم العقل والفكر أيضاً، ولذلك كان الكتاب مادة غزيرة ينتفع بها كل باحث و دارس للأدب والنقد والبيان»¹، ويضيف قائلاً: «كتاب الصناعتين ثروة كاملة للبيان العربي حتى أواخر القرن الرابع هجري، وإن هذه الصورة اشترك في تلوينها علماء الأدب والنقد والبيان قبل أبي هلال وفي عصره وفي شتى الطبقات الثقافات»²؛ إذن؛ كان "أبو هلال" ملماً بجل آراء من سبقه من نقاد وبلاغيين، وقد حمل ونقل الكثير من آراءهم في كتابه، إما بهدف التسديد أو التوجيه والتقويم.

و قد يرجع ذلك إلى تنوع روافده؛ فقد شملت شعباً مختلفة، من بيان "الجاحظ (ت 255هـ)" و بديع "ابن المعتز (ت 296هـ)"، و ما ذكره "قدامة ابن جعفر (ت 337 هـ)" وغيره، ف"العسكري (ت 395 هـ)" أراد أن يودعه جميع ما يحتاج إليه في صناعة الكلام شعره و نثره من غير إخلال ولا إسهاب³، لذلك لاحظناه لا يقدم آراءه إلا بعد الاستقصاء لما قيل.

ب. محتويات الكتاب و منهجه:

يشتمل كتاب "الصناعتين" على عشرة أبواب تضم ثلاثة و خمسين فصلاً؛ نوضحها كما يلي:

¹ - عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في العصر العباسي، ص: 378.

² - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ - زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر، ج 2، ص: 125.

الباب الأول: في الإبانة عن موضوع البلاغة في أصل اللغة و ما يجري معه من تصرف لفظها و ذكر حدودها وشرح و وجوها وشرح وجوها، و ضرب الأمثلة في كل نوع منها و تفسير ما جاء عن العلماء فيها (ثلاثة فصول)

الباب الثاني: في تمييز الكلام جيده و رديه و محموده و مذمومه (فصلان) .

الباب الثالث: في معرفة صنعة الكلام (فصلان).

الباب الرابع: في البيان عن حسن السبك و جودة الوصف (فصل واحد).

الباب الخامس: في ذكر الإيجاز و الإطناب (فصلان).

الباب السادس: في حسن الأخذ و قبحه و جودته و رداءته (فصلان).

الباب السابع: القول في التشبيه (فصلان).

الباب الثامن: في ذكر السجع و الازدواج (فصلان).

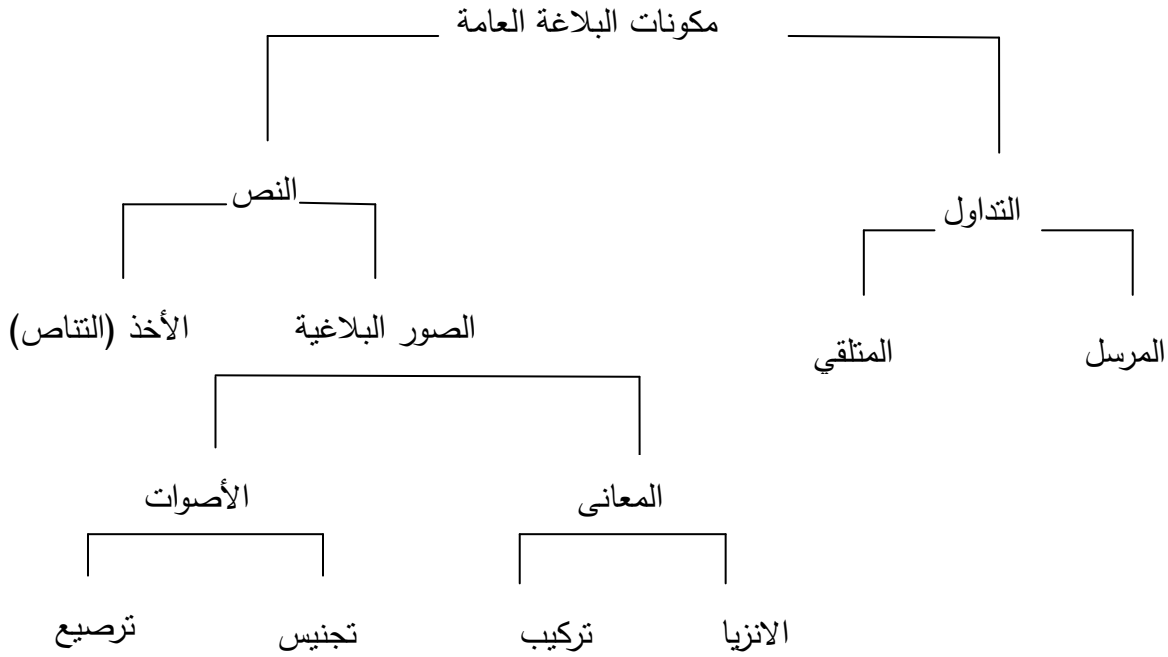
الباب التاسع: في شرح البديع و الإبانة عن وجوهه و حصر أبوابه و فنونه (خمسة وثلاثون فصلاً).

الباب العاشر: في ذكر مقاطع الكلام و مبادئه و القول في الإساءة في ذلك و الإحسان فيه (ثلاث فصول).

والملاحظ؛ أن كل هذه العناوين و مضامينها تخدم الاتصال اللغوي و ضوابطه التداولية،

و قد وضع "محمد العمري" مخططاً يشرح فيه تصور "العسكري" ، وجعله كما يلي¹ :

¹ - ينظر: البلاغة العربية أصولها و امتداداتها، ص: 292.



وبذلك تكون البلاغة التي يهدف لها "أبو هلال" تستوعب ما تقتضيه كل عملية اتصالية بأبعادها المتنوعة؛ فهدفه الأساسي هو: محاولة بناء صرح بلاغة تتسع للمنظوم والمنثور، لذلك قدم مجموعة من الضوابط التي تساعد صاحب العربية في التواصل الناجح والبلغ مع غيره من المتلقين.

أما المستوى التداولي؛ والذي يكشف عن طبيعة العلاقة بين المرسل و المتلقي؛ كما هو واضح في المخطط التوضيحي. أما النص أو الرسالة والتي قد تكون بشكليين مختلفين؛ إما شفاهي أو كتابي؛ تضبطه خصائص تضمن له الفعالية، بحسب الأغراض و الغايات المرادة؛ وسنركز في بحثنا على توضيح هذا الجانب.

أما بالنسبة لمنهج "العسكري"؛ فعلى الرغم من أنه صرح في بداية كتابه بأنه « ليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين، وإنما قصدت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب»¹، إلا أنه وبتتبع ما جاء في كتابه نلاحظ أنه اتبع منهجاً منطقياً، اعتمد فيه

¹ - العسكري، الصناعتين، ص: 09.

على التعريفات والتقسيمات، فمنهجه منهج تقريرى ف « من أخص وسائل هذا المنهج اعتماده على التعاريف والتقسيم انظر إليه مثلاً؛ وهو يقول في المعان ي (المعاني على ضربين...ص96)، وهذا كلام مبتذل لا جدة فيه ولا دافع سوى الحرص على التقاسيم»¹. كما أن الملاحظ؛ أيضاً؛ أنه يجمع بين المنهج النقدي و التعليمي، مع هيمنة المنهج التعليمي في أحيان كثيرة، ومن حسنات "الصناعتين" كثرة الشواهد حيث أنه يكثر من الأمثلة والنصوص من القرآن والحديث و كلام الصحابة والعرب والأشعار المتقدمين و المحدثين². ولعلنا نستطيع أن نعتبر "العسكري" أحد العلماء الذين أخذوا على عاتقهم بيان ما يحتويه البيان العربي من درر على مستويات الخطاب من أجل استيعاب البيان القرآني، لمعرفة سر إعجازه، فهو يذهب بذلك مع مذهب القائلين بأن الإعجاز يحصل في حسن التأليف وبراعة التركيب، فالكشف عن وجوه البديع وصور البيان كقيلة بإدراك حسن النظم و التأليف، وبالتالي تبدى لنا أن غايته هي محاولته تفصيل القضايا البلاغية لشحن ملكة الذوق والفهم عند العامة، حتى يتذوق الناس صناعة القول، و يدركوا إعجاز القرآن الكريم.

وقد اتسم منهج " أبو هلال العسكري" بالدقة والفصل الموضوعي بين مختلف المباحث بخلاف من سبقه، فالمباحث البلاغية والنقدية التي تناولها ذكر حدودها وشرح وجوهها، ومثل لكل جنس منها؛ يقول "بدوي طبانة": «أبو هلال العسكري واحد من أولئك الذين وضعوا إبنات الأولى في هذا الصرح العتيق، وكتاب "الصناعتين" من أعظم المؤلفات النقدية والعلمية التي عالجت الأدب ووضعت أركانه حدود و مقاييس»³.

ج. آليات التخاطب في "الصناعتين":

يرتكز دور المقاصد بوجه عام على إخراج المعنى كما هو عند المتكلم، وذلك ما يستلزم منه مراعاة كيفية التعبير عن قصده، من خلال اختيار الإستراتيجية التي تتكفل بنقل ذلك

¹ - محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في اللغة والأدب، دار النهضة، 1996، ص:323.

² - شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ط3، دار المعارف، 2011، ص:141.

³ - بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية و النقدية، ص:01.

القصد، مع مراعاة العناصر السياقية الأخرى¹. إن اعتبار كتاب "الصناعتين" خطاباً موجهاً من مرسل إلى مرسل إليه يجعل هناك ضرورة في تقصي الآليات التي وظفها "العسكري" باعتباره - متكلماً - في خطابه، وبالطبع سيسعى من خلاله إلى الضفر بتلقي سليم ومقتع لدى المتلقي والقارئ لكتابه.

و يمكن أن نعتبر أن اتخاذ مبدأ الإستراتيجية كلمح في الخطاب، يجعل التقسيم التقليدي للخطاب إلى سياسي، وإداري، و ديني (...) غير كاف للكشف عن الأهداف الحقيقية للخطاب، فلم يعد ظاهر الخطاب الشكلي دليلاً كافياً لتصنيفه، وإنما ظهر ما يمكن تسميته بـ"الخطاب البديل"، والذي يتخذ مبدأ الإستراتيجية كوحدة دنيا، للوصول إلى تصنيفه ضمن وحدة كبرى إلى خطاب إقناعي أو تلمحي أو مباشر، وهذا ما يجعل الإستراتيجية إطاراً عاماً ملائماً للتصنيف ينضوي تحته أكثر من صنف من أصناف الخطاب².

وهكذا تغدو الإستراتيجية ذات مكانة هامة في الخطاب بوصفها الطريق التي توصل مقاصد المرسل، كما تعين على إدارة الحديث بإضافتها التوافق والانسجام على الخطاب مع السياق الذي يظهر فيه، وعليه سوف نبحت عن آليات التخاطب عند "العسكري" في كتابه "الصناعتين"، وخاصة تلك المهيمنة على خطابه ما دمنا نعتبره خطاباً بديلاً يدخل ضمن بنية كبرى.

والأكيد أن "العسكري" وظّف عدة آليات في خطابه قصد تحصيل التواصل و إنجاحه، وهو ما يحيل إلى التساؤل عن تجليات هذه الآليات في خطاب الصناعتين؟.

اختار "أبو هلال العسكري" آليات مناسبة لمقام القول من أجل إيصال مقاصده عبر الخطاب، بداية من اللغة التي سخرها في الكتابة وأسلوب الطرح المعرفي لأفكاره، فهي لغة تساهم في «تحقيق التفاعل بين طرفي الخطاب، بما يناسب السياق بمجمله»³، من أجل إفهام

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 180.

² - المرجع السابق، عبد الهادي الشهري، من مقدمة الكتاب.

³ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، المرجع نفسه، ص: 180.

المتلقي وتوصيل الغرض أو القصد إليه، وذلك ما يلمح انطلاقاً من العرض التدريجي للكتاب، عبر فصول كتاب "الصناعتين"، متبعا في ذلك سبيل عرض الفكرة.

ترتسم مظاهر التضامن في الخطاب من خلال ملامح التأدب فيه، عن طريق فعل القول لدى المتكلم، وطريقة إلقائه للمستمع، لتحقيق التواصل والانتفاع بين الطرفين «ومعلوم أن كل تفاعل بين طرفين مبناه أساسا على سعي كل منهما في جلب منافع عامة أو دفع مضار عامة»¹، وكثيرا ما يتداخل التضامن مع التعامل الأخلاقي، الذي يوطد العلاقات، وهو ما يسميه "طه عبد الرحمن" بالتخلق، وهو ما يجعل المرسل إليه يستشعر الأنا والطمأنينة لخطاب المتكلم، فقد جعل "طه عبد الرحمن" التأدب والتخلق نوا أهمية في عملية التخاطب، إذ أنهما يخرجان من مستوى التبادل إلى مجال التفاعل ولهذا ربط بين أهمية التفاعل في الخطاب وصدية المتكلم فيه. ويظهر ذلك من خلال مثلا:

الإسناد في الخطاب: يتجاوز الإسناد الوظيفة النحوية إلى المعيار التداولي، وعادة ما يكون الإسناد في الخطاب دالا على التضامن، فيظهر مثلا ضمير المخاطب (أنت)؛ ليخرج من الإحالة النحوية ليدل على غرض تداولي؛ إذ يركز استعمال هذا الضمير في الخطاب على تجسيد العلاقة التواصلية بين الأطراف المتخاطبة وتجسيد الاحترام «ويراد بأنت التعاونية تلك التي يستعملها المرسل في مخاطبة المرسل إليه، فإذا دار حوار بين اثنين، أو جرى بينهما أي نوع من أنواع الخطابات، فإن كلا من الطرفين يستعمل أنت عندما يكون مرسلا»، وهو ما يظهر عند "العسكري" في خطاب "الصناعتين"، وذلك بتوظيفه لضمير المخاطب المتصرف مع الفعل (اعلم)، ليجسد به تواملا مع مخاطبه، وهو ما يجعله يبني علاقة احترام وتعاون بينهما، لهذا فإن استعمال الضمير (أنت) في الخطاب يحيل إلى وجود التضامن بين أطراف الخطاب، حيث يشير استعمال "أنت" إلى أن المشاركين في الخطاب يعتبرون أنفسهم ذوي علاقة حميمة، وذلك لتجسيد الإستراتيجية التضامنية مع المرسل إليه².

¹ طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 224 .

² عبد الهادي الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص: 288.

وبذلك يكون "العسكري" قد بنى خطاب "الصناعتين" على ملمح مقاصدي، افترض فيه وجود متلق لرسالته، وهو ما يظهر في استعماله لضمير المخاطب (أنت)، المضمرة في الفعل (اعلم)، كما توخاه في عرض أفكاره، هادفاً إلى التأثير في المتلقي عامة، وكذا التضامن معه؛ ومن أمثلة ذلك قوله:

« واعلم أن الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط ولا

يلزمك فيها السجع فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر

وتعقيد»¹، وكذا قوله: « و اعلم أن المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من

المقال»². فيظهر الفعل الذي حدد به علاقته التخاطبية مع مخاطبه أنه فعل يحيل إلى الطرح

النفعي للخطاب، بدلالة معنى الفعل (اعلم) المشتق من الجذر الثلاثي (علم، يعلم، تعليماً،

اعلم...)، ليكون بديلاً أو مكوناً نفعياً لشرط المعرفة التي ارتضاها "العسكري" في مخاطبه،

وهي معرفة استقاها من الطرح المقاصدي الذي سير خطابيه، فهي معرفة تجعل المخاطب مقيداً

بشرط التضامن بينه وبين المرسل، لحصول المنفعة من الخطاب، بتأكيد الفعل (اعلم)، وهو

أسلوب يحيل إلى التأدب الذي طبع "العسكري" في محاورته مع مخاطبه، فلم يقيد به بالفعل - رغم

أن الأسلوب الوارد هو أسلوب أمرٍ -، وإنما اكتفى بإضمار مخاطبه في ضمير تستر عليه في

بنية الفعل (اعلم) ليجعل المخاطب يحيله إلى ذاته، فلم يقل له مثلاً: " اعلم أنت؛ بل اكتفى

بإضماره في الفعل.

لكن إذا كان ملمح التضامن في الخطاب يتأسس وفق التأدب والتخلق الخطابيين، نظراً

لوجود علاقة حسنة بين الطرفين، أو محاولة تأسيسها، فإن ثمة خطابات تتزاح عن هذه الآلية

نحو اقتضاء آليات أخرى، ومنها تلك التي تحتاج إلى أولوية التوجيه على التأدب، بحسب

سياق الخطاب من نصح، وتحذير (...). وهو ما يسمى بالإستراتيجية التوجيهية؛ حيث «

المرسل يولي عناية فيها لتبليغ قصده وتحقيق هدفه الخطابية، بإغفال جانب التأدب التعاملية

¹ - العسكري، الصناعتين، ص:176.

² - المصدر نفسه، ص:153.

الجزئي في الخطاب»¹، ففيها يقوم المرسل إذا بتوجيه المرسل إليه عبر اللغة التي يستعين بها، وهو ما يتضح في خطاب "العسكري" إذ يسعى دائماً إلى توجيه مخاطبه نحو فعل مستقبلي معين.

يدخل فعل التوجيه ضمن واحد من أنواع الأفعال اللغوية التي صاغها "سيرل Searle"، وقد سماها بالأفعال التوجيهية، وتحدد «بأنها كل المحاولات الخطابية التي يقوم بها المرسل بدرجات مختلفة للتأثير في المرسل إليه ليقوم بعمل معين في المستقبل»²، وتتعدد الأفعال التي تدخل في صنف الانجاز والتوجيه، ومنها: الأوامر والطلبات، والاقتراحات، والنصائح. ولكي يحقق المرسل فعل التوجيه في الخطاب فإنه يستعين بأدوات أخرى وآليات مختلفة منها أساليب الأمر، والنهي، والتحذير، والإغراء (...) و ذلك بالاستناد إلى دور السياق الذي يستثمر فيه معرفته، ومعرفة المرسل.

تظهر لغة "العسكري" في خطابه لغة مباشرة؛ توخى فيها أسلوب العرض المباشر، قصد حصول فعل التوجيه والإقناع عند مخاطبه، وبالتالي فإن ملامح التلميح لا تظهر بكثرة في خطابه باعتباره رسالة موجهة. ونظراً لحرصه الشديد على تبليغ مقاصده بأسلوب واضح وبسيط بعيداً عن الغموض فقد كان خطابه خطاباً تعليمياً أكثر من كونه تلميحياً، إذ حرص فيه على توجيه المخاطب إلى المضمون بأبسط السبل، لهذا فإن التلميح الذي ركز عليه يظهر في القضايا التي طرقها من مثل الاستعارة، والكناية، والمجاز... وهو ما سنتطرق إليه في المباحث القادمة باعتبارها تمس الجانب الآخر من البحث (فحوى الخطاب).

د. إستراتيجية الإقناع في "الصناعتين":

يعتبر الإقناع من أهم الاستراتيجيات في الخطاب، لأنه يتصل بالانتصار للغاية التي يرسمها المخاطب في ذهنه ويوجهها إلى متلقيه، وتتصل هذه الآلية بأهداف المرسل التي يود تحقيقها في خطابه؛ لهذا فإن المرسل يستعمل من أجل هذا الهدف إستراتيجية تداولية تعرف

¹ عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 322 .

² المرجع نفسه، ص: 336 .

بـ"إستراتيجية الإقناع"، والتي تقوم في الخطاب على افتراض مسبق بشأن السياق، خاصة ما يتعلق بالمرسل إليه، كون هذا الهدف موجه نحوه، لتحقيق فعل الإقناع عنده، ونظراً لقيمة فعل الإقناع فإن " روبول Reboule " - كما يرى " بن ظافر الشهري " - قد جعل «الوظيفة الإقناعية من وظائف البلاغة بالإضافة إلى الوظيفة التأويلية والوظيفة الكشفية والوظيفة التربوية»¹، والتي تساهم في فهم الخطاب وتأويله.

وما نلفيه لدى "العسكري" أنه كان لا يعرض القضية إلا ويقدم الحجة أو مثلاً ليوضح فيه فكرته، و ربما يرجع ذلك لتأثره بشكل أو بآخر بمذهب المتكلمين من جهة و تبحره في تحليل المسائل اللغوية المختلفة من جهة أخرى، لذا كانت إحاطته واسعة و شاملة بالقضايا التي كان يطرحها، و نلمس من خلال ذلك وعيه الكامل بضرورة إخراجها إلى المتلقي في أرقى فكرة. كما اعتمد "العسكري" بقوة على الاستشهاد بآي القرآن الكريم و شعر العرب و نثرهم لتدعيم الأفكار، و حتى ما ذكر عنهم، و نوضح ذلك بما أورده عن المعاطلة باعتبارها من سوء النظم، إذ بين أن " عمر بن الخطاب " (رضي الله عنه) مدح زهيراً، لأنه كان لا يعاقل بين الكلام².

وهذا يعكس ويوضح الغرض التعليمي في خطابه، بالإضافة كذلك لبعض الآليات التي وظفها في خطابه، ومنها: التعريفات والأمثلة (الشواهد الشعرية والقرآنية والكلام المتداول اليومي)، المناقشة، التكرار، والتوسع في الفكرة (...)، حيث يقدم المتن ثم يشرحها، وقد يشغل التحليل والتمثيل صفحات كثيرة؛ من مثل شرحه لحد البلاغة؛ « وقال حكيم الهند: أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة: وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة...»³ ليشرحها ابتداء من الصفحة (30) إلى غاية الصفحة (48)، وهو أسلوب تقريرى تعليمي حيث يقدم الكليات ثم يتناول جزئياتها.

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 445 .

² - ينظر: العسكري، الصناعتين، ص: 167.

³ - المصدر نفسه، ص: 30.

وقد يحاول أحيانا أن يقدم قضية معينة ثم يدعمها بمثال ذي طابع محسوس ؛ و نمثل لذلك بما ذكره عن حسن التأليف وجودة التركيب؛ إذ يقول : « فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعا في المرأى، و إن لم يكن مرتفعا جليلا، وإن اختل نظمه فضمت الحبة منه إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين و إن كان فائقا ثميناً... الألفاظ أجساد، و المعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب فإذا قدمت منها مؤخرا، أو أخرت منها مقدما، أفسدت الصورة وغيرت المعنى، كما لو حل رأس إلى موضع يد، أو يد موضع رجل، لتحولت الخلقة، و غيرت الحلية»¹؛ فصاحب "الصناعتين" مثل بـ "العقد" لما له من مميزات تسخر و تجذب كل ناظر ومتأمل فيه، و قد أراد أن يكون تأليف الكلام مثله في حسن تأليفه، و دقة نظمه، فيلقى لدى المتلقي قبولا واستحسانا، وهذه الطريقة تسهل على المتصفح لكتابه إدراك مقاصده، و هي مفقودة في الدراسات اللسانية الحديثة.

بالنسبة للأفعال اللغوية في خطاب "العسكري" فتظهر محيلة إلى المقاصد التي اشتغل عليها؛ فإذا نظرنا في نوع الأفعال الواردة في خطاب "الصناعتين"، والتي استعان بها "العسكري" في أسلوب المحاججة وعرض الرأي، فإنها تظهر أفعالا موحية إلى مقصد توجيهي تعليمي، وهذا ما يجسده مثلا الفعل (اعلم) و الذي بنى وفقه خطابه، فيظهر دوران هذا الفعل على طول الخطاب، ليستعمله "العسكري" كـ"مكون حجاجي" يعرض من خلاله الفكرة، ويشرحها بتمعن، موجهاً إياها نحو مستقبل الخطاب، وهو فعل أكسبه صيغة فعل الأمر الموجه نحو ضمير المخاطب (أنت)، ليحيلنا إلى القول بأن "العسكري" بصدده استحضار متلقيه في خطابه، فإذا أُريد إخراج الفعل من المعنى التعبيري إلى القوة الإنجازية التي يوحى إليها فإننا سنستند إلى ما ذهب إليه كل من "أوستين Austin" و "سيرل Searle"، في أن المقاصد هي مركز التفريق بين المعنى التعبيري وبين النتيجة التي يقصد المرسل نقلها، وهو ما جعلهم

¹ - المصدر السابق، ص: 179.

يبحثون عن «الطريق التي يبحث عنها المرسل، لنقل مقاصده إلى المرسل إليه، وذلك بكل من الرسائل التعبيرية و الغرضية»¹، فالتلفظ دون قصد هو ما يوازي الفعل التعبيري عند أوستين Austin، لأن المرسل ينطق ملفوظات ذات معانٍ معجمية و صرفية منتظمة نحوياً، إلا أنها لا تحمل انجاز فعل معين مرتبط بقصد المرسل لهذا يؤكد "جاك موشر" و "آن روبول" أن «نظرية أفعال الكلام تقوم أساساً على مفهومين هما: القصدية intention و المواضعة convention»²، فالمقاصد هي التي تنشئ الأصوات، والجمل، ودون المقاصد تصبح الجمل وإن شئت الخطاب-مجرد متواليات جمالية، حاملة لدلالات صوتية معجمية بمعزل عن القصد.

ومن ملامح الحجاج التقويمي أيضاً في خطاب "العسكري" استعماله لفعل الأمر (واعلم) ليحض أي حجاج لا ينتسب إلى مرسل معين، ولكنه حجاج متوقع، وعلى هذا فالمرسل لا يتصور اعتراضات المرسل إليه فيحضها فقط، بل ويسايرها حتى يرى أن خطابه قد بلغ من الإقناع مبلغاً يطمئن إليه»³، و به يعقد علاقة تمتاز بالاطمئنان بين المتكلم والمخاطب، ومن آلياته:

-التعريفات والأمثلة: وقد اعتمد "العسكري" في عرض رأيه تقديم تعاريف عن كل ما يخدم وجهة نظره، وبذلك يكون في طرحة قد زواج فيه بين التنظير والتطبيق، بحيث نجده في كل مرة يدلي برأي تنظيري، يعقبه بمثال من الشعر أو القرآن، وحتى الكلام العادي، فيحمله ليمكن المخاطب من تحصيل المعنى والمفهوم من كلا الجانبين النظري والتطبيقي، وهو ما يمكن تأويله على أن "العسكري" احتاط لشروط المعرفة الذي ألح عليه من خلال دلالة فعل الكلام (اعلم)، ليكون خطابه بذلك خطاباً تعليمياً هادفاً.

أيضاً استعمل فعل الأمر "أنظر" الذي كرر أكثر من مرة؛ في مثل قوله: «قال جرير:

¹ - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 190 .

² - voir: A . Reboul et j .Moeshler :Pragmatique du discours de l'interprétation de l'énoncé à l'interprétation du discours,paris , armand colin, 1998 , p46-47.

³ -عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص:475 .

طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ دَا
وَقَتَّ الزِّيَارَةَ فَارْجِعِي بِسَلَامٍ
تُجْرِي السَّوَاكَ عَلَى أَغْرِ كَأَنَّهُ
بَرْدٌ تَحَدَّرَ مِنْ مُتُونِ غَمَامٍ

فانظر لرقعة هذا الكلام... وقال أيضا:

وَابْنُ اللَّبُونِ إِذَا مَا لُرَّ فِي قَرْنٍ لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبُزْلِ الْقَنَاعِيْسِ

فانظر إلى صلابة هذا الكلام..¹ حيث يعكس هذا الفعل مدى التفاعل بين "العسكري" والمتلقي وكأنه يستحضره أمامه، كما أن هذا الفعل (فعل الأمر: أنظر) وظفه لما فيه من إثارة وتنبيه للمتلقي ليرصد الفرق، ويصل إلى مبتغاه كمتكلم.

أيضا من الصيغ المستعملة قوله مخاطبا المتلقي: (أيدك الله)؛ ويقصد بها "الدعاء" كقوة إنجازية؛ في مثل قوله: «الكلام أيدك الله، يحسن بسلاسته، وسهولته، ونصاعته، وتخيره لفظه، وإصابة معناه...»²، أيضا قوله: "أدام الله عزك"؛ وذلك في شرحه للتفريق بين من تكتب إليه "فإن رأيت"، وبين من تكتب إليه "فأريك"³، هذا يصور العلاقة التي حاول ربطها "العسكري" بمتلقيه والتي يطبعها بطابع التأدب، إذ هي إستراتيجية تضمن له تجاوب المتلقي والانتباه وبالتالي الوصول إلى مبتغاه من خطابه.

ومن صيغ الدعاء أيضا؛ ما يظهر في قوله: "اعلم علمك الله الخير... وذلك عليه"⁴، وهذا يظهر مدى تأدب وتلطف "العسكري" في خطابه للمتلقي لخطابه.

والملاحظ أن "العسكري" دائما ما يخاطب آخر، ويدل على ذلك استعماله للفعل "ينبغي"؛ والذي تكرر في أكثر من موضع؛ في مثل قوله: «وينبغي أن تتجنب ارتكاب الضرورات وإن جاءت فيها رخصة من أهل العربية...»، وينبغي أن ترتب الألفاظ ترتيبا صحيحا...»⁵، وكذا

¹ - العسكري، الصناعتين، ص: 34. ابن اللبون: ولد الناقية، لز: شد، والقرن: الجبل، والبزل: واحدة بازل: البعير في السنة التاسعة، القناعيس: جمع قنعاس: العظيم من الإبل. نقله عنه.

² - العسكري، الصناعتين، ص: 69.

³ - ينظر: العسكري، الصناعتين، ص: 175.

⁴ - المصدر نفسه، ص: 18.

⁵ - المصدر نفسه، ص: 169 - 168.

في قوله: «وينبغي أن تتجنب إعادة حروف الصلات و الرباطات في موضع واحد»¹، ويدخل هذا الفعل ضمن الأفعال التوجيهية ذات قوة إنجازية للنصح و الإرشاد، وكذا عبارات من قبيل: عليك أن تتجنب".....

وهذا يعكس التوجه العام للمتكلم "العسكري" من مؤلفه إذ غرضه ووضع شروط ونصائح ترشد المتكلم أو صانع الخطاب لصنع خطاب ناجح ومؤثر، وهذا أيضا يؤكد التوجه التداولي للطرح البلاغي في كتاب "الصناعتين".

2. المقصدية من خطاب"المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" لابن الأثير:

من النافلة القول؛ أن يقدم العنوان وإن كان نفسه بصفته مجرد عتبة للنص، فإنه بالمقابل؛ لا يمكن الولوج إلى عالم النص إلا بعد اجتيازه هذه العتبة²، إضافة إلى أن اختيار العناوين يخضع لعملية لا تخلو من قصدية، كيفما كان الوضع الأجناسي للنص، و بذلك تنتفي الاعتباطية في اختيار التسمية.

عنوان كتابنا الثاني: المثل السائر؛ يقول "الفيروز أبادي (ت 817 هـ)" متحدثا عن معنى "المثل": «بالكسر والتحريك...الشبه جمع: أمثال...والمثل مُحَرَّكة: الحُجَّة و الحديث»³، و عن "المثل" يقول"الرازي(ت 606هـ)":«ما يضرب به من (الأمثال) و مثل الشيء أيضا بفتحيتين صفته»⁴.

¹ - المصدر السابق، ص:176.

² - محمد بوعزة، من النص إلى العنوان، علامات في النقد،(جدة)، الجزء : 53، المجلد 14 ، رجب 1425 هـ / 2004، ص: 408.

³ - مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط، راجعه:أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، دط، 2008، ص: 1508.

⁴ - محمد ابن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، ضبطه: عصام فارس الحرساني، دار عمار، الأردن، ط9، 2005، ص: 302.

أما في ما يخص "السائر" فقد ورد في "مختار الصحاح" مايلي: «(سار) من باب باع و (التَّسْيَار) بالفتح تفعال من السير... و (سائر) الناس جميعهم»¹، وفي "القاموس المحيط": «السير الذهاب، كالمسير... والسير: الضرب من السير»².

يستشف من خلال هذه التعاريف؛ أن المثل باعتباره حجة أو حديثاً قد ارتقى إلى التداول بين الناس، فصار مثلاً سائراً، و إلى هذا المعنى يشير "ابن عبد ربه (ت 328 هـ)" بقوله: «يقال أسير من مثل و قال الشاعر:

و ما أنت مثل سائر يعرفه الجاهل و الخابر»³.

وهذا ما يطمح له "ابن الأثير" من كتابه؛ أن يكون حجة لكل متكلم ناظم أو كاتب، ومثلاً يقتدى به. و(المثل) هنا بمعنى الطريق والأنموذج، ليكون كتابه النموذج الذي يقتدي به للخوض في صناعة الكتابة و الشعر والنبوغ فيهما.

ويعد كتاب " المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر" لضياء الدين بن

الأثير (ت 637هـ)⁴، من أمهات الكتب في الثقافة العربية، ذلك أنه قد تناول عدة مواضيع،

¹ - المرجع السابق، ص: 165.

² - الفيروزبادي، القاموس المحيط، ص: 827.

³ - العقد الفريد، ابن عبد ربه، شرحه و صححه و عنون موضوعاته و رتب فهارسه: أحمد أمين أحمد الزين، إبراهيم الأبياري- دار الكتاب العربي، بيروت، مج3، ص: 63.

⁴ - ابن الأثير: هو أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، الملقب ضياء الدين من العلماء الكتاب المترسلين . ولد في جزيرة ابن عمر سنة ٥٥٨ هـ ، وتعلم بالموصل حيث نشأ أخواه المؤرخ (علي) والمحدث (المبارك). واتصل بخدمة السلطان صلاح الدين، وولى الوزارة للملك الأفضل ابن صلاح الدين في دمشق . ولم تحمد سياسته، فخرج منها مستخفياً في صندوق مقفل . ثم انتقل إلى خدمة الملك الظاهر غازي(صاحب حلب) (سنة 607 هـ) ولم تطل إقامته فيها. وتحول إلى الموصل، فكتب الإنشاء لصاحبها محمود بن عز الدين مسعود، فبعثه رسولا في أواخر أيامه إلى الخليفة، وتوفي في بغداد سنة ٦٣٧ هـ، كان قوي الحافظة، من محفوظاته شعر أبي تمام والمنتبي والبحتري . ومن تأليفه "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" و "كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب"، و"المفتاح المنشا لحديقة الإنشا" و "المعاني المختزعة في صناعة الإنشاء"، و "الوشي المرقوم في حل المنظوم" و "الجامع الكبير" في صناعة المنظوم والمنثور، أدب، و «البرهان في علم البيان - خ» و «ديوان رسائل» طبع في بيروت باسم "رسائل ابن الأثير". نقلا عن : الأعلام للزركلي.

بجزيرة ابن عمر ، وانتقل إلى الموصل، وحصل كثيراً من العلوم، وعاش في كنف الأيوبيين، وقد استوزره الملك الأفضل نور الدين بن صلاح الدين الأيوبي . ينظر :ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان .تحقيق :إحسان عباس، ج ٥،

فالمتصفح لهذا الكتاب يجد نفسه تارة أمام الكتاب في النقد؛ حيث قام بنقد العديد من شعراء عصره أمثال "أبي تمام" و "أبي الطيب المتنبى" و "أبي نواس" و "امرئ القيس" و غيرهم، و تارة أخرى أمام كتاب في الأدب؛ ذلك أن "ابن الأثير (ت 637هـ)" حاول أن يؤسس لـ "علم الأدب" أثناء إقامته الآليات و قوانين خاصة بفن الكتابة سواء المنظوم أو المنثور.

أما المجال الآخر الذي يجده القارئ أيضا في هذا الكتاب؛ هو مجال البلاغة وهو المجال الذي سنهتم به في هذه الدراسة، حيث قام الكاتب بتعريف بعض الأشكال البلاغية التي يلجأ الكاتب لاستعمالها في كتاباتهم.

و هذه الفكرة المتعلقة بتعدد مواضيع كتاب " المثل السائر " ذكرها "بدوي طبانة"؛ وهو

أحد محققي هذا الكتاب في مقدمة الطبعة الأولى منه؛ حيث قال: «و لقد عرف كتاب المثل السائر في بيئات الثقافة العربية على أنه كتاب أدب، وعرف كذلك على أنه كتاب في أصول البلاغة العربية أحيانا و على أنه كتاب في النقد الأدبي أيضا»¹.

أما فيما يخص شكل هذا الكتاب فإنه في ثلاثة أجزاء، و قد قسمه صاحبه إلى مقدمة و مقالتين، تتناول المقدمة؛ أصول علم البيان؛ وهي تشتمل على عشرة فصول: في موضوع علم البيان في آليات علم البيان و أدواته، في الحكم على المعاني، في الترجيح بين المعاني، في جوامع الكلم، في الحكمة التي هي ضالة المؤمن، في الحقيقة و المجاز، في الفصاحة و البلاغة في أركان الكتابة، في الطريق إلى تعلم الكتابة. أما **المقالتان**؛ فتتناولان فروع علم البيان؛ **الأولى**؛ في الصناعة اللفظية كدراسة الألفاظ، السجع التصريح، التجنيس، أما **الثانية**؛ فهي في الصناعة المعنوية كالاستعارة، التشبيه، الالتفات.

ص: ٣٨٩ وما بعدها، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧ م . و مقدمة المثل السائر، طبانة بدوي، أحمد الحوفي، مقدمة المثل السائر، ص: ٢٧ وما بعد.

¹ - ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، قدم له و حققه و علق عليه أحمد الحوفي و بدوي طبانة، دار نهضة مصر للنشر والتوزيع، دط، دنط، ج1، ص: 30.

أ. "ابن الأثير" و سياق التأليف:

تأثر "ابن الأثير" بالعصر الذي عاش فيه، والفن الذي اشتغل به ووصل به إلى ما كان يشتهي من المنصب و الجاه؛ فقد وصل "ابن الأثير (ت 637هـ)" إلى قمة مجده وذروة نضجه أخريات القرن السابع، فجاء بعد ازدهار البحوث البيانية والبلاغية ونضجها، في عصر سطر فيه "مفتاح العلوم" لصاحبه "السكاكي" ونظم دراسة البلاغة وقنن لها، وقسمها إلى علوم وحدد مباحث كل فن.

كان "ابن الأثير (ت 637هـ)" كاتباً من كتاب الدواوين؛ كاتب ل. "لقاضي الفاضل" في عهد "صلاح الدين الأيوبي"، والذي يعرف أساليب الكتابة، حيث يمتاز امتيازاً ظاهراً بلزوم السجع واستعمال الجناس، وبعض أنواع البديع، واستخدام معاني الشعر في كتابة الرسائل¹. ولذلك كانت آراء "ابن الأثير" في صناعة الأدب عامة، وصناعة الكتابة خاصة صادرة عن الفن الذي أعد نفسه له، وعن التجربة التي عاش فيها حياته، فبحكم موقعه من الزمن -مرحلة متأخرة- اطلع على تجارب سابقه فقد قرأ ضياء الذين أثار الكتاب الذين ذاع صيتهم، وحلق نجمهم في سماء صناعة الكتابة ليقف على مناهجهم فيها، وينقد منها ما لا يراه جارياً وفق مقاييسه التي يرتضيها، وهي المقاييس التي رأى أنها أكثر دلالة على إتقان الصنعة²؛ ف"ابن الأثير" عاش في جو الكتابة والكتاب، كاتب يقرأ كثيراً، ويتعمق فيما يقرأ، ويبحث عن أسباب القوة والجمال ليرفع من شأن كتابته -خاصة بعد أن أحس بخطورة هذا الفن الذي ارتقى به إلى مرتبة الكاتب الوزير و يحقق المثل التي رسمها لفن الكتابة، والتي زود نفسه بآلاتها وثقفا ببحر الثقافات الكثيرة والمتعددة. وهذا التكوين والتمكن من فن الكتابة جعله يسخر أكبر جزء من كتابه "المثل السائر" لصالحه، ويضمنه نماذج كثيرة من إنشائه الرسالي، وجعله يعمل جادا ليضع الكتاب - وهو أولهم - على المسار الصحيح، والطريق المعبد الموصل إلى إتقان صناعة الكتابة، سواء من جهة الخطاب النثري كنص إبداعي، أو الناثر كعنصر فعال في هذا

¹ - ينظر: ابن الأثير، المثل السائر، مقدمة المحقق، ص: 17-18.

² - ابن الأثير، المثل السائر، مقدمة المحقق، ج1، ص: 9.

الضرب من الصناعة الفنية فـ« ابن الأثير لم يترك الكتاب حيارى أمام صناعة الكتابة، بل بخبرته في الدواوين وعمله الدؤوب على استخلاص قواعدها، وأركانها، ووضع أسسها... و وضع دستوراً للكتاب في صناعة الكتابة، ثم بين ما يحتاجه الكاتب، وما يجب عليه أن يعلمه»¹.

لربما هذا ما جعله يطمح إلى محاولة تزويد الشعراء و الكتاب خاصة؛ لتمكنه في هذا الأخير، و القصد من الكتاب كما قال صاحبه؛ هو الكشف عن سر الفصاحة و البلاغة في الكلام المنثور و المنظوم، و تقديم **قوانين** للأدباء الناشئين فقد تناول فيه الكتابة و الشعر إذ أن «المصنف يقارن فيه بين القيم النسبية لكل من الشعر و النثر، مؤثراً الأخير على الأول حيث يأخذ جانب المدافع عنه، و ذلك رداً على أبي اسحاق الصابي الذي كان قد فضل قبلة بثلاثة قرون الشعر على النثر»²؛ فهو لم يكتف بأن يكون جامعاً أو ناقلاً؛ بل أردا أن يكون مؤلفاً في البلاغة، و منظرًا للخطاب النثري و الشعري؛ جاعلاً لفكرة البيان النصيب الأوفر و الأمثل في كتابه " المثل السائر"، أما بالنسبة لهدفه من تأليفه الكتاب فهو هدف تعليمي بالدرجة الأولى، و يصرح "ابن الأثير" عن قصده من تأليفه قائلاً: «إذ الغرض إنما هو الحصول على **تعليم الكلم**»³؛ إذا القصد من مصنفه **تزويد المتكلم** بآليات تسمح له بإنجاح تواصله مع آخر؛ فالكلام لا يكون إلا بين اثنين؛ متكلم و سامع قد يتبادلا الأدوار، وهذا يؤكد **توجهه التداولي** في تناوله للخطاب.

¹ - عبد الواحد حسن الشيخ، صناعة الكتابة عند ضياء الدين، مكتبة الإشعاع للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط1، 1999، ص: 60 .

² - فينسنتي كانتارينو، علم الشعر العربي في العصر الذهبي، ترجمة محمد مهدي الشريف، دار الكتب العلمية، ط1، 2004، ص: 192.

³ - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص: 35.

ب. محتويات الكتاب و منهجه:

يتضمن "المثل السائر" البحث عن علم البلاغة و النقد لصناعة الكاتب و الشاعر، كما أخبرنا بذلك من خلال العنوان، كما يعتبر من المظان الأصلية التي اشتملت على صناعة البيان في التراث العربي، كما تشبع بها مبدع و متذوق له اعتزاز بمواهبه الفنية¹. و قد عبر "ابن الأثير" عن اعتزازه و فخره بمنصفه؛ فقال مقدا له: «وهداني الله لابنتادع أشياء لم تكن من قلبي مبتدعة و منحني درجة الاجتهاد التي لا تكون أقوالها تابعة و إنما متبعة»².

يعتبر كتاب "المثل السائر" مؤلف نقدي بلاغي؛ فقد درس فيه "ابن الأثير (ت 637هـ)" الكثير من فنون البلاغة، مرتكزا فيه على دراستين³:

- إحداهما: دراسة قاعدية؛ عني فيها بالحدود و التعاريف و حصر الأقسام، و جمع فيها كل ما استطاع جمعه من معالمها، التي اهتدي إليها الذين سبقوه في البحث البلاغي، و هو في كثير من المواضيع يصحح أخطاءهم و يضيف إلى تحديداتهم، ما يجعلها جامعة مانعة على الوجه الذي يهتدي إليه. (ونعتبره جانب نظري)

- والأخرى: دراسة نقدية؛ و فيها ألم بكثير من العيوب التي يقع فيها مستعملوا تلك الفنون في أشعارهم أو خطبهم أو كتاباتهم. (ويمكننا اعتباره جانب تطبيقي).

وبذلك يكون قد عرض لموضوعه عرض نظر و تطبيق، و جمع بين كثير من أصول البلاغة العربية و النقد الأدبي، و وحد بين هذين الفنين، و أعادهما إلى طبيعتهما و نبعهما الأول ف«النقد لا ينفصل أبدا عن البلاغة شقيقته الكبرى، فهو في جزء منه بلاغة محدودة و في جزء آخر بلاغة موسعة»⁴، ولم يكن "ابن الأثير (ت 637هـ)" الأول في هذا التحول فقد سبقه

¹ ينظر: عباس أرحيلة، الأثر الأرسطي في النقد و البلاغة العربيين إلى حدود القرن الثامن الهجري، جامعة محمد الخامس، 1999، ص: 611.

² ابن الأثير، المثل السائر، ج 1، ص: 24.

³ محمد علي سلطاني، النقد الأدبي في القرن الثامن الهجري، منشورات دار الحكمة، دمشق، (د ط)، ص: 101.

⁴ عبد العزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي، دار النهضة العربية بيروت، ط3، سنة 1984، ص: 11.

الناقد البلاغي "أبو هلال العسكري"؛ إذ أن كتاب "الصناعتين" هو نقطة تحول النقد إلى بلاغة¹.

حرص "ابن الأثير" في وضع كتابه على التنظيم والتبويب، وخطً منهجا بنى من خلاله "المثل السائر" على مقدمة ومقالتين؛ خصص المقدمة للحديث عن أصول علم البيان وتضمنت عشرة فصول، اهتم فيها بالخطاب النثري -الكتابة- أكثر من اهتمامه بالشعر.

قسم الكتاب "ابن الأثير" كتابه إلى مقدمة و مقالتين؛ يقول في هذا الصدد: «و قد بنيته على مقدمة و مقالتين، فالمقدمة تشتمل على أصول علم البيان، و اعلم أيها الناظر في كتابي - أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم، الذي هو أنفع من ذوق التعليم»²، و منزلة هذا العلم يقول "ابن الأثير (ت 637هـ)": «إن علم البيان لتأليف النظم و النثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام و أدلة الأحكام»³.

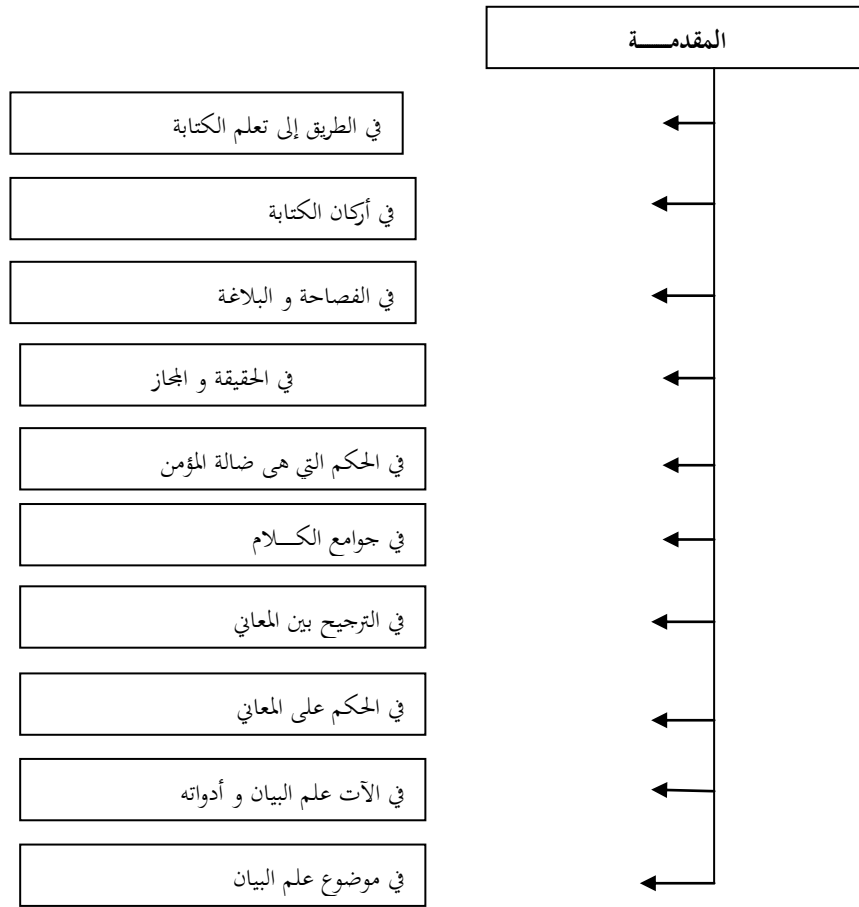
فالمقدمة: تشتمل على أصول علم البيان⁴؛ تتضمن عشرة فصول، خصصها "ابن الأثير" لموضوع "علم البيان" و ما ينبغي له من الأدوات و يمكن التمثيل لهذه الفصول بما يلي:

¹- ينظر: محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، نهضة مصر، (د- ط)، (د- ت)، ص: 325.

²- ابن الأثير، المثل السائر، ج 1، ص: 24.

³- المصدر نفسه، ج 1، ص: 23.

⁴- موضوع علم البيان هو الفصاحة و البلاغة.



المقالتان: تشتملان على فروع علم البيان؛ و هو قسمان:

المقالة الأولى: في الصناعة اللفظية، و تنشطر إلى شطرين هما:

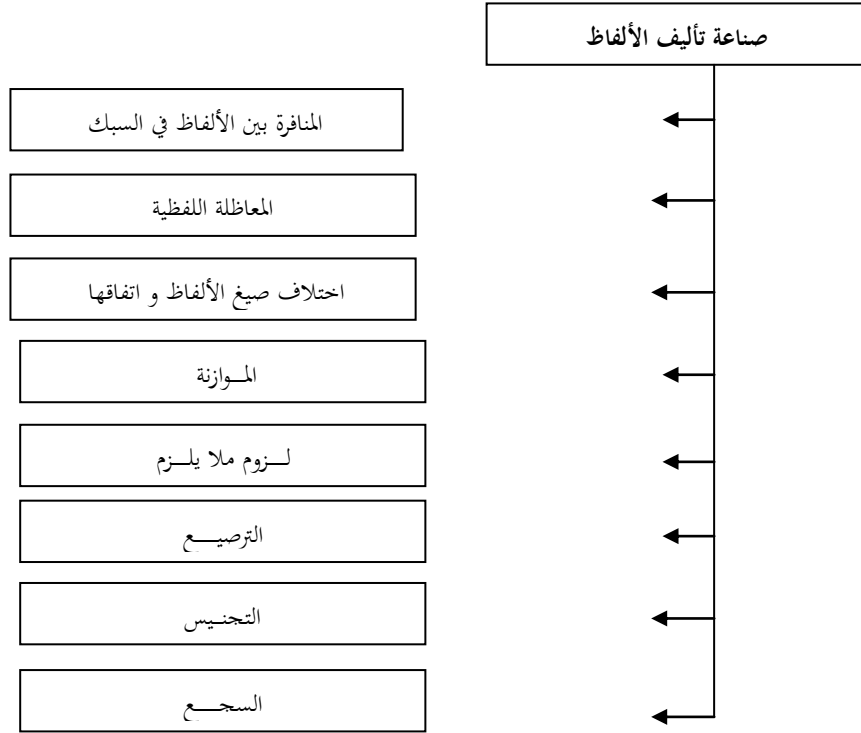
الأول: في اللفظة المفردة¹؛ يقول "ابن الأثير": «اعلم أنه يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه إلى ثلاثة أشياء: الأول منها: اختيار الألفاظ المفردة... الثاني: نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها... الثالث الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعها»².

الثاني: في الألفاظ المركبة؛ يقول صاحب "المثل السائر": أما إذا صارت مركبة (أي الألفاظ) فإن تركيبها حكما آخر، و لذلك أنه يحدث عنه من فوائد التأليفات و الامتزاجات ما

¹ - اللفظة الواحدة لا يطلق عليها اسم البلاغة، إنما يطلق اسم الفصاحة.

² - ابن الأثير، المثل السائر، ج 1، ص: 149.

يخيل للسامع مع أن هذه الألفاظ ليست التي كانت مفردة. وتأليف الألفاظ أو تركيبها هو صناعة الأديب، و تلك الصناعة تنقسم إلى ثمانية أنواع؛ هي¹:



المقالة الثانية في الصناعة المعنوية²؛ و تنقسم إلى قسمين: الأول منها في الكلام على

المعاني مجملاً؛ و الثاني في الكلام عليها مفصلاً³:

بالنسبة للقسم الأول فقد جعله "ابن الأثير" على ضربين⁴:

-أحدهما في ما يبتدعه المؤلف من غير أن يقنّدي فيه بمن سبقه.

-الثاني في ما يجري على مثال سابق و منهج مطروق.

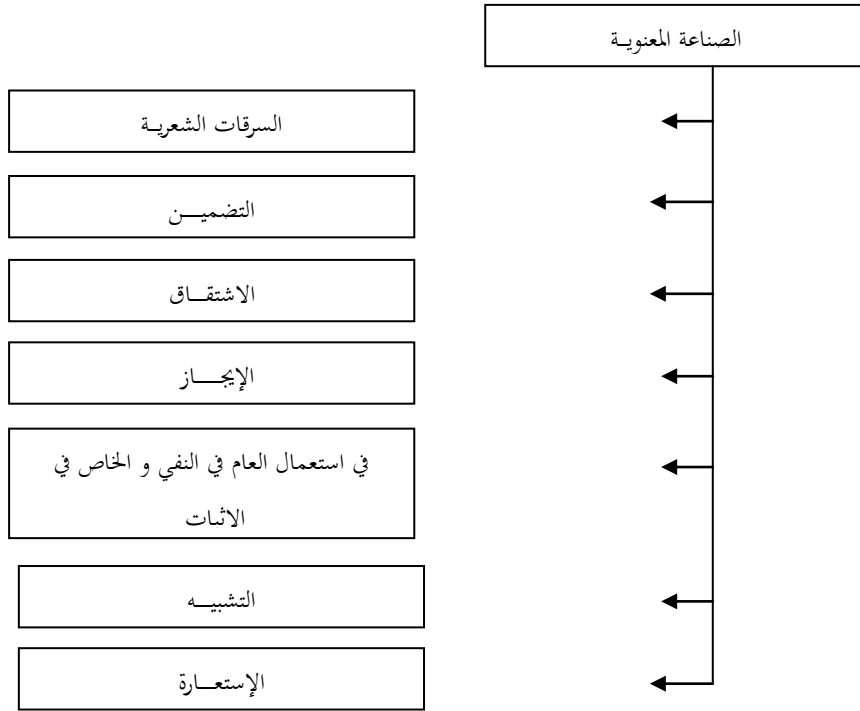
¹ - المصدر السابق، ج1، ص ص: 195-296.

² - أشار ابن الأثير إلى أن حكماء اليونان هم أول من تكلموا في حصر أصول الصناعة المعنوية غير أن ذلك الحصر كلي لا جزئي.

³ - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص: 301.

⁴ - يشير بدوي طبانة إلى أن "ابن الأثير" حاكى "أبا هلال العسكري" في تقسيمه المعاني إلى هذين القسمين، (ينظر: البيان العربي، ص: 219).

أما القسم الثاني: فقد بناه "ابن الأثير" على ثلاثين نوعاً؛ تبتدئ بالاستعارة و تنتهي بالسرقات الشعرية، و فيما يلي عرض لبعض هذه الأنواع:



ونشير هنا إلى أن "ابن الأثير" لم يقلد في تقسيمه هذا أي أحد؛ بل جاء هذا التقسيم جديداً كل الجدة على حد رأيه، ونحن نوافق "ابن الأثير" في ذلك؛ لأن واقع البلاغة والنظر الصائب إليها يقران ذلك؛ فمن يتحقق من البديع سوف يراه محسنات لفظية و أخرى معنوية، و لهذا لم يفرد له باباً، كما لم يرتض نهج سابقه فلم يلف لفهم، أو ينحى منحاهم، بالإضافة إلى أنه ابتعد عن المنطق و المناطقة في كلامه عن البلاغة و لذا عاب على النحاة الذين منطقوا نحوهم، و أرادوا أن يمنطقوا البلاغة، و سبب عدم جعل علم البديع في باب منفرد في أي من كتبه أو بدراسة مستقلة؛ فقد انفرط عقد هذا الفن بين الصناعة اللفظية و الصناعة المعنوية؛ فمثلاً؛ نراه ضم التجريد و التورية و أطلق عليهما الأحاجي، كما ضم التضمين و الإحصاء و التوشيح و السرقات و بعض ألوان البديع الأخرى إلى الصناعة المعنوية، و جعل في إطار الصناعة اللفظية السجع و الجناس، و الترصيع و الموازنة... إلى آخره¹.

¹ - ينظر: عبد الواحد حسن شيخ، دراسات في البلاغة عند ضياء الدين ابن الأثير، مؤسسة شباب الجامعة للنشر و التوزيع، الإسكندرية، د ط، 1986، ص:7.

و هذا كله يقودنا إلى أن أقواله في البيان، واستنباطه لأحكامه يدل " على علم صحيح و نكاء عجيب، وقوة استنتاج غير أن حبه للمعارضة و النقد دفعه إلى الإفراط في المخالفة"¹.

ج. آليات التخاطب في " المثل السائر":

يمكننا هنا أيضا اعتبار كتاب "المثل السائر" خطاباً موجهاً من مرسل إلى مرسل إليه، محاولين تقصي بعض الآليات التي وظفها "ابن الأثير (ت 637هـ)" باعتباره - متكلما- في خطابه، والذي سيسعى من خلاله إلى تلقي سليم ومقنع لدى القارئ لكتابه.

وسنتبع نفس المنهج في الدراسة السابقة لـ"الصناعتين"؛ حيث سنتخذ مبدأ الإستراتيجية كملح في الخطاب، وعليه سوف نبحث عن آليات التخاطب عند "ابن الأثير" في كتابه "المثل السائر"، وخاصة تلك المهيمنة على خطابه ما دمنا نعتبره خطاباً بديلاً يدخل ضمن بنية كبرى. و الأكيد أن "ابن الأثير" وظّف عدة آليات في خطابه قصد تحصيل التواصل وإنجاحه، وهو ما يحيل إلى التساؤل عن تجليات هذه الآليات في خطاب المثل السائر؟.

يبتعد "ابن الأثير" في "المثل السائر" عن تكلف الصنعة على عكس ما هو في رسائله التي التزم فيها طريقة البديع التي سادت عصره، فهو يستعمل في مؤلفاته الأسلوب "المرسل" الذي يكاد يخلو من كل تنمية و تصنع، لذا نجد إنشاءه في "المثل السائر" صادرا عن طبعه، سهل العبارة، واضح الأسلوب، حسن الانسجام، بريء من الغريب، حيث نلمس في أسلوب كتابة "ابن الأثير" روح الأستاذ في شرح دروسه، و إيضاحها و تعليّلها ليجعلها قريبة من الأذهان مفهومة.

كما ترسم مظاهر التضامن في الخطاب من خلال ملامح التأدب فيه، عن طريق فعل القول لدى المتكلم، وطريقة إلقاءه للمستمع، لتحقيق التواصل والانتفاع بين الطرفين في عملية التخاطب، إذ أنهما يخرجان من مستوى التبادل إلى مجال التفاعل.

¹- ينظر: عبد اللطيف الصوفي، مصادر الأدب في المكتبة العربية، ص: 191. و ينظر أيضا أدباء العرب في الأعصر العباسية، بطرس البستاني، ص: 446.

بالنسبة لإسناد في الخطاب والذي يعكس التضامن، والمتمثل في استخدام ضمير المخاطب (أنت) الذي يدل على غرض تداولي؛ حيث يجسد العلاقة التواصلية بين الأطراف المتخاطبة و المتمثلة في الاحترام، وذلك بتوظيفه لضمير المخاطب المتصرف مع الفعل (اعلم)، حيث يشير استعمال "أنت" إلى أن المشاركين في الخطاب يعتبرون أنفسهم ذوي علاقة حميمة، وذلك لتجسيد الإستراتيجية التضامنية مع المرسل إليه¹.

وبذلك يكون "ابن الأثير (ت 637هـ)" قد بنى خطاب "المثل السائر" على ملح مقاصدي، افترض فيه وجود متلق لرسالته، وهو ما يظهر في استعماله لضمير المخاطب (أنت)، المضمرة في الفعل (اعلم)، كما توخاه في عرض أفكاره، هادفاً إلى التأثير في المتلقي عامة، وكذا التضامن معه؛ ومن أمثلة ذلك قوله:

« واعلم أيها الناظر في كتابي أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذي هو أنفع من ذوق التعليم »²، وكذا قوله: «اعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم و المنثور تفننقر إلى آلات كثيرة، وقد قيل: ينبغي للكاتب أن يتعلق بكل علم، حتى قيل: كل ذي علم يسوغ له أن ينسب نفسه إليه فيقول: فلان النحوي و فلان الفقيه»³.

وقد سبق أن ذكرنا؛ أن هذا الفعل (أعلم) يحيل إلى الطرح النفعي للخطاب، بدلالة معنى الفعل (اعلم) المشتق من الجذر الثلاثي (علم، يعلم، تعليماً، اعلم...)، وهو أسلوب يحيل إلى التأدب الذي طبع "ابن الأثير" في محاورته مع مخاطبه.

كما يضم الكتاب أيضاً؛ خطابات تنزاح عن هذه الآلية نحو اقتضاء آليات أخرى، منها الإستراتيجية التوجيهية؛ ففيها يقوم المرسل بتوجيه المرسل إليه عبر اللغة التي يستعين بها، وهو ما يتضح في خطاب "ابن الأثير (ت 637هـ)" إذ يسعى دائماً إلى توجيه مخاطبه نحو فعل مستقبلي معين، وتتعدد الأفعال التي تدخل في صنف الانجاز والتوجيه، ومنها: الأوامر

¹ - ينظر: عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 288.

² - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص: 35.

³ - المصدر نفسه، ج1، ص: 38.

والطلبات، والاقتراحات، والنصائح؛ مثلاً ينصحه ضرورة حفظه للقرآن الكريم، يقول: « فعليك أيها المتوشح لهذه الصناعة بحفظه والفحص عن سره وغامض رموزه وإشاراته فإنه تجارة لن تبور ومنبع لا يغور وكنز يرجع إليه وذخر يعول عليه»¹. ولكي يحقق المرسل فعل التوجيه في الخطاب فإنه يستعين بأدوات أخرى وآليات مختلفة منها أساليب الأمر، والنهي، والتحذير، والإغراء...، وذلك بما يناسب السياق الذي يستثمر فيه معرفته، ومعرفة المرسل.

أيضاً؛ يقوم الاستفهام² في خطاب "ابن الأثير" بوظيفة تركيز الحوار على الموضوع المقصود، وهو هنا إشارة إلى تسخير الاستفهام كآلية لبلوغ القصد من الخطاب، فهو يقوم بمثابة معادل موضوعي في ذهن المرسل لما يدور من تساؤلات في ذهن المرسل إليه، وهو ما توخاه "ابن الأثير" في عرضه إذ يبني حجته بتساؤلات يفترضها مسبقاً، وذلك الافتراض متعلق بتقدير "ابن الأثير" لتعليقات المتلقي؛ ومثالنا عن ذلك ما يظهر في الفقرة الموالية من خطاب "ابن الأثير"، أين وظف الاستفهام لينجز به فعلاً كلامياً معيناً، وقد عنون أحد قضاياه في فصل الفصاحة والبلاغة بـ "مسألة أخرى تتعلق بهذا الفصل أيضاً؛ هل علم البيان من الفصاحة والبلاغة جارٍ مجرى علم النحو أم لا؟"؛ ليجيب بعده بقوله: « الجواب عن ذلك أنا نقول: الفرق بينهما ظاهر وذاك أن أقسام النحو أخذت من واضعها بالتقليد حتى لو عكس القضية لجاز له ذلك ولما كان العقل ياباه ولا ينكره فإنه لو جعل الفاعل منصوباً والمفعول مرفوعاً قلد في ذلك كما قلد في رفع الفاعل ونصب المفعول وأما علم البيان من الفصاحة و البلاغة فليس كذلك لأنه استنبط بالنظر وقضية العقل من غير واضع اللغة ولم يفتقر فيه إلى التوقيف منه بل أخذت ألفاظ ومعانٍ على هيئة مخصوصة وحكم لها العقل بمزية من الحسن لا يشاركها فيها غيرها...»³.

¹ - المصدر السابق، ج1، ص: 61.

² - يعتبر استعمال أسلوب الاستفهام من بين الآليات اللغوية التوجيهية لأنها توجه المرسل إليه نحو محتواها للإجابة عليها، ونظراً لقيمة الاستفهام في الخطاب فإنه يعد من أهم الأدوات اللغوية لإستراتيجية التوجيه.

³ - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص: 95.

تظهر لغة "ابن الأثير" في خطابه لغة مباشرة؛ توخى فيها أسلوب العرض المباشر، قصد حصول فعل التوجيه والإقناع عند مخاطبه، وبالتالي فإن ملامح التلميح لا تظهر بكثرة في خطابه باعتباره رسالة موجهة، وذلك لتحقيق مقاصده بأسلوب واضح وبسيط بعيدا عن الغموض؛ إذ أن خطابه تعليمي أكثر من كونه تلمحي، إذ حرص فيه على توجيه المخاطب إلى المضمون بأبسط السبل، لهذا فإن التلميح الذي ركز عليه يظهر في القضايا التي طرقها من مثل الاستعارة، والكناية، والمجاز... وهو ما سنتطرق إليها في المباحث القادمة باعتبارها تمس الجانب الآخر من البحث (فحوى الخطاب).

د. إستراتيجيات الإقناع في "المثل السائر":

ارتبط فن الإقناع في التراث العربي بفن المناظرة¹، وذلك ما يظهر في كل المجالات التي تعنى بطرح قضية وإحداث نقاش حولها، إذ أنه في خطاب المناظرة يكون هناك المدعي المخاطب، الذي يسعى إلى الاستدلال على أقواله قصد حصول الإقناع، وهناك المعارض المخاطب، والذي يسعى بدوره إلى المطالبة بالدليل على قول المدعي²، لهذا كانت المناظرة في

¹ تعد المناظرة من الأجناس الأدبية العربية القديمة، والتي عدت ضمن المدونة الأدبية القابلة للانضواء تحت سمة الأدبية، وقد عرفها ابن منظور بقوله: والمناظرة أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معا كيف تأتياه ... والتناظر الترويض : الترويض في الأمر . ونظيرك الذي يراوضك وتناظره... ، وناظره من المناظرة ... ناظرت فلانا أي صرت نظيرا له في المخاطبة" ينظر :ابن منظور، لسان العرب، مادة (نظر) ص ص: 217-219؛ ومنه فالفعل ناظر بمعنى المساواة والتعادل بين الطرفين في أمر ما، وهو ما يتضح أكثر في مجال المخاطبة، ليحمل معنى تكافؤ الفرص الخطابية و الحاجية لدى المتخاطبين، لهذا فقد ارتبط مجال المناظرة عند العرب بظهور الاختلاف في المسائل الفقهية والنحوية واللغوية عامة . وإلى جانب ذلك فقد تردد المصطلح نفسه عند الزمخشري، الذي يتقارب في الرأي مع ابن منظور، فقد عرفه الزمخشري في أساس البلاغة بقوله: « وناظرته في أمر كذا إذا نظر ونظرت كيف تأتياه... التناظر: التقابل، ودورهم تتناظر أي تتقابل» ينظر : الزمخشري: أساس البلاغة ، تحقيق : عبد الرحمن محمود، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت لبنان ، د.ط ، د.ت، مادة (نظر) ص: 463 . ولما كانت المناظرة وليدة التنوع الثقافي واختلافه، فإنها قد ساهمت إلى حد بعيد في انطلاقة الفكر العربي إلى مستويات ثقافية وإبداعية جديدة . وهو ما جعلها تتواجد ضمن الآراء المختلفة باختلاف التوجهات، وهو ما يتجلى في اختلاف التعريفات الاصطلاحية التي عرفت بها.

² ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص ص: 225-226.

التراث ذات أهمية بالغة في تجسيد الإقناع، فقد «كان خطاب المناظرة في التراث العربي ومازال، من أهم أنواع الخطاب الذي ينتجه المرسل للإقناع»¹.

أما في الأبحاث المعاصرة فيعتبر الحجاج من المباحث الرئيسية، حيث اعتبر الآلية الرئيسية للإقناع، وهو ما قام به "بيرلمان" وزميله "تيتيكاه" في عملهما²، إذ يعرفان الحجاج بقولهما: «موضوع هذه النظرية هو دراسة التقنيات الخطابية التي تعمل على حثّ الأذهان للتسليم بالأطروحات المعروضة عليها، أو أن تزيد في درجة التسليم ذاك»³، ونظرا لأهمية الحجاج في الخطاب فإنه يعد «الآلية الأبرز التي يستعمل المرسل اللغة فيها، وتتجسد عبرها إستراتيجية الإقناع»⁴، وهكذا فإن الإقناع هو لب العملية الحجاجية، باعتباره أثرا مستقبليا يتحقق بعد التلفظ بالخطاب، ويستهدف اتصالا يتعدى و"ابن الأثير" في خطابه هو المدعي والمدلل، وأما الذي يوجه إليه الكلام فهو المتلقي أو المعارض؛ لهذا قام خطابه على افتراض جدل ومحاورة بينه وبين معترضه.

ينقسم الحجاج إلى حجاج توجيهي وحجاج تقويمي، ويقوم في الخطابات التي تتصل بالغاية الإقناعية من أجل قبول القصدية التي يستهدفها المخاطب في الخطاب، كما يقوم بسبب وجود باعث معين؛ فما من محاجة إلا والباعث عليها وجود شك في مدى صحة فكرة ما⁵، وهو

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 449 .

² - عمل الباحثان على تخلص الحجاج من قيود الخطابة والجدل المعروفان في القديم والمرادفان للمنطق، كما عملا على تخلصه من صرامة الاستدلال الذي يجعل المخاطب به في وضع ضرورة وخضوع واستلاب، لهذا فإن الحجاج عندهما هو معقولة وحرية، ويأتي على شكل حوار من أجل حصول الوفاق بين الأطراف المتحاوره وتحقيق الإقناع. ينظر: عبد الله صولة، الحجاج: أطره ومنطقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج- الخطابة الجديدة" لبرلمان وتيتيكاه، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف حمادي صمود، منشورات كلية الآداب منوبة، تونس، ص: 289.

³ - Voir: C. Perlman, L.T. Olbrechts : traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique, édition del'université de bruxelles, 2000, p5.

⁴ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، المرجع السابق، ص: 456 .

⁵ - ينظر: عبد الله صولة، الحجاج: أطره ومنطقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج- الخطابة الجديدة" لبرلمان وتيتيكاه، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص: 302 .

ما يجعل منشئ الخطاب يرتهن إلى توظيف ثلاث أنماط أساسية من القصدية؛ وهي الغرض التعليمي، والغرض الحجاجي، والغرض الأخلاقي¹.

1. الحجاج (الغرض) التعليمي في خطاب "ابن الأثير":

يهتم هذا الغرض بإخبار المتلقي بواقع ما، فيستند المخاطب إلى الجانب الإخباري من الخطاب، ويرتبط هذا الغرض في خطاب "ابن الأثير" بالحجاج التقويمي الذي بنى وفقه مقاصده التي عرض فيها توجهه في بناء صرح سليم للخطاب البليغ، والتقويم وارد في خطاب "ابن الأثير" مادام أنه يسعى إلى الدفاع عن القصد بالحجة، وهو قصد اتجه به إلى المخاطب، ليورد آراء - في أغلبها حسب رأيه- لم يتداولها أهل زمانه، لهذا فإن التقويم يتمشى مع غرض التعليم «تحسبا لأي اعتراضات قد يواجه بها خطابه بالاستناد إلى معرفته به وبمعاصر السياق، ومن ذلك حججه المفترضة»²، لهذا فقد استعان بالاستدلال خدمة لقصده من التأليف لأن «توظيف المتكلم سبل استدلالية متنوعة تدل على أن خطاب المتكلم لا يكتسي صبغة الإكراه، ومنهج القمع في إقناع متلقيه، فتوظيف المتكلم للطرائق الاستدلالية المختلفة يجعل خطابه يتحقق في العالم الخارجي كفعل حجاجي أي من اللغة إلى التداول»³.

والمميز في أسلوبه عن "العسكري" أنه اهتم بإيراد الحجج التي يمكن أن يعارضه بها المرسل إليه، والتي يضعها في الحسبان في أثناء بناء خطابه؛ إذ يستند إلى افتراض حجج الخصم، و يسعى للإجابة عنها، ضمن حوار ضمني مفترض مع المخاطب لدفع الشك المتوقع عنده، لهذا يمكننا القول بأنه- أقصد "ابن الأثير"- يسمح بالتدخل المضمر للمتلقي في الصياغة « إذ يقوم هذا التدخل على المحاوراة الافتراضية أحيانا والمتابعة الصياغية أحيانا أخرى، شريطة أن يتوفر للمتلقي حضور ذهني يوازي الحضور النفسي والذهني للمبدع»⁴.

¹ - ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 465 .

² - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 473 .

³ - طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2، 2000، ص: 37 .

⁴ - محمد عبد المطلب، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان، مصر،

1995، ص: 17.

يظهر الحجاج التقويمي في خطاب "ابن الأثير" من خلال العبارات التي تدور في خطابه (فإن قلت...قلت في الجواب)؛ ومنها قوله: «فإن قيل إن هذا التقسيم الذي قسمته في المحذوف وغير المحذوف ليس بصحيح، لأن المعاني ليس أجساماً كالألفاظ، حتى يصح التقدير بينهما، ثم لو سلمت جواز التقدير في المساواة لم أسلم جواز الزيادة؛ فليس لقائل أن يقول: هذا المعنى زائد على هذا اللفظ، لأنه إن قال ذلك قيل: فمن أين فهمت تلك الزيادة الخارجة عن اللفظ، وقد علم أن الألفاظ إنما وضعت للدلالة على إفهام المعاني؟ فإن قال: إنها فهمت من شيء خارج عن اللفظ، قيل له: فتلك الزيادة بإزاء ذلك الشيء الخارج عن اللفظ، والباقي مساو للفظ، وإن قال: إنها فهمت من اللفظ، قيل: فكيف تفهم منه وهي زائدة عليه فإن قال: إنها فهمت من تركيبه لأن التركيب أمر زائد على اللفظ قيل: الألفاظ تدل بانفرادها على معنى وبتركيبها على معنى آخر واللفظ المركب يدل على معنى مركب واللفظ المفرد يدل على معنى مفرد وتلك الزيادة إن أريد بها زيادة معنى المركب على المركب فلا يخلو: إما أن تكون تلك الزيادة مفهومة من دلالة اللفظ المركب عليه إذ لو كانت زائدة عليه لما دل عليها وإن كانت مفهومة من دلالة الشيء الخارج عنه فهي بإزاء ذلك الشيء الخارج والباقي مساو للباقي.

فالجواب عن ذلك أن نقول: هذا الذي ذكره كلام شبيهه بالسفسطة، وهو باطل من وجهين:

-أحدهما: أن المعاني إذا كانت لا تزيد على الألفاظ فيلزم من ذلك أن الألفاظ لا تزيد أيضاً على المعاني، لأنهما متلازمان على قياسك، ونحن نرى معنى قد يدل عليه بألفاظ، فإذا أسقط من تلك الألفاظ شيء لا ينقص ذلك المعنى، بل يبقى على حاله.

-والوجه الآخر: إن الإيجاز بالحذف أقوى دليلاً على زيادة المعاني على الألفاظ، لأننا

نرى اللفظ يدل على معنى لم يتضمنه، وفهم ذلك المعنى ضرورة لا بد منه فعلمنا حينئذ أن ذلك المعنى الزائد على اللفظ مفهوم من دلالاته عليه...¹. وقد سردنا هذا المثال على طوله ليتضح أسلوب "ابن الأثير"؛ وكأنه عقد في خطابه محاوراً افتراضية (ضمنية) مع مخاطبه،

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج 2، ص ص: 265-266.

استعرض من خلالها الحجج التي بإمكانها أن تقوم في ذهن مخاطبه، ثم تلاها بحجج له؛ دحض من خلالها الحجج المفترضة من المخاطب، فكل قول في خطاب "ابن الأثير" مبني على اعتراض مفترض من مخاطبه وبعدها تأتي الحجج التي تدحضها، وهو ما يظهر أهمية **المخاطب** لدى "ابن الأثير"، ومن ملامح الحجج التقويمي أيضا في خطاب "ابن الأثير" استعماله لفعل الأمر (واعلم).

أيضا؛ اعتمد "ابن الأثير" على أسلوب الاستدراج؛ ذكرنا فيما سبق أن "ابن الأثير" حاول أن يقف على أثار الكتاب الذين ذاع صيتهم في صناعة الكتابة، لينقد منها ما لا يراه جاريا وفق مقاييسه التي يرتضيها، وهي المقاييس التي رأى أنها أكثر دلالة على إتقان الصنعة، حيث كان لا يقنع بما يوجهه من نقد؛ بل كان يتبع ذلك النقد بنماذج من آثاره، ويوفق على الفرق بين أسلوبه وأسلوب غيره؛ حتى **يستدرج قارئه** لإذعان لنبوغه، والتسليم بنفوقه، ثم يُثني على نفسه وفنه بما استطاع، والأدلة على ذلك كثيرة منها:

« وجدت لابن زياد البغدادي كتاباً كتبه إلى الملك صلاح الدين يوسف المقدم ذكره في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وضمنه فصلاً تشتمل على أمور أنكرت عليه من ديوان الخلافة فمن تلك الأمور التي أنكرت عليه أنه تلقب بالملك الناصر وذلك اللقب هو لأمير المؤمنين خاصة فإنه الإمام الناصر لدين الله فلما وقفت على ذلك الكتاب وجدته كتاباً حسناً قد أجاد فيه كل الإجادة ولم أجد فيه مغزراً إلا في هذا الفصل الذي يتضمن حديث اللقب فإنه لم يأت بكلام يناسب باقي الفصول المذكورة بل أتى فيه بكلام فيه غثاثة كقوله: ما يستصلحه المولى فهو على عبده حرام وشيئاً من هذا النسق وكان الأليق والأحسن أن يحتج بحجة فيها روح ويذكر كلاماً فيه ذلاقة ورشاقة»¹.

إلى أن يقول **منبها القارئ** إلى ما وفق إليه: « **فانظر أيها المتأمل** كيف جنّت بالخبر النبوي وجعلته شاهداً على هذا الموضع ولا يمكن أن يحتج في مثل ذلك إلا بمثل هذا الاحتجاج

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص: 58.

وما أعلم كيف شذ عن ابن زياد أن يأتي به مع أنه كان كاتباً مفلحاً أرتضى كتابته ولم أجد في متأخري العراقيين من يماثله في هذا الفن»¹. ويتضح من عبارته الأخيرة أن ينفي عن نفسه مظنة التعامل مع هذا الكاتب والتعصب ضده.

كما عمد "ابن الأثير" أيضاً؛ الأسلوب المباشر في خطابه، والذي يظهر في كيفية تحليله للنماذج الخطابية التي استوقفته في شرح المفاهيم النظرية، وهنا يظهر الغرض التعليمي في خطابه، والذي يتضح بواسطة بعض الآليات التي وظفها في خطابه، ومنها:

- **التعريفات والأمثلة:** استند عليها في طرحه، حيث زوج فيه بين التنظير والتطبيق، بحيث نجده في كل مرة يدلي برأي تنظيري، يعقبه بمثال من الشعر أو القرآن، وحتى الكلام العادي، والمميز في أمثله أنه في كثير من الأحيان يستشهد من كتاباته.

- **المناقشة والمحاورة الافتراضية:** جعل "ابن الأثير" خطابه مبني على المحاورة الافتراضية التي افترضها بينه وبين مخاطبه - وقد سبق وان ذكرنا ذلك-، متجهاً في ذلك أسلوب المناقشة التي حث من خلالها مخاطبه على التمعن فيما هو بصدد إلقائه عليه، وتحفيزه من أجل بلوغ المعرفة، ولقد صاغها كما رأينا وفق الطرح التساؤلي الذي سهّل له الانتقال بين فصول كتابه وبناء جسر حوارى بينه وبين مخاطبه.

2. **الغرض الحجاجي:** يستعين المتكلم بالحجة التي تساعده على الإقناع، كما يستند على الخلفية العامة المكونة للمجتمع، لهذا فإن الحاجة إلى البرهان في الخطاب ذات أهمية في الخطابات الحجاجية.

و ما نلاحظه عند "ابن الأثير" أنه كان لا يعرض القضية إلا و يقدم **الحجة** أو مثلاً ليوضح فيه فكرته، ولربما ذلك راجع لإحاطته الواسعة والشاملة بالقضايا التي كان يطرحها، وهذا دليل على وعيه الكامل بضرورة إخراجها إلى المتلقي في أرقى فكرة.

¹ - المصدر السابق، ص ص: 58-59.

كما اعتمد "ابن الأثير" بقوة على الاستشهاد بآي القرآن الكريم و شعر العرب و نثرهم لتدعيم الأفكار، و حتى ما ذكر عنهم، بالإضافة كذلك لبعض الآليات التي وظفها في خطابه، ومنها: التعريفات والأمثلة (الشواهد الشعرية والقرآنية والكلام المتداول اليومي)، المناقشة، التكرار، والتوسع في الفكرة (...). حيث يقدم المتنون ثم يشرحها، وما يميز منهج "ابن الأثير" أكثر؛ في كتابه المزج بين الشواهد والتحليل؛ إذ تتمظهر جدة منهج "ابن الأثير" في شخصيته المميزة و استقلال رأيه، ثم إن له جانبا مهما في دراسة البلاغة فهو يمزج القاعدة بالتطبيق و بالنقد، و يوازن و يختار، و هذا هو المجال الذي تزدهر فيه البحوث البلاغية¹.

و قد درس "ابن الأثير" هذه الموضوعات جميعها بشكل منطقي و منظم؛ إذ يعمد في بعض الأحيان إلى أسلوب الحوار في عرض أفكاره ليفسح المجال للمناقشة و الموازنة، و الاعتراض و الرد و السؤال و الجواب، فقد غلب عليه الجدل، فأما يورد أقوال غيره ثم يقول: "فأقول في الجواب"؛ ثم يرد عليها، و إما يلقي السؤال على نفسه، ثم يجيب عنه، من مثل قوله: «هل أخذ علم البيان من ضروب الفصاحة والبلاغة بالاستقراء من أشعار العرب، أم بالنظر وقضية العقل؟ الجواب عن ذلك أننا نقول: لم يؤخذ علم البيان بالاستقراء، فإن العرب الذين ألفوا الشعر والخطب لا يخلو أمرهم من حالين، إما أنهم ابتدعوا ما أتوا به من ضروب الفصاحة والبلاغة بالنظر وقضية العقل، أو أخذوه بالاستقراء ممن كان قبلهم»².

و الملاحظ أيضا؛ أن "ابن الأثير" يتوجه بخطابه نحو خصمه بأسلوب تحد، ومجازاة على إتيان بالنقيض الصائب، فهو يتحدى الخصم ويستقزه، وهو ما نجده نابعا من ثقته بما يصبو إليه، في إثبات فساد ما يدعيه الخصم، ولهذا أوكل الحجة و البرهان لرأيه، حيث صاغ "ابن الأثير" خطاب "المثل السائر" على شاكلة أسلوب "المناظرة"، والتي كانت سائدة في عصره، نظرا لكثرة الفرق الكلامية وتنامي النقاشات آنذاك حول المسائل الفقهية واللغوية

¹ - ينظر: محمد مصطفى صوفية، المباحث البيانية بين ابن الأثير و العلوي، المنشأة العامة للنشر و التوزيع طرابلس/ليبيا، 1994، ص: 189.

² - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص: 95.

وغيرها، ويظهر أسلوب العرض والمحاكاة من خلال نوع الأفعال الواردة في الخطاب (اعلم، قال، قيل، قلنا)، وهذا ما يميز خطاب "العسكري" في الصناعتين" عن "ابن الأثير" في كتابه "المثل السائر"، أسلوب الطرح وكذا الفوقية التي تظهر من خلال إشارات بآرائه وإظهار مدى تفوقه؛ مثل قوله: « وقد سلكت في ذلك طريقاً اخترعتها، وكنت أنا بن عذرتيها، وعند تأمل ما أورده منها في هذا الكتاب يظهر للمتأمل صحة دعاويي، ولئن كان من تقدمني أتى بشيء من ذلك، فإني ركبته فيه جواداً وركب جملاً، ونال من مورده نهلة واحدة، ونلت منه نهلاً وعللاً. ومن آتاه الله في القرآن بصيرةً فإنه يسبك ألفاظه ومعانيه في كلامه ويستغني به عن غيره»¹.

و كثيراً ما يورد "ابن الأثير" من إنشائه الرسالي و يجعله مثلاً للبلاغة، والملاحظ أنه يعني بتحليل معانيه و تنبيه القارئ على النظر إليها، كما يعرض أقوال غيره لكنه يقابلها بالنقد العنيف، و الانتقاص؛ في ما يذكره في حديثه عن السجع؛ إذ إن ثمة شروطاً للسجع الحسن، من أهمها: أن تكون الكلمتان المسجوعتان ذواتي معنيين مختلفين، وقد وقع في ذلك فحول الكتاب بحسب رأيه - منهم " الصابي (ت 384هـ)؛ في قوله: « الحمد لله الذي لا تدركه الأبصارُ بألحاظها، ولا تحدّه الألسنُ بألفاظها، ولا تُخلِّفه العصورُ بمرورها، ولا تهزُّه الدهورُ بكُرورها»²؛ ثم أورد "ابن الأثير" تقليداً بأكمله من إنشائه وآخر من إنشاء الصابي (ت 384هـ)، إلا أن الملاحظ أن حكم "ابن الأثير" هو الطاعي، وهذا يعكس طغيان الذاتية.

إذ يكثر بالتمثيل من رسائله؛ مثلاً؛ قوله: « ومن هذا المعنى أيضاً قولِي وهو: "أخذ المكارم من سمائها وأرضها، وقام بنقلها في الناس وفرضها، وتحلّى ببعض أسماء الشهور حتى أصبح بعضها حاسداً لبعضها، فالمحرّم للعائد بحرمة، وصفر للطامع في سعادة قدمه، وربيع لرائد نواله، ورجب لأقوال عذاله". وهذا مأخوذ من قول الفرزدق:

يداك يد ربيع الناس فيها وفي الأخرى الشهور من المحرم

¹ - المصدر السابق، ج 1، ص: 134.

² - المصدر نفسه، ج 1، ص: 217.

وقد قال الشعراء في ذلك كثيراً إلا أنني أنا تصرفت في هذا المعنى تصرفاً لم يتصرف فيه أحد غيري»¹.

لقد حاول إذن؛ "ابن الأثير" من خلال كتابه أن يمد المتكلم بكل الآليات التي تجعل خطابه ناجحاً؛ "إذ الغرض إنما هو الحصول على تعليم الكلم التي بها تنظم العقود وترصع وتخلب العقول فتخدع"² مؤثراً في المتلقي، وهذا يبرز التوجه و المقصد التداولي لطرحة النقدي البلاغي في الكتاب، وسنحاول استقراء ذلك بعون الله.

وخلاصة ما توصلنا إليه من هذه العجالة من خلال البحث عن مقاصد كل من "العسكري" و"ابن الأثير" وراء إنجازهما لهاذين العملين؛ أن اتضح لنا التوجه التداولي في التأليف؛ فكلاهما يسعى إلى تزويد المتكلم سواء أكان شاعراً أو كاتباً بالآليات والوسائل التي تساعده في إنتاج الكلام الناجح؛ وكذا التأثير في المتلقي.

فبالعودة لتعريف البلاغة عند "العسكري" نجده عرّفها بأنها «كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكّنه في نفسه لتمكّنه في نفسك، مع صورة مقبولة و معرض حسن»³، والمستشف من هذا التعريف أن "البلاغة" لديه تنطلق من فكرة التوجه إلى المستمع باعتباره المقصود من الخطاب أو التخاطب؛ فالمتكلم يراعي من يوجه إليه الكلام في إطار هذا التوضيح، بالإضافة إلى أنه لم يهمل الطرف الآخر وهو المخاطب أو المتكلم؛ وذلك في قوله: "تمكّنه في نفسك"، وهذه العلاقة بين طرفي الخطاب التي حرص على إبرازها ههنا تقترب من التداولية التي عنيت بأطراف الموقف التواصلية عناية كبيرة، كما ربط البلاغة بالمعرض الحسن والصورة المقبولة، فلفظ "المعرض" يحيل إلى الشكل الذي يتجلى منه الكلام، أما كلمة "الصورة" فتدل على الفكرة التي يريد المتكلم تبليغها؛ والغاية التي تريدها البلاغة هي "إيصال التصور كما هو في ذهن المتكلم إلى المتلقي والتأثير فيه".

¹ - المصدر السابق، ج1، ص:111.

² - المصدر نفسه، ج1، ص:35.

³ - العسكري، الصناعتين، ص: 13.

وهذا يؤكد رأي "ليش" السابق الذي يرى فيه « أن البلاغة تداولية في صميمها، إذا أنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضهما»¹؛ وبذلك تقترب الرؤية البلاغية للخطاب عند "العسكري" من الطرح التداولي.

أما عند "ابن الأثير" فالأصل في البلاغة؛ هو « المعنى المفيد الذي ينتظم كلاماً »²؛ وبالتأمل في هذه العبارة نجد أن الكلام لا يتصف بالبلاغة إلا إذا كان تلفظاً أو كلاماً من متكلم؛ ينتظم بطريقة معينة؛ يحمل أفكاراً أو معاني جديدة مفيدة للطرف ثاني هو سامع، وهنا أيضاً يظهر التوجه التداولي في الرؤية البلاغية للخطاب عند "ابن الأثير".
ولإبراز الأبعاد التداولية أكثر في طرحهما البلاغي؛ سنحاول فيما يلي تسليط الضوء على أهم عناصر التداول من : متكلم، سامع، ومقام؛ من منظور عالمنا الجليلين؛ ودورها التداولي في عملية التخاطب، وذلك كله لإبراز القصد التداولي من إنشائهما لهاذين المصنفين.
و سنحاول فيما يلي فرز الصفات التي تظهر بها الجوانب التداولية ومدى اهتمام البلاغة العربية بأطراف و عناصر التداول: المتكلم، السامع، المقام التخاطبي.

¹ - سعيد حسن بحيري، علم لغة النص المفاهيم و اتجاهات، القاهرة مؤسسة المختار للنشر و التوزيع، ط1، سنة 2004، ص: 24.

² - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص: 94.

المبحث الثاني: عناصر التداول في الخطاب عند كل من "العسكري" و"ابن الأثير"

1. المتكلم وشروطه:

بدا للتداوليين أن البؤرة الأساسية في العناية بالمتكلم كأمينة بالبعد التأثيري للمتكلم في المخاطب، فالمتكلم يصبو بكلامه على تنوعه إلى التأثير في المخاطب، ورأى "ليتش Leech" أننا لا يمكن أن ندعي فهمنا للكلام من دون استحضار شروط إنتاجه المحيطة به، ولا سيما عنصر المتكلم والمخاطب¹.

وتظهر عناية "العسكري" و"ابن الأثير" بالمتكلم من خلال كثرة الألقاب التي خصها كل منها له، ومنها: المتكلم، المؤلف، الشاعر، الكاتب، القائل، لكن هذه العناية لم تكن من منطلق نقدي بقدر ما كانت من منطلق إرشادي؛ فطبيعة الخطاب الموجه يستهدف المبدع أو المتكلم لا القارئ أو السامع، وذلك يتضح من خلال استعمال عبارات الإرشاد؛ من قبيل: "عليك أن تتجنب" ؛ "و إذا أردت أن تصنع كلاماً" وكذا "ينبغي عليك"؛ وكذا اعتمادهما على الضمير "أنت" - وقد سبق أن أشرنا لذلك في وقت سابق-، وهذا كله يؤكد أن الكاتبين اهتما بالمتكلم، لا من حيث موازنة بالنص أو النظر في النص من خلال المبدع؛ بل تجاوز الاهتمام بالمتكلم أو المرسل إلى مرحلة ما قبل ولادة الرسالة اللغوية.

يقول "العسكري": « أول آلات البلاغة جودة القريحة وطلاقة اللسان. وذلك من فعل الله تعالى؛ لا يقدر العبد على اكتسابه لنفسه واجتلابه لها»²؛ إذ يشير إلى ضرورة توفر الموهبة اللغوية، و التي يهبها الله تعالى للإنسان حتى يكون بليغاً وبذلك يكون اللسان جزء اجتماعي من اللغة و هو خارجي؛ إذ لا يستطيع الإنسان أن يخلق اللسان، و لا أن يغيره، وهذا ما قصده "العسكري" بقوله: « وذلك من فعل الله تعالى، لا يقدر العبد على اكتسابه لنفسه واجتلابه لها»³،

¹ - إدريس مقبول، الأسس الابدستمولوجية و التداولية في النظر النحوي في كتاب سيوبيه ، عالم الكتب الحديث، إريد، الأردن، ط1، 2006، ص:330.

² - العسكري، الصناعتين، ص:29.

³ - المصدر نفسه، ص:30.

ونستطيع أن نجعلها من أول الشروط في - نظر "العسكري" طبعا- هي جودة القريحة؛ ولا شك أن مفهوم البلاغة في هذا الموضوع يختلف عن مفهومها العام، فالمفهوم العام لها يخص المبدع والمتلقي و النص، وأما في هذا الموضوع ومن هذا القول بالذات؛ فهي تقتصر على ما يخص المتكلم، و "العسكري" يربط حضور البديهة وسرعة الجواب بطاقات النفوس و بمقدار الموهبة التي حباها الله إياها.

وكل هذه صفات تلحق بـ"الطبع"، وتقترب بصفات الشخصية، ومن هذه الجوانب ما يقترب بثقافة المتكلم؛ وهذا التصور قريب من تصور "ابن الأثير"؛ إذ اهتم "ابن الأثير" بهذه القضية (أقصد الطبع)، إذ يقول: «وملاك هذا كله الطبع، فإنه إن لم يكن ثم طبع فإنه لا تغني تلك الآلات شيئا، ومثال ذلك كمثل النار الكامنة في الزناد، والحديد التي يقدر بها، ألا ترى أنه إذا لم يكن في الزناد نار لا تفيد تلك الحديد شيئا؟»¹؛ ف"ابن الأثير" بقوة تصويره، وتشبيهه للطبع بالنار الكامنة في الزناد مبرزا أن الحديدية (الثقافة المكتسبة المعارف المتعلمة)، لا تفيد شيئا في غياب النار (الطبع)، يؤكد أن الجانب المعرفي لدى الكاتب المبدع، فلا يمكن أن يخلق منه مبدعا إذا لم يتوفر صاحبه على الحظ اللازم من الطبع، فإن افتقر إلى هذه الملكة فإن تلك الخبرات المكتسبة لا تغنيه شيئا، فالطبع هي الملكة التي لا يمكن أن يتم الإبداع بدونها، فهي تؤهل الإنسان للإبداع، وهو "لا يختلف في شيء عما نسميه حديثاً الموهبة، إذ لاحظ" الدكتور هني "أن النقاد العرب قد أدركوا أن هذه الملكة تولد مع الإنسان و أن لا سبيل إلى اكتسابها بالتعلم والتحصيل²، وبذلك ميزوا بينه بوصفه قوة فطرية عند الإنسان، وبين العناصر المكتسبة كالثقافة والدرية.

وتلك الملكة والدرية في تصور "ابن الأثير" أحدهما ملازم للآخر في الإنتاج الخطابي، يقول: «فمن أحب أن يكون كاتباً أو كان عنده طبع مجيب فعليه بحفظ الدواوين ذوات العدد، ولا يقنع بالقليل من ذلك ثم يأخذ في نثر الشعر من محفوظاته... وإذا مرنت نفسه وتدرّب

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص:40.

² - ينظر: عبد القادر هني، نظرية الإبداع في النقد العربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص:115.

خاطره، ارتفع عن هذه الدرجة، وصار يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده، ثم يرتفع عن ذلك حتى يكسوه ضرباً من العبارات المختلفة، وحينئذ يحصل لخاطرة بمباشرة المعاني لقاح، فيستنتج منها معاني غير تلك المعاني، وسبيله أن يكثر الإدمان ليلاً ونهاراً ولا يزال على ذلك مدة طويلة حتى يصير له ملكة، فإذا كتب كتاباً، أو خطب خطبة تدفقت المعاني في أثناء كلامه وجاءت ألفاظه معسولة لا مغسولة، وكان عليها جدة، حتى تكاد ترقص رقصاً¹، نلاحظ هنا كيف ذكر الطبع وعطف عليه حب الصنعة، وكأنهما شيء واحد، ثم طالب الاعتناء بالصنعة والإدمان عليها، حتى تستحكم الملكة، وتصبح العبارات تنهال على لسان المتكلم دون تكلف، وربما هذه الإشارة من "ابن الأثير" تبين طريق الصنعة.

وينبغي الإشارة إلى أن "جودة القريحة" أو "الطبع" من علامات الإبداع؛ أي أنها تخص نوعاً معيناً من المتكلمين، وهم من حاباهم الله بهذه القدرة أو الموهبة الربانية؛ إذ توفرها يجعل من المتكلم أو المخاطب مبدعاً، لا متكلماً عادياً، طبعاً بالإضافة إلى توفر الشروط التي سيأتي ذكرها.

ولقد استغرب "ابن الأثير" من اختلاف الطبائع في تعلم العلوم قائلاً: «وكثيراً ما رأينا وسمعنا من غرائب الطبائع في تعلم العلوم، حتى إن بعض الناس يكون له نفاذ في تعلم علمٍ مشكل المسلك صعب المأخذ، فإذا كلف تعلم ما هو دونه من سهل العلوم نكص على عقبيه، ولم يكن له فيه نفاذ»²؛ وتفسير هذا الاستغراب أن الطبع يولد مع الإنسان، أو بتعبير آخر إنه استعداد جبلي يهبه الله من عباده من يشاء، وفي أي مجال شاء.

وقد قسم "أبو هلال العسكري" قبله؛ المتكلمين - بناء على "الطبع" - أقساماً:

1. فمنهم من إذا خل بنفسه، وأعمل فكره أتى بالبيان، واستخرج المعنى الرائق، وإذا ما حاور أو ناظر تأخر، وحتى هذا أن يتعرض لارتجال الكلام؛
2. ومنهم من يقع على العكس من ذلك؛

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص ص: 136-137.

² - المصدر نفسه، ج 1، ص ص: 40-41.

3. ومنهم من يحسن في جميع الحالات وهذا أفضل أقسام المبدعين¹.

وقد أشار "ابن الأثير" لذلك أيضا؛ إذ استغرب أن صاحب الطبع في المنظوم يجيد في المديح دون الهجاء، أو في الهجاء دون المديح، أو يجيد في المرثي دون التهاني، أو في التهاني دون المرثي، وكذلك صاحب الطبع في المنثور؛ فمثلا «ابن الحريري صاحب المقامات قد كان على ما ظهر عنه من تنميق المقامات واحداً في فنه، فلما حضر ببغداد ووقف على مقاماته قيل: هذا يستصلح لكتابة الإنشاء في ديوان الخلافة ويحسن أثره فيه، فأحضر وكلف كتابة كتاب فأفحم، ولم يجر لسانه في طويلة ولا قصيرة، فقال فيه بعضهم:

شيخ لنا من ربيعة الفرس يَنْتَفِ عُنْتُونَهُ² من الهوس
أنطقه الله بالمشان³ و قد ألجمه في بغداد بالخرس

وهذا مما يعجب منه»⁴.

ونخلص من ذلك كله أن أساس الأول للإبداع هو الطبع الذي به ينتج ويدرك أسرار الألفاظ «ومن الذي يؤتته الله فطرة ناصعة، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار، حتى ينظر إلى أسرار ما يستعمله من الألفاظ فيضعها في موضعها»⁵؛ فالطبع هبة من الله إذا ركبها في الإنسان «أصبح قابلاً لهذا الفن»⁶، غير أن هذا الطبع كما أشرنا لا يمكن أن يؤتى ثماره لوحده ما لم تصحبه الصناعة، وقد تنبه النقاد في تراثنا العربي إلى أهمية الصناعة في الفن، وبما أن الشعر صناعة من الصناعات تقوم على الجهد، والمعاناة، فهو نشاط إنساني، ومادام كذلك فهو يحتاج إلى آلات وأدوات ومعرفة، وخاصة وإن الأدب موضوعه غير محدود ويخوض في كل فن ويعرف من كل الأودية. فهو صناعة حقا ولكنه يكون بعد توفر الموهبة،

¹ - ينظر: العسكري، الصناعتين، ص: 31.

² - العثون: اللحية، والمعروف أن الحريري أنه ينتف لحيته عند الفكرة. ينظر: المثل السائر، ج1، ص: 39.

³ - المشان: بليدة بعد البصرة، فيها أهل الحريري، ينظر: المثل السائر، ج1، ص: 39.

⁴ - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص: 39.

⁵ - المصدر نفسه، ج1، ص: 211.

⁶ - المصدر نفسه، ج1، ص: 43.

ويحتاج صاحب هذه الصناعة إلى المعارف العلمية المختلفة؛ فالشاعر والكاتب كلاهما، مطالب بأن يعرف علوما ومعارف تدعم موهبته، وتشحذ طبعه، وتفجر عبقريته.

وقد حدد "ابن الأثير" تلك المعارف التي اعتبرها بمثابة آلات البلاغة؛ وجعلها في ثمانى أنواع؛ وهي:

النوع الأول: معرفة علم العربية من النحو والتصريف.

النوع الثاني: معرفة ما يحتاج إليه من اللغة وهو المتداول المؤلف استعماله في فصيح الكلام غير الوحشي الغريب ولا المستكروه المعيب.

النوع الثالث: معرفة أمثال العرب وأيامهم ومعرفة الوقائع التي جاءت في حوادث خاصة بأقوام فإن ذلك جرى مجرى الأمثال أيضا.

النوع الرابع: الاطلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعة المنظومة منه والمنثورة والتحفظ للكثير منه.

النوع الخامس: معرفة الأحكام السلطانية الإمامة والإمارة والقضاء والحسبة وغير ذلك.

النوع السادس: حفظ القرآن الكريم والتدرب باستعماله وإدراجه في مطاوي الكلام.

النوع السابع: حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم

والسلوك بها مسلك القرآن الكريم في الاستعمال.

النوع الثامن: وهو مختص بالناظم دون الناثر، وذلك علم العروض والقوافي الذي يقام

به ميزان.

ثم ذكر بعد ذلك فائدة كل نوع من هذه الأنواع، والتي هي كالآتي:

- معرفة علم العربية من النحو والتصريف: يؤكد "ابن الأثير" على أهمية علم النحو

ليعلم المتكلم بالحاجة الماسة إلى معرفته، فيقول: «أما علم النحو فإنه في علم البيان من

المنظوم والمنثور بمنزلة أبجد في تعليم الخط، وهو أول ما ينبغي إتقان معرفته لكل أحد ينطق

باللسان العربي ليأمن معرفة اللحن¹، فعلم النحو يمثل حجر الزاوية الأول في ثقافة المتكلم، و إن كانت هذه الآلة مشتركة بين الشاعر والناثو، فإن النحو يستقيم معنى الكلام، ويصان تأليفه من الفساد، واللحن، والانحلال، خاصة أن التركيبة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي لم تعد عربية خالصة يميزها الصفاء اللغوي الذي عرفت به في سابق العهد، إنما أصبحت خليطاً من عرب وعجم، فتداخلت فيها الألسنة، وضاعت بينها السليقة العربية، وشاع اللحن والخطأ، فأضحى المتكلم ملزماً بتعلم النحو ليصون لسانه من اللحن كما قال بذلك "ابن الأثير".

وليؤكد أهمية علم النحو قدم أمثلة لكن قد خرج عن هذه الأمثلة ما لا يفهم إلا بقيود تقيده، وإنما يقع ذلك في الذي تدل صياغته الواحدة على معانٍ مختلفة، و ضرب على ذلك عدة أمثلة للتوضيح «كتقديم المفعول على الفاعل في قوله: "ضرب زيد عمرو"، فإنك إن لم تنصب زيدا وترفع عمرا كعلامة تبين أحدهما على الآخر لا يفهم ما أردت... وكذلك لو قال قائل: ما أحسن زيد ولم يبين الإعراب في ذلك لما علمنا غرضه منه إذ يحتمل أن يريد به التعجب من حسنه أو يريد به الاستفهام عن أي شيء منه أحسن، ويحتمل أن يريد به الإخبار بنفي الإحسان عنه ولو بين الإعراب في ذلك فقال: ما أحسن زيداً وما أحسن زيدٍ وما أحسن زيدٌ علمنا غرضه وفهمنا مغزى كلامه لانفراد كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة بما يعرف به من الإعراب فوجب حينئذٍ بذلك معرفة النحو إذ كان ضابطاً لمعاني الكلام حافظاً لها من الاختلاف»².

ثم يضيف ويقول: «هذا فينبغي لك أن تعلم أن الجهل بالنحو لا يقدر في فصاحة ولا بلاغة ولكنه يقدر في الجاهل به نفسه، لأنه رسوم قوم تواضعوا عليه وهم الناطقون باللغة فوجب اتباعهم»³؛ وهو يقارب ما صرح به "دي سوسير De Saussure" بلقن الدراسة اللغوية تتضمن قسمين مختلفين:

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص:41.

² - المصدر نفسه، ج1، ص ص:41-42.

³ - المصدر نفسه، ج1، ص:49.

القسم الأول: وهو أساسي وموضوعه "اللسان Langage" وهو ذو طبيعة اجتماعية مستقلة عن الأفراد الذين يستعملونها، فهو «وسيلة الفكر ليس إلا، وله جانب فردي وجانب اجتماعي لا يمكن أن نتصور أحدهما بغير الآخر»¹، وهو ههنا مفروض على الفرد، ولا يمكنه تغييره. القسم الثاني: وهو قسم ثانوي، وموضوعه الجانب الفردي للغة، وفي هذا الصدد يقرّ دي سوسير "أنه «لا ينبغي الخلط بين اللغة واللسان، فما اللغة إلا جزء منه، بل عنصر أساسي، وفي الوقت نفسه إنتاج اجتماعي لمملكة اللسان»².

وبناءً على هذا فإنّ اللغة والكلام كلاهما سابقان للسان من حيث النشوء؛ لأنّ «اللسان لا يستقر إلا بعد مضي أجيال، فاللسان يتأثر بالكلام واللغة، ويؤثر فيهما، فهو يتأثر بهما لأنه حصيلة كل ما يصدر عن الأفراد من أقوال ونتاج مجموعة السلوكات اللفظية»³، وبالفصل بين اللسان والكلام نكون قد ميّزنا بين ما هو اجتماعي خاص بالجماعة البشرية، وما هو فردي متعلّق بالفرد المعيّن، وما هو جوهري وأساسي عمّا هو عرضي وثانوي⁴، واللسان من هذا المنطلق جزء اجتماعي من اللغة، وهو خارجي بدون أدنى شك عن الفرد؛ إذ لا يستطيع أن يخلق اللسان، ولا أن يغيّره.

معرفة أمثال العرب وأيامهم، ومعرفة الوقائع التي وردت في حوادث خاصة بأقوام: يبيّن

"ابن الأثير" شدة حاجة المتكلم إلى معرفة أمثال العرب، والتي يعرفها بـ «أنه القول الوجيز المرسل ليعمل عليه»⁵، لأن العرب وضعت أمثالها بمناسبة محددة لتصبح كالعلامة لتلك المناسبة، ومن ثم فلا تستخدم هذه الأمثال إلا في مثل ما استخدم فيه من قبل، حتى تكون

¹ - دي سوسير، محاضرات في اللسانيات العامة، ترجمة يوثيل يوسف عزيز، مرجعة مالك يوسف المطلبي، العراق بيت الموصل، ط 2، 1988، ص: 26.

² - دي سوسير، المرجع نفسه، ص: 27.

³ - حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، ط 5، 2003، ص: 66.

⁴ - ينظر: أحمد حساني، دراسات في اللسانيات التطبيقية حقل تعليمية اللغات، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، 2000، ص: 7.

⁵ - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص: 53.

متوائمة متطابقة، « وذلك أن العرب لم تضع الأمثال إلا لأسباب أوجبتها، وحوادث اقتضتها، فصار المثل المضروب لأمرٍ من الأمور عندهم كالعلامة التي يعرف بها الشيء، وليس في كلامهم أوجز منها، ولا أشد اختصاراً»¹، فمن لم يعرف من المتكلمين ذلك، وأخذ المثل على حقيقته من غير النظر إلى القرائن المنوطة والأسباب التي قيل من أجلها، وقع في الخطأ، أي يحدث خلل في التواصل مع المتلقي وتملكه العجز على استخدام هذه الأمثال - وبتعبير ابن الأثير - "أضحك عليه غيره، « وذلك أن المثل له مقدمات وأسباب، قد عرفت وصارت مشهورة بين الناس معلومة عندهم»²، وهذا لا يقتضي - كما قال ابن الأثير - أن يعرف كل الأمثال الواردة عنهم.

لكن الإطلاع على الأمثال وحدها لا تكفي كثافة تاريخية للمتكم، فأيام العرب «تتنوع وتتشعب فمنها أياما ومنها أيام محاربة ومنها أيام منافرة ومنها غير ذلك ولا يخلو الناظم والناثر من الانتصاب لوصف يوم يمر به في بعض الأحوال شبيها بيوم من تلك الأيام ومماثلاً له فإذا جاء بذكر بعض تلك الأيام المناسبة لمراده الموافقة له وقاس عليه يومه فإنه يكون في غاية الحسن والرونق هذا لا خفاء به»³، بالإضافة إلى أن هذا النوع من المعرفة يزيد من ثقافة المتكلم التاريخية، أيضا توفر للمتكم لم الوصول للمقصود بطريقة أسرع وأقل جهد و أكثر وضوحا مما يؤثر في مدى قبولية الكلام ونجاح قصده.

معرفة الأحكام السلطانية: من الإمامة، والإمارة، والقضاء، والحسبة، وغير ذلك مما يحتاج إليه الكاتب في تقليدات الملوك والأمراء وغيرهم ممن يجرى مجراهم؛ فيجب على الكاتب أن يعي ويعرف معرفة تامة هذه الأحكام السلطانية، وكل ما يتعلق بأمر الدولة، وإن لم يكن عارفا بالحكم في هذه الحوادث، واختلاف أقوال العلماء فيها -الإمامة مثلا-، وما هو رخصة في ذلك وما ليس برخصة، لا يكتب كتابا ينتفع به، فعدم العلم بهذه الأحكام والأمر يعيب

¹ - المصدر السابق، ج1، ن ص.

² - م ن، ن ص.

³ - م ن، ص:54.

كتابه النثري وليس معنى هذا أن "ابن الأثير" يطالب الخاطب (الكاتب/ الشاعر) بأن يكون الكتاب مقصورا على فقه محض، لأنه على حد رأي "ابن الأثير" كتاب بلاغي "يكتب في هذا المعنى مشتملا على الترغيب والترهيب والمسامحة في موضع، و المحاققة في موضع، مشحونا ذلك بالنكت الشرعية المبرزة في قوالب البلاغة والفصاحة؛ ليستشهد بها ويبرر بها موقفه، وقد تكون حجة لوجهة رأيه، وهذه أيضا تزيد من ثقافته التاريخية.

- الاطلاع على كلام المتقدمين من المنظوم و المنثور : يذكر أن فائدته تكمن في أنه « يعلم منه أغراض الناس ونتائج أفكارهم، ويعرف به مقاصد كل فريق منهم و إلى أين ترامت به صنعتهم¹؛ ثم يضيف موضحا الغاية من معرفتها أنها « مما تشدذ القريحة وتذكي الفطنة²؛ أي تزيد من معارفه الموسوعية، فيصبح استحضار المعاني بما يناسب المقام بلا كد ولا مشقة؛ حيث « تصير المعاني التي ذكرت، وتعب في استخراجها كالشيء الملقى بين يديه يأخذ منه ما أراد ويترك ما أراد³، ولعل هذا كله يزيد من قدرته أو ما يعرف بـ" الكفاءة الموسوعية" لدى المتكلم.

- حفظ القرآن الكريم : ومن فوائده " أنه يضمن كلامه بالآيات في أماكنها اللاتقة بها ومواضعها المناسبة لها، ولا شبهة فيما يصير للكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرونق، ومنها أنه إذا عرف مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المودعة في تأليف القرآن اتخذه بحراً يستخرج منه الدرر والجواهر، ويودعها مطاوي كلامه⁴؛ إذ يوفر له ما يستشهد به بما يناسب موقفه ومقامه. حفظ الأخبار النبوية مما يحتاج إلى استعماله فإن الأمر في ذلك يجري مجرى القرآن الكريم، وقد تقدم القول عليه⁵، وهذين الأخيرين سيكونان عوناً له بالاستشهاد لفكرته وحجيتها.

¹ - المصدر السابق، ج1، ص:59.

² - المصدر نفسه، ج1، ص:59.

³ - م ن، ن ص .

⁴ - م ن، ن ص.

⁵ - المصدر نفسه، ج1، ص:60.

- معرفة علمي العروض والقوافي ؛ وهو ما يختص بالناظم دون الناثر وذلك معرفة العروض وما يجوز فيه من الزخارف وما لا يجوز فإن الشاعر محتاج إليه ولسنا نوجب عليه المعرفة بذلك لينظم بعلمه فإن النظم مبني على الذوق ولو نظم بتقطيع الأفاعيل لجاؤ شعره متكلفاً غير مرضي وإنما أريد للشاعر معرفة العروض لأن الذوق قد ينبو عن بعض الزخارف ويكون ذلك جائزاً في العروض وقد ورد للعرب مثله فإذا كان الشاعر غير عالم به لم يفرق بين ما يجوز من ذلك وما لا يجوز وكذلك أيضاً يحتاج الشاعر إلى العلم بالقوافي والحركات ليعلم الروي والردف وما يصح من ذلك وما لا يصح.

وفي آخر سرده لتلك الآلات الثمان يقول: « فإذا أكمل صاحب هذه الصناعة معرفة هذه الآلات وكان ذا طبع مجيب وقريحة مواتية، فعليه بالنظر في كتابنا هذا والتصفح لما أودعناه من حقائق علم البيان ونبهنا عليه من أصول ذلك وفروعه، على أن الذي ذكرناه من هذه الآلات الثمان هو كالأصل لما يحتاج إليه الخطيب والشاعر ومعرفته ضرورية لا بد منها و ههنا أشياء هي كالتوابع والروادف.

وبالجملة فإن صاحب هذه الصناعة يحتاج إلى التشبث بكل فن من الفنون حتى إنه يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادرة بين النساء ، والماشطة عند جلوة العروس وإلى ما يقوله المنادي في السوق على السلعة، فما ظنك بما فوق هذا، والسبب في ذلك أنه مؤهل لأن يهيم في كل واد فيحتاج أن يتعلق بكل فن ¹.

وبذلك يؤكد "ابن الأثير" على أهمية الخلفية المعرفية والثقافية للمتكلم وتمتعه بالفطنة والقدرة على محاوراة النصوص واستثمارها في الكتابة، يتجلى ذلك في دعوته إلى الإكثار من حفظ القرآن الكريم والحديث الشريف والأشعار، فالكاتب يحتاج إلى: « التشبث بكل فن، والنظر في كل علم، و إرصاد السمع لمحاورات الناس، فإنه لا يعدم من ذلك فائدة، فإن الكلمة الحكمة ضالة المؤمن وحيث وجدها فهو أحق بها »²، وهذا يثبت أن "ابن الأثير" يركز على نفعية

¹ - المصدر السابق، الصفحة نفسها.

² - ابن الأثير، الوشي المرقوم في حل المنظوم، ص: 48 .

الخطاب، إذ يرى ضرورة أن يعرف ما يقال حتى ما يميز مقامات مختلفة من مثل ما تقوله النادبة من النساء والبائع في السوق؛ فلكل منهما ما يميز استعماله للغة حسب المقام الذي يقتضيه، وبذلك لم يركز فقط على الخطاب الأدبي بل حتى اليومي، وكل هذه المعارف تعزز قدرته التواصلية والتداولية في المواقف المختلفة.

وقد أشار إلى هذا "العسكري" قبله بتصريحه بأن: «ومن تمام آليات البلاغة التوسع في معرفة العربية، ووجوه الاستعمال لها»¹؛ إذ يعد التوسع في المعارف التي أفاض في ذكرها وتفصيلها "ابن الأثير" من محفزات الإبداع، و يعين المتكلم على الإجابة، كما يقلل من سقطاته، ويمنح المتكلم ذوقاً سليماً يجعله قادراً على انجاز خطاب ناجح، وهنا نود أن نميز خاصية أخرى ذات بعد تداولي وهي:

- الذوق باعتبار ملكة تداولية قبلية:

وهو ما يُلاحظ عند ابن الأثير "الذي يستند في جل أحكامه إلى ملكة الذوق التي يستند إليها كل من المتكلم والمخاطب في إنتاج وتأويل القول، وفي ذلك مرد إلى كفاءة تداولية تواصلية تربط طرفي التواصل بالقول المنجز للدلالة على القدرة التي يجب على الفرد أن يتمتع بها لإنتاج ملفوظات تنتمي إلى تشكيلة خطابية محددة، إذ يشيد في أكثر من موضع بالدور الفاعل الذي يلعبه في المقاربة النقدية في تحليله للخطابات التي أوردها في كتابه، كما رأينا ذلك عنده في الحكم على جمال اللفظ، إذ يجعل مدار علم البيان على حكم الذوق يقول في هذا الصدد: «واعلم أيها الناظر في كتابي أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم، الذي أنفع هو من ذوق التعليم»²؛ إن ما يسترعي الانتباه أنه لا يطلق القول في الاحتكام إلى الذوق، وإنما يعقد مفارقة بين نوعين من الذوق، يجعل لأحدهما الأولوية في تقويم الخطاب وهذان النوعان هما: **الذوق السليم وذوق التعليم**، وينص على أن صاحب البيان أو المتكلم عموماً في خطابه أحوج ما يكون إلى ذلك الذوق، الذي يسمو عما هو انطباعي وتلقائي، والذي لا يتجاوز

¹ - العسكري، الصناعتين، ص:31.

² - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص:4 .

حد الإحساس بالشيء دون تبني محك التعليل والكشف، وهو ما نجده عند العامة من الناس، وما كان سائدا أيضا في عصر الثقافة الشفاهية؛ حيث كان النقد آنذاك يكتفي بأحكام انطباعية مرجعها فطرة العربي وسليقته، فكانت آراؤه ارتجالية دون تبرير وتعليل.

وعليه يمكن النظر إلى هذا الذوق على أنه طور أولي للذوق السليم من منظور "ابن الأثير" الذي يفرقه عن ذوق التعليم المتأتي من معرفة قواعد اللغة والمبادئ التي تؤطر ذلك اللسان، أما الذوق السليم فهو مرحلة وطور تال للذوق الانطباعي، شريطة صقله وتهذيبه والممارسة ودقة النظر والملاحظة، وفي هذا يقول "ابن الأثير": «بالدربة الدربة والإدمان أجدى عليك نفعاً، وأهدى بصراً وسمعا، وهما يريانك الخبر عيانا، ويجعلان عسرك من القول إمكانا وكل جارحة منك قلبا ولسانا»¹.

هذا ما ذهب إليه "ابن الأثير" بذوق التعليم، لكن هذا لا يعني أن المعرفة بالقواعد والأصول التي تقوم عليها اللغة لا حاجة إليها، بل إن الأمر خلاف ذلك، فالمعرفة بها مهمة، وبخاصة لغير صاحب ذلك اللسان، إلى جانب انبثاق الملكة من خلال الممارسة والدربة، فهذا كله يشكل زاد عالم البيان الذي ينبغي أن يتعلق بكل علم، و رأي "ابن الأثير" هذا يفضي إلى الحكم بأن ثقافة الكاتب هي التي تمنح النص سماته الجمالية من خلال ذوقه الذي صقله وهذبه بالدربة والممارسة وكثرة الإطلاع والتتبع.

كما يقر في بحثه عن آلات علم البيان وأدواته، على أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم المنثور، تفتقر إلى آلات عدة إلا أنها لا تعني شيئا في غياب الطبع؛ إذ الطبع شرط ضروري ومحوري في صناعة الكتابة بصفة عامة، وهو هنا بمعنى الموهبة والاستعداد الفطري، لذلك يعتقد "مصطفى درواش" أن معرفة قواعد الشعر لوحدها لا تكفي، كما أن الدربة في استخدام القواعد والتحكم فيها لمعرفة أسرار الشعر، لا تكفي هي الأخرى، لذا يجب أن يتزود الناقد بذوق

¹ - المصدر السابق، ن ص.

يؤهله لفهم الشعر وتحليله وتمييز جيده من رديئة¹، هذا الذوق عند ابن الأثير هو الذوق السليم الذي يمكن التعبير عنه بهذه المعادلة:

الذوق السليم = الطبع + آلات علم البيان.

كما أن "ابن الأثير" يعرف الفصاحة بأنها الظهور والبيان، وصاحبها لا يحتاج إلى إعمال الفكر وبذل الجهد من أجل الحكم بفصاحة الألفاظ أو بلاغة التراكيب، لأن صاحب البيان لديه القدرة على كشف وإضاءة مواطن الجمال والقبح في الكلام بوساطة الذوق الذي ثقفه ونماه بممارسة كلام العرب والوقوف على خصائصه اللغوية وكيفيات التعامل معها نحو وبلاغة، من أجل هذا يلح ابن الأثير في قراءته لعلم البيان على ضرورة أن يأخذ صاحبه من كل علم، وركز على كثرة المحفوظ من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر: «لأن رأس (هذه الصناعة) وعمودها وذروة سنامها ثلاثة أشياء، هي حفظ القرآن الكريم، والإكثار من حفظ الأخبار النبوية، والأشعار»²، ولكي تتحقق لديه ملكة الذوق التي «تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه، وليستحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استتبطها أهل صناعة البيان، فإن هذه القوانين إنما تفيد علما بذلك اللسان، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها»³.

وهنا يصرح بملكة الذوق كملكة تداولية تواصلية وهي ضرورية من أجل الفهم، وضرورتها كامنة في صعوبة الإمام بها، مما يستدعي تضافر ملكات يقتدر بها كل من المتكلم والسامع، وفي ذلك يحكم بن ظافر الشهري على الكفاءة⁴ التداولية أنها «ليست نسقا بسيطا، بل هي

¹ - ينظر: مصطفى درواش، خطاب الطبع والصنعة (رؤية نقدية في المنهج و الأصول)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص: 77.

² - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص: 161.

³ - المصدر نفسه، ج1، ص: 57.

⁴ - تتألف القدرة التواصلية لدى مستعمل اللغة من خمس ملكات على الأقل وهي كما حددها سيمون ديك: -الملكة اللغوية، الملكة المنطقية، الملكة المعرفية، الملكة الإدراكية، الملكة الاجتماعية: ينظر عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 57.

أنساق متعددة متألّفة، إذ تتألّف القدرة التواصلية لدى مستعمل اللغة الطبيعية من خمس ملكات على الأقل، وهي: الملكة اللغوية والملكة المنطقية، والملكة المعرفية والملكة الإدراكية والملكة الاجتماعية¹، يشير "مانقونو" إلى أنه يتوجب على الفرد حسن استعمال اللغة بكيفية مناسبة تتماشى مع المقام الذي تتجز فيه، وعادة ما تكون ملكة اتصالية ضمنية تكتسب في عملية التخاطب وتتضمن قواعد تمس مختلف الجوانب، كمعرفة حسن تسيير الكلام والتناوب فيه بين المتخاطبين، مع مراعاة سياق التخاطب، بما في ذلك السلوكات المصاحبة للتلفظ².

و تظهر الكفاءة التداولية للمتكلم في عملية الاختيار أثناء تشكيل القول (الخطاب) وفقا لإستراتيجية معينة « فلا ينتج المرسل خطابه إلا باختيار العلامة المناسبة، وبتشكيل الخطاب بما يلائم سياقه، وبعد الاختيار مزية لأن غياب هذه المزية يحرم الخطاب من اتصافه بالبعد الاستراتيجي، إذ يبدو بدونها أشبه ما يكون عملا إلزاميا لا خيار لمرسله فيه، مما يؤذن بغياب التأهيل اللازم لإنتاج الخطاب في كفاءته التداولية»³، إن الاختيار الذي أفردته كل من "العسكري" و"ابن الأثير" للمتكلم (المرسل) متعلق بالعمليات الذهنية التي يقوم بها قبل خروج القول إلى مستوى الانجاز، ونعني هنا المعاني النفسية التي ينطلق منها في صياغة خطابه، وهي معاني لا تخرج عن نطاقها، وتظهر فيه كفاءة المرسل بحسن التعبير عن مقاصده بالاستناد إلى الاختيار الذي يتجسد قبل الانجاز على مستوى التخطيط الذهني بمراعاة سياق التلفظ « ف شخصية المتكلم أولا تسهم في بناء ما يتلفظ به شكلا ومعنى، سواء تعلق الأمر بشخصيته = (معرفته) اللغوية أو المعرفية الخاصة أو الموسوعية العامة، فالمتكلم هو الذي يحمل بعض الكلام على بعض، ويقيد بعضه ببعض أو يفصل بعضه عن بعض»⁴، وهذا

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 57 .

² - ينظر: دومينيك مانقونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، مرجع سابق، ص: 21 - 22.

³ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 67 .

⁴ - حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، ص: 133 .

يقارب ما أورده "العسكري" إذ « اختيار الرجل قطعة من عقله، كما أن شعره قطعة من علمه»¹.

كما أن الاختيار الذي يحتكم إليه المتكلم مرهون بالمعرفة القبلية (وقد فصلنا فيها قبل هذا)؛ و التي تكون بمثابة قوالب جاهزة يضيف عليها المتكلم بصمة التأليف أو ما سماه "العسكري" بحسن التأليف والرصف حيث ينتقي من اللغة « الأمثلة والتنوعات التي هي أعضاء في المناويل اللغوية المجردة، ويخضع اختياره عادة لمقاصده الإبلاغية، فيختار (ذهب) مثلا بدلا من (خرج) أو (قام) في نحو (ذهب خالد)، وهذا الاختيار ضروري لكي تتم عملية الإفادة، لأن كل إفادة ناشئة عن اختيار عنصر من مجموعة من العناصر التي يصلح كل منها أن يحل محل العنصر المختار «²؛ وهنا نكون في مستوى الانجاز والأداء، فليس الاختيار " ذلك الاختيار اللغوي الشكلي، بل هو اختيار محكوم من جهة بإمكانات المقال، ومن جهة أخرى بمقتضيات المقام"³؛ إذ يرى "العسكري" أن «حسن التأليف يزيد المعنى وضوحاً وشرحاً، ومع سوء التأليف ورداءة الرّصف والتركيب شعبة من التّعمية، فإذا كان المعنى سيئاً، ورصف الكلام رديئاً لم يوجد له قبول، ولم تظهر عليه طلاوة. وإذا كان المعنى وسطاً، ورصف الكلام جيّداً كان أحسن موقعاً، وأطيب مستمعاً، فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعاً في المرأى وإن لم يكن مرتفعاً جليلاً، وإن اختلّ نظمه فضمتّ الحبة منه إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقاً ثميناً. وحسن الرّصف أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكّن في أماكنها»⁴. و تقريبا بنفس المثل وضح "ابن الأثير" ضرورة الاهتمام بعملية الاختيار إذ شبه صناعة الخطاب بصناعة عقد أو سوار قائلا: «اعلم أنه يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه إلى ثلاثة أشياء الأول منه: اختيار الألفاظ المفردة: وحكم ذلك حكم اللآلئ المبددة،

¹ - العسكري، الصناعتين، ص: 11.

² - محمد محمد بونس علي، المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية، دار المدى الإسلامي، 2007، ص ص: 152-153.

³ - ينظر: الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 67.

⁴ - العسكري، الصناعتين، ص: 179.

فإذا تتخير وتُنْتَقَى قبل النظم، الثاني: نظم كل كلمة مع أختها في المشاكلة لها لئلا يجيء الكلام قَلِقًا نافرًا عن مواضعه، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها، الثالث: الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه وحكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم، فتارة يجعل إكليلا على الرأس، وتارة يجعل قِلادة في العنق، وتارة يجعل شَنْفًا¹ في الأذن، ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه²؛ إذ يكون الاختيار مرتبط بالقصد وهذا بعد تداولي، وقد استنتج "الشهري" أن الخطاب "هو نتيجة إستراتيجية معينة³، أي أن الاختيار مبني على خطة وقصد معين.

وقد أكد "العسكري" على ضرورة أن يدقق المتكلم في انتقاء الألفاظ المنوطة بالمعنى المقصود، لأنها تعتبر أساس البلاغة، ولن يكون هذا بالأمر الهين، وذلك في قوله: «فمدار البلاغة على تخيير اللفظ، وتخييره أصعب من جمعه وتأليفه»⁴؛ و باختيار اللفظ المناسب يتحقق التلاؤم والترابط بين أجزاء الكلام من جهة، وبذلك يتضح دلالاته المقصودة من جهة أخرى، ومثاله في هذا « ما أنشدنا عبيد الله بن طاهر لنفسه:

وَضَنْتُ بِمَا تَحْتَ النِّقَابِ الْمَكْتَبِ	أَشَارَتْ بِأَطْرَافِ الْبَنَانِ الْمُخَضَّبِ
بِذِي أُشْرٍ عَدَبِ الْمَذَاقَةِ أَشْنَبِ	وَعَضَّتْ عَلَى نُفَاحَةِ فِي يَمِينِهَا
إِلَيْهَا فَقَالَتْ هَلْ سَمِعْتَ بِأَشْعَبِ !	وَأَوْمَتْ بِهَا نَحْوِي فَفُئْتُ مَبَادِرَا

فهذا أجود شعر سبكا وأشدّه التئاما وأكثره طلاوة وماء»⁵.

والملفت للانتباه أن "ابن الأثير" يتعجب من أن يقف مؤلف الكلام (المتكلم) على لفظتين تدلان على معنى واحدٍ وكلاهما حسن في الاستعمال، وهما على وزن واحدٍ، وعدة واحدة إلا أنه

¹ - الشنف: القرط.

² - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص:23.

³ - ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ص:63.

⁴ - العسكري، الصناعتين، ص:32.

⁵ - المصدر نفسه، ص:160.

لا يحسن استعمالها في كل موضع، ويضرب مثلا من النص القرآني؛ قوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾، فاستعمل "الجوف" في الأولى، والبطن في الثانية، ولم يستعمل "الجوف" موضع "البطن"، و لا "البطن" موضع "الجوف"، واللفظتان سواء في الدلالة، وهما ثلاثيتان في عددٍ واحدٍ، ووزن واحد أيضا، ومما يجرى في هذا المجرى قوله تعالى: ﴿ مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾.

وكأننا نلمس في إحساس "ابن الأثير" بوجود فروق بين الألفاظ المترادفة، قد تكون دقيقة أحيانا لا يدركها المستعمل العادي للغة اقترابا من كلام "الخطابي" الذي يقول أن: «في الكلام ألفاظ متقاربة المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب كالعلم والمعرفة والحمد والشكر... والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك، لأن لكل لفظة منها خاصة تتميز بها عن صاحبته في بعض معانيها، وإن كانا قد يشتركان في بعضها»¹. فكان اللفظتين المترادفتين أو المتساويتين تمثلا كفتي الميزان في حالة استقرار؛ فالظاهر أن التكافؤ بينهما كلي، ولكن في حقيقة الأمر هناك خطأ نسبي، وإن كان لا يرى بالعين المجردة، فهذا الاختلاف الطفيف بين معاني الألفاظ المفردة لا يدركه كما يرى "ابن الأثير" "إلا من دق فهمه وجلّ نظره"².

بذلك تتعلق التداولية أساسا بانتقاء اللفظ الملائم للموقف المعين، واستعماله استعمالاً صحيحاً، وفق مقصد معين، وقد لاحظ "العسكري" هذه المعطيات، لذا تنوعت أحكامهم في معالجة هذه القضايا؛ فقال: «الكلام إذا كان لفظه غثاً، ومعرضه رثاً كان مردوداً ولو احتوى على أجل معنى وأنبله، و أرفعه وأفضله، كقوله:

¹ الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (الخطابي والرماني وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد خلف الله و محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، (د.ت)، ص: 29 .

² ينظر: ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، تحقيق عبد المتعال المولى الصعيدي، مصر مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، (د.ت) ، ص: 49. وما بعدها.

لما أطعناكم في سُخْطِ خَالِقِنَا لَأَشْكُ سَلَّ عَلَيْنَا سَيْفَ نَقْمَتِهِ»¹

والمستشف من قوله هذا؛ أن "العسكري" قد أدرك الأبعاد التداولية لاختيار اللفظ الغث غير المناسب، والمعرض المردود؛ إذ ركز على ما يحقق القبولية لدى المتلقي، ويدفع عنه المستكره غير المقبول، يقول "العسكري": « والشعر كلام منسوج ولفظ منظوم، وأحسنه ما تلائم نسخه ولم يسحق، وحسن لفظه، ولم يهجن، ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام فيكون جلفا بغيظا، ولا السوقي من الألفاظ فيكون مهلهلا دوناً»².

وقد بيّن "العسكري" أن الناس يتفاوتون في درجات التعامل مع المواقف المختلفة، إذ لا بد من ضرورة توفر الكفاية التداولية عبر أشكال الاتصال المختلفة فـ« الناس في صناعة الكلام على طبقات. منهم من إذا حاور وناظر أبلغ و أجاد. وإذا كتب وأملى أخلّ وتخلّف ومنهم من إذا أملى برز. وإذا حاور أو كتب قصر. ومنهم من إذا كتب أحسن. وإذا حاور وأملى أساء. ومنهم من يحسن في جميع هذه الحالات، ومنهم من يسيء فيها كلها»³.

وبذلك يؤكد "العسكري" أن الناس أو "المتكلمون" يختلفون في الأداء الكلامي، ودرجة التفاوت تتحدد بالقدرة التداولية والتواصلية التي تخول له «العلم بفأخر الألفاظ وساقطها، ومتخيرها ورديئها، ومعرفة المقامات وما يصلح في كل واحد منها من الكلام»؛ وهذه القدرة التداولية التي يضبطها بشكل الاتصال وموضوعه من جهة، والمقامات المختلفة من جهة أخرى، لذلك قال: "منهم من حاور وناظر أبلغ وأجاد، وإذا كتب وأملى أخلّ وتخلّف"؛ فالمرسل قد يجيد في الاتصال الشفاهي، لكنّه يخفق في الاتصال الكتابي، إلا أنه يبقى الأحسن من أجاد في كل أشكال الاتصال؛ أي من توافرت له " القدرة الاتصالية" التي تمكنه من ذلك، وهذه القدرة

¹ - العسكري، الصناعتين، ص: 73.

² - المصدر نفسه، ص: 74.

³ - المصدر نفسه ، ص: 30.

تضم كما يرى " مايكل كنال M.canal " و"ميريل سوين M.Swaain" أربعة مكونات، يتصل الأول بالنظام اللغوي نفسه؛ والآخران بالجوانب الوظيفية الاتصالية¹.

فمبدأ عملية الاتصال كما يراها كل من " أبي هلال" و"ابن الأثير" - أن يكون لدى

المرسل فكرة أو معلومات يريد أن يرسلها إلى متلقي في موقف محدد ولههدف ما، ليكشف عنها بواسطة وسائل لغوية ينتقيا لتوضح ذلك، ولكي يوضح هذه الأمور أكثر قَدَم الكثير من

الآليات التي تضبط ذلك، كما وضع "العسكري" شروط للمتكلم نذكر منها:

بالعودة لمؤلف "العسكري"، و بعدما أن حدد آلات البلاغة التي يجب أن يمتلكها المتكلم؛

من طبع سليم وجودة قريحة وطلاقة لسان - كما سبق و أن أشرنا - نجده انتقل إلى بيان

الشروط؛ والتي لا بد أن تتوافر فيه أيضا؛ والتي جاءت ظاهرة بشكلي جلي في أحد تعريفاته

للبلغة؛ إذ شغل شرحها صفحات كثيرة من كتابه، وهي قوله: « أول البلاغة اجتماع آلة

البلاغة: وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، متخير اللفظ، لا يكلم سيّد الأمة

بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون في قواه التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني

كلّ التدقيق، ولا ينفّح الألفاظ كلّ التنقيح، ويصفّيها كلّ التصفية، ويهدّبها كل التهذيب، ولا يفعل

ذلك حتى يصادف حكيمًا، وفيلسوفًا عظيمًا»²، وإن كان هنا قد خص الخطيب إلا أن الملاحظ

أن معظم الشروط تنطبق على جميع أنواع المتكلم عموما، و تفصيلها كالاتي:

1) رباطة الجأش:

يعتبر هذا الشرط خاص ب الخطيب وهو المتكلم في الخطاب الشفهي؛ و رباطة الجأش

هي أن تكون للمتكلم القدرة على ضبط نفسه حتى تتولد لديه الثقة و الثبات؛ ومرد ذلك أن

«الحيرة والدهشة يورثان الحبسة والحسر، وهما بسبب الارتاج والأجبال»³، إذ أن الثقة في

¹ - ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص: 17.

² - العسكري، الصناعتين، ص: 29.

³ - المصدر نفسه، ص: 31. الارتاج والإجبال: يقال ارتج عليه أي استغلق عليه الكلام، وأجبل الشاعر أي صعب عليه القول.

النفس «صفة أساسية يجب أن تتوافر عند الخطيب حتى وإن لم تكن حkra على الخطابة فحسب، بل تتعداها إلى جميع محاولات الإلقاء دون استثناء»¹، وعدم توفرها بالمتكلم قد تؤدي به إلى فقدان السيطرة على المواقف، وبالتالي ضياع المقصد.

ومن صفات المتكلم الناجح؛ أيضا أن يكون ثابت الجنان، هادئ النفس حتى لا يصيبه دهش من شأنه أن يعقد لسان و يثبط من عزيمته، وبالتالي يصعب عليه القول؛ كما تعتبر الحبسة والحصر من عيوب الصوت ؛ إذ يعيقان العملية التواصلية، فلا يستطيع الخطيب أن يبلغ الرسالة في معرض حسن، كما أن السامع لا يقترب إليه المعنى، ولا يجني فائدة، فسلامة اللسان وهدوء النفس يمكنان المتكلم من النطق السليم، وبالتالي وصول الرسالة والقصد منها. وهذا يدل على أن "العسكري" تظن لضرورة مراعاة الجانب النفسي للمتكلم؛ وذلك يظهر جليا في قوله: «وعلاوة سكون الخطيب ورباطة جأشه هدوءه في كلامه، وتمهله في منطقته»²؛ فلا بد للخطيب أن يتوافر له الارتياح النفسي الذي يمكنه من إنجاز خطابه بشكل سليم وناجح، إذ أن « أكثر ما يعين رباطة الجأش عند الخطيب على التتبه لما يدوره حوله، وتفتنه لما يجري بين السامعين، هو ما يجعله على أهبة الاستعداد لأن يلبس الأحوال ليومها، وأن يأخذ لها عددها»³. فالحالة النفسية الهادئة تؤثر في منفعية الخطاب وتداوليته، أي التأثير في السامع، حتى تكون أحسن في الأسماع.

كما أن عدم مراعاة هذا الجانب قد يضعف «من قدرة الخطيب على إيصال أفكاره بشكل واضح إلى المتلقين، وتشتت انتباههم وتركيزهم، كما قد يؤدي إلى عجزه عن الأداء الكلامي بشكل يناسب المعنى»⁴.

¹ - فاروق سعد، فن الإلقاء العربي الخطابي والتمثيلي، بيروت دار الكتاب اللبناني ، ط1، 1987، ص:206.

² - العسكري، الصناعتين، ص:32.

³ - معن عبد الغني حسن، الخطب والمواظ، مصر، دار المعارف، د ت، ص:15.

⁴ - محمد عبد الرحيم عدس، فن الإلقاء، الأردن، دار الفكر، ط3، دتظ، ص:16.

ولربما تكون هذه المواصفات التي قدمها "العسكري" من الآليات التداولية التي تسهم في تأطير الفعل الكلامي؛ إذ يقترب مما جاء به "فوندرليش" *vonderlish* الذي اشترط على كل متواصل أن يمتلك القدرات التي تمكنه من انجاز الأفعال اللغوية التي تحيط بمقصديته، وتفيد السامع؛ والتي منها:

- يجب أن ينشئ اتصالاً ويستطيع حصره؛ أي تكون له القدرة الاتصالية مع الآخرين، والغوص في أي موضوع من المواضيع.
- يجب أن يحسن نطق الأبنية الصوتية التي تمكنه من التعبير عن الفعل الكلامي المراد تبليغ للسامع، واضح المضمون، وفي صورة حسنة تعكس تلك القوة التواصلية ليس منطوقاً من مضامين فحسب؛ بل هو منطوق من المقاصد أيضاً¹.
- إذن؛ لا بد من توفر للمتصل من قدرات ومؤهلات ذاتية تساعد على التواصل مع غيره؛ لضمان وصول المعنى المقصود.

تخير اللفظ:

ويقصد بالتخير عند انتقاء لفظة دون أخرى للتعبير عن المعنى المقصود؛ «تخير الألفاظ وإبدال بعضها من بعض يوجب التثام الكلام وهو من أحسن نعوته وأزين صفاته فإن أمكن ذلك منظوماً من حروف سهلة المخارج كان أحسن له و أدعى للقلوب إليه»²؛ نستنتج من هذا أن تخير الألفاظ ووضعها في مكانها المناسب يحقق انسجام الكلام والتثامه؛ إذ تعني الملائمة مناسبة الكلمة للمعنى المعبر عنه من جهة، ولغيرها حينما تدخل في تركيب معين من جهة أخرى، ويضيف "العسكري" شرطاً آخر يستحسن توفره وهو اختيار كلمات ذات حروف سهلة المخارج؛ ليكون نتاج ذلك كلام حسن يؤثر في متلقيه.

¹ - زتسهلاف وأورزنيك، مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، ترجمة سعيد حسن البحيري، مصر مؤسسة المختار، 2003، ص: 87.

² - العسكري، الصناعتين، ص: 159.

وقد أفرد لهذا "ابن الأثير" جزء في حديثه عن الفصاحة ولكيفية اختيار الكلمات أو الألفاظ التي ينبغي اختيارها ابتداء من تكونها صوتيا إلى غاية إنتاجها ضمن خطاب؛ مثلا يشترط أن يختار مألوف الاستعمال الحسن، و حسن اللفظ مدرك **بالسمع** « لأنه صوت يأتلف عن مخارج الحروف فما استلذه السمع منه فهو الحسن وما كرهه فهو القبيح»¹.

وقد أدرك "العسكري" صعوبة أن يدقق المتكلم في انتقاء الألفاظ المعبرة؛ إذ يقول مصرحا بأن: «تخيّر أصعب من جمعه وتأليفه»²، وقد لاحظ كل من "العسكري" و ابن الأثير" مدى أهمية اللفظ؛ لذا خصصا له حيزا واسعا، و أفاضوا في ذكر صفاته المتنوعة؛ كالجزالة والصحة والسهولة والاستقامة والسلاسة وغيرها كثير.

فالمتكلم عند تواصله مع غيره في سياق ما يتعين عليه حسن انتقاء الألفاظ ذات المزايا التي تجعلها مقبولة، و "العسكري" و"ابن الأثير" ركزا على "الاختيار". حيث انتقاء المفردة بما يناسب المقام، وفق صفات حسنة تقتضيها الصناعة البليغة، وهذا يقارب ما جاء عند "بيرلمان" الذي يعتبر انتقاء اللفظ ذو قيمة **حجاجية**، هذه الظاهرة في النصوص الأخرى كالشعر تلعب بالأساس دورا كبيرا في بناء شكل النص وإحداث التنعيم و الإيقاع، لذلك يجب على المتكلم أن يحترس في انتقاء الألفاظ التي تخدم ذلك السياق(المقام) الذي ورد فيه الخطاب.

أيضا؛ ركز "ابن الأثير" على هذه القضية؛ ومن أمثلة الانتقاء من الشعر ما أورد "ابن الأثير" عن: "الأعرج" من أبيات الحماسة:

نحو بنو الموتِ إذا الموتِ نزلُ لا عارَ بالموتِ إذا حُمَّ الأجلُ
الموتُ أحلى عندنا من العسل.

وقال أبو الطيب المتنبّي:

إذا بي مشّت حفت على كل سابعٍ رجالٌ كأن الموت في فمها شهد

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج 1، ص: 92.

² - العسكري، الصناعتين، ص: 32.

فهاتان لفظتان هما العسل والشهد وكلاهما حسن مستعمل لا يشك في حسنه و استعماله ... ومع هذا فإن لفظه "الشهد" وردت في بيت "أبي الطيب" فجاءت أحسن من لفظه "العسل" في بيت "الأعرج"¹. مع أن الكلمتين تشيران إلى معنى واحد؛ إلا أن اختيار لفظه دون أخرى أثر في نجاعة و استحسان الكلام أو هذا المقطع الشعري دون الآخر.

ولنا أن نقول أساس **الفعل الكلامي** في خطاب - بحسب رأي صاحبي "الصناعتين" و"المثل السائر" - يعود للاختيار؛ و الذي يعد أساس نجاح الرسالة الإبلغية، وبعد هذا من بين أهم الآليات التي تكشف عنها التداولية، يقول "العسكري": «ومن الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة والأشعار الرائقة، ما عملت لإفهام المعاني فقط، لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيدة منها في الإفهام، وإنما يدل على حسن الكلام وأحكام صنعته ورونق ألفاظه، وجودة مطالعه، وحسن مقاطعه، وبديع مبادئه، وغريب مبانيه على فضل قائله وفهم منشئه»²، ولكن هذا لا يعني التعقيد أو الغلو في الاختيار ف«الكلام إذا كان لفظه حلوا عذبا، وسلسا سهلا، ومعناه وسطا، دخل في جملة الجيد، وجرى مع الرابع النادر كقول الشاعر:

ولما قضينا من منى كل حاجةٍ
وسدّت على حُذْب المهاري رحالنا
ومسح بالأركان من هو ماسح
ولم ينظر الغادي الذي هو رايع
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطي الأباطح

فليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى، وهي **رائقة معجبة**، وإنما هي "ولما قضينا الحج ومسحنا الأركان، وشدت رحالنا مهازيل الإبل، ولم ينتظر بعضنا بعضا جعلنا نتحدث ونشير الإبل في بطون الأودية"³، فعلى الرغم من سهولة الألفاظ التي اختارها الشاعر في هذا المقام؛ فقد

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص:165.

² - ينظر: العسكري، الصناعتين، ص:73.

³ - المصدر نفسه، ص:74.

استطاع الشاعر إيصال المعنى المقصود في معرض حسن أصاب به المراد، وهذا ما زاد المقطوعة جمالا، و أعجب بها المتلقي.

2) حسن التصرف:

مازلنا مع تعريف "العسكري" للبلاغة؛ إذ يضيف ضرورة تمكن المتكلم من جميع ضروب الكلام؛ فإذا كان كاتباً يجب أن يتقن ضروب الكتابة، وقد علل ذلك بقوله: «أن يكون صانع الكلام قادراً على جميع ضروبه، متمكناً من جميع فنونه، لا يعتاص عليه قسم من جميع أقسامه، فإن كان شاعراً تصرف في وجوه الشعر مديحه وهجائه ومراثيه، وصفاته ومفاخره وغير ذلك من أصنافه... وكذلك الكاتب ربما تقدم في ضرب من الكتابة، وتأخر في غيره، وسهل عليه نوع منها وعسر نوع آخر»¹، وفي خضم ذلك أن قدرات المتكلمين التداولية تتفاوت فيما بينها حسب المقام، ففي «اختلاف قوى الناس في الشعر وفنونه ما قيل؛ كان امرؤ القيس أشعر الناس إذا ركب، والنابعة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب»²، مع ذلك - برأيه - يبقى «المقدم في صنعة الكلام هو المستولى عليه من جميع جهاته، المتمكن من جميع أنواعه»³؛ أي أن المتكلم المتمكن هو المتقن لجميع أنواع الخطابات مهما تنوعت، ويأتي في درجة أعلى من هذه المنزلة «أن يكون قوة صانع الكلام أن يأتي مرة بالجزل، والأخرى بالسهل، فيلين إذا شاء، ويشدد إذا أراد. ومن هذا الوجه فضلوا جريراً على الفرزدق، وأبا نواس على مسلم، قال جرير:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا
تُجري السواك على أغر كأنه
وقت الزيارة فارجعي بسلام
برد تحدر من مُثون غمام

¹-المصدر السابق، ص:23.

²- ن م ، ن ص.

³- ن م، ص ص:23-24.

فانظر لرقعة هذا الكلام «¹، فصانع الكلام البليغ هو الذي يستطيع أن ينوع في رسالته،
فيأتي في الموضوع الواحد بالجزل أو السهل أو المعقد أو غير ذلك.

3)مراعاة مقام المتلقي:

مراعاة المقام أو الوجه الاجتماعي في اللغة جزء مهم في عملية الصناعة الاختيارية،
حيث يراعى فيها حال المتلقي، وضمن هذا النطاق تدخل الألفاظ وإيحاءاتها، كما تدخل
المعاني وما يمكن أن تثيره في نفس المتلقي، كما يتوقف فهم الخطاب بشكل عام على معرفة
الظروف العامة التي تحكمت في إنتاجه، ويقارب هذه الفكرة قول "العسكري": «وقد سئل أحد
الشعراء: ألا تستعمل الغريب في شعرك؟ فقال؟ ذاك عيٌّ في زمني وتكلف مني لو قلت، وقد
رزقت طبعاً في القول، واتساعاً في الكلام، فإننا أقول ما يعرفه الصغير والكبير، ولا يحتاج إلى
تفسير، ثم أنشدني:

أيا ربّ إنني لم أردُ بالذي بهِ مدحتُ علياً غير وجهك فارحم

فهذا كلام عاقل يضع الشيء موضعه، ويستعمله في أوانه، ليس كمن قال وهو في
زماننا: (جفخت وهم لا يجفخون بها بهم) فأشمت عدوه بنفسه»²؛ وهو يقصد "المتبّي" وروح
العصر لها جانب مهم في بلورة شخصية المبدع، إذ يأخذ طابع المرحلة التي يعيش، والمعاصرة
هي أن يكون الخطاب نتاج من زمن المتكلم، لا القفز فوقه، وتعد الألفاظ أو الدوال المفردة أول
ملمح يراعى فيه هذا الأمر، على الرغم من أنها منوطة بالاختيار قبل الإبداع أو قبل انجاز
الكلام، أما التراكيب فهي مناط الإبداع اللغوي الأول، إذ ترتبط بإنتاج الدلالة، وما تحققه من
تناسب وإيقاع وسلاسة، والصلة بين المتكلم وصياغته تتحقق من الربط بين الداخل والخارج، إذ
إن عملية التركيب لا تقوم على العفوية، وإنما تظل محكومة بإطار مرجعي يتدخل في تشكيلها.
و لو اخترنا تعريف المقام كما حدده "كوست G·coste"؛ والذي هو «مجموعة شروط

إنتاج القول و الشروط الخارجة عن القول ذاته، فالقول يُجعل في وسط (مكان) و اللحظة

¹ - المصدر السابق ، ص:24.

² - المصدر نفسه ، ص:76.

(زمن) الذي يحصل فيه»¹، لوجدنا أن علمائنا تفتنوا لضرورة مطابقة الكلام للمقام؛ إذ تشترط القبولية لأي تواصل أو تخاطب بمدى نتحقق هذا الأمر؛ فمثلا يقول "بشر بن المعتمر": «وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من مقال»²، ولا يتحقق هذا أيضا إلا بكفاءة المتكلم التي تمكنه من هذه الموافقة، لذا كان من الضروري على المرسل أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»³، فالمتكلم والمتلقي و المقام من المؤثرات الأساسية للعملية الإنتاجية للغة التي لا تقتضي التكامل والتفاعل حتى يكتب لها النجاح.

والغاية من مراعاة المقام في نظر "العسكري" ترتكز في أساسها على تحقيق الإبلاغ وإحراز المنفعة من الخطاب اللغوي، لذلك كان من «الواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السوقي بكلام السوق، و البدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما يعرفه، فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة الخطاب»⁴.

وحسب "العسكري" صاحب الصنعة هو الذي بمقدوره أن يحقق هذا التوافق، فينتقي الألفاظ التي تتناسب مع الأوضاع المختلفة في أي زمان أو مكان، وطالما أن «الحياة تتغير والمقامات تتطور فيجب على المتكلم مراعاة الزمان، لأن لكل زمان كلاما، وبهذا يكتسب الحيوية والدينامكية ويرتفع شأنه»⁵، فالكفاية الاتصالية هي التي تمكن المتكلم من التحكم في أشكال الاتصال مهما تنوعت، وفي أي زمان أو مكان.

¹ - جيلالي دلاش ، مدخل إلى الدراسات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، 1992، ص:41.

² - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص:136.

³ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص:138/139.

⁴ - العسكري، الصناعتين، ص:35.

⁵ -محمد كشاش، علل اللسان و أمراض اللغة رؤية لغوية إكلينيكية وإنعكاساتها الاجتماعية، ص:115.

و من هذا المنطلق رفض "ابن الأثير" كثيرا من المطالع الشعرية لأنها لم تتوافق مع طبيعة " المتلقي " و من ذلك قول "ذي الرمة" منشدا "عبد المالك" :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كُلى مفرية سَرِبُ.

لأن مقابلة الممدوح بهذا الخطاب لا خفاء بقبحه و كراهيته¹. وهو من قبيح الابتداءات. كما ربط "ابن الأثير" بين المطلع وحال المتلقي، واشترط ألا يكون فيه ما يتطير منه أو ما يستقبح فيه؛ إذ يرجع "ابن الأثير" هذه النقطة إلى "أدب النفس لا إلى أدب الدر س"²، لأن ملاك هذا هو الطبع الأصيل وجودة القريحة والذوق، فهو الذي يحول دون الوقوع فيما يتطير منه ويبعده عن مواضعه، ومن افتقر إلى هذه الملكة، فإن الخبرات المكتسبة (أدب الدر س) لا تغنيه في شيء، ف"ابن الأثير" هنا يطالب الناثو بالمطابقة مع حال المخاطب (المتلقي) أو المقام الذي يكون فيه، بالابتعاد عن ما يتطير منه وما يستقبح، إلا أن "ابن الأثير" في إدراجه للأمثلة أحاط بالظاهرة الشعرية دون الظاهرة النثرية و قد تكون هذه شهادة منه بابتعاد الخطاب النثري عن السلب؛ أي مما قد يتطير منه أو يستقبح فيه، لذا نضرب مثلا مما يتطير منه - وإن كان في الشعر - حتى تتضح عدم المطابقة لمقام وحال المتلقي؛ فا لابتداء بوصف الديار بالدثور والمنازل بالعفاء، و إلحاقه بغرض المديح أو التهاني على الأخص موضع يتطير منه، وكذلك مثلا إلحاق أسماء النساء المستقبحة مع رقة الغزل³؛ فهذان المثالان يقف أمامها" ابن الأثير" بالمرصاد لما فيها من عدم المطابقة والتناسب مع المقام الذي يكون فيه المخاطب، ولكنه يستثني من ذلك ما كان اسم موضع تضمن واقعة من الوقائع قائلا: « وهكذا يسامح الشاعر والكاتب أيضا في ذكر ما لا بد من ذكره، وإن قبح ومهما أمكنه من التورية في هذا

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص: 98.

² - المصدر نفسه، ج1، ص: 40.

³ - ينظر: المثل السائر، ج3، ص: 98/ 102.

المقام فليسلكها، وما لا يمكنه فهو معذور فيه»¹، فالبن الأثير "يقدم نقاطا استثنائية تتخلل مطابقة الابتداء أو المطلع لمقتضي حال ومقام المخاطب.

وكذا يطلب "أبو هلال العسكري" من المتكلم أن يراعي الطبقة التي يلقي إليها خطابه، فلا «يكلم سيّد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة؛ لأن ذلك جهل بالمقامات، وأحسن الذي قال لكل مقام مقال»²، فالكلام لا ينتج إلا في إطار مقام معين، وفق طبقة المتلقين؛ إذ ليسو على درجة سواء من حيث المعرفة والثقافة والهيبة و غير ذلك.

ومفهوم العامة والخاصة التي قصدتها "العسكري" «ينصرف إلى زاويتين؛ السياسية والاجتماعية، وهما زاويتان واجب مراعاتهما في فن الخطابة، والمخاطبات العادية في الاستعمال اليومي، وتراعى الزاوية الأولى من حيث المعاني والألفاظ»³، وهذا ما قصدته "أبو هلال العسكري" بقوله "لا يكلم سيّد الأمة بكلام الأمة"، أما الزاوية الاجتماعية فإنها تراعى من حيث الألفاظ؛ بحيث لا تستخدم المفردات الغريبة أو غير المفهومة⁴، وقد حذر "أبو هلال" من أن تستعمل الكلمات الغريبة؛ لأن «الغريب لم يكثر في الكلام إلا أفسده، وفيه دلالة الاستكراه والتكلف»⁵، إذ يصعب على المتلقي فهمها أو يكرها مما يقطع التواصل بينهما.

4) الدقة في المعاني:

«من شرط البلاغة أن يكون المعنى مفهوما واللفظ مقبولا»⁶؛ فالمعنى هو أساس الاتصال فلا يمكن أن نتصور لفظا من دونه، فالألفاظ أجساد المعاني أرواح، كما يقول "ابن الأثير": «وليس المعاني فيه إلا كالأرواح ولا الألفاظ إلا كالأجسام»⁷.

¹ - ينظر: المصدر السابق، ج 3، ص: 103.

² - العسكري، الصناعتين، ص: 33.

³ - جميل عبد المجيد، البلاغة و الاتصال، دار غريب، مصر، دط، 2000، ص: 22.

⁴ - جميل عبد المجيد، المرجع نفسه، ص: 22.

⁵ - العسكري، الصناعتين، ص: 9.

⁶ - المصدر نفسه، ص: 16.

⁷ - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص: 22.

لكن "أبا هلال" حذر المرسل في بعض الأحيان من التدقيق في المعنى؛ لأنه قد يؤدي إلى فشل عملية التخاطب، فلا تحصل الفائدة، يقول: «ولا يدقق المعاني كل التدقيق، لأن الغاية في تدقيق المعاني سبيل إلى تعميته، وتعمية المعنى لكنة»¹، وعلى رأي "ابن الأثير": «فلأحسن الكلام ما عرف الخاصة فضله وفهم العامة معناه»². وليدقق "العسكري" أكثر في قضية المعنى بين أن «المعاني على ضربين، ضربه يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدى به فيه، أو رسوم قائمة في أمثلة يعمل عليها، وهذا الضرب ربما يقع عليه عند الخطوب الحادثة، وينتبه له عند الأمور النازلة الطارئة. والآخر ما يحتذيه على مثال تقدم ورسم فرط»³، وهو بذلك يطرح شكلين من الاتصال؛ العادي الذي يكون فيه المتكلم مرتبط بما هو متداول في البيئة اللغوية المعينة، والإبداعي الذي يحاول فيه صاحب الصناعة أن يتجاوز ما هو معروف، ولا يتم إلا عند الخطوب الحادثة، وينتبه له عند الأمور النازلة. و هو بذلك ينتبه إلى العامل النفسي، وأثر الانفعال في ابتكار المتكلم للمعاني، وهو في حالة فرح أو حزن أو ما شابه ذلك⁴. و لكن مهما تعددت أشكال الابتداع أو الإبداع فإنها تبقى مرتبطة بما هو مقبول في اللغة المعينة، لذا ينبغي الإصابة في جميع ذلك، ويتوخى فيه الصورة المقبولة والعبارة الحسنة و الجيدة.

5) الاعتدال في اللفظ:

و نلمس هذا في قوله: "ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ويصفيها كل التصفية، ويهذبها كل التهذيب"، فالتكلف في ذلك قد يوقع المرسل في التعقيد والتعمية. و قوله: "تنقيح اللفظ أن يبني منه بناء لا يكثر في الاستعمال"⁵. كما قال بعضهم لبعض الوزراء "أحسن الله إبانتك"، فقال له

¹ -العسكري، الصناعتين، ص:35.

² - ابن الأثير، ج1، ص:178.

³ - العسكري، الصناعتين، ص:142.

⁴ - ينظر: بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية و النقدية، ص:151.

⁵ - العسكري، الصناعتين، ص:40.

الوزير "عجل الله إمانتك"، كما يدخل في "تنقيح اللفظ استعمال وحشيه، وترك سلسه وسهله". مثاله قول زهير:

نقيّ تقّي لم يكثر غنيمة بنكهة ذي القُرى ولا بحقّاد

فاستبشعوا الحقّاد، و هو السيء الخلق، وقالوا ليس في لفظ زهير أنكر منه»¹ ، فالعدول عن سلس الألفاظ وسهّلها واستعمال المفردات الوحشية والغريبة قد يؤدي إلى الغموض والإبهام، وعدم فهم المعنى المقصود، وبالتالي يعجز المتلقي عن جني الإفادة من الكلام. ولتحقيق ذلك لاحظنا "العسكري" يدعو البليغ، ويحثه على تصفية ألفاظه كل التصفية من النعوت التي لا تضمن له الإفصاح عن المراد، وذلك بقوله: « فتصفيته تعريته من الوحشي، ونفي الشواغل عنه، وتهذيبه تبرئته من الرديء المرذول، و السوقي المردود»² . فالتصفية تساعد على تبليغ معناه في أحسن صورة ، ومثاله « قول بعض الكتاب: مثلك أوجب حقا لا يجب عليه، و سمح بحق وجب له، وقبل واضح العذر، واستكثر قليل الشكر، لا زالت أياديك فوق شكر أوليائك، ونعمة الله عليك فوق آمالهم فيك... »³.

فمثلا مشتركات الألفاظ تشوش السامع ، مما يحدث خلا في التواصل، وقد تنبه " العسكري" لهذه القضية؛ إذ يشرحها بقوله أن: « تخرجه من الشركة: فهو أن يريد الإبانة عن معنى فيأتي بألفاظ لا تدل عليه خاصة، بل تشترك معه في معان أخر.. فلا يعرف السامع أيها أراد وربما استبهم الكلام في نوع من هذا الجنس... »⁴ ، ومن أمثله قول جرير:

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

« فوجه الاشتراك في هذا.. أن السامع لا يدري إلى شيء أشار من أفعاله في قوله فعلت ما لم أفعل.. أراد أن يبكي إذا رحلوا، أو يهيموا من الغم الذي لحقه، أو يمنعهم من المضي...»⁵.

¹ - المصدر السابق ، ص:39.

² - المصدر نفسه، ص:41.

³ - المصدر نفسه ، ص:37.

⁴ - المصدر نفسه ، ص ص: 42-43.

⁵ - م ن، ص:43.

ولكي لا يحدث هذا الخلل، لا بد من توفر قرينة تساعد المتلقي على الاستدلال على المعنى المقصود؛ إذ يرى "ابن الأثير" أن «الأسماء المشتركة تفتقر في الاستعمال إلى قرينة تخصصها كي لا تكون مبهمة لأننا إذا قلنا: عين ثم سكتنا وقع ذلك على احتمالات كثيرة من العين الناظرة والعين النابعة والمطر وغيره مما هو موضوع بإزاء هذا الاسم وإذا قرنا إليه قرينة تخصه زال ذلك الإبهام بأن نقول: عين حسناء أو عين نضاًخة أو مُلثّة أو غير ذلك»¹، وهنا يظهر الدور التداولي للقرينة .

بالنسبة لـ"العسكري" وبعد تحديده للشروط التي يجب أن تكون في المتكلم في الاتصال العادي، والخطوات التي يتخذها ليلبغ رسالته في صورة مقبولة ومعرض حسن؛ من "تخير اللفظ وإصابة المعنى، و الاعتدال فيها" انتقل إلى فكرة أخرى ترقى بالمتصل إلى اتصال من نوع خاص، ويجيز له استعمال النادر وحذف فضول الكلام وغير ذلك، ويكون هذا مع طبقة معينة من المستقبلين؛ إذ يقول: «ولا يفعل ذلك حتى يلقي حكيمًا، وفيلسوفًا عليماً، ومن تعود حذف فضول الكلام، ومشتركات الألفاظ، ونظر في المنطق على جهة الصناعة فيها، لا جهة الاستطراف و التطرف لها»²؛ فالمتكلم إذا قابل فيلسوفًا أو عالماً متمرسًا في اللغة جاز له ما لم ما لم يجز مع البسطاء والعامّة من المتلقين؛ إذ «ينبغي أن يتكلم بفخر الكلام، ونادره وورصينه ومحكمه، عند من يفهمه ويقبله منه ممن عرف المعاني و الألفاظ علماً شافياً، لنظره في اللغة و الإعراب والمعاني على جهة الصناعة»³.

فالمتكلم حينما يخاطب متلقياً عادياً يكلمه بكلام عادي؛ لأن غايته لا تتعدى الإفهام، لكن إذا كان حديثه مع غيره من العلماء أو الفلاسفة أو الحكماء فإنه سيبدع في اختيار الألفاظ الرائعة و النادرة؛ لأن المتلقي هنا متلقي ذا طبيعة خاصة بمقدوره أن يفك رموز الرسالة؛

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص:50.

² - العسكري، الصناعتين، ص ص:37-38.

³ - المصدر نفسه، ص:38.

ف«الغرض الأول في الكلام الإفادة، وجل الأمم على هذا، والثاني تحسين الإفادة»¹، لذا يجب على المتكلم أن يخاطب كل طبقة بما يناسبها.

6) حسن الابتداء:

يرى "العسكري" ضرورة تحسين المتكلم الابتداء في اتصاله، وذلك بحسب المناسبة التي تقتضيها الرسالة الإبلغية « قال بعض الكتاب، أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات فإنهن دلائل البيان. وقالوا: ينبغي للشاعر أن يحترز في أشعاره، ومفتتح أقواله مما يتطير منه، و يستجفي من الكلام كالمخاطبة بالبكاء، ووصف إقفار الديار، وتشتيت الآلاف، ونعي الشباب، وذم الزمان، لا سيما في القصائد التي تتضمن المدائح و التهاني. ويستعمل ذلك في المراثي، ووصف الخطوب الحادثة، فإن الكلام إذا كان مؤسسا على هذا المثل تطير منه سامعه»²، فمصدر جلب المتلقي لكل مرسل هو حسن الابتداء الذي يقتضي الملائمة مع الموضوع في الرسالة الإبلغية، فهو يوصي الكتاب الخطباء و الشعراء كذلك بأن لا يبدأوا كلامهم بما لا ينفر المتلقي لأن ارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب وانحطاطه بعدم مطابقته له³.

وقد تنوعت أمثله على صحة رأيه بين النثر والشعر، والتي تبرز حسن الابتداءات وفضلها، وكذا قبحها في عملية الإبلاغ، فمن أجود ابتداءات العرب مطلع معلقة " امرؤ القيس"؛ ف« قد بكى امرؤ القيس واستبكى، ووقف واستوقف، وذكر الحبيب والمنزل في نصف بيت، وهو قوله: " قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل، فهو من أجود الابتداءات ". فالشاعر أحسن المطلع؛ إذ عبّر عن حالته النفسية من الفراق، واستطاع أن يوصل هذا الشعور من دون أن

¹ - الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، دمشق، إتحاد كتاب العرب، 2001، ط1، ص:132.

² - العسكري، الصناعتين، ص:451.

³ - القزويني، الايضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق عبد المنعم خفاجي، بيروت دار الكتاب اللبناني، ط 5، 1980، ج1، ص:115.

يبكي حاله، أو يتسبب في تطير السامع له. لذا كان أحسن من ينشيء الكلام ذاك الذي يتدبر ويراجع مبدأ كلامه؛ فقد سئل بعضهم من أحذق الشعراء، فقال: من يتفقد الابتداء و المقطع»¹. وفي النقيض من هذا المثال؛ فقد يؤثر المطلع من القصيدة سلبا؛ فيفرز موقفا غير المتوقع من المتكلم؛ نجد قصيدة لـ"إسحاق بن إبراهيم"؛ يروي قصتها "العسكري" يقول: «لما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان الذي كان للعباسية، جلس فيه وجمع الناس من أهله وأصحابه... وأمر أن يلبس الناس كلهم الديباج، وجعل سريره في الإيوان المنقوش بالفسافسا الذي كان في صدره صورة العنقاء، فجلس على سرير مرصع بأنواع الجواهر، وجعل على رأسه التاج الذي فيه الدرة اليتيمة، وفي الإيوان أسرة آبنوس عن يمينه وعن يساره، من عند السرير الذي عليه المعتصم إلى باب الإيوان... فكلما دخل رجل رتبته هو بنفسه في الموضع الذي يراه، فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم... فاستأذنه إسحاق بن إبراهيم في التّشيد فأذن له... فأنشده شعراً ما سمع الناس أحسن منه في صفته وصفة المجلس... إلا أن أوله تشييب بالديار القديمة، وبقية آثارها فكان أول بيت منها:

يا دارُ غيرك البلى فمحاكٍ ... يا ليت شعري ما الذي أبلاك

فتطير المعتصم منها، وتغامز الناس، وعجبوا كيف ذهب على إسحاق مع فهمه وعلمه وطول خدمته للملوك، قال: فأقمنا يوماً هذا، وانصرفنا، فما عاد منا اثنان إلى ذلك المجلس، وخرج المعتصم إلى سرّ من رأى، و خرب القصر»².

وسبب نقلنا الرواية كاملة لنوضح المقام كاملاً...، فعلى الرغم من أن قصيدة "إسحاق بن إبراهيم" في مجملها جيدة؛ ما سمع الناس أحسن منها على حد تعبير "العسكري"، إلا أن مطلعها كان غير مناسب مما جعل المتلقين يتأثرون سلبا ويتطيطرون من المكان في حين كان الشاعر يسعى لنيل رضا "المعتصم".

¹ - العسكري، الصناعتين، ص: 454.

² - المصدر نفسه، ص: 490.

ويبرر هذا قول "ابن الأثير": «وإنما خصت الابتداءات بالاختيار لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام فإذا كان الابتداء لائقاً بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعي على استماعه وكيفيك من هذا الباب الابتداءات الواردة في القرآن الكريم كالتحميدات المفتوح بها في أوائل السور وكذلك الابتداءات بالنداء كقوله تعالى في مفتتح سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾¹، ثم يضيف معلقاً «فإن هذا الابتداء مما يوقظ السامعين للإصغاء إليه وكذلك الابتداءات بالحروف كقوله تعالى: " ألم " و " طس " و " حم " وغير ذلك فإن هذا أيضاً مما يبعث على الاستماع إليه لأنه يقرع السمع شيء غريب ليس له بمثله عادة فيكون ذلك سبباً للتطلع نحوه والإصغاء إليه»²؛ إذ خصص "ابن الأثير" لها فصلاً كاملاً؛ سماه "المبادي والافتتاحات"³، وهو أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالاً على المعنى المقصود من ذلك الكلام" وفائدته أن يعرف من مبدأ الكلام ما المراد به ولم هذا النوع.

وهذا نفسه رأي "العسكري" إذ يقول: «والابتداء أول ما يقع في السمع من كلامك، والمقطع آخر ما يبقى في النفس من قولك، فينبغي أن يكونا جميعاً مونقين»⁴؛ كما أن آخر بيت أيضاً هو آخر ما يسمع من قول المتكلم ويبقى في نفس المتلقي لذا - برأيه - يجب أن يحسن من قبل المتكلم.

هذه بعض الشروط و التقنيات التي استوجبها "أبو هلال" في صانع الكلام (المرسل) الذي يبغي إبلاغ المعاني إلى قلب السامع بصورة مقبولة ومعرض حسن، ف«يمكن بذلك من توصيل مرسلته عبر متتالية قد أضفى عليها معنى يقصده»⁵. فمتى توافرت لديه يكون قد استمسك بالآليات التي تمكنه من التأثير في الآخر وجعله يتابع و يطلع على رسالته الإبلاغية.

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص: 98.

² - م ن، ن ص.

³ - المصدر نفسه، ج 3، ص: 96.

⁴ - العسكري، الصناعتين، ص: 494.

⁵ - أحمد يوسف، سيميائيات التواصل و فعالية الحوار المفاهيم والآليات، الجزائر، منشورات مخبر السيميائيات وتحليل الخطاب، ط1، 2004، ص: 143.

ومن خلال ما سبق نستطيع القول أن البلاغة اهتمت بالدرجة الأولى بطريقة إنتاج النص، و تقدم النصائح و الشروط للمتكلم لإنتاجه، كي تتال الرسالة كلمة استحسان أو رضا من قبل السامع أو المتلقي، فهي تعنى بالصياغة اللغوية لهذه الرسالة لكي تؤدي وظيفتها و فاعليتها عند المتلقي، فالبلاغة هي الطريقة و الوسائل المتبعة في الكلام (طبعاً من قبل المتكلم) والتي تهدف إلى إيصال المعنى إلى قلب و عقل السامع و التأثير فيه، وتحاول كسب رضا السامع و تأييده.

إذن؛ اهتمت البلاغة بـ "المتكلم" فوضعت له الشروط و الطرق و الوسائل التي متى استعملها و اتبعها تضمن له الاتصال الناجح مع السامع أو المتلقي؛ فيصل المعنى إلى قلبه و عقله ويؤثر فيه ويحقق هدفه، فهي تسعى - أي البلاغة - في وضع قوانينها إلى مراعاة حال المتلقي وطبيعته وثقافته.

ويمكننا القول بأن البلاغة فن التعبير ، و فن يهدف إلى الوصول إلى مواقف إيجابية في دائرة المتلقي ، فالخطاب عموماً باعتباره مجموعة من العمليات السيمولوجية و الممارسات اللغوية يخضع أثناء عملية الجريان التوظيفي لشروط التداولية لـ تحقيق الهدف البلاغي، وبذلك يمكننا أن نقول أن البلاغة تسعى إلى توظيف الشروط التداولية ، لتضمن تحقيق أهدافها في إقناع المتكلم لطرف الآخر، و تغيير أفكاره و التأثير فيه؛ أي أن للبلاغة أبعاداً تداولية¹، إذ تعين على تمكين المعنى عند السامع و إقناعه، بذلك تعين البلاغة المتكلم وتقدم له الوسائل و الطرق التي يحترز بها عن الوقوع في براثن الخطأ، و التعقيد، و الغموض والالتباس.

وفي ما يلي ننتقل إلى الطرف الآخر في العملية التواصلية و التخاطبية، لنرى كيف أولت البلاغة "المتلقي" اهتمامها.

¹ - ينظر: عبد القادر عبد الجليل، البلاغة و الأسلوبية، مرجع سابق، ص: 43.

2. المتلقي وشروطه:

يعتبر المخاطب الشريك في التصور العام من الناحية الإبداعية للرسالة، فالمخاطب يحتل مركز الصدارة عندما يفكر المنتج (المنشئ أو المتكلم) بصياغة كلامه، وهو الهدف بالنسبة للمتكلم باعتبار أن الاتصال لا يقوم إلا في اتجاه متلقي تقتضيه العملية الإبداعية، وقد ركزت البلاغة العربية عليه، ويتضح ذلك أكثر من خلال البحوث التي دارت حول مقتضى الحال، وهذا ما وجدناه عند "العسكري" فصانع الكلام عنده لا يؤلف رسالته سواء أكانت خطبة أو رسالة أو شعر إلا و يراعي الطبقة التي تتوجه إليها؛ وقد سبق وأن أشرنا إلى هذا في شروط المتكلم، و للمتلقي وقدراته دور في إنجاح عملية التخاطب، ومن أهمها:

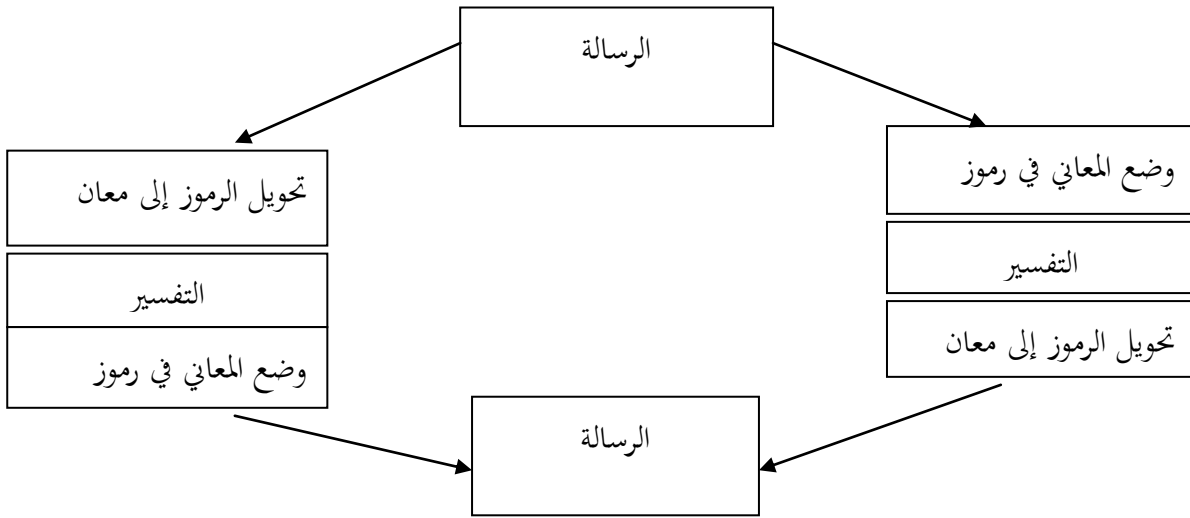
- القدرة على فهم اللغة الشفوية للحديث وتمييز الأفكار الأساسية.
- القدرة على الاستماع المتفهم للاستفادة¹.

و بما أن المتلقي هو المعنى بالعملية الاتصالية؛ فعليه أن يقوم بفك الرسالة التي تصل إليه من طرف المتصل؛ والتوصل إلى مقصود المتكلم؛ حيث تتطلب هذه الأخيرة مهارات معينة تمكنه من معرفة أسرار كل الاتصالات اللغوية.

ولقد اهتم كل من "العسكري" و"ابن الأثير" به؛ فالإتصال لديهما مرهون بمن ستلقى إليه الرسالة، وهل سيستوعبها؟ كيف يبلغ مقصدها؟ هل سيقنع بها؟ وهي كلها أسئلة اهتمت بها الدراسات الحديثة، فمثلا "لازويل Lazwel" اهتم بمن ترسل إليه الرسالة، وكيف يستقبلها؟، وكذا النموذج الذي قدمه "بلوم شرام Blum Shramm" عندما بحث في الهدف الذي يتحقق بين المرسل والمتلقي، مبرزاً فيه "التفاعل Interocion" بين المصدر و الهدف و المستقبل، ويتضح ذلك بالمخطط التالي²:

¹ - محمد منير حجاب، مهارات الاتصال للإعلاميين والتربويين والدعاة، مصر دار الفجر للنشر والتوزيع، ط 1999/1، ص:38.

² - نقلا عن: سامية بن يمينة، الاتصال اللساني وآلياته التداولية في الصناعتين لأبي هلال العسكري، إشراف أحمد عزوز، مذكرة ماجستير تخصص العلوم اللغوية والاتصال، كلية الآداب واللغات والفنون، السانبا جامعة وهران، 2007، ص:120.



إذن؛ نستنتج من ذلك أن "العسكري" تقطن إلى أن دور السامع لا ينحصر في تلقي الرسالة فقط؛ أي تكون علاقته بالمتكلم رأسية في الخطبة (الخطيب يلقي خطبته لدرجة عليا أو أدنى)، أو الشعر أو الرسالة، ويمكن أن نوضح تلك العلاقة في المخطط التالي:



و قد يكون هناك تفاعل بسيط إذا لم تتم عملية الفهم - مثلا - ، فحينما يستعمل المتكلم لفظة لا يفهمها السامع قد يحاول السامع أن يسأل عليها، أو العكس، مثلا قد يكون السامع فطنا جدا ما إن يسمع صدر البيت حتى يلقي بعجزه¹.

ومن الشروط التي ينبغي توفرها في المتلقي ليتمكن من إدراك أبعاد كل رسالة موجهة إليه؛ ما يلي:

أ. حسن الاستماع:

حسن الاستماع يعد من أولويات البلاغة، وهذا ما جاء به "العسكري" نقلا عن "ابن المقفع" الذي يقول: «البلاغة اسم لمعان تجري في وجوده كثيرة، منها ما يكون في السكوت، و منها ما يكون في الاستماع»²؛ و حاسة السمع تلعب دورا جوهريا في فهم المعنى و الوقوف على مقاصده، ثم يحلل "أبو هلال" القول السابق و يبين أن «المخاطب إذا لم يحسن الاستماع لم يقف على المعنى المؤدي إليه الخطاب و الاستماع الحسن عون للبلوغ على إفهام المعنى»³؛ فالاستماع الحسن كفيل للمخاطب بأن يقف على الإفادة التي يريدتها المتكلم، و هنا يقول: «حسبك من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، و لا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع»⁴. فهذا القول يعكس تلك العلاقة بين ركني العملية الاتصالية باعتبار أن نشاطهما معا من ركائز البلاغة، فهي تتجسد إذا ما أحسن الناطق إنشاء رسالته و إلقائها عبر آلية البيان من جهة، وأن لا يفاجئ المخاطب أو الناطق بسوء فهم السامع الذي قد يتم بسبب عدم الاستماع الحسن من جهة أخرى .

¹ - ينظر: بن يامنة، المرجع السابق، ص:121.

² - العسكري، الصناعتين، ص:20.

³ - المصدر نفسه، ص:22.

⁴ - م ن، ن ص.

و هذا ما أخذه الدارسون بعين الاعتبار، فنصحوا بضرورة حسن الاستماع حتى تتجح العملية الاتصالية، يقول ابن المقفع: "تعلم حسن الاستماع"، و انجاز الرسالة البلاغية و فهمها يتأسس على ذلك.

و يجب أن نشير هنا إلى أن "أبا هلال" كان دقيقاً في كلماته فقال: "الاستماع" و لم يقل "السمع"؛ فالسمع قوة في الأذن تتحرك بها الأصوات، وسمع لفلان أو إليه أو إلى صديقه سمعا وسماعاً أصغى و أنصت، و الاستماع من أسمعته أي أصغى إليه، و أصغى بمعنى حسن الاستماع¹، و على هذا الأساس فرق العلماء بين المفردتين، باعتبار أن "السمع" يرتبط ارتباطاً جوهرياً بالعضو، أي بالأذن ووظيفتها في تلقي المثيرات الصوتية في حدود القدرة السماعية للمتلقى، فهو بذلك يمثل « حلقة من حلقات الاتصال اللغوي، و تنحصر وظيفة الأذن في استقبال الاهتزازات الأكوستيتيكية و تحويلها إلى إشارات تنتقل عبر عصب السمع»². فحاسة السمع تخول لنا استقبال تلك الأصوات و تمييزها، و ذلك بعد «دخول الأمواج الصوتية المختلفة إلى الأذن فتهتز طبلة الأذن فيقوم العصب السمعي بتحويل هذه الاهتزازات إلى رسائل اتصالية و يرسلها إلى الدماغ، فيقوم الدماغ بدوره باستقبالها و إصدار أمره لأعضاء الجسم بالتصرف حسب طبيعة الرسالة الاتصالية»³.

ومصطلح "السمع" موجود بشكل ملحوظ في كتاب "ابن الأثير" إذ يولي حاسة السمع أهمية كبرى؛ فحاسة السمع هي الحاكمة بالإضافة للذوق، وهي الفيصل بين الحسن و القبح «ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشحرور ويميل إليهما، ويكره صوت الغراب وينفر منه وكذلك يكره نهيق الحمار، ولا يجد ذلك في سهيل الفرس؟ والألفاظ جارية هذا المجرى، فإنه لا خلاف في أن لفظتي "المزنة" و "الديمة" حسنة يستلذها السمع، و

¹ ابن المقفع، الأدب الصغير والأدب الكبير ورسالة الصحافة، يوسف أبو حنيفة، بيروت، منشورات مكتبة البيان، ط3، 1964، ص:80.

² محمد منير حجاب، مهارات الاتصال للإعلاميين و التربويين والدعاة، ص:18

³ عيسى شاهين، حاسة السمع، عمان المؤسسة العربية للدراسات و النشر، 1986، ص:08.

ترى أن لفظة "البعاق" قبيحة يكرهها السمع. وهذه اللفظات الثلاثة من صفة المطر، وهي تدل على معنى واحد، ومع ذلك فإنك ترى لفظتي "المزنة" و"الديمة" وما جرى مجراها مألوفة الاستعمال، وترى لفظة "البعاق" وما جرى مجراها متروكا لا يستعمل وإن استعمل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة¹؛ حيث تتم مراعاة سمع المتلقي وما يكرهه.

إلا أن الاستماع عند "العسكري" يتعلق بالفهم؛ أي «بفهم رسالة المتحدث و إدراك ما يرمي إليه من مقاصد، و يختلف مستوى هذا الفهم من شخص إلى آخر، و ذلك تبعاً لمستوى الاستماع، حيث يوجد أربعة مستويات للاستماع، مستوى الاهتزاز والذبذبة، الاستماع، الفهم، الإدراك و الفهم المميز»²؛ أي بفهم الرسالة بعد تفكيك رموزها، و يختلف هذا الفهم من شخص إلى آخر، فإذا كانت هذه الأخيرة على درجة كبيرة من المعرفة فإنها ستبلغ مستوى الإدراك و الفهم المميزين، أما الطبقة العادية فتفهم عند حدود معرفتها؛ إذ يرى ضرورة أن يكون لدى المتكلم القدرة على معرفة طاقة كل قوم؛ إذ يقول: «مدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم، والحمل عليهم على قدر منازلهم»³.

والاستماع الحسن المبني على الفهم الدقيق الذي لوحظ عند "العسكري" يقارب ما جاء به الباحثين المحدثين؛ فالاستماع كما عرّفه "سبريت Sprit" هو «العملية النشطة التي تتضمن ربط المعنى بالصوت»⁴، أي بعد سماع تلك الأصوات يجري تحليلها و إدراكها، أو بتفسير تداولي هو الفعل الانتباهي الذي يترتب عن الفعل الصوتي، أما عند "رانكين Rankine" «فهو القدرة على فهم اللغة المستخدمة في الحديث»⁵، فالاستماع مرهون بالقدرة التي يمتلكها

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص:114.

² - محمد منير حجاب، مهارات الاتصال للإعلاميين والتربويين والدعاة، ص:18.

³ - العسكري، الصناعتين، ص:29.

⁴ - محمد منير حجاب، مهارات الاتصال للإعلاميين و التربويين والدعاة، ص:20.

⁵ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

المتلقي في إدراك رموز الرسالة اللغوية، أي بمفهوم تداولي الوصول إلى الفعل الإحالي على حد تعبير "أوستين Austin"¹.

وهذه الفاعلية تتسع أبعادها حينما يصبح المتلقي بعد فهم الرسالة و إدراكها مرسلا ، فهو لا « يكتفي بمجرد الفهم ، بل ينتقل إلى محاولة التعرف العقلية و الوجدانية من خلال معايشة تجربة النص الأدبي بما فيه من أحاسيس و أفكار و مواقف و اتجاهات »²، و بهذا لا ينحصر دور المتلقي في السماع فحسب، بل يتأسس أكثر على الاستماع الذي يجعله مرسلا إليه في الوقت نفسه.

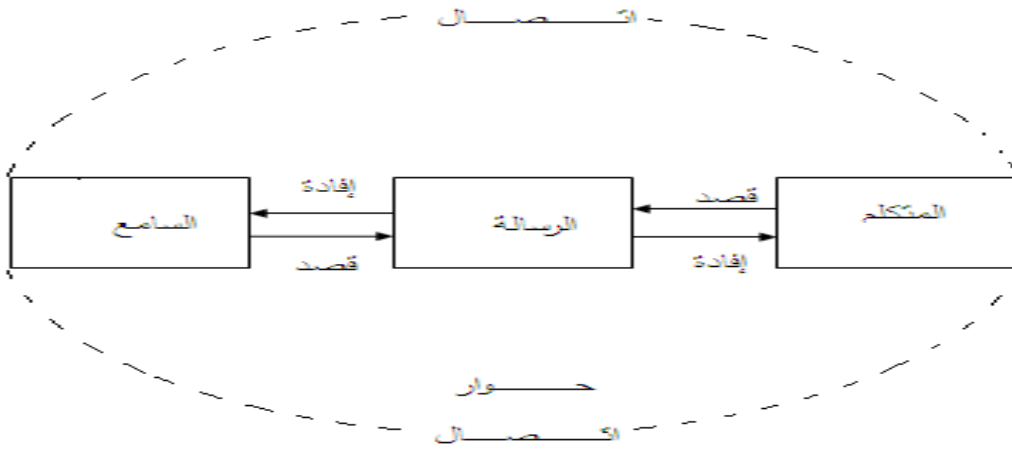
وآلية الاستماع تهدف أساسا إلى تحقيق التفاعل بين طرفي الاتصال فتجعلهما يتبادلان الأدوار، و هذا ما ركزت عليه البلاغة الجديدة، و بالخصوص في الخطابة حيث « أصبح المتلقي متلقيا ايجابيا يتلقى ما يتلقاه و يفكر فيه، ثم يرد و يناقش و ينفذ و يدعم، لينتقل من موقع المتلقي إلى موقع الإرسال، و ينتقل المرسل بالتالي من موقع الإرسال إلى موقع التلقي »³، و يكون التواصل بذلك فعالا، و تتحول العلاقة من علاقة رأسية إلى علاقة أفقية ، « لأن المتلقي في الخطابة الجديدة بحكم الإيجابية يقف في درجة موازية لدرجة المرسل و من ثم يتلقى الخطبة من مقابل مواز، فالعلاقة بينهما أفقية »⁴، و نوضح ذلك بالمخطط التالي :

¹ - ينظر: بن جيهرة، الاتصال اللساني وآلياته التداولية، ص: 124.

² - عبد السلام المسدي، الأسلوبية و الأسلوب، ليبيا الدار العربية للكتاب، ص: 70.

³ - جميل عبد المجيد، البلاغة و الاتصال، مرجع سابق، ص: 117.

⁴ - المرجع نفسه، ص: 117.



فالمستمع على اثر سماعه و استماعه تتحقق تلك الاستجابة التي تجني " الإفادة " بمصطلح تداولي، و هذه العملية قد تتكرر مع المرسل أيضا، و بالتالي قد « تصبح الرسالة الإبداعية شائعة، و تعني استجابة المستقبل للأثر الأدبي و مدى تأثره به و تقبله له، و هذا كله يتوقف على مدى التناغم و التوافق بين المرسل و المستقبل»¹. و هذا ما اعتبره "شرام Schramm" مشاركة، أي أن « الاتصال هو فعل مشاركة، و علاقة مشتركة أكثر من كونه شيئا يقوم به شخص لشخص آخر، إذ أن الخبرات المشتركة أساسية في نجاح الاتصال»². ولتحقيق حسن الاستماع ركز "العسكري" على ضرورة الابتعاد عن حدوث ردة فعل عكسية من قبل المتلقي وملاؤه، حاولوا تزويد المتكلم بتقنيات قد تساعد على تنشيط المتلقي، وهذا ما عكسه قوله: « وكلام الفصحاء إنما هو شوب الإيجاز بالإطناب والفصيح العالي بما دون ذلك من القصد المتوسط، ليستدلّ بالقصد على العالي، وليخرج السامع من شيء إلى شيء فيزداد نشاطه وتتوفر رغبته، فيصرفه في وجوه الكلام إيجازه وإطنابه»³. و يدعم هذا القول ما جاء في مكان آخر من كتابه؛ إذ يقول: «لأنّ للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن مقدار الاحتمال دعا إلى الاستئثار، وصار سبباً للملال، فذلك

¹ - عبد العزيز شرف، نماذج الاتصال في الفنون و الإعلام، ص: 140.

² - صالح خليل أبو أصبع، نصوص تراثية في ضوء علم الاتصال المعاصر، مرجع سابق، ص: 97.

³ - العسكري، الصناعتين، ص: 212.

هو الهذر والإسهاب والخطل، وهو معيب عند كل لبيب»¹. فلكي يحسن الاستماع لا بد أن يكون مركزا مع كلام المتكلم ليفهمه ويصل إلى المعنى المقصود، فالتنوع وعدم التطويل غير المفيد قد يقطع التواصل مما يحدث خلل في التخاطب وفشله.

ب. القدرة على فهم محتوى الرسالة:

أي ضرورة امتلاك المتلقي القدرة التي تمكنه من الوصول للمعنى الذي يقصده المتكلم، و تبقى مؤسسة على ما هو متداول في البيئة اللغوية، ف«السمع يتشوق للصواب الرائع... و الفهم يأنس من الكلام بالمعروف، و يسكن إلى المألوف، و يصغي إلى الصواب، و يهرب من المحال، و ينقبض من الوخم، و يتأخر عن الجافي الغليظ، و لا يقبل الكلام المضطرب إلا الفهم المضطرب، و الروية الفاسدة»². إذ ربط "أبو هلال العسكري" هذه المعرفة بأمر البيئة الاجتماعية التي ينتمي إليها المستمع، لذا لاحظناه يقدم بعض الأمثلة التي تدل على ما سماه بـ "البديهة الحسنة"، إذ يقول: «فمن البديهة الحسنة ما أخبرنا به أبو أحمد... قال دخل المأمون ديوان الخراج فمر بسلام جميل على أذنه قلم فأعجبه ما رأى من حسنه، فقال من أنت يا غلام؟ فقال: يا أمير المؤمنين الناشئ في ديوانك، و خريج أدبك، و المتقلب في نعمتك، الحسن بن رجا، فقال المأمون: بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول، ثم أمر أن يرفع عن مرتبة الديوان و يعطى مائة ألف دينار»³. و هي على صلة كما نرى بالكفاءة التي تجعل المتلقي يحسن الرد انطلاقا من الحال الذي يكون فيه، وهي من الآليات التداولية باعتبار أن الفعل الكلامي في المثال المذكور ينجز عن فعل تأثيري تقتضيه العملية الاتصالية ككل.

وقد تفتن "ابن الأثير" ما يتصل بفهم المعاني، وطريقة الوصول إلى المعنى المقصود من الخطاب، وذكره تحت عنوان **في الحكم على المعاني** وتحت عنوان **الترجيح بين المعاني**، مبينا أن فهم المعاني يحتاج أحيانا إلى التأويل لأنها تتطلب

¹ - المصدر نفسه، ص: 194.

² - المصدر نفسه، ص: 63.

³ - المصدر نفسه، ص : 46.

ذلك، فكثيرا من المعاني في الخطاب الأدبي لا نصل إليها مباشرة، و إنما نصل إليها بعد مراوغة و أخذ ورد، ومعنى هذا انشغال الفكر بها ومحاولة تأويلها، من أجل معرفتها وفهمها، وان كان الأصل هو أن يؤخذ المعنى ويفهم على ما هو عليه يقول: «و اعلم أن الأصل في المعنى أن يحمل على ظاهر لفظه ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل»¹. وأما التأويل فإنه أحد قسمي التفسير، وذلك انه رجوع عن ظاهر اللفظ، وهو مشتق من الأول، وهو الرجوع يقال: آل، يؤول إذا رجع وعلى هذا فان التأويل خاص، والتفسير عام «وفائدته الإحاطة بأساليب المعاني على اختلافها وتباينها»². والتأويل لا يخلو من ثلاثة أقسام³:

1- إما أن يفهم منه شيء واحد لا يحتمل غيره

2- وإما أن يفهم منه الشيء وغيره

3- وتلك الغيرية إما أن تكون ضدا، أو لا تكون ضدا و ليس لنا قسم رابع.

إذا تأملنا تقسيمه هذا نجد أن الأول ليس فيه تأويل، لأنه يفهم منه شيء واحد ولا يذهب فيه الذهن إلى معاني أخرى ولا يحتاج إلى ذلك لوضوح دلالة اللفظ على المعنى، ويوضح ما يتعلق بكل قسم مستشهدا كما يلي⁴:

أما القسم الأول فيرى أنه يكثر في الأشعار ويجري في الدقة و اللطافة مجرى القسمين الآخرين، أما القسم الثاني فيرى أنه " قليل الوقوع جدا، وهو من أظرف التأويلات المعنوية، لان دلالة اللفظ على المعنى وضده أغرب من دلالته على المعنى وغيره مما ليس بضده، من الأمثلة التي أوردها على هذا قول أبي الطيب المتنبي:

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا لمن بات في نعمائه يتقلب

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص:74.

² - المصدر نفسه، ن ص.

³ - المصدر نفسه، ن ص.

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص ص:77- 79 .

هذا البيت يستخرج منه معنيان ضدان، أحدهما: أن المنعم عليه يحسد المنعم. والآخر: أن المنعم يحسد المنعم عليه.

وكذلك ورد قوله أيضا من قصيدة يمدحه:

فإن نلت ما أملت منك فريما شربت بماء يعجز الطير ورده

فإن هذا البيت يحتمل مدحا وذما؛ وإذا أخذ بمفرده من غير نظر إلى ما قبله فإنه يكون بالذم أولى منه بالمدح، لأنه يتضمن وصف نواله بالبعد والشذوذ. وصدر البيت مفتوح بان الشرطية، وقد أجيب بلفظة "رب" التي معناها التقليل، أي لست من نوالك على يقين، فإن نلته فريما وصلت إلى مورد لا يصل إليه الطير لبعده، وإذا نظر إلى ما قبل هذا البيت دل على المدح خاصة، لارتباطه بالمعنى الذي قبله.

و أما "القسم الثالث" فإنه يكون أكثر وقوعا من القسم الثاني، وهو واسطة بين طرفين، لأن القسم الأول كثير الوقوع، والقسم الثاني قليل الوقوع، وهذا القسم وسط بينهما « من الأمثلة التي ذكرها قول أبي الطيب المتبني:

لو فطنت خيله لنائله لم يرضها أن تراه يرضاهما

وهذا يستتبط منه معنيان غيران: أحدهما أن خيله لو علمت مقدار عطاياه النفيسة لما رضيت له بأن تكون من جملة عطاياه، لأن عطاياه أنفس منها، الآخر: أن خيله لو علمت أنه يهبها من جملة عطاياه لما رضيت ذلك، إذ تكره خروجها عن ملكه. هذان الوجهان، أنا ذكرتهما، و إنما المذكور منهما أحدهما»¹.

أما في الترجيح بين المعاني والذي عرّفه قائلا: «الترجيح إنما يقع بين معنيين، يدل عليهما لفظ واحد»²؛ فصاحب علم البيان « من شأنه أن يرجح بين حقيقة ومجاز، أو بين حقيقتين، أو بين مجازين ويكون ناظرا في ذلك كله إلى الصناعة الخطابية»³،

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص:85.

² - المصدر نفسه، ن ص.

³ - المصدر نفسه، ج1، ص:86.

ثم يضيف «ولا يخلو الترجيح بينها من ثلاثة أقسام: إما أن يكون اللفظ حقيقة في أحدهما مجازاً في الآخر، أو حقيقة فيهما جميعاً، أو مجازاً فيهما جميعاً، وليس لنا قسم رابع الترجيح بين الحقيقة والمجاز لا يحتاج إلى نظر بينما القسمان الآخران فيهما نظر»¹.

وقد أورد أمثلة توضيحية على هذه الأقسام نكتفي بمثال واحد من الخطاب الشعري حول الترجيح بين المجازين؛ وهو قول "أبي تمام":

قد بلونا أبا سعيد حديثاً وبلونا أبا سعيد قديماً

ووردنا ساحلاً وقلبياً ورعيناه بارضاً وجميماً

فعلمنا أن ليس إلا بشق النفس صار الكريم يدعى كريماً

و يعلق قائلاً «فالساحل والقلبي يستخرج منهما تأويلان مجازيان: أحدهما أنه أراد بهما الكثير والقليل بالنسبة إلى الساحل والقلبي . والآخر: أنه أراد بهما السبب، وغير السبب فإن الساحل لا يحتاج في ورده إلى سبب، والقلبي يحتاج في ورده إلى سبب، وكلا هذين المعنيين مجاز، فإن حقيقة الساحل والقلبي غيرهما. والوجه هو الثاني لأنه أدل على بلاغة القائل ومدح المقول فيه . أما بلاغة القائل فالسلامة من هجنة التكرير بالمخالفة بين صدر البيت وعجزه ، فإن عجزه يدل على القليل والكثير لأن البارض هو أول النبت حين يبدو، فإذا كثر وتكاثر سمي جميماً فكأنه قال: أخذنا منه تبرعاً، ومسالة، وقليلاً، وكثيراً. أما مدح المقول فيه، فلتعداد حالاته الأربع فيتبرعه وسؤاله وإكثاره وإقلاله، وما في معاناة هذه الأحوال من المشاق»².

ومن هنا نستنتج؛ أن كتاب "المثل السائر" ليس كتاباً خاصاً بتعليم المتكلم فنون التعبير فقط؛ بل يعلم المتلقي طريقة توخي المعاني واستنطاق النصوص والخطابات والوقوف على أوجه تأويلها، وبذلك الوصول إلى المعنى المقصود من الخطاب، وذلك في الخطابات التي تحمل أوجه مختلفة أو معاني خفية، تحتاج إلى معرفة مقام وسياق حدوثها لكي يتمكن من معرفة

¹ - المصدر السابق ، ج1، ص:87.

² - المصدر نفسه ، ج1، ص:91.

المعنى المقصود، ومن هنا تظهر أهمية المقام في فهم الخطاب، ولنتبين ذلك أكثر، سنحاول البحث عن هذه الجزئية في المطلب الثاني: فهل يا ترى استطاع كل من "العسكري" و"ابن الأثير" التفطن لهذا العنصر المهم في العملية التخاطبية وهو المقام؟ وما مدى أهميته في صناعة الخطاب الناجح المؤثر الفعال بتعبير التداولية؟

3. المقام والسياق عند كل من "العسكري" و"ابن الأثير":

لا بد أن نسجل أولاً؛ ضرورة التفريق بين مصطلحين أساسيين في المعرفة اللسانية الحديثة أولهما: **السياق و المقام**؛ إذ العلاقة بين المصطلحين هي علاقة احتواء أو جزء بالكل، و يمكن توضيح ذلك من كون لفظة السياق أعم في الإطلاق و لفظة المقام أدق في الإطلاق؛ يرى "الشهري" أن هناك مفهومين لمصطلح السياق عند المحدثين¹:

أ. **المفهوم البنيوي**: ويسميه السياق اللغوي أو السياق النموذجي: ويقصد به تلك الأجزاء التي بالكلمة في المقطع، وتساعد في الكشف عن معناها، وهذا المفهوم تجسيد لتلك التتابعات في شكل الخطاب من وحدات صوتية، و صرفية، و معجمية، وما بينها من ترتيب وعلاقات تركيبية، وما يطلقون عليه "سياق النص" أو "سياق القرائن" أو "نحو النص" حيث أغلب محاوره تدور حول هذا المفهوم للسياق، كالبحث في أدوات الربط كإحالة بين الجمل، وكذلك العطف بين الجمل وترك العطف أو ما أطلق عليه البلاغيون العرب الفصل والوصل².

ب. **المفهوم التداولي**: ويسميه سياق الحال أو سياق الموقف، ويقصد به مجموعة الظروف التي تحف بحدوث فعل التلفظ في موقف الكلام³، وهذا المفهوم للسياق يلتقي مع مصطلح المقام أو مقتضى الحال عند البلاغيين العرب.

وينقسم السياق عند علماء اللغة الغربيين وعلى رأسهم "فيرث" إلى: السياق اللغوي و سياق الموقف، وقد أضاف إليهما أحد أتباعه و هو "جون ليونز" السياق الثقافي. ومن زاوية

¹ - ينظر: الشهري، استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص ص: 40-42.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص ص: 40-45.

³ - المرجع نفسه، ص: 41.

أخرى يعدّ "بريت Parret" أنّ تصنيف السياق هو أيسر الطرق لتصنيف التداوليات إلى عدّة أنواع، إذ يقسّم السياق إلى أكثر من قسم، ونتج عن ذلك خمسة أنواع من السياق يطابقها العدد نفسه من التداوليات، وهذه الأنواع هي: سياق الغرائز Co-text context وهذا ما يسمى بـ"نحو النص"، السياق الوجودي Contexte Existentiel السياق المقامي Contexte Situationnel، و السياق الفعل Contexte d'action، السياق النفسي Contexte Psychologique.

ومن مميزات هذا التقسيم أنه « يغفل الفصل بين ما ينتسب إلى اللغة، وما ينتسب إلى العناصر التي تؤثر في تشكيلها خطابيا»¹.

ويعرف "جون دوبوا" "السياق" في "قاموس اللسانيات" على أنه المحيط L'environnement؛ أي الوحدات التي تسبق أو تلحق وحدة محدّدة، ويسمّى بالسياق أو السياق الشفوي، ويعرفه كذلك على أنه « جمل الشروط الاجتماعية التي تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي واستعمال اللغة... وهي المعطيات المشتركة بين المرسل والمتلقّي والوضعية الثقافية والنفسية والتجارب والمعلومات الشائعة بينهما»²؛ فنلاحظ أن "جون دوبوا" قد ركز كثيرا على العناصر خارج لسانية، في تحديده " للسياق " ألا وهي الشروط الاجتماعية التي يتحقّق فيها الخطاب، بين المرسل والمتلقّي في زمان ومكان معيّنين، وهذا ما تذهب إليه النظرية التداولية اليوم.

وتكمن أهمية معرفة المقام عند "ديكرو"، في كونه ضروريا لتحديد:

أ. مرجع التعابير المستعملة، كالإشارات Les déictiques : (أنا - أنت - هذا -

هنا - الآن...).

ب. الاختيار بين التأويلات المختلفة للملفوظ الغامض.

¹ - الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 42 .

² - Voir :J. Dubois : dictionnaire de linguistique, Larousse, paris 1973, pp120-121

ج. طبيعة الفعل الكلامي المنجز بحكم أنّ طبيعته التلغظية أو قيمته قد تختلف عن طبيعته الواقعية أو المسموعة، مثلا: الملفوظ "سندهب إلى باريس غدا"؛ قد يفهم على أنه (وعد أو خبر أو أمر)، وذلك بحسب العلاقات الموجودة بين المتكلمين والقيمة المرتبطة بالذهاب إلى باريس.

د. الخاصية العادية أو غير العادية للملفوظ: حيث يمكن لملفوظ ما أن يكون عاديا في مقامات معينة، ومتغيرا في أخرى، وبذلك يأخذ قيمة خاصة¹. وبهذا فإنّ "ديكرو" يلحّ على المقام باعتباره عنصرا مهما في تحديد المعنى، كما يلحّ كذلك على عدم إغفال مختلف الأنماط المقامية التي يستعمل فيها الملفوظ. أما عناصر السياق في التداوليات الحديثة حسب فيلسوف اللغة "طه عبد الرحمن"؛ تتمثل فيما يلي²:

العنصر الذاتي: ويشمل معتقدات المتكلم مقاصده اهتماماته رغباته.

العنصر الموضوعي: ويشمل الوقائع الخارجية الظروف الزمانية والمكانية.

العنصر الذواتي: ويشمل المعرفة المشتركة بين المتخاطبين، أو ما يسمى بالأرضية المشتركة.

والجدير بالذكر هو أن العنصر الذواتي المشتمل على المعرفة المشتركة أولته اللسانيات التداولية اهتماما بالغا حسب ما يراه "إدريس مقبول" لما له من أهمية خصوصا في عملية التأويل « فالغالب على المتكلم من وجهة نظر تداولية أن لا يذكر في كلامه إلا ما كان يعلم أن المستمع يحتاج إلى معرفته ليتبين الفائدة منه، معتمدا في ذلك على قدرة السامع على استحضار المحذوف، إما لوضوحه أو لقربة أو لشهرته، فتكون عناية المتكلم بالكلام على حسب حال السامع من الإدراك ومعرفته بالمعهود، وعلى قدر مشاركته في الفوائد والمعلومات،

¹ - Voir : O. Ducrot, T.Todorov : Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Ed.Seuil, 1972, PP:417-422.

² - إدريس مقبول، الأسس الأبنيمولوجية والتداولية للنظر النحوي في كتاب سبويه، ص: 305 .

فيضم ما علمه المخاطب ويظهر ما جهله وغاب عنه، وفي المنظور التداولي على قدر ما يأتي المتكلم من الإضمار يأتي السامع من الجهد والفهم»¹.

و الاهتمام بظاهرة السياق ليس جديد العهد، إن ما هو وليد قرون ماضية فقد لاحظ البلاغيون منذ القديم هذه الظاهرة - السياق من خلال مقولاتهم الخالدة " لكل مقام مقال ولكل كلمة مع صاحبها مقام"².

وهذا ما نلاحظه عند "ابن الأثير"، وقد اعتنى بالسياق مفهوماً ولم يعتن به مصطلحاً؛

فمصطلح "السياق" لم يرد في كتابه سوى بضع مرات؛ وقد ورد مرة بصيغة (المساق) كما ورد مرة أخرى بصيغة (السياقة) فمن ذلك ما جاء في قوله: « وفي مساق الآية المشار إليها جاء قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي

السَّبِيلَ﴾³، ألا ترى أن مساق الكلام أن الإنسان يقول لزوجته: أنت علي كظهر أمي»⁴، أما لفظة سياقة فوردت في قوله: « ومن جملة الكتب المشار إليها مفتاح كتاب كتبته إلى بعض الإخوان وأرسلته إليه من الموصل إلى أرض الشمال من بلاد الروم، وهو "طلع كوكب من أفق المجلس السامي لا خلت سيادته من عدو وحاسد، ولا شينت بتوأم يخرجها عن حكم الواحد، ولا عدمت صحبة الجدود المتيقظة في الزمن الراقد، ولا أوحشت الدنيا من ذره الخالد، الذي هو عمر خالد، ولا زال مرفوعاً إلى المحل الذي يعلم به أن الدهر للناس ناقد، والكواكب تختلف مطالعها في الشمال والجنوب، فمنها ما يطلع دائماً في أحدهما وهو في الآخر دائم الغروب، وكتاب المجلس كوكب لم ير بهذه الأرض مطلعته، وإن علم من السماء أين موضعه، ولما ظهر الآن للخادم سبوح له حامداً، وخر له ساجداً، وقال: قد عبدت الكواكب من قبلي فلا عجب أن

¹ - إدريس مقبول، الأفق التداولي نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية، دار عالم الحديث، ط1، عمان، الأردن، 2014، ص: 66.

² - القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 19 .

³ - سورة الأحزاب، الآية: 4.

⁴ - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص: 347.

أكون لهذا الكوكب عابداً، وها أنا قد أصبحت بالعكوف على عبادته مغرّياً. وقال الناس: هذا ابن كبشة الكتاب لا ابن كبشة الشعري»¹. ثم يقول معقّباً: «وهذا مطلع غريب و السياقة التالية لمطلعه أغرب ومن أغرب ما فيها قولي ، وها أنا قد أصبحت بالعكوف على عبادته مغرّياً ، وقال الناس: هذا ابن كبشة الكتاب لا ابن كبشة الشعري»².

وقد سبق وأن أشرنا إلى "ابن الأثير" تفتن إلى ضرورة معرفة و فهم المعاني، وكيفية الوصول إلى المعنى المقصود من الخطاب، وقد خصص لها فصلاً بعنوان **الترجيح بين المعاني**، مبيناً أن فهم المعاني يحتاج أحياناً إلى التأويل لأنها تتطلب ذلك، فكثيراً من المعاني في الخطاب الأدبي لا نصل إليها مباشرة، و إنما نصل إليها بعد مراوغة و أخذ و رد، ومعنى هذا انشغال الفكر بها ومحاولة تأويلها، من أجل معرفتها وفهمها، وقد كان السياق إحدى القرائن التي اعتمدها في ترجيحه بين التأويلات المحتملة للخطاب. ومن البديهي القول: إن السياق ينقسم من حيث المفهوم إلى عدة أنواع منها : سياق الموقف أو الحال، سياق النص سابقه ولاحقه، و السياق النفسي، والسياق التاريخي، و إذا تتبعنا ترجيحات "ابن الأثير" السياقية وجدناها تتكئ في الغالب على واحد من هذه الأنواع³، وإذا نظرنا في ترجيحات "ابن الأثير" السياقية وجدناها تنقسم إلى نوعين الأول هو: سياق النص، ويسمى (السياق اللغوي)، والثاني؛ هو السياق النفسي.

أولاً: السياق اللغوي: يعرف "ستيفان أولمان" السياق اللغوي بقوله: «بلّغه نظم الكلمة في

الجملة وموقعها من ذلك النظم»⁴؛ حيث أن موقع الكلمة بين السابقة واللاحقة يوضح معناها

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص:113.

² - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ - فيما يخص قواعد الترجيح بالسياق عند المفسرين، فقد حصرها بعض المؤلفين بثلاث قواعد هي: أولاً: إدخال الكلام في معاني ما قبله وما بعده أولى بالخروج عنهما إلا بدليل يجب التسليم له. ثانياً: لا يجوز العدول عن ظاهر القرآن إلا بدليل يجب الرجوع إليه. ثالثاً: حمل معاني كلام الله على الغالب من أسلوب القرآن ومعهود استعماله أولى عن ذلك. فينظر تفصيل ذلك عند: الحربي، قواعد الترجيح عند المفسرين، ط1، ص:12.

⁴ - ستيفان أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، ط3، 1972، ص:16.

والمراد منها؛ ف"السياق اللغوي Linguistique contexte" يعني ذلك المعنى الذي ورد لهذه الكلمة في المعجم، أي معنى الكلمة في الجملة أو العبارة، أو بمعنى آخر، المعنى الذي يفهم من الكلمة بين الكلمات السابقة واللاحقة لها في العبارة أو الجملة، ويتمثل في العلاقات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية بين هذه الكلمات على مستوى التركيب، لذلك فإننا نجد كلمة يختلف معناها باختلاف الألفاظ التي تكون معها معنى جملة¹؛ ولنا أن نقول أن السياق اللغوي هو النظم اللفظ للكلمة وموقعها من الجملة أو العبارة، ومنه فالسياق اللغوي بهذا المفهوم يتكون من مستويين اثنين هما²:

أ تموضع الكلمة المجردة في العبارة أو الجملة وارتباطها بالقواعد المنظمة لترتيب الكلمات على مستوى التركيب من حيث التقديم والتأخير، والزيادة، والحذف...إلخ.
ب ارتباط الكلام بالسياقات الصوتية كالتنعيم والنبر...

ونستطيع أن نستشف اهتمام "ابن الأثير" بهذا النوع من السياق؛ وذلك حين استعراضه من خلال الأمثلة أهمية هذه القرينة كما جاء في قوله: «وأما مثال المعنيين إذا كان أحدهما مناسباً لمعنى تقدمه أو لمعنى تأخر عنه والآخر غير مناسب: فالأول هو ما كان مناسباً لمعنى تقدمه كقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾، فالدعاء ههنا يدل على معنيين؛ أحدهما: النهي أن يدعى الرسول باسمه، فيقال: يا محمد، كما يدعو بعضهم بعضاً بأسمائهم، وإنما يقال له: يا رسول الله، أو يا نبي الله، الآخر: النهي أن يجعلوا حضورهم عنده إذا دعاهم لأمر من الأمور كحضور بعضهم عند بعض، بل يتأدبون معه، بالألف يفارقوا مجلسه إلا بإذنه. وهذا الوجه هو المراد. لمناسبة معنى الآية التي قبله، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾. أما الثاني: وهو ما كان مناسباً لمعنى تأخر عنه، فكقول هتعالى: ﴿وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ

¹ ينظر: عبد النعيم خليل، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، دراسة لغوية نحوية دلالية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 2007، ط1، ص: 33.

² ينظر: عبد النعيم خليل، نظرية السياق بين القدماء و المحدثين، ص ص: 38- 37.

وَطُورِ سَيْنِينَ¹، فالتين والزيتون هما هذا الشجر المعروف وهما اسما جبلين أيضاً وتأويلهما بالجبلين أولى للمناسبة بينهما وبين ما أتى بعدهما من ذكر الجبل الذي هو الطور¹. إن الرأي الذي رجّحه "ابن الأثير" في دلالة كلمة "دعاء" مشهور عند جماعة من المفسرين²، لكنهم لم يرجحوا بين معنيين من خلال سياق الكلام كما فعل "ابن الأثير". فقد جعل سياق الكلام قرينةً لتغليب تأويل على آخر، وكان هذا المثل الذي قدمه "ابن الأثير" نموذجاً على دور السياق في ترجيح ألفاظ المشترك اللغوي التي لا تتحدد دلالتها إلا بالسياق، أما المثل الثاني وهو التين والزيتون فهو نموذج على دور السياق في الترجيح بين الحقيقة والمجاز. فقد ذهب "ابن الأثير" - و بعض المفسرين³ - إلى تأويلهما بالجبلين في الشام، والعلة في ذلك هي: المناسبة بين الأشياء المقسم بها؛ وهي: طور سنين والبيت الأمين. وكلاهما مكانان مقدسان نزلت بها الرسالات السماوية. وعلة التناسب هذه كانت قرينةً سياقيةً زادت من قوة حمل اسمي النباتين على المجاز. لأن الجبلين مشهوران بهذين النباتين. فكان الاستعمال مجازاً مرسلًا علاقته الحالية. فقد ذكر الحال وأراد المحل.

وقد كان اعتماد "ابن الأثير" قرينة السياق اللاحق واضحاً في ترجيحه بين التأويلين؛ إذ عدل عن ظاهر اللفظ إلى التأويل بمعاونة القرينة طبقاً للقاعدة الفقهية التي أوردتها في كتابه، إذ يقول: «و اعلم أن الأصل في المعنى أن يحمل على ظاهره لفظه، ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل»⁴، أما العلة السياقية التي بنى عليها "ابن الأثير" ترجيحه السابقين فهي المناسبة أو العلاقة المعنوية والدلالية التي تربط بين وحدات النص المتتابعة على نحو يوحي

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص:77.

² - ينظر: الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، الكشف والبيان، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشر، مراجعة وتدقيق نظير الساعدي، ط1، ج7، ص:121.

³ - ينظر مثلاً: يرويه: الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ج4، ص:778.

⁴ - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص:62.

بتماسكها. وبما أن العناية بالسياق اختصت بالنص القرآني إلا أن "ابن الأثير" عمد إلى استحضار نصوص أدبية مطبقاً فيها المبدأ نفسه، ومعللاً قدرة السياق على ترجيح الدلالة. وقد أورد مثلاً آخر من أمثلة تعدد المعاني إذ يقول: « وعلى هذا ورد قول الشاعر في أبيات الحماسة:

ولو كنت مولى قيس عيلان لم تجد علي لإنسانٍ من الناس درهما

ولكنني مولى قضاة كلها فلست أبالي أن أدين وتغرما

فإذا نظرنا إلى البيت الأول وجدناه يحتمل مدحاً وذمّاً؛ أي: أنهم كانوا يغنونه بعبائهم أن يدين، أو أنه كان يخاف الدين حذر أن لا يقوموا عنه بوفائه. لكن البيت الثاني حقق أن الأول ذم وليس بمدح فهذا المعنى لا يتحقق فهمه إلا بآخره¹؛ وقد اتكأ في ترجيحه لمعنى البيت الأول على السياق؛ حيث تحدد به مدلول البيت الأول القائم على الكناية، إذ يعرض بـقيس عيلان، مع أن ظاهر البيت الأول يحتمل مدحاً، لكن - وفقاً لتغليب المعنى الكنائي - دل على الذم. وقد كان لحاق البيت داعماً لتأويله، والحمل على الكناية كثير في ترجيحات "ابن الأثير" لأنه يعتقد أن الميل إلى العنصر البلاغي أكمل ذوقاً من الحمل على الظاهر، وكذلك يعمق "ابن الأثير" من واعتناؤه بالسياق وحجتيه في ترجيح دلالات الخطاب مستشهداً ببيت لـ"المتبي" في مدح "كافور". ويمهّد له بحديث عن السياق كما في قوله: وكذلك ورد قوله أيضاً من قصيدة يمدحه:

فإن نلت ما أمّلت منك فربّما شربت بماء يعجز الطير ورده

فإن هذا البيت يحتمل مدحاً وذمّاً، وإذا أخذ بمفرده من غير نظر إلى ما قبله فإنه يكون بالذم أولى منه بالمدح؛ لأنه يتضمن وصف نواله بالبعد والشذوذ، وصدر البيت مفتوح بان الشرطية، وقد أجب بلفظة "رب" التي معناها: التقليل؛ أي لست من نوالك على يقين، فإن

¹ - المصدر السابق، ج1، ص:77.

نلتها فرمما وصلت إلى مورد لا يصل إليه الطير لبعده، و إذا نظر إلى ما قبل هذا البيت دل على المدح خاصةً لارتباطه بالمعنى الذي قبله.

وفي النموذجين السابقين يستدل على دلالة الأول بلحاق السياق، ويستدل على الثاني بالسياق.

ولو نزعا من سياقهما لاحتملا معنيين متضادين. وفي هذا تأكيد منه على أهمية الدلالة

السياقية. ويدخل في هذا الجانب أن السياق قد يدعم حمل المعنى على الاستعارة لا على

الكناية، وذلك عبر قرينة السياق اللاحق. كما جاء في قوله: «و قد يأتي في الكلام ما يجوز أن

يكون كناية ويجوز أن يكون استعارة وذلك يختلف باختلاف النظر إليه بمفرده والنظر إلى ما

بعده كقول نصر بن سيار في أبياته المشهورة التي يحرض بها بني أمية عند خروج ابن مسلم :

أرى خلل الرماد وميض الجمر ويوشك أن يكون له ضرام

فإن النار بالزندان توري وإن الحرب أولها كلام

أقول من التعجب لبيت شعري أيقاظ أمية أم نيام

فإن هبوا فذاك بقاء ملك وإن رقدوا فإني لا ألام

فالبيت الأول لو ورد بمفرده كان كناية لأنه يجوز حمله على جانب الحقيقة وحمله

على جانب المجاز أما الحقيقة فإنه أخبر أنه رأى وميض جمر في خلل الرماد وأنه

سيضطرم وأما المجاز فإنه أراد أن هناك ابتداء شر كامن ومثله بوميض جمر من

خلل الرماد وإذا نظرنا إلى الأبيات جملتها اختص البيت الأول منها بالاستعارة دون

الكناية¹، و يضيف « كثيرا ما يرد مثل ذلك و يشكل؛ لتجاذبه بين الكناية والاستعارة

على أنه لا يشكل إلا على غير العارف»²، والسياق اللاحق واضح في دعم تأويل

البيت على الاستعارة .

ويدخل ضمن السياق اللغوي؛ السياق النحوي؛ ليس النحو العلم الذي يبحث في أحوال

أواخر الكلم إعرابًا وبناءً، ومعرفة الكلمات كونها مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة وغير ذلك من

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص:55.

² - المصدر نفسه، ن ص.

الأحكام النحوية فقط، بل هو كذلك» دراسة الجمل التامة من ناحية العلاقات السنتجماية Syntagmatic أو السياقية relations¹؛ وعلى هذا فإن مهمة النحو تتعدى الوقوف على معرفة أحوال أواخر الكلم، إلى التركيب والارتباط بين وحدات الجملة، وهذا النظم أو التركيب في الجملة أو العبارة تحكمه في كل لغة مجموعة من القواعد المنظمة لهذه اللغة على مستوى التركيب، وهذا ما يسمى بالسياق النحوي، وهذا التنظيم اللغوي الموافق للسياق النحوي، خاضع لدلالة عن معاني معينة تتغير بتغير ذلك التركيب، ويشرح هذا قول "العسكري": « والمعاني بعد ذلك على وجوه: منها ما هو مستقيم حسن، نحو قولك: قد رأيت زيداً. ومنها ما هو مستقيم قبيح نحو قولك: قد زيداً رأيت. وإنما قبح لأنك أفسدت النظام بالتقديم والتأخير. ومنها ما هو مستقيم النظم، وهو كذب، مثل قولك: حملت الجبل، وشربت ماء البحر. ومنها ما هو محال، كقولك: آتيك أمس وأتيتك غداً. وكلّ محال فاسد، وليس كلّ فاسد محالاً، ألا ترى أن قولك: قام زيد فاسد، وليس بمحال. والمحال ما لا يجوز كونه البتة، كقولك: الدنيا في بيضة. و أما قولك: حملت الجبل وأشباهه فكذب، و ليس بمحال، إن جاز أن يزيد الله في قدرتك فتحمله. ويجوز أن يكون الكلام الواحد كذباً محالاً، وهو قولك: رأيت قائماً قاعداً، ومررت بيقظان نائم، فتصل كذباً بمحال، فصار الذي هو الكذب هو المحال بالجمع بينهما، وإن كان لكل واحد منهما معنى على حiale، وذلك لما عقد بعضها ببعض حتى صاراً كلاماً واحداً. ومنها الغلط، وهو أن تقول: ضربني زيداً، وأنت تريد ضربت زيداً، فغلطت، فإن تعمدت ذلك كان كذباً»².

(2) السياق المقامي (أو ما سماه الشهري السياق التداولي): تعرفنا فيما سبق على السياق اللغوي بوجهيه (الصوت والنحوي)، ويسمى السياق الداخل، أما السياق الخارج فهو ما يعبر عنه بالمقام، وقد اختار بعض الدارسين العرب المحدثين مصطلح "المقام" بدلاً من السياق لترجمة المصطلح الحديث (context)، وقد أبدى " تمام حسان" تحفظاً على التطابق الكامل بين المفهومين ومع ذلك فقد اختاره؛ إذ يقول: « لقد فهم البلاغيون العرب المقام أو مقتضى الحال

¹ - تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، مرجع سابق، ص: 195.

² - العسكري، الصناعتين، ص: 85.

فهما سكونيا، قالبيا نمطيا مجردا، على نحو ما جرد النحاة أصل الوضع للحرف وللکلمة والجملة، ثم قالوا لكل مقام مقال... فالذي أقصده بالمقام ليس إطارا ولا قالبيا، وإنما هو جملة الموقف المتحرك الاجتماعي الذي يعتبر السامع والكلام نفسه، وغير ذلك مما له اتصال بالتكلم... وعلى الرغم من هذا الفارق بين فهمي وفهم البلاغيين للمصطلح الواحد، أجد لفظ المقام أصلح مما أعبر به عما أفهمه من المصطلح الحديث (context of situation) الذي يستعمله اللسانيون المحدثون»¹.

وقد تحدد مفهوم المقام Situation في المعرفة اللسانية الحديثة في كونه: «مجموع الشروط الطبيعية والاجتماعية والثقافية التي يتحدد بها ملفوظ الخطاب؛ أنها معطيات مشتركة للمرسل المتلقي حول الحالة الثقافية والنفسية والخبرات المعارف لكل واحد منهما»²، و ربما وجدت تحديدات أخرى إلا أنها تتضمن نفس العناصر؛ من متكلم، و سامع، و مكان، و زمان، وغيرها من ملابسات الحدث الكلامي.

وفكرة المقام بما تقدم هي الجوهر الذي عليه مدار التحليل في الاتجاه التداولي؛ فالبنية اللغوية لا تحقق للدارس بمفردها - و معناها الحرفي - ما يرومه من تحصيل المعنى الدلالي الكلي للخطاب، و ذلك إنما يستلزم النظر في ملابسات الكلام و ظروف المتكلم أثناء التكلم، بحسب هذا الفهم الشامل لفكرة المقام يعتبر الخطاب(المقال) منطوقا كان أو مكتوبا - غير منببت عن ساقه و سيق إليه. و لو أننا حاولنا فهم المقال منفصلا عن المقام لجاأ فهمنا إياه قاصر مبتورا أو خاطئا³.

ولعل ارتكاز التداولية على هذا المبدأ؛ هو ما دعا بعض الدارسين العرب المعاصرين في اقتراحهم في التحديد المصطلحي المقابل الاصطلاحي المقابل الأجنبي لعلم

¹ - تمام حسان، الأصول دراسة ابستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، ص ص: 303-304.

² - VOIR ; Dictionnaire de linguistique , situation l'ensemble des conditions ou facteurs extralinguistiques psychologiques , sociaux et historiques) qui déterminent l'émission d'un (ou de plusieurs) énoncé á un moment donné du temps et en un lieu donné En linguistique , on parle plutôt de contexte ou de contexte.

³ - ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها و مبناها، مرجع سابق، ص: 351.

"PRAGMATICS" هذا العلم الجديد الذي يدرس اللغة في الاستعمال؛ بوضع المقابل الاصطلاحي له: "المقاميات"؛ و قد جاء في تعريفه: « يعني المصطلح تفسير نص ما تفسيراً شاملاً يجمع إلى جانب المكونات اللغوية الداخلية له، القرائن الخارجية المصاحبة التي تؤثر تأثيراً واضحاً في تحديد دلالاته الدقيقة، إن مفهوم المقاميات يتضح لنا في إطار التواصل الذي يمثل الوظيفة الأساسية للغة و إذا كان تركيب الجملة و ما يقتضي إليه من دلالة يمثلان الأساس في بناء المنطوقات فإنهما لا يحددان بدقة قصد المتكلم، وإن جملة مثل: " ستمطر السماء"؛ تتضمن دلالات متعددة في إطار المقاميات؛ فيمكن أن تكون سؤالاً، و يمكن أن تكون إخباراً، كم يمكن أن تكون تعجباً، و نلاحظ أن هذه الدلالات تتحدد أصلاً بتعيين أفعال الكلام التي يمكن أن تتضمنها الجملة التي تمثل القصد الحقيقي للمتكلم؛ و التي تسهم إلى جانب المقام أو السياق في تحديد الدلالة الدقيقة ونوع التواصل بين-هـ و بين المخاطب ... و نجد أن المقامات، بهذا التصور تقترب من القول المأثور في البلاغة العربية لكل مقام مقال»¹، وهو من المبادئ الأساسية في التداولية.

فالمقام إذن؛ يحتوي على كل عامل يؤثر في تفسير التعبير، انطلاقاً من هذا المعطى فغاية التداولية هي النظر إلى الشكل لغوي أو أسلوب لغوي ملفوظ في **مقام معين**؛ ومنه نخرج بالمبادئ العامة الآتية:

المبدأ الأول: الكلمات - الملفوظات أصوب في التعبير عن الغرض - هي الوحدات

الأساسية التداولية .

المبدأ الثاني: إذا ظهرت كلمة في نص أو خطاب. فيجب أن تكون علاقات الكلمات

صحيحة من الواجهة النحوية.

المبدأ الثالث: لا يتم تعيين معنى الكلم إلا في مقام معين.

¹ - معجم اللسانيات الحديثة، إنجليزي/عربي، مجموعة من المؤلفين، مكتبة لبنان ناشرون، ط 01، 1997، بيروت، لبنان، ص:111.

فهذه المبادئ تبين لنا كيف يتحدد معاني الكلم، و أن التداولية تستمد وجوهه من المستوى التركيبي، و أن السياق هو محور النظرية كلها¹.

أما بالنسبة للبلاغة العربية فقد كان حضور مصطلح المقام فيها قويا، وهو ما ظهر لنا في توظيفهم لمبدأ "مقتضى الحال" الذي يقابل مصطلح المقام بمحملاته المعرفية المعاصرة، و قد بدأ توظيفهم لهذا المبدأ في أبواب البلاغة و مباحثها المختلفة، ثم أنهم جعلوه مرتكزا أساسا في تحليل عناصر العملية التخاطبية عندهم، هذا الحضور المميز للمقام و عظم دوره في تحليل الكلام و ملابساته؛ هي التي حققت لهم قصب السبق، وهذا ما دفع "تمام حسان" إلى القول أن «البلاغيين عند اعترافهم بفكرة المقام كانوا متقدمين ألف سنة تقريبا على زمانهم، لأن الاعتراف بفكرتي المقام و المقال باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة»².

ومحاولة تقريب الفهم التراثي لمصطلح المقام، ومقارنته بما تحقق في المعرفة اللسانية المعاصرة يؤكد لنا وجود وشائج قرى بين التصورين؛ التراثي البلاغي العربي، واللساني التداولي المعاصر؛ لدرجة أن اعتبر بعض الدارسين المعاصرين أن التداولية امتداد للبلاغة» وأن مفهوم التداولية يأتي ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة (مقتضى الحال) ، وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية (لكل مقام مقال)³؛ فقد شكل المقام مقولة أساسية في التراث البلاغي العربي؛ و تجلى إدراكهم لهذه المقولة من خلال استعمالهم لمصطلح "مقتضى الحال" الذي ارتبط بحددهم للحدود البلاغية، و بأبواب البلاغة و مباحثها المختلفة؛ مثل: التقديم و التأخير، و القصر، أضرب الخبر، و أساليب التوحيد والنفي وغيرها؛ وسنتطرق لها بنوع من التفصيل في فصل آخر، و كذا بتحليلهم الإجرائي المنهجي لعناصر الموقف الخطابي(المتكلم، هيئة المتكلم، المخاطب، الكلام و

¹ حافظ إسماعيل علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتاب الحديث، ط1، 01، 2011، عمان، الأردن، ص: 72.

² تمام حسان، اللغة العربية معناها و ميناها، مرجع سابق، ص: 337.

³ بلاغة الخطاب و علم النص، صلاح فضل، دار الكتاب اللبناني، ط1، 2004، بيروت، لبنان، ص: 26.

مقاماته)؛ وقد سبق وأن أشرنا لبعض منها قبل هذا، وذلك يثبت تبصر علمائنا لهذا المفهوم بوصفه أداة إجرائية منهجية في تحليل الخطابات، و الكشف عن قدرتها الإنتاجية.

إذا عدنا إلى عالمنا الجليلين نجد أنهما قد تعرضا لهذه القضية ؛ فمثلا " العسكري (ت395هـ)" وضعه كشرط من شروط التي ينبغي للمتكلم مراعاتها في إنشائه لخطابه؛ إذ يقول: « لا يكلم سيد الأمة، ولا الملوك بكلام السوق، لأن ذلك جهل بالمقامات، وما يصلح في كل واحد منهما من الكلام. وأحسن الذي قال: لكل مقام مقال»¹؛ فبمعرفة طبقة السامعين يتم تحديد المعاني والألفاظ التي يستخدمها المتكلم فيخاطب السوقي بكلام السوق، والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه، فتذهب الكلام وتعدم منفعة الخطاب². و يقول في موضع آخر معاتبا بعض الذين خالفوا هذا المبدأ؛ « و ربما غلب سوء الرأي، و قلة العقل على بعض علماء العربية، فيخاطبون السوقي و الملوك و الأعجمي بألفاظ أهل نجد، و معاني أهل السراة»³.

وبناء على هذه المقولات؛ استطاع "العسكري" أن يحدد أنواع للمقامات؛ منها: مقام الخاصة و مقام العامة أو مقام الملوك و السادة و البدو، و مقام السوق و العامة و الأعاجم؛ فمثلا؛ "مقام البدوي يناسبه وحشي الكلام و مقام السوق يناسبه الكلام السهل".

فلو افترضنا أن متكلمًا يخاطب سوقيًا بلغة عربية فصيحة بلغة لا تشوبها شائبة ولا تعلوها رطانة، ترتق إلى كلام الخاصة من أهل العلم والبلاغة، لصار الكلام بالنسبة للمخاطب من باب المسائل المغلقة التي لا يصل ذهنه إلى فهمها وتحليلها واستيعابها؛ وهذا ما ذهب إليه المحدثون في تعريفهم للمقام، إذ يقول " ديكرو": «إننا نسمي مقام الخطاب مجموع الظروف التي نشأ التعبير في وسطها، و يجب أن نفهم من هذا المحيط المادي والاجتماعي الذي يأخذ الظرف فيه مكانه، والصورة التي تكون للمتخاطبين عنه، وهوية هؤلاء وإننا لنعرف التداولية -

¹ - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص: 27.

² - المصدر نفسه، ص: 29.

³ - المصدر نفسه، ص: 27.

غالبا- بوصفها دراسة لهيمنة المقام على معنى العبارة»¹. والمستشف من قوله أن التداولية - برأيه- تراعي المقام الذي قيلت فيه العبارة، لأن المقام يهيمن على معناها، بحسب الغرض المقصود من ذلك المقام، وتلك الظروف التي قيلت فيها كما نلاحظ أنه يركز كذلك على هوية المتخاطبين، فلا بد لكل متكلم أن يعرف مستمعه، ويعرف مكانته الاجتماعية و السياسية، لأن العبارة تتباين بتباين ذلك.

وكما نجد "أبو هلال العسكري" قد أشار في بلاغة الكتابة إلى ضرورة مراعاة طبقة من يخاطبهم الكاتب، و قد قدم كشاهد كتاب سيدنا (محمد صلى الله عليه وسلم) إلى كسرى، والكتاب الثاني الذي يبعثه إلى قوم من العرب، "وائل بن حجر الحضرمي" ليبيّن كيف خاطب الرسول صلى الله عليه و سلم كل فريق منهما بحسب حاله و مقامه.

يقول: « و الشاهد عليه أن (النبى صلى الله عليه وسلم) لما أراد يكتب إلى أهل فارس كتب إليهم بما يمكن ترجمته فكتب ... من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام من على من اتبع الهدى، و آمن بالله و رسوله، فأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الخلق كافة لينذر من كان حيا، و يحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت فاسم المجوس عليك فسهّل صلى الله عليه وسلم الألفاظ كما ترى غاية التسهيل حتى لا يخفى منها شيء على من له أدنى معرفة في العربية»². ثم يقارنه بكتاب آخر كتبه صلى الله عليه و سلم لـ "وائل بن حجر الحضرمي": « من محمد رسول الله إلى الأقباليّ العباهلة من أهل حضرموت بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، على التّبعة الشاة، والتّبعة لصاحبها، وفي السيّوب الخمس، لا خلاط و لا وراط و لا شناق و لا شغار، ومن أجبي فقد أربى، وكلُّ مسكر حرام»³؛ إذ علق قبل ذلك بقوله: «ولما أراد أن يكتب إلى قوم من العرب فخم اللفظ، لما عرف من فضل قوتهم

¹ - أوزوالد ديكرور، مقام الخطاب، مقال ضمن القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، أوزوالد ديكرور وجان ماري سشايفر، ص:677.

² - العسكري، الصناعتين، ص:172.

³ - المصدر نفسه، ص: 172.

على فهمه وعادتهم لسماع مثله»¹؛ فالفرق واضح بين مستوى اللغة و أسلوبها في كل من الرسالتين، فقد خاطب عليه الصلاة و السلام كل فريق بما يناسبه لذا يرى أبو هلال " أن أول ما ينبغي أن تستعمله في مكاتبة كل فريق منهم علة مقدار طبقتهم و فوتهم في المنطق ². كما يجب أن تعرف مقدار المكتوب إليه ضد الرؤساء و النظراء و العلماء و الوكلاء، فتعرف بين من تكتب إليه تبركا و إجلالا و إعظاما، و بين من تكتب إليه: " أن أفعل كذا " و بين من تكتب إليه: " فنحن نفعل كذا"، ف" أنا" ضد كلام الإخوان و الأشباه، و " نحن" من كلام الملوك ³. و بذلك يكون "العسكري" قد أدرك بعض الجوانب التداولية في الخطاب، إذ يرى ضرورة مراعاة المتلقي و حالته ومكانته الاجتماعية والسياسية؛ وذلك لإحراز المنفعة و الفائدة من جهة، و نيل الرضا والقبول من الطرف الآخر من جهة ثانية.

كما يظهر تنبههم في بعض تحليلاتهم إلى ما يعرف بالسياق النفسي؛ وأهم ما يمتاز به السياق النفسي أنه ليس مادة لغوية صادرة عن المتكلم، بل هو قائم على معرفة مسبقة بالدافع النفسي الحقيقي الذي يتوارى خلف ستار الكلمات، أو بالأحوال التي صدر فيها الخطاب، ومن هنا وقف بعض العلماء عند تعريف (القرينة الحالية) التي تتفق مع ما عرف لاحقا بالسياق النفسي؛ فمثلا يقول "الرازي(ت 606 هـ)": «أما الحالية فهي ما إذا علم أو ظن أن المتكلم لا يتكلم بالكذب فيعلم أن المراد ليس هو الحقيقة بل المجاز، ومنها أن يقتزن الكلام بهيئات مخصوصة قائمة بالمتكلم دالة على أن المراد ليس هو الحقيقة بل المجاز. ومنها أن يعلم بسبب خصوص الواقعة أنه لم يكن للمتكلم داع إلى ذكر الحقيقة فيعلم أن المراد هو المجاز»⁴. والسياق النفسي قرينة أقوى من سياق النص أو اللغوي، وقد تتنازع هاتان القرينتان في ترجيح تأويل الخطاب، إلا إن السياق النفسي يمثل البنية الخفية للخطاب، وعليه معول كبير

¹ - المصدر السابق، ن ص.

² - المصدر نفسه، ص:175.

³ - ن م، ن ص.

⁴ - الرازي، المحصول في علم أصول الفقه، تحقيق فياض العلواني، مؤسسة الرسالة، ج 1، ص:140.

خصوصاً إذا ظفرنا بمفاتيح تعين على تقصي البنية الخفية و الأفعال غير المباشرة للخطاب، وتكشف أسرار تنازعه الدلالي.

ويتجلى ذلك في عرض "ابن الأثير" لتجربة "المتنبي" في مدح "كافور"، إذ يقف عند بعض أبياته التي سميت "الشعر الموجه"¹، ويقدم لها مهاداً سريعاً يمر من خلاله على مفهوم السياق النفسي. فأشعار المتنبي في مدح كافور يدل ظاهرها على المدح، و سياق النص فيها يؤكد على هذه الدلالة، و كذا سياق الموقف يبين أن "المتنبي" يقف بين يدي "كافور" مادحاً ليحظى بوده، أما السياق النفسي فهو: حقيقة أن المتنبي كان يمقت "كافورا" ويظهر المودة تقيّةً، و كان يتعمد أن يورد أبياتاً تحتل الذم والمدح. حيث يدعم سياق النص أو اللغوي المدح بينما السياق النفسي يدعم الذم. ومن هنا قلنا: إن السياق النفسي يعد قرينةً أقوى من سياق اللغوي في تقصي حقيقة تأويل الخطاب. لكن تظل العهدة على المفتاح الذي سيوصل إلى معرفة باطن النفسية أو المقصود يظهر غير سريرته خالف مبدأ من مبادئ التخاطب، يصرح بغير ما في نفسه، بالنسبة لـ "المتنبي" فقد جهر "المتنبي" في غير مرة بمقته "كافوراً". كما قد جهر أيضاً بأنه إنما كان يذمه بتلك الأشعار التي يحمل ظاهرها المدح، حيث كان يعيب عليه فصاحته وفهمه لأعماق التعبير اللغوي، وقد استغل هذا الضعف؛ فيورد أبياتاً تحتل معنيين متضادين في المدح والهجاء على أسلوب التورية البلاغي، يقول "ابن الأثير": « و حكى أبو الفتح بن جني قال: قرأت على أبي الطيب ديوانه إلى أن وصلت إلى قصيدته التي أولها:

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب.

فأتيت منها على هذا البيت وهو:

وما طربي لما رأيتك بدعةً لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب.

¹ - الشعر الموجه: الموجه من الثياب الذي له وجهان في القطع كل واحد يصلح أن يكون ظاهراً، وأما الموجه من الشعر فمشبه به وهو ما كان البيت بأسره يحتمل معنيين متضادين. أبو القاسم الأصفهاني، الواضح في مشكلات شعر المتنبي، ط1، ص:18.

فقلت له: يا أبا الطيب لم تزد على أن جعلته أبارنة، فضحك لقلبي!. وهذا القسم من الكلام يسمى الموجه، أي: له وجهان، وهو مما يدل على براعة الشاعر وحسن تأتيه»¹.

ومثال آخر على ما يمكن تأويله على اعتبار السياق النفسي؛ ما جاء في قوله: «و يجري على هذا النهج من الشعر قول أبي الطيب في قصيدة يمدح بها كافوراً:

و أظلم أهل الظلم من بات حاسداً لمن بات في نعمائه يتقلب

وهذا البيت يستخرج منه معنيان ضدان: أحدهما أن المنعم عليه يحسد المنعم، والآخر: أن المنعم يحسد المنعم عليه»².

وفي موضع آخر من كتاب المثل السائر أورد "ابن الأثير" البيت ذاته وقدر أنه يدل على معان ثلاثة إذ يقول: «فهذا يدل على ثلاثة معان: الأول أنه يحسد من أنعم عليه، الثاني ضد الأول، الثالث أنه يحسد كل رب نعمة كائناً من كان، أي: يحسد من بات في نعماء نفسه يتقلب»³، ومعنى البيت أن إنعامه فائض على كل أحد فاظلم الناس من يحسد من نال من خيره.

وهنا تتضح فكرة السياق عند "ابن الأثير"، في سياق الكلام السابق، كما في قوله: «وإذا نظر إلى ما قبل هذا البيت دل على المدح خاصة لارتباطه بالمعنى الذي قبله»⁴، أما بالنسبة لسياق الموقف بالنسبة لمعهد خطاب "المتنبي" بين يدي "كافور" ويتضح في قوله: «وأكثر ما كان المتنبي يستعمل هذا القسم في قصائده الكافوريات... وهذا القسم من الكلام يسمى الموجه؛ أي: له وجهان»⁵.

إذن؛ لدينا طريقتين للتحليل الخطاب والوصول إلى قصد المتكلم، وذلك بالاعتماد على نوعين من السياق؛ السياق السابق حيث تدعم قرينته المعنى الظاهري المراد توصيله إلى

¹ - المثل السائر، ج1، ص: 66.

² - المصدر نفسه، ج1، ص: 65.

³ - المصدر نفسه، ج2، ص: 268.

⁴ - المصدر نفسه، ج1، ص: 65.

⁵ - المصدر نفسه، ج1، ص ص: 65-66.

المتلقي المباشر في سياق الموقف. أما النوع الآخر فهو السياق النفسي؛ حيث تقوم قرينته بإضمار الكره و إظهار المودة تقيّة؛ وبذلك تدعم المعنى النقيض للخطاب الذي يفهمه المتلقي غير المباشر، كما ينبغي أن نشير إلى أنه تنبه إلى أن المخاطب أو المتلقي ذا سلطة عليا، لذا يعتمد المتكلم إلى التلميح، بالإضافة لما ذكره "ابن الأثير" أن هذا المتلقي ذا فهم أقل، ولا يستطيع أن يفكك الرسالة ليصل إلى المعنى المقصود.

إن هذا النوع من الخطابات يتوافر في النصوص التي يخفي باطنها خلاف ظاهرها، ولفهمها لا بد من وجود قرينة تساعد على جلب المعنى الخفي، فإذا علمنا السياق الذي ورد فيه النص فإننا نستطيع تقدير إن كانت هذه المعاني هي المرادة أم لا. وهذه هي العلة السياقية، فإذا أخذنا بسياق النص فقط عند تأويل الدلالة ومتجاهلين مفتاح السياق النفسي، فإننا سنأخذ المعنى على ظاهره وفي هذا المقام مدح، ويدعم هذا سباق الخطاب ولحاظه، وذلك مستخرج من قول "ابن الأثير" حين قال: «وإذا نظر إلى ما قبل هذا البيت دل على المدح خاصة لارتباطه بالمعنى الذي قبله»، ومع ذلك نلاحظ أن "ابن الأثير" قد غلب قرينة السياق النفسي على قرينة السياق النصي أو اللغوي، لعلمه السابق أن شخصا مهما كانت قوته، لن يستطيع أن يقف بين يدي حاكم ويهجوه علناً، فإذا لم يجد بدأً من ذلك فالكيد أنه سيلجأ إلى حيل اللغة أو ما يسمى مراعاة لقوانين تخاطب معينة؛ وبذلك يكون ظاهر الخطاب ذاهباً نحو المدح، فيما يظل باطنه يحمل الدم كفعل غير مباشر، وبذلك يكون السياق وقرينته الدالة عليه السبيل للوصول إلى المعنى المقصود، خاصة في هذا النوع من الخطابات الذي يحتمل الوجهين معا.

وفي نهاية الحديث عن السياق بأنواعه تجدر الإشارة إلى أن "ابن الأثير" قد عرض لنماذج من الخطابات التي تحتمل تأويلات متغايرة لم يسعف سياق النص على ترجيح أحدها؛ فالسياق كان محايداً معها، و"ابن الأثير" في هذا القسم لم يشأ أن يقدم مهاداً نظرياً لإبطال قرينة السياق المقالي أو النصي، ولكنه اكتفى بالأمثله. كما جاء في قوله: ومن ذلك ما ورد في قصة إبراهيم وذبح ولده عليهما السلام، فقال الله تعالى حكاية عنه: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾

سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ
 إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ
 اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا
 كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ، وَتَرَكَنَا عَلَيْهِ فِي
 الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشِّرْنَاهُ
 بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١﴾ ، فقله تعالى: ﴿٢﴾ وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣﴾ ، قد يكون
 بشارة بنبوته بعد البشارة بميلاده، وقد يكون استئنافاً بذكره بعد ذكر إسماعيل عليه السلام
 وذبحه، والتأويل متجاذب بين هذين الأمرين ولا دليل على الاختصاص بأحدهما، ولم يرد في
 القرآن ما يدل على أن الذبيح إسماعيل ولا إسحاق عليهما السلام ، وكذلك لم يرد في الأخبار
 التي صحت عن رسول الله، وأما ما يروى عنه أنه قال: "أنا ابن الذبيحين" فخارج عن
 الأخبار الصحيحة وفي التوراة أن إسحاق عليه السلام هو الذبيح¹ ، وإذا ذهبنا مع السياق في
 ترجيح أي النبيين - عليهما السلام - هو الذبيح سنجد أن سياق الموضوع، يدعم أنه إسماعيل؛
 فحين وقعت البشارة بولادة إسحاق وبشر ببيعقوب أيضاً من بعده، قال تعالى: ﴿٤﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ
 فَضَحَكَتْ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٥﴾² ، فعلم مسبقاً أن سيدنا "إسحاق" لن
 يموت حتى ينجب سيدنا "يعقوب".

إلا أنه ينبغي أن نشير في ختام هذا المبحث؛ إلى أن دور المقام في الدرس اللساني
 التداولي المعاصر تعاضم في تحليل العملية التخاطبية، وأخذ أبعاداً أعمق في مسارات التحليل؛
 و في علاقة اللغة باستعمال الدلالة، و الموقف الكلامي، و شروط الخطاب وإنتاجه بصورة
 أوضح بالقدرة التواصلية لدى المتخاطبين، وهذا ما أسهم في أغناء المصطلح، و أعطاه
 إمكانيات أوسع في الإفصاح و الإبلاغ، ونستطيع أن نوضح أكثر أهمية المقام في تفسير

¹ - المصدر السابق، ج 1، ص: 67.

² - سورة هود، الآية: 71.

بعض الخطابات التي تحمل معاني خفية من خلال دراستنا للأفعال الكلامية لمكونة للخطابات، والكيفية التي شرح بها علمائنا تلك الأداءات والانجازات وسيتكفل الفصل الموالي في شرح ذلك. المستنتج من هذا كله أن ك لا من "العسكري" و"ابن الأثير" في محاولتهما لوضع شروط للكلام البليغ (الخطاب) استطاعا أن يضعوا شروط لكل عناصر التداول من متكلم ومتلقي و كذا اهتموا بالمقام وألزموا المتكلم بضرورة مراعاته، وهذا يثبت التوجه التداولي للطرح البلاغي في المصنفين محل الدراسة، ولتوضيح ذلك أكثر، سنحاول في ما يلي من فصول أن نبحث عن أهم قضايا التداولية وهي: الأفعال الكلامية، وكذا الحجاج وما عرف بالبلاغة الجديدة المتمثلة في آراء "بيرلمان" وطروحات "أبي هلال العسكري" و"ضياء الدين بن الأثير".

الفصل الثالث

الأفعال الكلامية وقواعد التخاطب

فتمزيك العسكري وابن الأثير البلاغية

الفصل الثالث: الأفعال الكلامية وقواعد التخاطب في تصورات "العسكري" و"ابن الأثير"

البلاغية

المبحث الأول: تصور ورؤية كل من "العسكري" و"ابن الأثير" للفعل الكلامي:

1. الفعل الكلامي و المعاني النفسية.
2. الفعل الكلامي معايير وشروطه:
 - أ. فعلي "الأمر" و "النهي"؛ وشروطهما التداولية.
 - ب. "الاعتذار" و "الاستعفاف" وشروطهما التداولية.
3. الفعل التأثيري و انجاز الفعل الكلامي.
4. الحدث الكلامي و بناء الأفعال الكلامية (أسلوب "حسن التخلص").
5. الأفعال الكلامية غير المباشرة و العدول البلاغي:
 - أ. الاستلزام الحوارية و المجاز.
 - ب. الافتراض المسبق في الكناية والاعتراض.

المبحث الثاني: قواعد الخاطب والتفاعل الكلامي عند "العسكري" و"ابن الأثير" ومبادئه:

أولاً: قواعد التفاعل (التخاطب):

1. قواعد "غرايس".

2. قواعد "ديكرو".

ثانياً: مبادئ التخاطب الكلامي:

1. مبدأ الاقتضاء في المقولات البلاغية:

أ. الافتراض المسبق و التقديم والتأخير.

ب. مضمرة القول و الحذف.

2. مبدأ التأدب.

المبحث الأول: تصور ورؤية كل من "العسكري" و"ابن الأثير" للفعل الكلامي:

يعد "الفعل الكلامي Acte de parole" أحد المفاهيم الأساسية التي قامت عليها نظرية الأفعال الكلامية، ويعود الفضل في التنظير له ودراسته إلى الفيلسوف "أوستين Austin" الذي استطاع أن يقدم مفاهيم دقيقة حول طبيعته، وخصائصه، ومكوناته، وأبعاده الإنجازية، وأصنافه ثم طوره علماء آخرون مثل "سيرل Searle"، و"غوفمان Goffman" و"ريكانتي Recanati" و"هابرماس Habermas" و"أوركينيوني Orecchioni" وغيرهم.

ويشير "سيرل Searle" إلى أن هذا المصطلح كان مستعملاً من قبل لغويين بنائين أمثال "بلومفيلد Bloomfield" في العقد الثالث من القرن العشرين، غير أن معناه الحديث من إبداع "أوستين Austin"¹.

ويجب أن نشير هنا إلى أن هذا المصطلح "الفعل الكلامي" لا يقف عند حدود المظهر الصوتي المادي؛ بل يشمل المنجز الصوتي والمنجز الكتابي.

أما في المفهوم الاصطلاحي فقد حُدد "الفعل الكلامي" بتعريفات مختلفة، ويعود ذلك إلى المرجعيات المتنوعة التي انطلق منها الدارسون، فقد عرّفه "أوستين Austin" بأنه «الفعل المؤسس من قبل متكلم يتمتع بصلاحيات معينة محدد»²؛ فالفعل الكلامي برأيه هو الملفوظ المتحقق من قبل متكلم، وفي سياق محدد، والذي لا تكون اللغة فيه مجرد أداة تواصلية؛ بل فعلاً اجتماعياً أو سلوكاً فردياً أو مؤسسياً.

وقد دقق أكثر "أوستين" في مصطلح "الفعل Acte" الذي تقوم عليه هذه النظرية؛ إذ يقول: «و نحن نتصور "الفعل" على أنه "حدث" مادي فيزيائي نقوم بإنجازه، ونعتبره متميزاً عن ضروب التواضع والتواطؤ في كيفية الوقوع، ومتميزاً أيضاً عن آثاره ونتائج»³، فجوهر

¹ - ينظر: صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، بيروت دار التنوير للطباعة والنشر، ط1، ص: 184.

² - مسعود صحراوي، الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي، ص: 83.

³ - أوستين، نظرية أفعال الكلام-كيف ننجز الأشياء بالكلام، ص: 138.

الفعل الكلامي هو "الإنجاز" الذي يؤديه المتكلم بمجرد تلفظه بملفوظات معينة؛ ومنه نلاحظ الطبيعة العملية الإنجازية التي تطبع الفعل الكلامي، والتي تجعله يتجاوز حدود البنية اللغوية التي توقفت عندها النظرية اللسانية البنيوية.

أما "فان دايك V.Dick" فقد ربط حد "الفعل الكلامي" بـ "الحدث" الذي يعني في أساسه "التغيير"¹، ولا تكمن طبيعته "الفعلية" أو "الحدثية" هذه في كونه إنجازاً أو ممارسةً فيزيولوجيةً فقط؛ بل لأنه فضلاً عن ذلك سلوك لغوي، أو ممارسة يستطيع المتكلم تجسيدها عبر العملية التواصلية، فلا يختلف الفعل اللغوي عن باقي الأفعال غير اللغوية²، وهذا مستنتج من قول "فان دايك V.Dijk" بأن: «ما نعنيه بقولنا إننا نفعل شيئاً ما متى صغنا عبارة معينة هو أننا نقوم بإنجاز فعل اجتماعي؛ كأن نعد وعداً ما، ونطلب وننصح، وغير ذلك مما شاع وذاع أنه يطلق عليه "أفعال الكلام"، ويطلق عليه على نحو أخص "قوة فعل الكلام"، ومن الواضح علاوة على ذلك أنه يوجد بون شاسع بين حال إصدار بعض الأصوات من ناحية أولى، وبين القيام بإنجاز فعل مجتمعي معقّد من ناحية ثانية»³.

أي أن "الفعل الكلامي" لا يقف عند حدود النطق الكلامي؛ بل يتعداه إلى النمط الإنجازي الذي يبتغيه المتكلم من المتلقّي.

وإذا حاولنا أن نقارب بين تصور اللسانيين التداوليين للفعل الكلامي؛ وبين ما هو موجود في كتاب "الصناعتين" من أفكار، فنلاحظ تقارب هذا المفهوم عند "العسكري"، دليلنا في ذلك أننا عندما نعود لتعريفه للبلاغة؛ نجده ربط هذا الأخير - مفهوم البلاغة - بما يقتضيه مدلول الاتصال؛ إذ عرّفها بقوله: «هي كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع، فتمكّنه في نفسه لتمكّنه في نفسك، مع صورة مقبولة ومعرض حسن»⁴، وإن كان "العسكري" قد انطلق مما يُتوجه إليه

¹ - المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتن، ص: 7 .

² - ينظر: عبد السلام إسماعيلي علوي، التلفظ والإنجاز، www.fikwanakd.aljabria .

³ - فان دايك، النص والسياق، ص: 263 .

⁴ - العسكري، الصناعتين، ص: 19 .

الكلام في بيان حدّ البلاغة، فإنّ هذا لا يعني عدم اهتمامه بطرف الاتّصال الأوّل؛ نقصد "المرسل" أو "المتكلم"، و يدلّ على ذلك قوله: "لتمكّنه في نفسك".

وهذه العلاقة بين طرفي الاتّصال التي حرص على إبرازها ههنا « قد وجدت طريقها إلى نظرية الاتّصال، وبالتالي إلى التداولية التي عُنيت بالسياقات المختلفة وأطراف الموقف التواصلية عناية كبيرة، وإذا كان "لاوسبرج Lawsberj" يرى أنّ البلاغة نظام له بنية من الأشكال التصورية واللغوية يصلح لإحداث التأثير الذي ينشده المتكلم في موقف محدّد، فإنّ "ليش U.Leich" يرى أنّ البلاغة تداولية في صميمها؛ إذ إنها ممارسة الاتّصال بين المتكلم والسامع، بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وساطة محدّدة للتأثير على بعضهما¹، لكنّ "أبا هلال" لا يتوقّف عند هذا الحدّ، لذلك ربط البلاغة بالمعرض الحسن و الصورة المقبولة؛ فما يحيل عليه لفظ "المعرض" فهو الشكل اللغوي الذي يتجلّى منه الكلام المنجز، أما كلمة "الصورة" فتدل على الفكرة التي يريد المتكلم تبليغها، و الغاية التي تريدها البلاغة عموماً هي إيصال تصوّر كما هو في ذهن المتكلم إلى المتلقّي؛ ف"العسكري" ربط البلاغة بالكلام المنجز البليغ الذي يحرز المنفعة المقصودة، و هذا هو بالضبط ما أصطلح عليه "الفعل الكلامي".

1. الفعل الكلامي أو الأداء الكلامي و المعاني النفسية:

نستطيع أن نقول أن "العسكري" استطاع أن يحاول الإمام بالكلام المنجز من أوله أي من الأداء النفسي إلى غاية الانجاز، و تحقيق غايته و الوصول بالقصد و التأثير في الطرف الآخر، وذلك مستنبط من قوله: « إذا أردت أن تصنع كلاماً فأخطر معانيه ببالك، وتنوّق له كرائم اللفظ، واجعلها على ذكر منك، ليقرب عليك تناولها، ولا يتعبك تطبّها»²، و كذا قوله في صناعة وإنشاء الشعر: « و إذا أردت أن تعمل شعراً فأحضر المعاني التي تريد نظمها فكرك،

¹ سعيد حسن بحيرى، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، القاهرة مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط1، 2004، ص: 23

² - العسكري، الصناعتين، ص: 151.

وأخطرها على قلبك، واطلب لها وزناً بتأني فيه إيرادها وقافيةً يحتملها، فمن المعاني ما تتمكّن من نظمه في قافية ولا تتمكّن منه في أخرى، أو تكون في هذه أقرب طريقاً وأيسر كلفة منه في تلك»¹.

إذن؛ تنبه "العسكري" إلى ربط الكلام بالمعنى النفسي، حيث يخرج هذا المعنى إلى الإنجاز بفعل العلاقات بين كلمات و ألفاظ مختارة في القول، لتصبح بذلك أفعالاً كلامية مرتبطة بالمعنى النفسي، وكأنها تنطلق من الداخل بحمولة قصدية تنجز من خلالها مختلف الأغراض التي تقع في القول، أي أن الكلام عند "العسكري" عبارة عن عمليات ذهنية التي يمر بها القول من أجل الوصول إلى مستوى الإنجاز والأداء؛ ففعل المتكلم يقع من جهة المعنى وليس من جهة اللفظ، أي أن الأفعال التي تنطلق من النفس، ولربما هذا ما يطلق عليه "خالد ميلاد" بأفعال المتكلم النفسية، والتي شرحها بقوله: «... ومحصل معنى الكلام النفسي لديهم أن من يريد أن يأمر أو يخبر أو يستخبر أو ينادي يجد في نفسه قبل التلفظ معناها، ثم يعبر عنه بلفظ أو كتابة أو إشارة، وذلك المعنى هو الكلام النفسي وما يعبر به هو الكلام اللفظي»²، أي أن يختار ألفاظ معينة و الأفضل أحسنها بمقاييسه، ثم جعلها في معرض حسن وصورة مقبولة، ليصل لتحقيق هاته الأفعال و المنفعية من الخطاب ككل، ويظهر ذلك جلياً من خلال تحليله لبعض النماذج الخطابية.

و ينبغي الإشارة هنا إلى أن هذا النشاط الاتصالي يقوى في بعض الأوقات دون أخرى، لذلك يستحسن تحديد زمن الإبداع؛ و«هو زمن نفسي أكثر منه زماً كرونولوجياً، إذ يرتبط بالاستعداد الذي يتهيأ للنفس عند الرغبة الإنشاء، فإذا حضر النشاط وجب إجراء»³، وما على

¹ - المصدر السابق، ص: 157.

² - خالد ميلاد، الإنشاء في العربية، الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة دراسة نحوية تداولية، ط1، المؤسسة العربية للتوزيع، 2000، هامش، ص: 208 .

³ - الحبيب مونسي، نظرية الكتابة في النقد العربي القديم، ص: 96.

المرسل إلا أن يشغل هذا الزمن ويبدع فيه، لأنه يكون فيه مؤهل أكثر من أي زمن آخر للإصابة في كل مقتضيات العملية الإبلاغية.

وفي ما يخص الجانب النفسي للمرسل نجد أن "العسكري" - في مكان آخر من كتابه - قد طرح أفكاراً رائدة في كيفية الإبداع و إنتاج الرسالة اللغوية أيا كان نوعها؛ تقارب تحليل العلماء في العصر الحديث لمفهوم الإبداع، فالمراحل التي تتم فيها عملية الإبداع بصورها المختلفة تكاد تكون واحدة، و ذلك ما توصلت إليه الباحثة "كاثرين باتريك"؛ إذ ترى أن فكر المبدع يمر بالمراحل الأربع التالية:

1- الأولى: الاستعداد أو التأهب حيث تتجمع لدى الفنان بضع أفكار وتداعيات، ولكنه لا يسيطر عليها فهي تعبر بسرعة.

2- الثانية: مرحلة الإفراخ، إذ تبرز فكرة عامة أو (حال شعري) وتكرر نفسها بطريقة لا إرادية من حين لآخر.

3- الثالثة: تتبلور الفكرة التي برزت. و الرابعة: تتسج هذه الفكرة وتُفصّل¹.

بالعودة للعمل الإبداعي أو الخطاب إبان إنتاجه، تقف على قائمة من الاختيارات يجب على المتكلم أو المرسل مراعاتها قبل الشروع في العمل و أثناء قيامه به، وتتخلص فيما يلي: اختيار اللحظة المناسبة التي تنشط فيها وجدان المتكلم حيث لا يتسلط عليه الملل والضجر، يليه اختيار المعاني المجردة في الذهن، وهذه المعاني تكون على هيئة أفكار نثرية، وإن كان شعراً فإنه يصاحبها البحر العروضي المناسب، و من ثم اختيار القافية المناسبة والمواتية، وبعد هذه السلسلة تأتي لحظة الصياغة كتمازج بين العقل و الوجدان، فالنظر في معنى العقلي المجرد وترديده على النفس يصاحبه انبعاث للجمل الشعرية في الوجدان، فتكوّن الجمل ذات صياغة وشكل جديد.

¹ - ينظر: مصطفى سوييف، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، دار المعارف، مصر، 1951، ص: 273.

إلا أنه ينبغي على المرسل متابعة لحظة الانبعاث أولاً بأول، لأن التلكؤ ومحاولة تنقيح الجمل يقطع هذه العملية، كذا الإسراع فيها يفسد العمل، إلا أن "العسكري" يرى أن يرضى بما يوجد به الخاطر لأول وهلة « فإذا مررت بلفظ حسن أخذت برقيبته، أو معنى بديع تعلقت بذيله، وتحذر أن يسبقك فإنه إن سبقك تعبت في تتبعه، ونصبت في تطلبه (...)» وينبغي لصانع الكلام أن لا يتقدم الكلام تقدماً، ولا يتتبع ذناباه تتبّعاً، ولا يحمل على لسانه حملاً... فإنه إن تقدّم الكلام لم يتبعه خفيفه و هزيله و أعجفه والشارد منه (...) دخلت مساويه في محاسنه... ولكنه يجري معه فلا تتدّ عنه نادة معجبة سمنا إلا كبجها، ولا تتخلف عنه مثقلة هزيلة إلا أرهاقها، فطوراً يفرّقه ليختار أحسنه، وطوراً يجمعه ليقرب عليه خطوة الفكر، ويتناول اللفظ من تحت لسانه، ولا يسلط الملل على قلبه ولا الإكثار على فكره، فيأخذ عفوه، ويستغزر درّه»¹.

وبالتالي نستنتج أن عملية الإبداع الفني أو إنتاج خطاب مميز ليست عملية مفاجئة بالنسبة للشاعر، بل يكون المبدع (وهو متكلم من نوع خاص) مستعداً لها نفسياً وذهنياً بطريقة شعورية أو لا شعورية، وفيما يقارب هذا المعنى يرى بعض الباحثين أن التفكير الطويل في موضوع ما ومنحه فرصة للنضج الذهني قد ينتهي عند أكثر الباحثين والمبدعين بالإلهامات وحلول مفاجئة، وكأن ثمة ناحية في العقل تعمل في الخفاء أو على هامش الفكر، وت حمل إلى الذهن الواعي نتيجة عملها في أوقات مختلفة تسمى حالات الإلهام²، ومن الواضح أن لحظة الإبداع لا تخلو من اختيارات سريعة، عبر التنقل بين المعاني والألفاظ التي تتبع بسرعة، فهي عملية ملاحقة واختيار، ثم يعقب هذه العملية عملية التقويم والتعديل، وهي عملية اختيارية طويلة، تخص اللفظ المفرد، والتركيب والمعنى والتنظيم وترتيب الأبيات ومراعاة الفصل والوصل والخروج، فالمراجعة التي يقوم بها المبدع لعمله معناها أن عملية الإنشاء تظل إلا بعد

¹ - العسكري، الصناعتين، ص: 152-153.

² - ينظر: جهاد المجالي، الإلهام والإبداع الشعري في الشعر، مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، م 18، ع1، 1991، ص:

أن يتم العمل ولا بد أن تؤثر اللغة والأسلوب والنوع الأدبي في تشكيل الفكرة، كما تؤثر الفكرة في تشكيلها جميعاً¹.

وإذا ما رحنا لـ "ابن الأثير" وبحثنا عن تصور هلقضية الأفعال الكلامية والقول المنجز، نعود لنرى رؤيته لكيفية تشكل الخطاب، وذلك من خلال قوله: «اعلم أنه يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه إلى ثلاثة أشياء: الأول منها: اختيار الألفاظ المفردة وحكم ذلك اللآلئ المبددة، فإنها تتخير وتنقي قبل النظم، الثاني: نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها، لئلا يجيء الكلام قلقاً نافرماً عن مواضعه، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منها بأختها المشاكلة لها، الثالث: الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه وحكم ذلك الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم فتارةً يجعل إكليلاً على الرأس وتارةً يجعل قلادة في العنق وتارةً يجعل شنفاً في الأذن ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه»؛ أي أنه بداية يقوم **الذهن** المنتج على اختيار الألفاظ من بين عدة احتمالات، ثم يضعها على محور التأليف في شكل سلسلة كلامية دالة، تربطها مع ما جاورها من الكلمات علاقات معينة، ضمن مقام وسياق معين، تعكس **القصد** أو المقصد من الخطاب.

2. الفعل الكلامي معاييره وشروطه:

حاول الباحثون المحدثون التأصيل للأفعال الكلامية في التراث العربي-كما سبق وأن أشرنا- وقد ربطوا بين ظاهرة الخبر و الإنشاء في البلاغة العربية وبين "الأفعال الكلامية"، وقد فصلوا في ذلك منها بحوث "هاشم الطبطبائي"، وكذا مجهودات "مسعود صحراوي"، ومنهم كثير؛ وإن كان موقفنا الحالي لا يسمح لنا بالتفصيل في هذا فما يهمنا هنا التركيز على كل من "العسكري" و"ابن الأثير"؛ لكن لا بأس سنحاول في إطلالة سريعة الإشارة إلى هذا الموضوع، فهذا الطرح المتعلق بتقسيم الخبر والإنشاء عند البلاغيين العرب، لا يختلف عن الفكرة التي

¹ - ينظر: شكري محمد عياد، دائرة الإبداع، دار إلباس العصرية، د ط، دنط، ص:60.

استند إليها "أوستين" في مجال نظرية أفعال الكلام" حيث ثار على آراء الوضعيين، وميز بين نوعين من الأفعال التقريرية و الإنجازية، من حيث درجة تحققها في الخارج وموقف المتكلم¹. يقول "أحمد المتوكل" في هذا الصدد: «من المعلوم أن الفكر اللغوي العربي القديم يتضمن ثنائية (الخبر/الإنشاء) التي تشبه إلى حد بعيد الثنائية الأوستينية(الوصف/الإنجاز)، كما يدل على ذلك تعريف القدماء للخبر والإنشاء»². ومن بين المعايير التي اعتمدها البلاغيون العرب في التمييز والفصل بين الخبر والإنشاء ما يلي³:

- معيار قبول الصدق والكذب: ويحظى هذا التمييز بالإجماع بينهم، على أساس أن الخبر هو ما يقبل الصدق أو الكذب، والإنشاء ما لا يقبل هذا المعيار.
- معيار مطابقة النسبة الخارجية: فالخبر هو الكلام التام المفيد الذي يحوي في طياته على معطيات تمت بصلة وثيقة بالنسب الخارجية، وهو ما لا نجده ماثلا في ثنانيا الإنشاء.
- معيار إيجاد النسبة الخارجية: فإذا كان القصد من الكلام يفيد أن هناك دلالة حصلت في الواقع، فذلك الكلام خبر، وإن كان القصد منه (الكلام) الدلالة على أن الألفاظ المتكلم بها وُجدت بها تلك النسبة الخارجية فهو إنشاء.
- معيار قصد المتكلم: اعتبر عدة بلاغيين عرب أن قصد المتكلم من القرائن المساعدة التي يتم التمييز بفصلها بين الخبر والإنشاء، فإذا كان قصد المتكلم الإخبار فيصبح الأسلوب حينذاك خبريا، وإذا كان قصد المتكلم إيجاد النسبة الخارجية فهو إنشاء.

¹ - خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، مرجع سابق، ص: 201 .

² - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية، مرجع سابق، ص: 37 .

³ - ينظر: علي محمود جحي الصراف، في البراجماتية، الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، دراسة دلالية ومعجم سياقي، مكتبة الآداب، ط1، القاهرة 2010 ، ص: 101 .

-معيار عدد النسب: إذا اعتبر نفر غير قليل من البلاغيين العرب أن للخبر ثلاث نسب (نسب كلامية، نسبة ذهنية، ونسبة خارجية)، أما الإنشاء فينطوي على نسبتان فقط وهي الكلامية والذهنية.

وكل هذه الاعتبارات والمعايير كما نرى، تتحوا نحو المسار التداولي الاستعمالي القائم على مبادئ تداولية واضحة، أهمها النسب الخارجية و مبدأ القصدية الذي شكل محور نظرية أفعال الكلام عند كل من "أوستين" و "سيرل"، على أساس أن الفعل الكلامي وبعد قصدي، كما أن نجاحه محكوم بمعطيات وشروط خارجية عن النسق التركيبي.

كما يمكن الاعتبار أن أضرب الخبر الثلاثة: (الابتدائي و الطلبي والإنكاري) تنتمي إلى الإخباريات « التي تشمل الأفعال التي تصف الوقائع والأحداث في العلم الخارجي، وتنقل أحوالها نقلاً أميناً»¹، وفي الاتجاه المقابل، يمكن اعتبار أن الإنشاء بقسميه: الطلبي وغير الطلبي إنما يندرج تحت الإعلانات والتوجيهيات والإلتزاميات والتعبيريات².

فضلاً عن هذه الجهود المركزة حول الخبر والإنشاء ومعايير تصنيفهما؛ عكف البلاغيون العرب على تفصيل الأغراض البلاغية التي تخرج إليها الأساليب الخبرية والإنشائية، فقد يخرج الخبر إلى الإنشاء وأغراض أخرى تستشف من قصود المتكلم وأحوال السياق حيث اعتبروا أن « معرفة المعاني الأصلية لكل أسلوب، وما تخرج إليه من أغراض بلاغية تدرك من السياق»³، وعليه لابد من توافر تخمينات و استدلالات عقلية قائمة على معطيات قصدية وسياقية (لدى المتلقي) لفك شفرات الصياغات اللغوية والوصول إلى بر التأويل المناسب لما قيل أو يقال.

¹ - خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص: 214 .

² - ينظر: علي محمود حجي الصراف، في البراجماتية، الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص: 102 .

³ - بدوي طبانة، البيان العربي، دار المنار، جدة ودار الراجعي، الرياض، 7، 1998، ص: 155.

وليفضح هذا التقارب بين الفكر الغربي والعربي - والمتمثل في تصور عالمنا الجليلين وطرحهما البلاغي والنقدي - أكثر ينبغي الإشارة إلى أنّ التحليل اللغوي الذي اعتمده "أوستين" في اكتشاف الأفعال الكلامية وتصنيفها؛ يقوم على دعامتين منهجيتين أساسيتين¹:

أ- **القصدية**؛ وشكّلت الأساس الذي انبنت عليه نظرية الأفعال الكلامية، وتتجلى انطلاقاً من الربط بين العبارات اللغوية وغرض المتكلم أو مقصده من الفعل الكلامي؛ إذ «يجب أن ينظر إلى الإنجاز بوصفه جانبا قسديا لفعل كلامي في سياق الموقف الكلي البراجماتي التواصلي (السياق البراجماتي-التواصلي)»²؛ فكل فعل كلامي يقوم على قصد معين وله تأثير ودور في ضبط القوة الإنجازية المرادة.

ولكن ترتبط هذه القصدية بالحال الذي يتشكل فيه الفعل الكلامي؛ فعن طريقه يتبين للمنطوق الواحد مثل: "لا تأت"؛ هل يقصد المتكلم النهي فقط، أم التهديد، أم التحذير، أم غير ذلك من المقاصد التي لا تتكشف إلا باعتماد معطيات الحال ككل في تعيين القوة الإنجازية؛ فالفعل الكلامي لا يكون موقفاً إلا إذا حقّق مقصده، ويتجلى في المقام الأول من التغيرات الحاصلة في المخاطب ذاته، وهو يتطلّب من المخاطب أو المتكلم القدرة على الملاءمة بين التركيب اللغوي والغاية منه، ويستدعي منه هذا الأمر العلم بمقاصد القول حتى يوفّق في تحقيق الأغراض المطلوبة.

نستنتج من ذلك أنه لا يمكن أن يتم الاتصال اللغوي بدون غرض معيّن، وقد ذكر "العسكري" أنّ صنعة المتكلم لا تكتمل من دون تحقيق الغايات التي يبتغيها، ولهذا ظلّ يربط في مواطن كثيرة بين أشكال الكلام و أغراضه، باعتبار أنّ بلاغة الكلام تقتضي تحقيق غرض المتكلم، فهي « قبل كل شيء عتاد بنائي وتبليغي يتوسّله الخطيب أو القائل عموماً لغرض موضوعه أو رأيه أو

¹ - ينظر: مسعود صحراوي، الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي، ص: 69 .

² - زتسيسلاف واورزنيك، مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، ترجمة سعيد حسن بحيري، ص: 21- 22.

قناعته، ولأجل كسب التأييد الآخر أو التأثير فيه»¹، فلا يشكّل المتصل خطابه إلا من أجل غاية معينة، تملئها مقصدية، يقول "العسكري": «لا خير فيما أُجيد لفظه إذا سَخَفَ معناه، ولا في غرابة المعنى إلا إذا شرف لفظه مع وضوح المغزى، وظهور المقصد»².

كما يرى أنّ الاتصال لا يبني إلا من أجل أن «يجلي عن المغزى أي يوضّح مقصدك، ويبين للسامع عن مرادك، ينهي عن التعمية و الإغلاق»³؛ فمن عوامل نجاح الإبلاغ إيراد التشكيل اللغوي الذي يعبر عن مراد المتكلم من جهة، ويدركه المتلقي من جهة أخرى، ومنه تتحقّق فعالية العملية الاتصالية.

فإذا ما حاولنا أن نتوجه بالمقصدية نحو منطلقها التداولي فإننا نلاحظ أنها ترتبط بثلاثة أنماط أساسية، لها صلة مباشرة بالمتكلم، وهي "الإفهام، والإقناع، والتأثير والإمتاع"⁴، وهذا ما أشار إليه "أبو هلال" في مواضع كثيرة، من ذلك ما أورده في حدّ الاستعارة؛ إذ يقول: «الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض؛ وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه»⁵.

و قد تنبه "ابن الأثير" لهذه القضية (أي القصدية) من خلال تحديده لمفهوم البلاغة؛ بقوله: «يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه إلى ثلاثة أشياء: الأول منها: اختيار الألفاظ المفردة وحكم ذلك اللآلئ المبددة فإنها تتخير وتنقي قبل النظم الثاني: نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها، لئلا يجيء الكلام قلقاً نافرماً عن مواضعه، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منها بأختها المشاكلة لها، الثالث: الغرض المقصود من ذلك الكلام على

¹ - حسن أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي عناصر استقصاء نظري، مجلة عالم الفكر، المجلد 30، سبتمبر 2001، ص: 110.

² - العسكري، الصناعتين، ص: 75.

³ - المصدر نفسه، ص: 54.

⁴ - هنريش بليت، البلاغة والأسلوبية، ترجمة محمد العمري، ص: 110.

⁵ - العسكري، الصناعتين، ص: 274.

اختلاف أنواعه، وحكم ذلك الموضوع الذي يوضع فيه العقد المنظوم، فتارةً يجعل إكليلاً على الرأس، وتارةً يجعل قلادة في العنق، وتارةً يجعل شنفاً في الأذن، ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه»¹.

ثم يضيف: «فهذه ثلاثة أشياء لا بد للخطيب والشاعر من العناية بها، وهي الأصل المعتمد عليه في تأليف الكلام من النظم والنثر، فالأول والثاني من هذه الثلاثة المذكورة، هما المراد بالفصاحة، والثالثة بجملتها هي المراد بالبلاغة»².

ب- السياق العام بأنواعه؛ أي السياق الذي يجري فيه القول؛ بكل معطياته الثقافية والاجتماعية والنفسية وقد قرر "أوستين Austin" أن الأقوال تنتج ضمن سياقات محددة، فتضحى دلالاتها جزء لا يتجزأ من هذه السياقات.

و هذا يقارب قول "العسكري" إذ يرى أن تقديم المعاني في الاتّصال اللغوي يقتضي الموافقة للمقام الذي تصاغ فيه، إذ يقول: «ينبغي أن تعرف أقدار المعاني، فتوازن بينها وبين أقدار الحالات، فتجعل لكل طبقة كلاماً، ولكل حال مقاماً، حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات»³.

بالنسبة لـ"ابن الأثير" فقد لاحظنا في فصل سابق كيف حاول أن يربط بين أقوال معينة ومواقف وسياقات معينة موافقة لها؛ إذ يرى مثلاً ضرورة مراعاة حال المتلقي النفسية في اختيار مطالع بعض القصائد.

يمكننا ملاحظة شرط آخر من شروط التي وضعها "أوستين" وهو "عدم مخالفة العرف"، يذكر "أبو هلال" أن الاتّصال الناجح ما كان موافقاً للعرف في الاستعمال اللغوي، والذي يسهم في رسم المعقولية في الكلام فمن عيوب المعنى مخالفة «العرف»، وذكر ما ليس في العادة، كقول المرار:

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص:163.

² - المصدر نفسه، ن ص.

³ - العسكري، الصناعتين، ص:153.

وَحَالَ عَلَى خَدِّكَ يَبْدُو كَأَنَّهُ سَنَا الْبَدْرِ فِي دَعْبَاءَ بَادٍ دُجُونَهَا

والمعروف أنّ الخيلان سود أو سمر، والخدود الحسان إنّما هي البيض، فأتى هذا الشاعر بقلب المعنى¹؛ فصناعة الكلام تُلزم المنشئ المخاطبة بما هو متّفق عليه في العرف لدى الجماعة اللغوية المعيّنة؛ حتى يتمكّن المتلقّي من الوقوف على المقصد الذي يريده الباث، ومنه نلاحظ أنّ اللاعقلي عديم الفائدة، وهي أحد شروط التداولية².

ويطابق هذا الطرح في بيان وظيفة الكلام «المفهوم الخاص بنظرية الفعل الكلامي للفعل الإنجازي؛ إذ تربط فيه الجانب المقصدي بالجانب العرفي لأفعال لغوية بعضها ببعض على نحو مماثل»³.

فالفعل الإنجازي فعل عرفي قائم على الاتفاق و المواضعة، يقول "أوستين": «يجب أن نلاحظ أنّ قوة فعل الكلام هي فعل اتفاقي منبني على التواطؤ و المواضعة؛ إنه فعل مؤدى ومنجز طبقا للتواضع»⁴؛ فكما أنه للفعل القولي أعراف مضبوطة في صياغته وترتيب عناصره، كذلك الأمر بالنسبة للفعل الإنجازي؛ إذ له أعرافه الشائعة في الجماعة اللغوية المعيّنة، عن طريقها «ننجز أيضا قوى" أفعال كلامية Illocutionary acts" كالإخبار أو إصدار الأمر أو التحذير أو مباشرة الأمور وغير ذلك، أعني ضروب العبارات التي لها صفة المواضعة وقوته وقيمتها»⁵. فهذه العرفية تنظم علاقات المتكلم بالمتلقي حتى تتحقق الإنجازية المقصودة، باعتبار أن كل

¹ - العسكري، الصناعتين، ص: 112.

² - اللغة ودلالاتها تقريب تداولي للمصطلح البلاغي، محمد سويرتي، مجلة عالم الفكر، المجلد 28، العدد الثالث، يناير/مارس 2000، ص: 39.

³ - كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، ترجمة سعيد حسن بحيري، القاهرة مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط 2005، ص: 122.

⁴ - أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة- كيف ننجز الأشياء بالكلام، ص: 136.

⁵ - أوستين، المصدر نفسه، ص: 141.

إنجاز يقوم على عرف يفصح عنه؛ وهي شرط أساسي لكي «يستطيع المتكلم أن يفهم السامع بمنطوق محدد، ماذا يريد منه»¹.

و في نفس المجال يقول "ابن الأثير": «واعلم أن من المعاني ما يعبر عنه بالألفاظ متعددة ويكون المعنى المندرج تحتها واحدا فمن تلك الألفاظ ما يليق استعماله بالمدح ومنها ما يليق استعماله بالذم ولو كان هذا الأمر يرجع إلى المعنى فقط لكانت جميع الألفاظ الدالة عليه سواء في الاستعمال وإنما يرجع في ذلك إلى العرف دون الأصل»².

ثم يورد مثالا يوضح فيه وجهة نظره، ويقول: «هل يجوز أن يخاطب الملك فيقال له: وحق دماغك قياسا على وحق رأسك وهذا يرجع إلى أدب النفس دون أدب الدرس»³.

أ. الأمر و النهي وشروطهما التداولية:

ينبغي التنويه و قبل التفصيل في هاذين الفعلين الكلاميين؛ إلى أن كلا من "العسكري" و"ابن الأثير" لم يتعرض لظاهرة الخبر و الإنشاء لأنه مثلا "العسكري" تقريبا يمثل البدايات الأولى للبلاغة فلم تتضح بعد هذه التقسيمات، أيضا "ابن الأثير" لم يتعرض لهذه القضية بحكم أنه لم يقسم البلاغة إلى أقسامها الثلاثة المتعارف عليها- كما سبق وأن أشرنا-، لذا سنحاول الآن محاولة استقراء لما في الكتابين في محاولة لإعطاء بعض أنواع الأفعال الكلامية ضمن تقسيمات كل من "أوستين" و"سيرل".

ولعلنا نخرج قليلا لـ"ابن الأثير" لنرى كيف تناول كلا من ظاهرتي أو أسلوبَي الخبر والإنشاء، فالمعلوم أن في فترته قد تم اعتماد تقسيمات البلاغة وتخصيص "علم المعاني" بدراسة الظاهرتين المذكورتين، بالنسبة لتناوله للأسلوب الخبري ما يلاحظ في كتابه أنه لم

¹- كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، ترجمة د.سعيد حسن بحيرى، ص: 111 .

²- ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص:190.

³-المصدر نفسه، ن ص.

يخصص له فصلا للدراسة وإنما ذكره تحت عناوين متفرقة ولم بفصل في حقيقة الإسناد، وإنما درست تحت عنوان "الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية والفرق بينهما"، كما أنه لم يبسط القول في ركني الإسناد؛ أي المسند و المسند إليه، وإنما تناول مباشرة الجملة و أضرب الخبر وأيهما أكد وأبلغ؛ إذ هذا الطرح الفرق بين هذه الأضرب الثلاث يكمن فيما سمّاه "سيرل" درجة الشدة للغرض المتضمن في القول، ونذكر مثالا ل ابن الأثير " نوضح هذا بقوله: « وإنما يعدل عن أحد الخطابين إلى الآخر لضرب التأكيد والمبالغة. فمن ذلك قولنا: قام زيد، وإن زيدا قائم، فقولنا: " قام زيد " معناه الإخبار عن زيد بالقيام، وقولنا: " إن زيد قائم " معناه الإخبار عن زيد بالقيام أيضا إلا أن في الثاني زيادة ليست في الأول، و هي توكيده بأنّ المشددة التي من شأنها الإثبات لما يأتي بعدها وإذا زيد في خبرها اللام ، فقيل: إن زيدا لقائم كان ذلك أكثر توكيدا في الإخبار بقيامه وهذا مثال ينبني عليه أمثلة كثيرة من غير هذا النوع»¹.

في حين تعرض "ابن الأثير" للأسلوب الإنشائي أثناء كلامه عن التقديم والتأخير؛ فتناول أداة واحدة وهي "الهمزة"، وبيّن الغرض من استخداماتها².

أما فيما يخص إسهامات "أوستين" في هذه القضية؛ أي قضية الأفعال الكلامية؛ نجد تقسيمه للمفوضات إلى قسمين:

أ. "المفوضات التقريرية Enoncé constatives"؛ وانطلق من مسلّمة مفادها أنه «بما

أنّ كلّ القضايا الصادقة منها والكاذبة ليست كلها دالة على الوصف، فقد عدل عن لفظ

الوصف و اختار بدله ألفاظا تقريرية، و التي تتحصر وظيفتها في وصف الحوادث»³.

ب. المفوضات الإنجازية Enoncés performatives": وه ي على حدّ تعبير "أوستين"

لا تحتل الكذب أو الصدق، وإنما هي ملفوضات تنجز شيئا ما ، قد تكون وعدا أو أمرا أو

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص:234.

² - ينظر: عبد الواحد حسن الشيخ، دراسات في بلاغة عند ضياء الدين ابن الأثير، مؤسسة شباب الجامعة للطبع والنشر والتوزيع، الاسكندرية، 1986، ص ص: 101-106.

³ - علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، المغرب، دار الثقافة (د.ت)، ص:63.

تهديداً، وأصطلح عليه هذا المصطلح لأنّ « الفعل هو وظيفة التلقّظ، وليس نتيجة من نتائجه فقط»¹.

وبناء على أساس مشابه رأى "العسكري" ضرورة أنّ يعتمد الاتّصال الكتابي بين السلطان ورعيته على **الملفوظات الإنجازية** بمصطلح تداولي، بما أن المتكلم في منزلة أعلى من المتلقي، والتي من شأنها أن توصل المعنى المقصود إلى قلب السامع، فيجني الفائدة، ويحقق **أفعال تأثيرية** - إن صح التعبير - في المتلقي التي تتمثل في الخضوع لأمر السلطان، أو الاقتناع بوعوده على حسب المقصد.

وقد حاول "أوستين" ضبط معايير لتحديد الجملة الإنشائية، وقد توصل إلى معيارين أساسيين يكفي كل منهما على حدة؛ وهما:

-المعيار الأول: اشتمال الجملة على فعل بصيغة المضارع المعلوم للمتكلّم المفرد، في مقابل ما اشتملت على فعل بصيغة أخرى، مثل " فأعدك بكذا"؛ فالجملة إنشائية، أما في " لقد وعدوك بكذا " التي هي لغير المتكلّم المفرد، وكذلك " وعدتك بكذا " التي هي لغير المضارع، فالجملتان تدلان على الخبرية لا الإنشائية.

-المعيار الثاني: اشتمال الجملة على فعل بصيغة المبني للمجهول، مع ضمير المخاطب أو الغائب، مثل " المسافرون منذرون بوجوب العبور بطريق الجسر فقط"، أو ما تشتمل عليه الوثائق من القول: " بموجب هذا أنت مفوض بكذا"، فهذان معياران صريحان، لكن مع ذلك قد تخلو منها بعض الجمل الإنشائية؛ مثل قولك: "أغلق الباب"².

و لربما هذا ما نجده عند " العسكري " حينما طالب الكاتب « بأن يعرف مقدار المكتوب " هذا أدام الله عزك" بعد أن تفرّق بين من تكتب إليه " فإن رأيت"، وبين من تكتب إليه " فرأيك"،

¹ -علي آيت أوشان، المرجع السابق، ص:64.

² - بن يمينة سامية، الاتصال اللساني وآلياته التداولية في كتاب الصناعتين، ص:52.

وأن تعرف مقدار المكتوب إليه من الرؤساء والنظرء والغلمان والوكلاء»¹ ، ويمكن أن نوضح أكثر ما قاله " أبو هلال " و" أوستين" مما يلي:

-اشتمال الجملة على فعل بصيغة المضارع المعلوم للمتكلم المفرد: " أعدك بكذا" ، هي جملة إنشائية عند " أوستين".

-اشتمال الجملة على فعل بصيغة الماضي للمعلوم " فإن رأيت"؛ جملة إنشائية لدى "العسكري".

وتتضح هذه القضية أكثر مع ما ذكره " سيرل Searle " وذلك أثناء تحليله للفعل الكلامي المتضمن في القول ونمطه الإنجازي، بحكم أنّ الأفعال المتضمنة في القول تستدعي نمطا خاصا، أو طريقة معيّنة، تميّزها ظروف تساهم في تحقيق الغرض؛ ف«المتكلم الذي يصدر أمرا إداريا رسميا من موقع السلطة يفعل شيئا أزيد مما يفعله المتكلم الذي يصدر طلبا عاديا . فالقولان يحققان غرضا متضمنا في القول واحدا، لكن الأمر الإداري الرسمي يحقق غرضه باستناد المتكلم إلى موقع السلطة التي يتمتع بها»².

ونجد أن "العسكري" حاول التفصيل فيما يخص الاتصال الكتابي، الذي يتم بين السلطان وهو أرفع درجة من المتلقين ويمثلهم الرعية؛ وذلك لتحقيق أفعال كلامية؛ مثل: الأمر والنهي، إذ يقول: « ذلك مثل ما يكتب عن السلطان في أمر الأموال وجبايتها واستخراجها، فسبيل الكلام أن يقدم فيها ذكر ما رآه السلطان في ذلك ودبره، ثم يعقب بذكر الأمر بامتناله ، ولا يقتصر على ذلك حتى يؤكد ويكرّر لتأكد الحجة على المأمور به، ويحدّر مع ذلك من الإخلال والتقصير، ومنها الإحماد والإذم والثناء والتفريط، والذم والاستصغار، والعدل والتوبيخ، وسبيل ذلك أن تشبع الكلام فيه، ويمد القول حسب ما يقتضيه آثار المكتوب إليه في الإحسان والإساءة والاجتهاد والتقصير، ليرتاح بذلك قلب المطيع ، وينبسط أمله ، ويرتاح قلب المسئ وبأخذ نفسه بالارتداع»³.

¹ - العسكري، الصناعتين، ص: 175.

² - الططبائي، نظرية الأفعال الكلامية بين الفلاسفة المعاصرين والبلاغيين العرب، مرجع سابق، ص: 18 .

³ - العسكري، الصناعتين، ص: 173.

كما اشترط أيضا حينما يكون المرسل هو السلطان في الأمر والنهي؛ أن يكون اتّصاله كالتوقيع؛ أي أن يكون فعله الكلامي - بالمصطلح التداولي - يقتضي إفادة المخاطب بما يجعله ينجزه في الآن نفسه، وبالتالي تتحقّق المقصدية، ويتحقّق الفعل التأثيري إذ يتمثل في الامتثال للأمر أو التوقف عن الأمر المنهي عنه.

وتفصيلاته ونصائحه هاته المعايير التي وضعها للخطاب الكتابي بين السلطان والرعية، فيما يخص الأمر و النهي؛ تقارب المعايير التي وضعها " سيرل" للجملة الإنشائية ؛ إذ حاول التمييز بين¹ :

(1) الأمريات (الطلبات) "Des actives": و« هي الأفعال التي يكون الغرض منها أن يجعل المتكلم المخاطب يقوم بفعل ما، مثالها "طلب، أمر»²، كما بيّن أيضا أنّ « اتجاه المطابقة للغرض الوعدي هو من العالم إلى القول، والمسؤول عن إحداث المطابقة هو المخاطب»³، والحالة النفسية التي يعبر عنها في الأمريات هي الإرادة و الرغبة، والأمريات تخلق أسبابا للمخاطب؛ كي يؤدّي المطلوب منه⁴.

(2) البوحيات "Expressives": هي أن يعبر عن الحالة النفسية للمتكلم، وما قد يثيره من مشاعر إزاء المخاطب « والغرض من البوحيات ذات الصيغة ق (ض) هو التعبير عن موقف "Attitude" حيال الواقعة التي تعبر عنها القضية (ض) »⁵.

وينبغي الإشارة إلى أن " العسكري" حاول أن يقدّم فروقا بين الجمل الإنشائية، والمتمثلة في النهي والأمر و غيرها، والجمل الخبرية التي تتضمن الاعتذار والشكر والدعاء وغير ذلك، إلا أنه لم يفصل كثيرا فيها، فقد كان هدفه أن يرشد المتكلم إلى التقنيات التي تتعلّق بذلك، لهذا

¹ - Voir: John Searle, les actes de langage essai de philosophique du langage, collection avoir hermanen, p52.

² - عادل فاحوري، تيارات في السيمياء، بيروت دار الطليعة، ط1 1990 ، ص: 98.

³ - الطبطائي، نظرية الأفعال الكلامية بين الفلاسفة المعاصرين والبلاغيين العرب، ص: 31.

⁴ - ينظر: الطبطائي، المرجع نفسه، ص: 30 .

⁵ - الطبطائي، المرجع نفسه، ص: 32.

لما أشار إلى الأمر والنهي والاعتذار والشكر وغير ذلك حاول أن يبين أن كل مجال تحكمه و تظبطه تقنيات كتابية لها علاقة بالمرسل والمرسل إليه و المقصد.

ب. "الاعتذار" و"الاستعطاف" و شروطهما التداولية:

الملاحظ أن كل موضوع أو حدث كلامي - إن صح التعبير - يقوم على كيفية و معايير مضبوطة تساهم في ضبط الفعل الكلامي، ومن ذلك أن اشترط "العسكري" في مقام الشكر الاختصار في السياق الذي يستدعي ذلك، إذ يقول: «وسبيل ما يكتب به في باب الشكر أن لا يقع فيه إسهاب، فإن إسهاب التابع في الشكر إذا رجع إلى خصوصية نوع من الإبرام والتثقل»¹؛ ففي هذا المقام يحاول العامل أن يكتب ليعبر عن شكره للسلطان؛ في تخاطب من أدنى لأعلى درجة، إذ يشترط عدم التفریط في الشكر، لكي لا يصبح مبالغاً فيه، ولا يصل إلى مقصده المرجو، وبالتالي فالمتكلم يستعمل الأفعال اللغوية الدالة على "السيرة Conditifs" بحسب تصنيف "أوستين Austin".

إذ أدرك ضرورة موافقة الأفعال المنجزة للمقام لكي تحقق إنجازيتها، إذ يضيف فيما يخص مخاطبة من هم أعلى درجة، أن الكتابة للرؤساء تقتضي طريقة خاصة، فهم لا يرضون بمن يحاسبهم، أو من يظهر تقصيرهم؛ بل يحبذون من يجلهم و يحترم مكانتهم ومنزلتهم الراقية، مثلاً في "الاستعطاف" يقول: «وسبيل ما يكتب به التابع إلى المتبوع في معنى الاستعطاف ومسألة النظراء ألا يكثر من شكاية الحال ورقتها، واستيلاء الخصاصة عليه فيها، فإن ذلك يجمع إلى الإبرام والإضجار شكاية الرئيس لسوء حاله وقلة ظهور نعمته عليه. وهذا عند الرؤساء مكروه جداً، بل يجب أن يجعل الشكاية ممزوجة بالشكر والاعتراف بشمول النعمة وتوفير العائدة»².

¹-العسكري، الصناعتين، ص:173.

²- المصدر نفسه، ص: 174.

أما في الاعتذار فالاستعمال الكلامي يستدعي ضوابط خاصة أخرى، يقول: « وسبيل ما يكتب به في الاعتذار من شيء أن يتجنب فيه الإطناب والإسهاب إلى إيراد النكت التي يتوهم أنها مقنعة في إزالة الموجدة، ولا يمعن في تبرئة ساحته في الإساءة والتقصير، فإن ذلك مما يكره الرؤساء، والذي جرت به عادتهم الاعتراف من خدمهم وخولهم بالتقصير والتفريط في أداء حقوقهم وتأدية فروضهم، ليكون لهم فيما يعقبون ذلك من العفو والتجاوز موضع منة مستأنفة تستدعي شكراً، وعارفة مستجدة تقتضي نشرأ، فأما إذا بالغ المتصل في براءة ساحته من كل ما قذف به فلا موضع للإحسان إليه في إعفائه عن ترك السخط، بل ذلك أمر واجب له، وفي منع الرئيس حصته منه ظلم وإساءة¹؛ فطبيعة الاعتذار تستوجب من المعتذر أن يستعمل جملاً واضحة باستطاعتها أن تحقق غايتها، فيوظف الجمل التقريرية الخبرية الكفيلة بوصف الحقيقة كما عبر عن ذلك "أوستين" لأنها السبيل الأنجع لنجاح العملية الاتصالية .

وفي نفس المقام يضيف "العسكري"؛ وفي مخاطبة الرؤساء ومنهم أعلى درجة في الاتصال الكتابي؛ يرى أنه من الضروري معرفة مقدار المكتوب إليه من الرؤساء والنظرء والغلمان والوكلاء، ذلك متمثلاً في خطاب التابع والمتبوع؛ يقول: « فأما ما يكتبه العمال إلى الأمراء ومن فوقهم، فإن سبيل ما كان واقعا منها في إنهاء الأخبار وتقرير صور، وما يلونه من الأعمال، ويجري على أيديهم من صنوف الأموال، أن يمدّ القول فيه حتى يبلغ غاية الشفاء والإقناع، وتمام الشرح والاستقصاء² .

وقد ربط "العسكري" هذه العلاقة التابع و المتبوع مباشرة بالأثر؛ أو ما يعرف بـ "الفعل التأثيري" لهاته الأفعال الكلامية المكونة لهذا الحدث الكلامي، أي الأثر الذي تحدثه الرسالة في قلب السامع، ودرجة تقبله فيما يبديه من استحسان أو إساءة وغيرهما، وذكر أنه من الضروري أن « يمدّ القول حسب ما يقتضيه آثار المكتوب إليه في الإحسان والإساءة والاجتهاد والتقصير،

¹ - المصدر السابق، ص: 175.

² - المصدر نفسه، ص: 173.

ليرتاح بذلك قلب المطيع، وينبسط أمله، ويرتاع قلب المسيء، ويأخذ نفسه بالارتداع»¹؛ ف"العسكري" في التوضيحات التي ذكرها في الفصل المذكور انتقل من الفرضية إلى مقصدية الكاتب، وأثر الفعل الكلامي في المكتوب إليه، بحسب ما يقتضيه كل تشكيل لغوي ودلالته، أو بحسب ما تحتويه فصائل الأفعال الكلامية.

والتي سبق و أن قام "أوستين" بتجميعها ضمن خمس فصائل كبرى؛ هي:

1. الأفعال اللغوية الدالة على الحكم Verdictifs: مثل "قَدَّرَ وحكم على"، وعبر عنها

العسكري" أثناء تحدّثه عن العلاقة بين الرؤساء و رعيتهم، وذلك ضمن الرسائل الديوانية.

2. الأفعال اللغوية الدالة على الممارسة والتطبيق (Exercitifs): نحو "عين ونصح

وحذّر"، وغيرها من الأفعال².

3. الأفعال اللغوية الدالة على "الوعد"، مثل "وعد، كفل، التزم".

4. الأفعال اللغوية الدالة على "السيرة"، نحو "شكر، هنأ"، ووضعها هي ضبط سيرة

وسلوك المتعلّمين الاجتماعي³.

ومن خلال ما ذكرناه نلاحظ أن "العسكري" دائما ما يؤكد على ضرورة مراعاة المقام، و

توضيح ما يحدثه من تغيير في موضوع الرسالة، وهذا يثبت التوجه التداولي للفكر البلاغي عند

"العسكري"؛ إذ يعتبر هذا صميم اهتمامات التداولية، باعتبار أن المكوّن التداولي تدرج فيه

العلاقات التي تربط الدوال بمستعملها، وظروف استعمالها، وأثار ذلك على البنى اللغوية⁴،

وفي هذا الصدد يقترح محمد مفتاح "تحديدا إجرائيا للتداولية يتجلى في التأثير المتبادل بين

¹ - المصدر السابق، ن ص.

² - ينظر: أحمد عزوز، الأسس النظرية للسانيات التداولية وآلياتها الإجرائية على الخطاب التواصلي، ص: 12 .

³ - محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص، المغرب المركز الثقافي العربي، ط 3، 1992، ص: 138.

⁴ - ينظر: خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ اللسانيات، ص: 176 .

المرسل والمتلقي في حال حضور أو غياب باستعمال الأدلة اللغوية مع مطابقة مقتضى المقام والمقال¹.

3. الفعل التأثيري و إنجاز الفعل الكلامي:

من المسلمات التي لا يشوبها شك أنّ الأعمال الأدبية بأجناسها المتنوعة تنتج في وسط اجتماعي مشحون بأفكار وعواطف متباينة تلقي بآثرها على تلك الأعمال، وإذا عدّ السامع أو المتلقي أحد الأضلاع الرئيسية في مثلث العملية الإبداعية بعد المرسل والنص، فإنّ استجابتهما تتعلق في جانب منه بموضوع القصيدة، والفيلسوف الانجليزي "أوستين" يرى أنّ تلك الاستجابات لا تمثل إلا عنصرا أو أحد العناصر الثلاثة في تركيبية الفعل الكلامي، والفعل التأثيري عنده يقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في السامع أو المخاطب سواء أكان تأثيرا جسدياً أم فكرياً أم شعورياً، وقد أدرك "أوستين" أنّ الفعل التأثيري لا يلزم الأفعال جميعا فمنها لا تأثير له في السامع أو المخاطب.

فمثلا ردود الأفعال المرتقبة للقصائد أو الفعل التأثيري الذي تنتجه القصائد يتباين تبعاً للسياق فالأفعال الكلامية عموما أفعال سياقية، كما تتباين قوة الفعل التأثيري وكذا آليات ظهوره، إذ قد يظهر في شكل سلوك مادي، كالعطاء في المدح أو سلوك إجرائي كما هو الشأن مثلا مع "عمر بن الخطاب" و "الحطيئة"، الذي تحصل على عفو "عمر" انطلاقا من شعره.

وقد تظهر الأفعال التأثيرية بموازاة الفعل الإنجازي، كما قد تأخذ زمنا طويلا، فأشعار "عنتر بن شداد" التي سعى من خلالها للتحرر؛ والخروج من الانتماء المفترض لطبقة الشعراء الصعاليك إلى الانتماء إلى الشعراء الرسميين، لم يتم إلا بعد فترة زمنية طويلة.

ولنوضح ذلك نذكر ما جاء في المثل السائر " إذ ينتقد فيه قبح ابتداء "البحثري":

" فؤاد ملاه الحزن حتى تصدعا"

¹ - ينظر: محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص، ص: 138 .

فيرى " أن ابتداء المديح بمثل هذا طيرة ينبو عنها السمع وهو أجدر بان يكون ابتداء مرثية لا مديح " كما وقف أمام ابتداء إبراهيم الموصلي الذي يقول فيه مخاطبا المعتصم بعد أن فرغ من بناء قصره:

يا دار غيرك البلى ومحاك يا ليت شعري ما الذي أبلاك

وكان هذا في مجلس "فتغامز الناس على إسحاق بن إبراهيم كيف ذهب عليه مثل ذلك مع معرفته وطول خدمته للملوك، ثم أقاموا يومهم وانصرفوا، فما عاد منهم اثنان إلى ذلك المجلس، وخرج المعتصم إلى سر من رأى وخرّب القصر»¹.

وكثيرا ما يوجد في كتابينا وفي معظم كتبنا النقدية والبلاغية ، إذ ترفق الأبيات الشعرية أو التوقيعات أو بعض الخطب أو المكاتبات ردة فعل المتلقين ، والتي نستطيع أن نعتبرها كأفعال تأثيرية لردة فعل المتلقين.

أيضا حكاية يرويها "ابن الأثير"؛ يقول: «وذاك أنه جلس إلي في بعض الأيام جماعة من الإخوان وأخذوا في مفاوضة الأحاديث وانساق ذلك إلى ذكر غرائب الوقائع التي تقع في العالم فذكر كل من الجماعة شيئا فقال شخص منهم: إني كنت بالجزيرة العمرية في زمن الملك فلان وكنت إذ ذاك صبيا صغيرا فاجتمعت أنا ونفر من الصبيان في الحارة الفلانية وصعدنا إلى سطح طاحون لبني فلان وأخذنا نلعب على السطح فوق صبي منا إلى أرض الطاحون فوطئه بغل من بغال الطاحون فخفنا أن يكون أذاه فأسرعنا النزول إليه فوجدناه قد وطئه البغل فختته ختانة صحيحة حسنة لا يستطيع الصانع الخاذق أن يفعل خيرا منها فقال له شخص من الحاضرين: والله إن هذا عي فاحش وتطويل كثير لا حاجة إليه فإنه بصدد أن تذكر أنك كنت صبيا تلعب مع الصبيان على سطح الطاحون فوق صبي منكم إلى أرض الطاحون فوطئه بغل من بغال الطاحون فختته ولم يؤذه ولا فرق بين أن تكون هذه الواقعة في بلد نعرفه أو في بلد لا نعرفه ولو كانت بأقصى المشرق أو بأقصى المغرب لم يكن ذلك قدحا في غرابتها وأما أن تذكر

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص:100.

أنها كانت بالجزيرة العمرية في الحارة الفلانية في طاحون بني فلان وكان زمن الملك فلان فإن مثل هذا كله تطويل لا حاجة إليه والمعنى المقصود يفهم دونه»¹؛ وفي هذا السرد لهذه الحكاية يظهر "ابن الأثير" ردة فعل المتلقين، والفعل التأثيري لمقول القول ذلك.

وقد يزامن أيضا ردة فعل المتلقي إلقاء الشعر أيضا وهي مواقف كثيرة منها ما رواه "العسكري": «ومن عيوب المديح عدول المادح عن الفضائل التي تختصّ بالنفس: من العقل، والعفة، والعدل، والشجاعة، إلى ما يليق بأوصاف الجسم: من الحسن، والبهاء والزينة، كما قال ابن قيس الرقيّات في عبد الملك بن مروان:

يأتلقُ التَّاجُ فوقَ مفرقهِ على جبينِ كأنَّهُ الذهبُ

فغضب عبد الملك، وقال: قد قلت في مصعب:

إنما مصعبٌ شهابٌ من اللّهِ تجلّتْ عن وجهه الظّلماءُ

فأعطيته المدح بكشف الغم، وجلاء الظلم، وأعطيتني من المدح مالا فخر فيه، وهو اعتدال التاج فوق جبين الذي هو كالذهب في النضارة»²، والأمثلة من هذا القبيل كثيرة، اكتفينا بذكر بعضها لنبرز مدى اهتمام البلاغيين بردة المتلقي وكذا ما سمي في التداولية بـ"الفعل التأثيري الناتج عن الفعل".

د. الحدث الكلامي و بناء الأفعال الكلامية (أسلوب "حسن التخلص"):

إذا كانت التداولية وهي التي تنتزع المنحى الوظيفي في اللسانيات تشكل الطرف النقيض للمنحى الشكل الصوري بزعامة النبيوي وكل من انضم تحت عباءة الاتجاه الشكلي، فإن الباحث يرصد جسورا و مفاهيمًا للتلاقي توفر دلالاتها مساحات متداخلة بين المنحين، و يمثل

¹ - المصدر السابق، ج 2، ص: 263.

² - العسكري، الصناعتين، ص: 114.

مفهوم الحدث الكلامي في التداولية واحدا من تلك الجسور. إذ يصب كل من مفهوم البنية النصية الكبرى في البنيوية بوصفها متتالية من الوحدات اللغوية مع الحدث الكلامي بوصفها سلسلة أو متتالية من الأفعال الكلامية أو الإنجازية لقد أصبح مفهوم الفعل الكلامي نواة مركزية في كثير من الأعمال التداولية، وفحواه أنه كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي انجازي تأثيري فهو يطمح إلى أن يكون فعلا كلاميا ذا تأثير في المخاطب اجتماعيا ومؤسستيا ومن ثم انجاز شيء ما¹.

و يعد **الخطاب** نفسه من جهة أخرى بمثابة **حدث**، أي أن شيئا ما يحدث عندما يتكلم أحدنا وإن القول بأن الخطاب حدث ما، يعني أولا قول أن الخطاب قد تحقق زمنيا وفي الحاضر في حين إن نسق اللغة مضمر وخارج الزمن².

و ليس الحدث وحده مميزا للسلوك الإنساني بل الحدث الاجتماعي بوجه خاص فالتفاعل الذي يحدث بأنه سلسلة من الأحداث يكون فيها عدة أشخاص هم المعنيون بوصفهم فاعلين متزامنين أو غير متزامنين³.

ويرى "فان ديك" أنه يجب النظر إلى النص بوصفه فعلا للكلام، أو بوصفه سلسلة من أفعال الكلام، كما أنه يرى أنه من الممكن تحليل النص على أنه متوالية من الجمل، ويمكن النظر إلى النص على أنه فعل كلامي أكبر من أفعال اللسان⁴.

كما عرّف "جورج يول" الحدث الكلامي قائلاً « هو مفهوم من المفاهيم التي تدور في فلك الفعل الكلامي، وهو سلسلة من الأفعال الكلامية أو نشاط يظهر في التفاعلات الخطابية و

¹ - ينظر: حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، ط 1، إربد، الأردن، 2011، ص 51-52.

² - ينظر: بول ريكور، من النص إلى الفعل، ترجمة محمد براءة وحسان بورقية، ط 1، 2000، ص: 79-80.

³ - ينظر: فان ديك، علم النص، ص: 128.

⁴ - ينظر: المرجع نفسه، ص: 231.

اللغوية بطريقة تواضعية تفضي إلى نتيجة ما ويمكن أن يحتوي على فعل كلامي مركزي، ولكن يمكن أيضا أن يحتوي على منطوقات تقود إلى ردود أفعال متتابعة تبني الفعل المركزي»¹، ويرتبط الحدث الكلامي بالتفاعل بين الأطراف التخاطبية الذي يفضي إلى الكشف عن الفعل المركزي سواء صرح به أو كان مضمرا وتتضافر سلسلة الأفعال الكلامية الأخرى في إنشائه.

ولعل الحدث الكلامي هو الأقرب للتعبير عن الأعمال الأدبية بوصفها حدثا ما، ولهذا الحدث طاقة استيعاب الزمان والمكان من جهة ثم تجاوزهما من جهة أخرى، وفي كتابه المعروف "النص والسياق" عني "فان ديك" بتطوير أفعال الكلام عن طريق توجيهها من مجال الجملة أو المنطوق عند مؤسسها "جون أوستين" إلى طريق النص، وكان من أهم ما صنعه في ذلك الكتاب تحليله الذي سمّاه "أفعال الكلام الكبرى" الفعل الكلامي الأكبر عند "فان ديك" هو فعل الكلامي الإجمالي الذي يؤدي منطوق الخطاب الكلي والذي ينجزه سلسلة من أفعال الكلام المختلفة. و انتهى "فان ديك" هنا إلى أنّ سلسلة الأفعال الكلامية هذه تفسر بأنها فعل كل واحد إذا كانت تشير إلى مقصد إجمالي واحد و يمكن لهذا الفعل الكلامي - على مستوى أعلى - أن يكون بدوره شرطا أو نتيجة لأفعال كلامية أخرى، وأطلق على دراسة التنظيم الكل للتفاعل الاتصالي، أي التنظيم الكل لمتواليات الأفعال الكلامية والسياقات وعلاقتها ببنية الخطاب اسم "التداولية الكبرى"².

ولعلنا نجد هذا جليا في دراسة "ابن الأثير" لإحدى التقنيات البلاغية وهي "حسن التخلّص"؛ إذ يظهر من خلال تحليله لبعض الخطابات، والتي تنسج من أفعال كلامية معينة مترابطة فيما بينها تسعى إلى تحقيق فعل كلامي مركزي؛ فحسن التخلّص يجسد لنا سعة قبول النص للمعاني على اختلافها وتباعدها دون شعور بتخاذل في النسق أو تفكك في البناء، يقول ابن الأثير: «أما التخلّص فهو أن يأخذ مؤلّف الكلام في معنى من المعاني فبينما هو فيه إذ

¹ جورج يول، التداولية، ترجمة قصي العتاي، دار العربية للعلوم ناشرون، دار الأمان، الرباط، ط1، 2010، ص:157.

² - ينظر: التداوليات علم استعمال اللغة، ص:309.

أخذ في معنى آخر غيره وجعل الأول سببا إليه، فيكون بعضه آخذا بقراب بعض، من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاما آخر، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغ»¹.

فمثلا يقول ليوضح ذلك: «فما جاء من التلخص في القرآن الكريم قوله تعالى ﴿وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَأَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقْتِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ الْجَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرَزْتِ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمُ أَوْ يَنْتَصِرُونَ * فَكَبِكَبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. هذا كلام يسكر العقول ويسحر الألباب»². ثم يعلق قائلا: «ألا ترى ما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لا سؤال مستفهم، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع وعلى تقليد آبائهم الأقدمين فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلا عن أن يكون حجة ثم أراد الخروج من ذلك إلى ذكره الإله الذي لا تجب العبادة إلا له ولا ينبغي الرجوع والإنابة إلا إليه فصور المسألة في نفسه دونهم بقوله: "فإنهم عدو لي" على معنى

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج 3، ص:121.

² - المصدر نفسه، ج3، ص:128.

إني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو وهو الشيطان، فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله في يده، وأراهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسه، لينظروا فيقولوا: ما نصحن إبراهيم إلا بما نصح به نفسه فيكون ذلك أدعى لهم إلى القبول لقوله وأبعث على الاستماع منه، ولو قال فإنهم عدو لكم لم يكن بتلك المثابة فتخلص عند تصويره المسألة في نفسه إلى ذكر الله تعالى فأجرى عليه تلك الصفات العظام من تفخيم شأنه وتعدد نعمه من لدن خلقه وأنشأه إلى حين وفاته مع ما يرجى في الآخرة من رحمته، ليعلم من ذلك أن من هذه صفاته حقيق بالعبادة واجب على الخلق الخضوع له والاستكانة لعظمته ثم خرج من ذلك إلى ما يلائمه و يناسبه فدعا الله بدعوات المخلصين وابتهل إليه ابتهاج الأوابين لأن الطالب من مولاه إذا قدم قبل سؤاله وتضرعه الاعتراف بالنعمة كان ذلك أسرع للإجابة وأنجح لحصول الطلبة، ثم أدرج في ضمن دعائه ذكر البعث ويوم القيامة ومجازاة الله تعالى من آمن به واتقاه بالجنة ومن ضل عن عبادته بالنار، فجمع بين الترغيب في طاعته والترهيب من معصيته، ثم سأل المشركين عما كانوا يعبدون سؤالا ثانياً عند معاينة الجزاء، وهو سؤال موبخ لهم مستهزئ بهم، وذكر ما يدفعون إليه عند ذلك من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمني العودة ليؤمنوا»¹.

فقد لاحظ "ابن الأثير" أن هاته الآيات تتضافر فيها مجموعة من الأفعال لتحقق فعلا واحد وهو قصد سيدنا إبراهيم "تفسير قومه من عبادة الأصنام"، وهذا يتضح أكثر في شرحه لهاته الآيات الكريمة إذ يضيف: «فانظر أيها المتأمل إلى هذا الكلام الشريف الآخذ بعضه برباب بعض مع احتوائه على ضروب من المعاني، فيخلص من كل واحد منها إلى الآخر بلطفية ملائمة حتى كأنه أفرغ في قالب واحد فخرج عن ذكر الأصنام وتفسير أبيه وقومه من عبادتهم إياها مع ما هي فيه من التعري عن صفات الإلهية حيث لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع إلى ذكر الله تعالى فوصفه بصفات الإلهية فعظم شأنه وعدد نعمه ليعلم بذلك أن العبادة لا

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص:128.

تصح إلا له ثم خرج من هذا إلى دعائه إياه وخضوعه له ثم خرج منه إلى ذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه فتدبر هذه التخلصات اللطيفة المودعة في أثناء هذا الكلام¹.

وبذلك يكون المخاطب قد راعى المخاطب، فكان تفصيل الآيات التي سارت عليه؛ لأن التدرج في الأفعال الإنجازية بها بحاجة للتدرج في الأغراض، ذلك لأن «التدرج في الأغراض يوحى بالمنطقية في التعامل مع النفس البشرية من أجل إقناعها، حيث أنه لا يجب إعطاء المعلومات دفعة واحدة إذا كان المخاطب خالي الذهن، فما بالنا إذا كان الأمر مرتبطاً بهدف تغيير اعتقاد»².

ولنوضح هذا أكثر، نورد المثل الذي قدمه في هذه الجزئية- التخلص- من الشعر «قول ابن الزمكرم الموصللي، وهو:

وليل كوجه البرقعدي مظلم وبرد أغانيه وطول قرونيه

سريت ونومي فيه نوم مشرد كعقل سليمان بن فهد ودينه

على أولق فيه التفات كأنه أبو جابر في خطبه وجنونه

إلى أن بدا ضوء الصباح كأنه سنا وجه قرواش وضوء جبينه

وهذه الأبيات لها **حكاية** وذلك أن هذا الممدوح وهو شرف الدولة قرواش ملك العرب وكان صاحب الموصل فاتفق أنه كان جالسا مع ندمائه في ليلة من ليالي الشتاء وفي جملتهم هؤلاء الذين هجاهم الشاعر وكان البرقعدي مغنيا وسليمان بن فهد وزيرا وأبو جابر حاجبا فالتمس شرف الدولة من هذا الشاعر أن **يهجو المذكورين ويمدحه** فأنشد هذه الأبيات ارتجالا وهي

¹- المصدر السابق، ج3، ص ص:128-129.

²-آمنة بلعلى، الاقتناع المنهج الأمثل للتواصل والحوار نماذج من القرآن و الحديث، مجلة التراث العربي، تصدر عن إتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع 89، 2003، ص:214.

غريبة في بابها: لم يسمع بمثلها ولم يرض قائلها بصناعة التخلص وحدها حتى رقي في معانيه المقصودة إلى أعلى منزلة فابتدأ البيت الأول **يهجو** البرقعدي فجاءه في ضمن مراده ذكر أوصاف ليل الشتاء جميعها وهي الظلمة والبرد والطول ثم إن هذه الأوصاف الثلاثة جاءت ملائمة لما شبهت به مطابقة له، وكذلك البيت الثاني والثالث ثم خرج إلى المديح بألف وجه وأدق صنعة وهذا يسمى الاستطراد وما سمعت في هذا الباب بأحسن من هذه¹؛ ففي هذه الأبيات استطاع الشاعر - المتكلم - أن يوظف كل ما يحيط به من شخصيات، وحتى الزمان وهو الليل وهي ليلة من ليالي الشتاء المتميزة بالطول والبرودة والظلمة والتي كانت كافية لربطها بأوصاف المغني ليهجوه ومن معه من الحاضرين ليخرج إلى مدح صاحب الموصل، وقد ساعدنا في فهم هذا ما نقله "ابن الأثير" من سياق ومقام محيط بالكلام لحظة التلفظ.

إنه يعتبر "حسن التخلص" من التقنيات التي ينبغي أن يتصف بها المتكلم سواء كاتباً أو شاعراً؛ إذ عليه أن يحسن الانتقال من الأفعال الكلامية آخذاً ببعضها البعض، ليصل في الأخير لتحقيق الفعل الكلامي المقصود، وهذا بأسلوب مباشر، إلا أن المتكلم قد يضطر إلى استعمال الأسلوب غير المباشر والتلميح إما مضطراً إذ يفرضه عليه المقام، أو من اختياره محاولاً زج السامع أو المتلقي في العملية التخاطبية إذ يحاول هذا الأخير استنباط أو استنتاج المعنى المقصود، ولتوضيح هذا الأسلوب أو ما يعرف بـ "الأفعال الكلامية غير المباشرة" اقترحنا المبحث التالي: فيا ترى كيف كان تصور كل من "العسكري" و"ابن الأثير" لما يعرف بالأفعال الكلامية غير المباشرة"؟.

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص ص: 135 - 136.

هـ. الأفعال الكلامية غير المباشرة والعدول البلاغي:

البحث في الأطر التأسيسية الأولى للأعمال اللغوية غير المباشرة تجعلنا نتوقف عند الصعوبات التي ذكرها "أوستن" في محاضراته في أثناء تعرضه لصيغ الأفعال الإنجازية، فرأى أنه ما تزال هناك صعوبات كثيرة ينبغي الإشارة إلى أبرزها؛ وهي¹:

1. قولنا "أصنف" أو "أساند" لا يتبين فيهما جهة الإنشاء من جهة الخبر؛ فمن الصعب علينا تعيين جهة واحدة، أو دلالات الصيغة على الجهتين في الوقت نفسه.

2. تكون دلالة القول أحياناً دلالة واضحة على إنجاز شيء ما، نحو: الهجاء والتوبيخ، ولكن عبارة "أهجو" لا تفهم الإنشاء صراحة، فلا يمكن دائماً أن نرجع عبارة ما إلى صيغة إنشائية صريحة الإنجاز.

وقد رجّح "أوستن" جملة من الوسائل التي تميز الفعل ورضه؛ سواء أكان صريحاً أم ابتدائياً؛ أبرزها غياب الفائدة من الاعتماد على معيار الصيغة فحسب؛ لأنّ الصيغة قد تدلّ على أكثر من معنى؛ نحو: "خذ هذا الشيء". فإننا قد نهب شيئاً، أو نُعيره، أو نودعه، و هذه أغراض لا تتحدّد إلا بسياقات خاصة بها².

هذه المقاربة فرضت ظهور مشكلة لغوية تتعلق في بنية القول: «فالمشكلة الأساسية التي تطرحها الأفعال الكلامية غير المباشرة هي معرفة كيف يمكن للمتكلّم أن يقول شيئاً ما ويعني ذلك، وهو في الوقت نفسه يريد أن يقول شيئاً آخر، وبالتالي، معرفة كيف يمكن للمخاطب أن يفهم الفعل الكلامي غير المباشر، مع أن ما يسمعه يدلّ على شيء آخر»³.

وهذا نفسه ما ذهب إليه "ابن الأثير"، و قد بيّنا ذلك في فصل سابق؛ أنه قد حاول

تزويد المتلقي بأهم التقنيات التي تساعد على الترجيح بين معنيين والوصول إلى قصد المتكلم

¹ - ينظر: أوستن، نظرية أفعال الكلام العامة، مرجع سابق، ص ص: 16-19.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص ص: 62-96.

³ - عادل فخور، محاضرات في فلسفة اللغة، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2012، ص ص: 127-128.

بالاعتماد على قرائن يحويها الخطاب أو من خلال السياق؛ أي كيفية الوصول إلى المعنى الثاني المقصود من طرف المتكلم؛ أي الأفعال غير المباشرة، وسنشرح هذا أكثر فيما يأتي. فالأعمال أو الأفعال اللغوية غير المباشرة تتكوّن عن طريق إنتاج المتكلم عملاً إنجازياً أولي بوساطة عمل إنجازي ثانوي؛ فمثلاً قولنا: "هل تعطيني الماء؟". تضمن هذا القول عمليْن إنجازيين؛ الأولي هو الطلب، والثانوي هو الاستفهام؛ فالمتكلم قد حقق الطلب بوساطة الاستفهام.

ولنا أن ندعم هذا بمثال ذكرناه سابقاً- نقلا عن "ابن الأثير": « قول البحترى في قصيدة أولها:

فهل أنت يا ابن الراشدين مختمي بياقوتة تبهى علي وتشرق

وهذا من الأدب الحسن في خطاب الخليفة فإنه لم يخاطبه بأن قال: ختمني بياقوتة على سبيل الأمر، بل خاطبه على سبيل الاستفهام»¹، فالظاهر من اللفظ الاستفهام إلا أن المقصود هو الطلب.

وقد اقتضت الإجابة عن هذا الإشكال من "سيرل" ضرورة التمييز بين المعنيين؛ ففي المرحلة أولى ميّز بين معنى الجملة، ومعنى قول المتكلم، وبعبارة أخرى بين ظاهر القول والمعنى المراد منه؛ فافتراض "سيرل" الآتي²:

-اختلاف معنى الجملة عن معنى قول المتكلم، نحو: المجاز، والاستعارة، والكناية؛

-أن يكون المتكلم قاصداً معنى القول ومعنى شيء آخر، نحو: "افتح النافذة".

- أن يكون المتكلم قاصداً المعنى الظاهر من كلامه، وقاصداً في الوقت نفسه، معنى

لغويا آخر، له المحتوى القضوي الخاصّ به، وعلى هذا يتكوّن لمقول محتويان قضويان وقوتان

مختلفتان؛ نحو؛ قول "س": " لنذهب إلى الحديقة". يجيب "ص": " لذي امتحان يوم غدٍ".

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص:189.

² - ينظر: ريم اليمامي، الاقتضاء وانسجام الخطاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 2013، ص ص:413-414.

فقول "ص" عمل ثانويّ يحقق قوة الإثبات، في حين كان العمل الأوليّ رفض العرض الذي قدّمه "س". و لا صلة بين هذا الرفض، ومعنى الجملة التي قدمت.

وبالإمكان تلخيص مقارنة "سيرل" التأسيسية للعمل اللغويّ غير المباشر على النحو الآتي¹:

- للقول قوتان إنجازيتان؛ إذ يؤدّي الفعل الإنجازيّ أداءً غير مباشر عن طريق أداء فعل

آخر.

- يبلغ المتكلم المخاطب أكثر ممّا يقوله، عن طريق الاعتماد على خلفية المعلومات

المشتركة المتبادلة بينهما: لغوية وغير لغوية، فضلاً عن اعتماده على قوى الإدراك و الاستهلال العامة عند المخاطب.

- إنّ الجهاز الضروريّ لشرح الجانب غير المباشر من العمل اللغويّ يشتمل على

مقولات العمل اللغويّ، وعلى بعض الأسس العامة للتخاطب، وعلى خلفية المعلومات المشتركة المتبادلة بين المتكلم والمخاطب؛ فضلاً عن مقدرة المستمع على الاستدلال.

- صنف التوجيهيات (الطلبات) هو الأكثر أهميةً وغنىً و فائدة؛ لأن يكون موضوعاً

للبحث؛ إذ إنّ متطلبات الحديث اليوميّ تجعلها ثقيلة محيرة في إنتاج جمل أمرية مباشرة، نحو: "افتح الباب". ومن بعد، يسعى الناس إلى إيجاد وسائل غير مباشرة لأداء أفعالهم الإنجازية.

- هناك بعض الصيغ اللغوية تؤسس تأسيساً عرفياً على أنّها الصيغ اللغوية القالبية المعيارية

للأعمال اللغوية غير المباشرة؛ فتحفظ تلك الصيغ بمعانيها الحرفية، ولكنها تكتسب أيضاً استعمالاً عرفية.

وبعد هذه المقاربات التأسيسية تبين لنا أن الأعمال اللغوية غير المباشرة؛ هي: «منطوقات

لا يكمن هدفها الإنجازيّ في الغرض الإنجازيّ، الذي يشار إليه بالمشورات اللغوية... وفي كل

¹- ينظر: محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط1، 2005، ص 293-294.

هذه الحالات يُحيد موقف الاستعمال/ الغرض الإنجازي المشار إليه في الشكل اللغوي ، ذلك فقط ليتمكن أن يُبرز بذلك غرض إنجازي آخر¹.

و كذلك يظهر من هذه المقاربات أن الأعمال اللغوية غير المباشرة تتبني على:

الاعتقادات الذهنية المشتركة لدى المتخاطبين، والمعرفة اللغوية المشتركة لديهم، والأعمال

اللغوية غير المباشرة وهذه الاعتقادات والمعارف تدرج ضمن مقولتي "الاستلزام الحواري"

و"الاقتضاء التداولي" ، واللتين هما المقولتان الأساسيتان في إيجاد الأعمال اللغوية غير

المباشرة، ولكنهما يختلفان في وجه المقاربة؛ فالإقتضاء هو عمل مؤسس للأعمال اللغوية،

ولولاه ما وجدت هذه الأعمال؛ أما الاستلزام الحواري؛ فقد خط في سبيل وضع حد لاختلاف

البنيتين؛ بنية القول الملفوظ، وبنية المعنى المقصود.

نشير إلى أن "عادل فاخوري" استعمل مفهوم الاقتضاء² للدلالة على "الاستدلال

التداولي" أو "الاستلزام التخاطبي" بمفهوم "غرايس"؛ ويستند فيه إلى النظر في المرجعية

الاتصالية التي تقع خارج تنظيم اللغة، بمعنى النظر في السياق الذي يؤطر القول، مما يجعل

هذا الاقتضاء «يستند إلى مبادئ عامة تقع خارج تنظيم اللغة وتهدف إلى الاتصال القائم على

التعاون»³، ويرى "عادل فاخوري" أن من أهم ميزات الاقتضاء أنه «يقدم تفسيراً صريحاً

لمقدرة المتكلم على أن يعني أكثر مما يقول بالفعل، أي أكثر مما يعبر عنه المعنى الحقيقي

للألفاظ المستعملة»⁴، ففي غالب الحوارات ما يقتضي المعنى التخاطبي أكثر مما ينجزه المتكلم

من المعنى الحرفي للملفوظ، وذلك ما يستند فيه المتكلم إلى المهارة اللغوية في التعبير عن

القصد من خلال الآليات التي يوظفها في كلامه مستعينا بالاقتضاء، ليظهر هذا الأخير أنه «

¹ - زيبيله كريم، اللغة والفعل الكلامي والاتصال، ترجمة، سعيد بحيري، ط 1، 2011، ص:101.

² - أطلق الدكتور عادل فاخوري تسمية "الاقتضاء" بدلاً عن الاستلزام الحواري على "المصطلح" Implicature . ينظر: محاضرات في فلسفة اللغة، ص:7.

³ - عادل فاخوري، الاقتضاء في التداول اللساني، مجلة عالم الفكر، منشورات وزارة الإعلام بالكويت، ع3 ، المجلد 20

، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر 1989، ص:141.

⁴ - المرجع نفسه، ن ص.

ظاهرة لسانية تعكس الترابط الممكن بين مستوى البناء اللغوي التركيبي ومستوى خضوعه لتأويلات دلالية محتملة إن بصيغة الإثبات أو بصيغة النفي»¹، إن هذا المنحى التخاطبي للاقتضاء في المعنى نجده في البلاغة العربية في كثير من مباحثها، ذلك أن البلاغة فن القول مما يحتاج فهم المعنى فيه إلى بذل استدلال وتأويل من المخاطب من أجل إدراك مقتضى القول، كيف لا والبلاغة هي مطابقة المقال لمقتضى الحال، وهذا ما يظهر في الاقتضاء التخاطبي أو الاستلزام الحواري كما صاغه "غرايس".

أ. "الاستلزام الحواري Implicature" و"المجاز:

رؤية "غرايس" المرقومة في محاضراته - كما سبق وأن ذكرنا - تُقسم الاستلزام على نوعين، الأول: استلزام عرفي، يقوم على ما تعارف عليه أصحاب اللغة من استلزام بعض الألفاظ دلالات لا تنفك عنها مهما اختلفت السياقات القولية، نحو: كلمة (لكن) في العربية، فهي للاستدراك في أي تركيب و أي سياق، و الآخر؛ الاستلزام الحواري: الذي يتغير تبعاً لتغير السياقات التي يرد فيها القول.

ويعرّف الاستلزام الحواري بأنه: «عمل المعنى أو لزوم شيء عن طريق قول شيء آخر، أو قل: إنه شيء يعنيه المتكلم ويوحى به ويقترحه ولا يكون جزءاً مما تعنيه الجملة بصورة حرفية»².

وتقريباً بنفس التوجه يميز اللغويون العرب والبلاغيون منهم بصفة خاصة في استعمال العبارات اللغوية بين ما يسمونه بالاستعمال على وجه الحقيقة والاستعمال على غير وجه الحقيقة³، أي اعتبار بعض الأبنية أصولاً تستخرج منها أبنية فروع⁴، إن نقطة الفصل بين

¹ - أحمد العاقد، المعرفة والتواصل، - عن آليات النسق الاستعاري -، دار أبي رزاق للطباعة والنشر، 2006م، ص: 116 .
² - صلاح إسماعيل، نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس، دار قباء للطباعة، ط1، 2007، ص: 78.
³ - ينظر: محمد السيدي، إشكال المعنى من الاستعارة إلى الاستلزام الحواري، مجلة فكر ونقد، الرباط، المغرب، ع3، 2000، ص: 25 .
⁴ - ينظر: محمد صلاح الدين الشريف، الشرط والإنشاء النحوي للكون، سلسلة اللسانيات، مج ، 16 منشورات كلية الآداب، جامعة منوبة، تونس، ص: 36.

المعنيين الصريح والمستلزم أن الأول تدل عليه العبارة بلفظها، وأن الثاني تدل عليه العبارة باستعمالها في موقف تواصل معين. فما طبيعة القواعد المتحكمة في هذه العملية؟ وهل في دراسات القدامى ما يوحي أنهم عرفوا الظاهرة ولم يتغافلوا فيما أقاموه عن التمثيل للبعد التداولي للغة؟ لقد شغلت قضية المعنى الذهن اللغوي قديما وحديثا، وبحث في جوانبها المختلفة فلاسفة و مناطق وأصوليون و بلاغيون؛ لأن هذه القضية مرتبطة بالإعجاز القرآني، فشكل مبحث "المجاز" قاسما مشتركا بين هذه المجالات المعرفية على اختلاف اتجاهاتها.

كما يوصف المجاز بأنه آلية من الآليات التي تثري الدلالة بمعان مستلزمة تحقق القوة التعبيرية على مستوى التركيب والنص، هاته الآلية تقوم أساساً على اللفظ أو التركيب من معناه الحرفي إلى معنى آخر مستلزم مع وجود علاقة بين المعنيين و قرينة تمنع إرادة المعنى الأصلي¹، و هذا يثبت البعد التداولي له.

وفي هذه القضية يقول "ابن الأثير": «واعلم أن الأصل في المعنى أن يحمل على ظاهره لفظه ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل كقوله تعالى: ﴿وَتِيَابِكَ فَطَهَّرَ﴾؛ فالظاهر من لفظ الثياب هو ما يلبس ومن تأول ذهب إلى أن المراد هو القلب لا الملبوس وهذا لا بد له من دليل لأنه عدول عن ظاهر اللفظ»².

كما وضّح "أبو هلال" أن المجاز قد يتميز عن الحقيقة في إثارة ذهن السامع أكثر من الحقيقة نفسها، ويتعدى المرسل مرحلة الإفهام، ويعبر منها إلى التأثير و الإمتاع حتى يصل مرحلة الإقناع، و هذا ما أبرزه في الاستعارة، والتي تعني عنده «نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه، وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة، ولولا الاستعارة المصيبة تتضمن ما لا تتضمنه

¹ ينظر: سعد أبو رضا، في البنية والدلالة رؤيا لنظام العلاقات في البلاغة العربية، دار المعارف، بالاسكندرية، د ط، د تط، ص: 183.

² ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص: 62.

الحقيقة من زيادة فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالاً¹؛ فالفعل اللغوي الاستعاري شكل معدول عن الأداء الحقيقي لما يقتضيه الاستعمال الأصلي للغة، يلجأ إليه المرسل لمقاصد وغايات قد لا تتحقق بالتوظيف العادي.

وهذا التصور كان حاضراً لدى "العسكري"؛ لذلك قال هي: "نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة"، لكن هذا العدول يبقى مرتبطاً بالجودة والحسن في بنائه، ولذلك ربط تحقيق تلك الغايات بـ"الاستعارة المصيبة"، والمبنية في أساسها على غير ما يمكن أن يتجلى بالحقيقة؛ لأنها تتعداها إلى فوائد أخرى لا تتحقق بالأداء المألوف.

ومنه نستنتج أنّ "العسكري" يريد أن يناقش - بتعبير "سيرل Searle" - "كيف نقول شيئاً وتعني شيئاً آخر؟"، أو "كيف تحقق الفعل الاستعاري؟"؛ والذي يتجاوز فيه المتكلم ما يقتضيه أصل اللغة. فالاستعارة فعل تداولي؛ لأنّ المرسل يتجاوز بها ما هو عامي ووضعي وعرفي؛ أي متداول ومألوف بابتكاره الجديد والحديث².

و الاستعارة تتحقق من خلال تركيب معيّن، و الفعل الاستعاري لا يتعلّق بمعناه الأصلي أو الحرفي؛ بل يرتبط بالمقصد الذي يبتغيه المتكلم، فقد ذكر "سيرل" أنها «لا ترتبط بمعنى الجملة بل مرتبطة بمعنى المتكلم، إنّ الطبيعة الاستعارية لمفوز ما تعود إلى قصديّة المؤلّف واختياره، وليس إلى أسباب داخلية للبنية الموسوعية»³. وفي معالجة هذا الجانب من مشكلة الاستعارة، حدّد "سيرل" أيضاً مصطلحين أساسيين؛ وهما مصطلح "معنى منطوق المتكلم"، و"معنى الجملة"، ورأى أنّ المعنى الاستعاري هو معنى منطوق المتكلم⁴.

¹ - العسكري، الصناعتين، ص: 274 .

² - ينظر: محمد سويرتي، اللغة ودلالاتها تقريب تداولي للمصطلح البلاغي، ص ص: 39-40.

³ - أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة وتقديم سعيد بنكراد، المغرب المركز الثقافي العربي، ط 2، 2004، ص: 159 .

⁴ - ينظر: أحمد حسن صبره، وسعد سليمان حمودة، التفكير الاستعاري والدراسات البلاغية، الإسكندرية دار المعرفة الجامعية، ط 2، 2002، ص: 58.

ومن أمثلة "العسكري" في الاستعارة « قوله تعالى: "عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ"¹ وقوله عز اسمه: "إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ" فالعقيم التي لا تجئ بولد، والولد من أعظم النعم، وأجسم الخيرات، ولهذا قالت العرب: شوهاء ولودّ، خير من حسناء عقيم. فلما كان ذلك اليوم لم يأت بمنفعة حين جاء، ولم يبق خيراً حين مر سمي عقيماً. ويمكن أن يقال: إنما سمي عقيماً لأنه لم يبق أحداً من القوم، كما أن العقيم لا يخلف نسلاً، وسمى الريح، عقيماً لأنها لم تأت بمطر ينتفع به ويبقى له أثر من نبات وغيره، كما أنّ العقيم من النساء لا تأتي بولد يرجى، وفضل الاستعارة على الحقيقة في هذا أنّ حال العقيم في هذا أظهر قبلاً من مال الريح التي لا تأتي بمطر، لأنّ العقيم كانت عند العرب أكره وأشنع من ريح لا تأتي بمطر، ولأنّ العادة في أكثر الرياح ألا تأتي بمطر، وليست العادة في النساء أن يكون أكثرهن عقيماً². حيث يبرز أبعاد اختيار لفظ "عقيم" وبعدها الاجتماعي عند العرب، و هي معالجة تداولية، وذلك كله ليعكس فضاة ذلك اليوم، أو مدى الضرر الذي سيلحق المعذبين بالنسبة للآية الثانية. وفي هذا القول تتجلى تداولية الاستعارة التي تكتسبها من «التأثير الذي تحدثه في المتلقّي في سياق معيّن، حتى وإن صدرت عن موقف المتلقّي وموقعه ووضع الاجتماعى وانتمائه الأيديولوجي. وتتبدّى التداولية في تفاعل التفكير الاستعاري والعمل، وبعبارة أخرى بتفاعل النظر الاستعاري بالممارسة الفعلية، كما تتمثّل في تأكيد المؤلّفين على أهمية السياق في فهم الدلالات التداولية»³.

وقد أدرك "ابن الأثير" الدور التداولي للمجاز الذي يمكن استتباطه من قوله: «اعلم أن المجاز أولى بالاستعمال من الحقيقة في باب الفصاحة والبلاغة؛ لأنه لو لم يكن كذلك لكانت الحقيقة التي هي الأصل أولى منه، حيث هو فرع عليها، وليس الأمر كذلك، لأنه قد ثبت

¹ - سورة الحج، الآية:4.

² - العسكري، الصناعتين، ص:300.

³ - جورج لاكوف ومارك جونسون، الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة عبد المجيد جحفة، المغرب دار توبقال، 1996، ص:21.

وتحقق أن فائدة الكلام الخطابي هو إثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير، حتى يكاد ينظر إليه عيانا...وأعجب ما في العبارة المجازية أنها تنقل السامع عن خلقه الطبيعي في بعض الأحوال حتى إنها ليسمح بها البخيل، ويشجُع بها الجبان، و يحكم بها الطائش المتسرع. ويجد المخاطب بها عند سماعها نشوة كنشوة الخمر»¹، إذ تستطيع الاستعارة تغيير من معتقدات المتلقي وهذا ما نصبو له التداولية في أعلى مستوياتها، وهذا نتاج التأثير الكبير في المتلقي.

ومن المجاز ما أسماه "ابن الأثير" "عكس الظاهر" وهو: « وهو نفي الشيء بإثباته وهو من مستطرفات علم البيان وذلك أنك تذكر كلاما يدل ظاهره أنه نفي لصفة الموصوف وهو نفي للموصوف أصلا»²، ومن أمثله يذكر «قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه في وصف مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تنثى فلتاته"، أي لا تزداد سقطاته فظاهر هذا اللفظ أنه كان ثم فلتات غير أنها لا تزداد وليس المراد ذلك بل المراد أنه لم يكن ثم فلتات فتنتى»³، ثم يضيف معلقا وشارحا: «وسأوضح ذلك فأقول: أما قولنا عن مجلس رسول الله (لا تنثى فلتاته) فإن مفهوم هذا اللفظ أنه كان هناك فلتات إلا أنها تطوى ولا تنتشر وتكتم ولا تزداد ولا يفهم منه أنه لم يكن هناك فلتات إلا بقريئة خارجة عن اللفظ وهي أنه قد ثبت في النفوس وتقرر عند العقول أن مجلس رسول الله منزه عن فلتات تكون به وهو أكرم من ذلك وأوقر فلما قيل: إنه لا يثنى فلتاته فهمنا منه أنه لم يكن هناك فلتات أصلا»⁴، منطلقا في شرحه المعنى الخفي الضمني من معلومات خارج السياق، أي من معلومات سابقة ومن افتراض مسبق من أن مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم لا فلتات فيه لكي تزداد، وهي معلومات مشتركة بين

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص:88.

² - المصدر نفسه، ج 2، ص:248.

³ - المصدر نفسه، ن ص.

⁴ - المصدر نفسه، ج2، ص:249.

المسلمين والمؤمنين برسول الله و أنه منزه من كل خطأ. ولتوضيح هذه القرينة التداولية وهي الافتراض المسبق نذكر ما يلي:

ب. " الافتراض المسبق " في الكناية والاعتراض:

مما خلصنا به من فصول سابقة أن البلاغيين ركزوا على دراسة المعنى وطريقة تبليغه إلى المتلقي، كما نجدهم أيضا قد ركزوا على ما يمكن أن يحمله الخطاب من معاني إيحائية وضمنية، فمن التقنيات التي ذكرها "ابن الأثير" و التي يلجأ الكتاب لاستعمالها في كتاباتهم ظاهرة الكناية والتعريض و الالتفات باعتبارها أقوالاً مضمرة و افتراضات مسبقة تساهم في توليد التلميح والإضمار في المعنى، وعلى هذا الأساس نجد أن الكناية عند "ابن الأثير" تجسد ما اهتمت به التداولية، كونها تمثل تلفظنا بشيء و إرادة شيئا آخر، وهذا الشيء المتلفظ به له علاقة بالذي نريده؛ كقولنا: " شخص كثير الرماد "؛ فنحن تلفظنا بالقول: "كثير الرماد"؛ ولكن المعنى المراد هو أنه كثير الكرم والعطاء والجود، فنلاحظ أن " كثير الرماد " له علاقة بكثير الكرم والعطاء، ذلك أن كثرة الكرم والعطاء تقتضيان كثرة الطبخ، وكثرة الطبخ تقتضي كثرة الضيوف.

يعرف "ابن الأثير" التعريض بقوله: « هو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم بالموضع الحقيقي والمجازي فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير الطلب: والله إني لمحتاج، وليس في يدي شيء وأنا عريان والبرد قد أذاني، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب وليس هذا اللفظ موضوعا في مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازا، وإنما دل عليه من طريق المفهوم»¹؛ ومعنى هذا أن التعريض يفهم من سياق الكلام فهو لا يشير مباشرة إلى المراد، وإنما يلمح إليه.

و في محاولة التفريق بين الكناية والتعريض نلاحظ أن كل من الكناية والتعريض تجسيدا للمعنى الضمني في الخطاب، إلا أن "ابن الأثير" يعتبر التعريض درجة من المعنى الكنائي،

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص:56.

وبذلك تمثل الكناية الافتراض المسبق في حين يمثل التعريض القول المضمر؛ حيث قال: «والتعريض أخفى من الكناية، لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي، وإنما سمي التعريض تعريضاً لأن المعنى فيه يفهم من عرضه وعرض كل شيء جانبه، واعلم أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معا فتأتي على هذا تارة وعلى هذا تارة أخرى، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب ولا يأتي في اللفظة المفردة البتة والدليل على ذلك أنه لا يفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة، ولا من جهة المجاز، وإنما يفهم من جهة التلويح والإشارة، وذلك لا يستقل به اللفظ المفرد، ولكنه يحتاج في الدلالة عليه على اللفظ المركب»¹؛ وبالتالي و بما أن دلالة الكناية حسب "ابن الأثير"، يدل عليها اللفظ وتشمل اللفظ المفرد والمركب معا، فإنها تقوم مقام الافتراض المسبق الذي يحدد على أساس معطيات لغوية كما ذكرنا سابقا، أما التعريض الذي تكون دلالاته من جهة المفهوم ويشمل اللفظ المركب فقط، فإنه يقوم مقام القول المضمر الذي يرتبط بوضعيات الخطاب مقامه. وعليه يمكن القول إذن، أن الكناية هي التلطف بشيء وإرادة شيء آخر أما التعريض فهو التلميح والإشارة إلى الشيء المراد الذي لا يفهم إلا من خلال السياق، وهنا يكمن البعد الضمني للكناية والتعريض إذ أنهما «معا يعملان وفق خطوات تأويلية مقاربة تعتمد على إدراك العلاقات بين الملفوظ والمقصود»².

ومن أجل استيعاب هذا الفرق بين الكناية والتعريض من جهة، وبيان دورهما في إنتاج المعنى الضمني من جهة أخرى، أورد "ابن الأثير" بعض الأمثلة لكلا الجنسين، من أمثلة الكناية «ما ورد في القرآن الكريم نحو قوله تعالى: ﴿أَيُّجِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ فإنه كنى عن الغيبة بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتا، ثم جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة، فهذه أربع دلالات واقعة على ما

¹ - المصدر السابق، ج3، ص: 57.

² - عيد بلبع، التداولية: البعد الثالث في سميوطيقا موريس من اللسانيات إلى النقد الأدبي والبلاغة، ص: 357 .

قصدت له مطابقة للمعنى الذي وردت من أجله، فأما جعل الغيبة كأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثل هفشدید المناسبة جدا، لأن الغيبة إنما هي ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم، وتمزيق العرض مماثل لأكل لحم الإنسان لحم من يغبته، لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة، وأما جعله كلحم الأخ فلما في الغيبة من الكراهة لأن العقل و الشرع مجتمعان على استكراه آمران بتركها والبعد عنها، ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الأخ في كراهته، ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر، إلا أنه لا يكون مثل كراهته لحم أخيه فهذا القول مبالغة في استكراه الغيبة وأما جعل اللحم ميتا فمن أجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته ولا يحس بها وأما جعله ما هو في الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة فلما جبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة والشهوة لها مع العلم بقبحها»¹، الافتراض المسبق هنا هو كراهة أكل الإنسان أكل أخيه، بعد أن زاد في تلك الكراهة بأن جعله لحم إنسان ميت.

والمثال الثاني للكناية هو قول "ابن الأثير": «ومن لطيف الكناية أن امرأة جاءت إلى عائشة رضي الله عنها فقالت لها: أقيد جملي؟ فقالت عائشة رضي الله عنها: لا، أرادت المرأة أنها تصنع لزوجها شيئا يمنعه من غيرها: أي تربطه أن يأتي غيرها، فظاهر هذا اللفظ هو تقييد الجمل، وباطنه ما أرادت المرأة وفهمته عائشة منها»². حيث يظهر الافتراض المسبق هنا في قول المرأة "أقيد" لأن المتلقي على دراية أن القيد يمنع الإنسان أو الحيوان من الهروب والضياح، وبهذه العبارة التي استعملتها هذه المرأة استطاعت أن توصل إلى المستمع مدى خوفها على زوجها، إلى درجة أنها أرادت أن تعتبره كجمل وتقيده إلى جانبها كي لا يضيع منها بطريقة غير مباشرة. و غالبا ما كان العرب تكني عن الرجل بالجمل والمرأة بالناقة.

أما فيما يخص أمثلة التعريض، فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادْيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج 3، ص:62.

² - المصدر نفسه، ج 3، ص:65.

لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٢﴾، بعد أن اختار الله من عباده "نوحا" عليه السلام نبيا، ثار الكفار وازداد حقدهم عليه واستهزؤوا منه فذهبوا يبحثون عن الشيء المميز الذي يتصف به "نوح" عليه السلام ليصبح نبياً بدلاً منهم، وقد ورد في هذه الآية من سورة هود تعريض حول هذا الحقد على النبوة في قوله تعالى: "مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا"، وهو في الوقت نفسه يعتبر قولاً مضمرًا؛ إذ أن الكفار لم يصرحوا بشكل مباشر أن النبي لا يستحق النبوة، بل راحوا يبحثون عن الشيء المميز الذي يفرقهم عنه، فذكروا ذلك بطريقة مضمرة يفهم من خلال سياق الحديث كما قال "ابن الأثير": «فقوله: "مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا"، تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم، هب أنك واحد من الملائكة ومواز لهم في المنزلة، فما جعلك أحق منهم بها؟ ألا ترى إلى قولهم "وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ"»¹.

كما ورد التعريض كذلك في الشعر وذلك في قول الشامي الحارثي²:

بَنِي عَمَّا لَا تَذْكُرُوا الشَّعْرَ بَعْدَمَا
دَفَنْتُمْ بِصَحْرَاءِ الْعُمَيْرِ الْقَوَافِيَا

للوهلة الأولى وبعد قرائتنا لهذا البيت الشعري نظن أن الشاعر يتحدث عن الشعر، إلا أن قصده هو غير ذلك؛ إذ قصده يتمثل في تذكير هؤلاء الذين يخاطبهم بتلك الهزيمة التي وقعت لهم. فظاهر هذا اللفظ هو الشعر وباطنه هو ما أراه الشاعر، وهذا ما عبر عنه "ابن الأثير" لما قال: «و ليس قصده ها هنا الشعر بل قصده ما جرى لهم في هذا الموضوع من الظهور عليهم والغلبة إلا أنه لم يذكر ذلك، بل ذكر الشعر وجعله تعريضا بما قصده أي لا تفخروا بعد تلك الواقعة التي جرت لكم لنا بذلك المكان»³؛ وإذا ما بحثنا عن القول المضمر في هذا البيت، نجد أنه فيما ذكره الشاعر حول الشعر: "لا تذكروا الشعر، القوافيا"؛ فقصد الشاعر هنا لا يظهر

¹ - المصدر السابق، ج 3، ص: 72.

² - المصدر نفسه، ج3، ص: 74.

³ - المصدر نفسه، ج3، ص: 75.

من خلال اللفظ المعبر عنه كما في الافتراض المسبق، إنما يظهر من خلال السياق الذي جاء فيه هذا الكلام.

من خلال ما سبق، يمكن القول أن كلا من الكناية والتعريض يهدفان إلى إنتاج المعنى الضمني في الخطاب، وذلك لكونهما يستعملان لفظا ليس من أجل الدلالة على معنى هذا اللفظ، وإنما للدلالة على معنى آخر يستنتج من هذا اللفظ المستعمل.

ونستطيع أن نقول وبناء على ما سبق أن الكناية عند "ابن الأثير" تقارب ما يسمى بـ"الافتراض المسبق"، لأن دلالتها لفظية يدل عليها اللفظ الظاهر في الخطاب، بينما يماثل أو يقارب "التعريض" "القول المضمّر" لكون دلالاته تكون من جهة المفهوم يدل عليها سياق الخطاب.

ولنا أن نخلص إلى أن المعاني الضمنية في التراث البلاغي العربي بصفة عامة، وعند "ابن الأثير" بصفة خاصة، لا تظهر بشكل مباشر في الخطاب، وإنما تظهر من خلال تلك الأشكال والآليات البلاغية كالكناية والتعريض، وغيرها من الأساليب التي تضيف على الخطاب جوا يتداخل فيه الحقيقة والخيال.

كما نجد تقنيات بلاغية أخرى تتضح فيها هذه الأبعاد التداولية من اقتضاء واستلزام وكذا افتراض مسبق، وهي تقنيات تربط بالخطاب من ناحية التركيب منها: التقديم والتأخير... وغيرها تفصيله فيما يأتي.

بعد مطالعة مدونتنا محل الدراسة لاحظنا حرص كل من "العسكري" و"ابن الأثير" على تبيان الفروق بين الكلم، ومما لا شك في أن هذه الفروق في الاستخدام الجملي ترتبط ارتباطا وثيقا بالأغراض التي يوضع لها الكلام بهذا الوضع، وهو أشبه ما يكون بألعاب اللغة عند "فتجنشتاين": «فاستعمال اللغة كما يقول فتغنشتاين شبيه بلعبة علينا أن نتعلم قواعدها بممارسة اللعبة ذاتها، فنحن لا نصبح ممتلكين للسان ما بداية بتعلم مجموعة وحيدة من القواعد الوصفية التي تتحكم في استعماله في كل حالة، ولكن بمشاركتنا في كثير من الألعاب اللغوية المختلفة التي ترتبط كل واحدة منها بصنف من السياق الاجتماعي مخصوص ومحدد عبر مواضع

اجتماعية مخصوصة»¹، وهكذا يكون بتوظيف آليات مختلفة في القول، من تقديم وتأخير... إذن هي ممارسة لألعاب اللغة بحسب سياق الاستعمال ليظهر بذلك الضمني والصريح في خطاب المتكلم ويتعدى مجرد النقل ليكون مُبلِغاً؛ وهذا ما تحدث عنه "طه عبد الرحمان" في مصطلح التبليغ فيقول: «التبليغ هو عبارة عن نقل فائدة القول الطبيعي نقلاً يزوج فيه الإظهار والإضمار»²، ولما كان القصد هو المعنى أو المراد في المقولات البلاغية التي تعرض لها كل من "العسكري" و"ابن الأثير" نتساءل عن كيفية استجابة هذا القصد المرتبط بالمتكلم للسياق التداولي، وكيف تظهر دينامية تلك المقولات بالنظر إلى مقام التخاطب، خاصة في تحليلاتهما - أقصد "العسكري" و"ابن الأثير" - للنماذج الخطابية؟، وهذا التواصل والتفاعل بين المرسل والمتلقي تحكمه قواعد ومبادئ؟ أم أن هذا التلاعب أو اللعب باللغة والمزاوجة بين التصريح والتلميح مشروط بقواعد تضبطه؟ للإجابة عن هذا كله تقترح المبحث التالي.

¹ - صابر الحباشة، في المعنى، مباحث دلالية معرفية، المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء، ط 1، 2008، ص ص:

144 - 145.

² - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوّن العقلي، مرجع سابق، ص: 216.

المبحث الـثاني: قواعد التخاطب و التفاعل الكلامي عند "العسكري" و"ابن الأثير" ومبادئه:

يعمد المتخاطبون إلى احترام مجموعة من القواعد التخاطبية بغية إنجاح العملية التواصلية أو الرفع من القوة الإنجازية للفعل الكلامي، وذلك قصد تحقيق مكاسب معينة على الصعيد الاجتماعي أو السياسي، وقد عمد الدرس التداولي الحديث إلى عدة اتجاهات عنيت بهذه القواعد، منها اتجاه مبادئ التعاون لـ"غرايس"، مبادئ التأدب لـ"روبين لاكوف"، مبادئ التواجه لـ"براون و ليفنسون"، مبادئ التأدب الأقصى لـ"ليتش".

وقد عنى علماء العربية بالقواعد التخاطبية التي عدّها المعاصرون من أهم أسس الدرس التداولي المعاصر، إذ سبق وأن خلصنا إلى أن علمائنا ومن بينهم "العسكري" و"ابن الأثير" قد ركزوا اهتمامهم على ضرورة مراعاة حال المخاطب، و الفائدة التي يجنيها السامع من كلام المتكلم.

أمّا المبادئ التي نوّد الوقوف عندها فهي ثلاثة؛ مبدأ التعاون لـ"غرايس" ومحاولة التقريب بين ما جاء به وبين التنظيرات البلاغية في كتابينا، و كذا بين هذه الأخيرة واجتهادات "ديكرو" في وضع قواعد جديدة للتخاطب، المبدأ الثاني هو "مبدأ التأدب" و مبدأ "الاقتضاء"، وهذه المبادئ تعتب من بين أهم المبادئ التي يقوم عليها الدرس التداول المعاصر.

أولاً: قواعد التخاطب:

أ. مبدأ التعاون لـ"غرايس" وقوانينه:

أ. قانون الكم: نقصد بقانون الكم بعض المفاهيم والمبادئ التي صاغها البلاغيون والتي يمكن تلمس بعضها في مباحث "علم المعاني"، إلا ينبغي أن نشير إلى أنه هناك فرق بين مسلمة "الكم" عند "غرايس" و قانون الكم الذي نبحت عنه في كتابينا، إذ يكمن الاختلاف في أن "غرايس" يفرق تفريقاً دقيقاً بين القول ومضمونه، إلا سنركز على إظهار القاعدة الثالثة منه والتي مفاده: "كن موجزاً"، بمعنى لا تكن مطنبا فوق الحاجة، ولو أمعنا في هذا لوجدنا أن

هذا يقارب ما جاء تحت باب " الإيجاز و الإطناب"، وهو من أهم الخصائص التي ارتكز عليها "العسكري"، وقد اعتمد في شرحه على مجموعة من الأقوال منها « الإيجاز قصور البلاغة على الحقيقة، وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضل داخل في باب الهذر والخلط، وهما من أعظم أدواء الكلام، وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصناعة»¹.

إلا أنه ينبغي أن يتسم الخطاب بالإيجاز المفيد؛ وهو من البلاغة، لذلك لاحظ "العسكري" اقتزان تعريفها به، فحدها يكاد يرادف عند بعضهم لفظ « الإيجاز، ولا يعدوه، وهذه الموهبة التي عرف بها العرب الخُص، والتي هي قوام بلاغتهم»²، فمن بعض تعريفات البلاغة التي أوردها "أبو هلال العسكري" أن « البلاغة الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خلط»³.

وليدعم " أبو هلال" ذلك استشهد بنظم بعض الشعراء ك"النابغة الذبياني" و" الفرزدق" و"الخطيئة"؛ فذكر أن " الفرزدق" حين سئل « ما صيرك إلى القصائد القصار بعد الطوال؟، فقال: لأني رأيتها في الصدور أوقع، وفي المحافل أجول»⁴؛ فهذا الشاعر فضل القصائد القصار على الطوال بحكم الأثر الذي ستتركه في قلب السامع أو المتلقي من جهة، والبلاغة التي يقتضيها الإيجاز في المحافل أو في مكانها المناسب من جهة أخرى، ويوافقه رأي " الخطيئة" الذي يتضح فيما أورده عنه "العسكري" حين سألت ابنته، وقالت : « ما بال قصارك، أكثر من طوالك، فقال: لأنها في الآذان أولج، وبالأفواه أعلق»⁵؛ فحسب رأيه أن القصائد الموجزة تكون ذات وقع أكثر في النفوس، فتمكّن العقول من استيعابها، والأفواه من ترديدها؛ فالإيجاز مؤسس على تقليل الكلام، مع استيفاء المعنى المراد وعدم الإخلال به، وهو من محمود الكلام، لذلك قال "أبو هلال": « إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا»⁶، ويقوله هذا فهو يوصي-

¹ - العسكري، الصناعتين، ص: 179 .

² - إحسان النص، الخطابة العربية في عصرها الذهبي، مصر دار المعارف، ط2، 1963 ، ص: 196 .

³ - العسكري، الصناعتين، ص: 209.

⁴ - المصدر نفسه، ص: 193.

⁵ - المصدر نفسه، ص: 193.

⁶ - المصدر نفسه، ص: 193.

"العسكري" - بالإيجاز؛ لأنّ له محاسن لا تتحقّق مع غيره، كما يراعى في هذه التقنية الحالة النفسية للمتلقّي «لأنّ للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل على الاحتمال، ودعا إلى الاستئصال، وصار سببا للملال»¹، فالإخلال بهذه المسلمة قد يؤدي بقطع التواصل بين المتكلم والسامع.

أما "ابن الأثير" فرأيه أن الإيجاز: «هو أن يؤتى بالألفاظ دالة على معنى من غير أن تزيد على ذلك المعنى»²، ثم يكمل قوله شارحاً: «والنظر فيه إنما هو إلى المعاني لا إلى الألفاظ ولست أعني بذلك أن تهمل الألفاظ بحيث تعر عن أوصافها الحسنة بل أعني أن مدار النظر في هذا النوع إنما يختص بالمعاني فرب لفظ قليل يدل على معنى كثير»³. وفيما يلي ننتقل إلى يقابل هذا القانون وهو قانون الكيف.

أ. **قانون الكيف:** يبدو المجال الذي تنطبق عليه مسلمة الكيف و المتعلقة بمضامين العبارات والأقوال أكثر اتساعاً لأن الكثير من المباحث في البلاغة العربية يمكن تقرأ على أنها تقارب هذه المسلمة، و أول ما يمكن ملاحظتها في تعريف البلاغة بأنها " **مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته**"، وكل المباحث التي تهتم بالمعنى، يمكن اعتبارها "مسلمة الكيف" من منظور بلاغي إن صح التعبير، في مقابل "مسلمة الكيف" التي صاغها "غرايس" المتعلقة بصدق المعلومات وحجيتها، والكيف كما يمكن تصوره في التراث البلاغي ليس فيه فصل بين الألفاظ والمعاني، إذ الكيف متعلق بالمضامين سواء من قبيل الصدق والحجية أو من قبيل الوضوح والبيان⁴، والجدير بالذكر هنا أن الكلام في البلاغة العربية مبني على الصدق، وسنوضحه أكثر في ما يلي خلال توضيحنا للتقارب بين قواعد "ديكرو" و التراث البلاغي، أما الخطأ بقصد أو بغير قصد فغير معنية به لأنها تهتم بنوع رفيع من الكلام وهو الكلام البليغ.

¹ - المصدر السابق، ن ص.

² - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص:255.

³ - ن م، ن ص.

⁴ - ينظر: محمود طلحة، قوانين التخاطب في البلاغة العربية، مجلة الخطاب، العدد، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة تيزي وزو، ع 25، 2017، ص:22.

ب. قانون النوع: والتي لخصها "غرايس" في ثلاث قواعد: "تجنب الإبهام، تجنب اللبس، تنظيم الكلام"، ويمكن ملاحظة هذا في ما يدور في هذا الفلك في التراث البلاغي عند كل من "العسكري" و"ابن الأثير" وذلك من خلال اشتراطهما لخلو الكلام من الإبهام وتجنب اللبس، فمثلا يرى "ابن الأثير" ضرورة أن يضمن الكلام قرينة تمنع حدوث لبس، وذلك إثر استعمال الألفاظ المشتركة، ولتوضيح ذلك يقدم مثالا: «كقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ألا ترى أن لفظة التعزيز مشتركة تطلق على التعظيم والإكرام، وعلى الضرب الذي هو دون الحد وذلك نوع من الهوان، وهما معنيان ضدان، فحيث وردت في هذه الآية جاء معها قرائن من قبلها ومن بعدها فخصت معناها بالحسن، وميزته عن القبيح، ولو وردت مهملة بغير قرينة وأريد بها المعنى الحسن لسبق إلى الوهم ما اشتملت عليه من المعنى القبيح، مثال ذلك لو قال قائل: لقيت فلانا فعزرتة، لسبق إلى الفهم أنه ضربه وأهانته، ولو قال: لقيت فلانا فأكرمته وعزرتة لزال ذلك اللبس»¹.

كما يشترط "العسكري" خلوه من التعقيد، وذلك إثر شرحه لكلام أحد البلغاء في البلاغة وتعريفها: «وقوله بعيداً عن التعقيد، والإغلاق، والتعكير سواء.. وهو استعمال الوحشي، وشدة تغليق الكلام، بعبه ببعض، حتى يستبهم المعنى.. وقد ذكرنا أمثاله ذلك فيما تقدم... ونذكر هاهنا منها شيئاً. فمثال الوحشي.. قول بعض الأمراء وقد اعتلت أمه فكتب رقاعاً وطرحها في المسجد الجامع بمدينة السلام: صين امرؤ ورعى، دعا لامرأة إنقطة مقسنة، قد منيت بأكل الطرموق، فأصابها من أجله الإستمصال، أن يمن الله عليها بالأطر غشاش والإبرغشاش.. فكل من قرأ رقعته دعا عليها، ولعنه ولعن أمه»². و كلامه يوضح الفعل التأثيري الناتج من المتلقين؛ فردة فعل القراء لتلك الرسالة أو الرقعة، ردة فعل عكسية سلبية.

وكما ذكرنا سابقا فقد بنيت البلاغة على الإفهام والبيان والوضوح؛ والبلاغة ترفض كل ما يحول دون ذلك، وبذلك تنصح المتكلم بأن يتجنب الإبهام واللبس في الكلام، ولربما تتضح أكثر

¹ ابن الأثير، المثل السائر، ج 1، ص: 203.

² العسكري، ص: 57. الطرموق، الطين. والإستمصال: الإسهال، واطرغش، وابرغش: إذا أبلّ وبرأ.

في جزئية لاحقة تهتم بدراسة المجاز والاستلزام الحواري، وكما وضحنا في جزئية الاختيار ضرورة أن يكون الكلام منظماً مرتباً وفقاً للمقام والحال في الخطاب، وهذا ما يجعلنا ننتقل للقانون الموالي وهو قانون العلاقة.

ج. **قانون العلاقة:** والتي مفادها "قل ما يلائم"، والتي تتضح في اشتراطهم ضرورة موافقة الكلام لما يناسب المقام من حال المتكلم والمتلقي وكذا المناسبة الكلامية، فما يلائم المدح غير ما يلائم الذم، وكذا ما يلائم التعزية غير ما يلائم التهنة وهكذا دوليك... وقد اجتهد "العسكري" في توضيح ذلك ، وذلك في فصل وسمه "بما ينبغي أن يتجنبه الكاتب... فقد حاول وضع

شروط لمعظم لأغراض الشعرية من "مديح وهجاء وتشبيب وغزل وفخر و..مثلاً؛ يقول: «
وينبغي أن يكون التشبيب.. دالاً على شدة الصباية، وإفراط الوجد، والتهالك في الصبوة..

ويكون برياً، من دلائل الخشونة والجلادة، وأمارات الإباء والعزة»¹، ثم يضيف: «و يستجاد التشبيب أيضاً إذ تضمن ذكر التشوق والتذكر لمعاهد الأحبة، بهبوب الرياح، ولمع البروق، وما يجرى مجراهما من ذكر الديار والآثار. فمن أجود ما قيل في الديار قول الأزدى:

فلم تدع الأرياح والقطر والبلى من الدار إلا ما يشف ويشغف»².

ثم يضيف: « وكذا ينبغي أن يكون التشبيب دالاً على الحنين، والتحسر، وشدة الأسف، كقوله:
وليسَتْ عشيَّاتُ الحمى برواجعٍ إليك ولكنَّ خلَّ عينيك تدمعاً

وأذكر أيامَ الحمى ثم أنثى على كبدي من خشية أن تصدعا»³.

كما يذكر عيوب كل حدث كلامي - إن صح التعبير - أو غرض شعري، إذ مخالفة هذه الشروط التي وضعا ستخل بتحقق هذا الفعل الكلامي؛ ف يقول: «وينبغي أن يظهر المناسب الرغبة في الحب، وألاً يظهر التبرم به.. كأبي صخر حين يقول:

فيا حبها زمني جوى كل ليلةٍ ويا سلوة الأيام موعدك الحشر»¹.

¹- المصدر السابق ، ص:145.

²- المصدر نفسه ، ص: 146.

³- ن م، ن ص.

وكذا تظهر هذه المسلمة في حديث "ابن الأثير" عن حسن الابتداءات، يقول: «ومما يكره من الابتداءات قول أبي تمام: تجرع أسي قد أفر الجرع الفرد»². ثم يعلق قائلاً: «فإن ابتداء المديح بمثل هذا طيرة ينبو عنها السمع، وهو أجدر بأن يكو ابتداء مرثية لا مديح»³، وهنا أيضاً عليه أن يراعي الحالة النفسية للمتلقي في هذا المقام وهو المديح، وإلا حدث خلل في عملية التخاطب والتواصل.

ب. قواعد التخاطب لـ"ديكرو"

لقد استدرك بعض الباحثين على "غرايس" هذه القوانين التي قدمها فاقترح بعضهم تعديلات وقوانين وقواعد أخرى، وبمكنا أن نشير هنا إلى ما قدمه "ديكرو"؛ إذ تهتم اقتراحاته أيضاً في مجال الكشف عن المعاني غير الصريحة التي يكون خرق القوانين سبباً للتعرف عليها، فهل يا ترى تنبه عالمينا الجليلين إلى هذه القواعد أثناء تحليلاتهم البلاغية؟ وهذه القواعد هي كالاتي:

أ. قاعدة الإفادة : لقد اهتم علماء العربية بالمخاطب، من خلال اهتمامهم بالخطاب في ذاته، حيث اشترطوا أن يكون الكلام مفيداً، أمّا تعر يفهم البلاغة فكان ذا ارتباط وثيق بالسامع، لأنهم ركزوا في ذلك على حصول الفهم و الفائدة إلى درجة تمكن الكلام في نفس السامع كتمكنه في نفس القائل، وفي هذا يقول "العسكري": «البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع، فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك»⁴ ؛ وهنا ركز صاحب الصناعتين على ضرورة حصول الإفادة من المتكلم إلى المتلقي، وإلا لن يكون الأول بليغاً، كذلك هو الحال بالنسبة

¹ - المصدر السابق، ص: 147.

² - ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص: 99.

³ - ن م، ن ص.

⁴ - العسكري، الصناعتين، ص: 15.

لـ"ابن الأثير"، فبعد تحديده لطريقة صناعة الخطاب من اختيار للألفاظ المناسبة للقصد وتوافقها مع بعضها في التركيب يضيف إلى أن هذا الخطاب لن يتصف بالبلاغة إلا إذا كان مفيداً¹.

ومن الآليات التي يركز عليها علماء البلاغة من أجل تحقيق مبدأ الإفادة؛ **موافقة الكلام لمقتضى الحال**، نوضح ذلك بما أورده "العسكري": « فإذا سمع لم يفقه، وإذا سئل لم ينقه. وإذا تكلم عند من هذه صفته ذهبت فائدة كلامه، وضاعت منفعة منطقه، لأنّ العامي إذا كلمته بكلام العلية سخر منك، وزرى عليك، كما روى عن بعضهم أنه قال لبعض العامة: بم كنتم تنتقلون البارحة؟ يعنى على النبيذ. فقال: بالحمّالين. ولو قال له: أي شيء كان نقلكم لسلم من سخريته. فينبغي أن يخاطب كلّ فريق بما يعرفون، ويتجنّب ما يجهلون»².

وكذا يتضح في وضعهم شروط الفصاحة؛ و خاصة خلو الكلام من التعقيد المعنوي، وخاصة ما يعرف بالمشترك اللفظي، يقول "العسكري": « من المشترك الذي يستبهم به الكلام، ووجه الاشتراك في هذا أن السامع لا يدري إلى شيء أشار من أفعاله في قوله: "ما لم أفعل" أراد أن يبكي إذا رحلوا؟ أو يهيم على وجهه من الغم الذي لحقه؟ أو يتبعهم إذا ساروا؟ أو يمنعهم من المضي على عزمة الرحيل؟ أو يأخذ منهم شيئاً يتذكروهم به؟...وأحوج السامع إلى أن يسأله عما أراد فعله عند رحيلهم»³.

وينعكس أيضاً هذا القانون في بعض الآليات البلاغية **كالتقديم والتأخير** وذلك تركيزاً منهم على المتقدم كإظهار أهميته مثلاً، أو إزالة اللبس، أيضاً **القصر**، حيث رصدوا من خلاله مواطن تأثير المتكلم على السامع من باب الإفادة.

كما كان توضيحهم للتشبيه بأنواعه، يستند فيه على ضرورة مراعاة الفائدة المرجوة منه، وهو إفادة السامع من الغرض العائد إلى المشبه، أو حتى إلى المشبه به أحياناً، من باب الإيهام والتأثير على ذهن السامع.

¹ - ينظر: ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص:163.

² - العسكري، الصناعتين، ص:42.

³ - المصدر نفسه، ص:135.

ب. قاعدة القصد: ركز العلماء العرب قديماً على قانون الإفادة، وهذا منطوق جديد، لأنه لا غاية من كلام أو خطاب دون فائدة ترجى، وكان تركيزهم على هذا القانون من باب مراعاة السامع، إلا أنهم لم ينسوا كذلك قانون القصد الذي يركز على المتكلم لتحقيق الغاية التواصلية بينه وبين مخاطبه.

ومن بين ما ركزوا عليه في القصد، معرفة المتكلم لمن يوجه خطابه، حتى يختار له الكلام المناسب، أي موافقة الكلام لأقدار الحالات، وأقدار المستمعين، وهو ما أشار إليه الجاحظ في صحيفة "بشر بن المعتمر" في تفريقه بين الكلام المقصود به الخاصة، وغيره المقصود به العامة، وهذا ما نقله أيضاً "العسكري" في كتابه الذي بين أيدينا؛ حتى أن "الجاحظ" قارن بين خطاب الله عزّ وجلّ العرب وبن إسرائيل، ويورد ذلك العسكري قائلاً: «وقد رأينا الله تعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة و الوحي، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطاً. فمما خاطب به أهل مكة قوله سبحانه: ﴿إِنَّ

الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا

يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿﴾، وقوله تعالى: ﴿لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ

بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿﴾. وقوله تعالى: ﴿أَوِ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، في أشباه لهذا كثيرة. وقل

ما تجد قصة لبني إسرائيل في القرآن إلا مطوّلة مشروحة ومكرّرة في مواضع معادة، لبعدهم

فهمهم كان، وتأخّر معرفتهم»¹، فالإطناب مقصود وكذا الإيجاز مقصود كآلية مناسبة لحال

المتلقي الموجه إليه الكلام.

أيضاً بعض حالات التقديم والتأخير التي تكلم عنها علماء البلاغة ذكرت من باب غاية المتكلم وقصده، فالمتكلم قد يقدم المسند إليه إذا قصد تعجيل المسرة أو المساءة، أو إذا رأى في المبتدأ تشويقاً وأراد تمكين الخبر في ذهن السامع، أمّا تأخيره؛ فمن بين مقاصد المتكلم فيه

¹ - العسكري، المصدر السابق، ص: 212.

تجديد نشاط السامع وإيقاظه للإصغاء إذا خرج الكلام على مقتضى الظاهر، وصار إلى الالتفات.

هذه بعض مقاصد المتكلم في أحوال الإسناد سواءً في الذكر والطي أو التعريف والتكثير أو التقديم والتأخير، وهذه المقاصد الكلامية هي التي يسميها المعاصرون بـ"القصدية" بوصفها قرينة تداولية، و بها يصل السامع إلى تحصيل الفائدة، ومما هو ظاهر أن قانون الإفادة والقصد متلازمان عند البلاغيين، حيث أن المتكلم في الخطاب يقصد إفادة السامع.

ومن خلال ما ذكرنا سابقاً نستطيع أن نقول أن قانون القصد يتحدد لنا في البلاغة العربية، وخصوصاً عند "العسكري" و"ابن الأثير" يقوم على:

-أحوال الإسناد، من تقديم للمسند إليه أو تأخيره، تعريفه وتكثيره ... إلخ.

-جعل الكلام موافقاً لأقدار الحالات وكذا أقدار المستمعين.

أيضاً نضيف أن قيام القصدية في نفس المتكلم قبل أن تكون كلاماً مجسداً، كما وضحنا سابقاً في عنصر الاختيار في فصل سابق فالاختيار يكون قائماً على قصدية معينة، وكذا الترتيب والترتيب فيما بين الألفاظ والكلمات؛ فمثلاً فقد صرح "ابن الأثير" في كلام سابق له عن كيفية إنتاج خطاب بليغ، ومن أهم الأسس التي بنى عليها ذلك القصد.

ج. قاعدة الإخبار والشمول: إن الإخبار هو أحد العناصر الأساسية لعملية التواصل،

حيث يعد تجسيدا لما في نفس المتكلم، وما يريد إيصاله إلى المتلقي و الإخبار عموماً يشكّل الغرض والقصد والإفادة من التخاطب، بغرض الفائدة التي يريد أن يفيد بها سامعه، سواءً أكان الإخبار بيانا باللفظ أم بالإشارة أم بالقلم، لتحقيق الغاية التواصلية، فالتواصل -حسب "ديكرو"- يزود المخاطب بالمعلومات التي لم تسبق له معرفتها¹، فالكلام يصبح شاملاً لكل المعان التي يريد المتكلم إيصالها إلى السامع، فيتحكم بذلك في الألفاظ التي يريد استخدامها أو يكون بها خطابه، شريطة أن يستوفي المعاني سواء بالتعظيم أم بالتصغير ..

¹-Voir :Dicrot -dire et ne pas dire , p :2

ومن التقنيات التي تعتمد هذا المبدأ أيضا الإطناب؛ لأن الفائدة مرجوة منه هي أن يكون الخبر شاملاً في ذهن السامع، وفي هذا "العسكري" يقول - وقد وضع على هامش الفقرة عنواناً قال أصحاب الإطناب: المنطق إنما هو بيان، والبيان لا يكون إلا بالإشباع، والشفاء لا يقع إلا بالإقناع، وأفضل الكلام أبينه، وأبينه أشده إحاطة بالمعاني، ولا يحاط بالمعاني إحاطة تامة إلا بالاستقصاء¹، حيث يكون الإطناب مطلوباً إذا كان ذا فائدة.

وهكذا فإن "العسكري" جعل الإطناب من باب الإحاطة بالمعنى لإشباع حاجة السامع بالخبر الملقى إليه، والإحاطة هي شمولية الألفاظ للمعاني.

ويدخل ضمن هذا قول "العسكري": «فأما ما يكتبه العمال إلى الأمراء ومن فوقهم، فإن سبيل ما كان واقعاً منها في إنهاء الأخبار، وتقدير صور ما يلونه من الأعمال، ويجري على أيديهم من صنوف الأموال أن يمدّ القول فيه حتى يبلغ غاية الشفاء والإقناع، وتام الشرح والاستقصاء، إذ ليس للإيجاز والاقتصار عليه موضع، ويكون ذلك بالألفاظ السهلة القريبة المأخذ، السريعة إلى الفهم، دون ما يقع فيه استكراه وتعقيد، وربما تعرض الحاجة في إنهاء الخبر إلى استعمال الكناية والتورية عن الشيء دون الإفصاح، لما في التصريح من هتك الستر»².

أمّا صاحب "المثل السائر" فيرى الشمول في ما سمّاه بـ"جوامع الكلم"، وهو عنده: "الكلم الجوامع للمعاني"³، وقسمه إلى قسمين:

أما أحدهما فيتمثل في ألفاظٍ وعباراتٍ تتضمن من المعنى ما لا يتضمنه غيرها، ولا يجوز أن يستعمل غيرها في مكانها، كقوله (صلى الله عليه وسلم): "حم الوطيس"، الذي لا يمكن أن تعوضه عبارة "استعرت الحرب" مثلاً، وقد يكون ذلك في الإشارة أيضاً، كقوله صلى الله عليه وسلم: "بعثت أنا والساعة كهاتين"، فلا يمكن هنا أن تعوّض الإشارة (الجمع بين

¹ - العسكري، الصناعتين، ص: 209.

² - المصدر نفسه، ص: 173-174.

³ - ابن الأثير، المثل السائر، ج 1، ص: 78.

السبابة والوسطى) بقولنا مثلاً: "على قرب من الساعة"، لأن القرب لفظ فضفاض المعنى، قد يكون كثيراً في موقف، ويدنو أكثر في موقف آخر، وبهذا يكون اللفظ أشمل خبراً أو حتى الإشارة أيضاً.

وأما القسم الثاني من جوامع الكلم فهو الإيجاز الذي يدل باللفظ القليل على المعنى الكثير، ويشمل كل المعاني المقصودة¹، يرى "ابن الأثير" أن الغاية من ذلك هو وصول السامع إلى غاية المتكلم وما يريد من خبره، ووصول المتكلم إلى ذهن السامع، بشمول ما يريد إيصاله إليه.

ومنه نجد أن بعض البلاغيين قد توصلوا إلى شمول الخبر عن طريق مقولة الكلام الشامل لكل المعاني، وعلاقة الألفاظ بها، حيث تصبح هذه الأخيرة وعاءً للأولى، ولا تتسع الأولى إلا باتساع الثانية.

د. قاعدة الصدق: إن ما يميز الإنسان في أدائه الكلام قدرته على استعمال الكذب و المغالطة، وإن كان الصدق قاعدة مهمة في الحدث الكلام إلا أننا لا نظن أن هناك كلام أو أداء لغوي قد يخلو منه، مما يؤكد ما توارث عن القدامى قولهم: "أعذب الشعر أكذبه"، ولم يكن قصدهم في ذلك الكذب المضر، ولكنه كذب فن بما فيه من المبالغة وغيرها.

و قد أكد "غرايس" على أهمية الصدق في الخطاب، و يقصد به قول الحقيقة كما هي في الواقع، أو كما يتصورها المتكلم انطلاقاً من إدراكه لهذا الواقع، و يكون بالإثبات والاستفهام²، والإثبات يكون عاد بالتوكيد، والتقرير، والقسم، نوضح ذلك مثلاً التوكيد غرض مرتبط بمضمون الخبر من ناحية صدقه، والدليل على ذلك أنه ناتج عن إنكار المخاطب أو المتلقي للخبر، مما استدعى المتكلم أن يلجأ إلى هذا الأسلوب واستعمال المؤكدات في كلامه.

من خلال ما سبق، يتبين لنا أن البلاغة العربية وخاصة من منظور "العسكري" و"ابن الأثير" قد ركزت على مجموعة من القواعد الخطابية، على رأسها قاعدة الإفادة التي لا يقوم

¹ - ينظر: ابن الأثير، المثل السائر، ج 1، ص ص: 78- 80 .

² - ينظر: عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي، ص: 106.

التخاطب إلا بها، ثم القصد من جهة المتكلم، وكذا الإخبار وشمول الخبر لقصد المتكلم، إضافة إلى صدق الخبر في نفسه والمرتكز على الإثبات والاستفهام، والإثبات نفسه يتمثل في التوكيد والتكرار والقسم، هذا بالنسبة لقواعد التخاطب التي يمكن أن نعتبرها شروطا للتخاطب ينبغي مراعاتها قبل إنشاء الخطاب، فما هي مبادئ التخاطب التداولية، وهل يمكن تجليها في تحليلات "أبو هلال العسكري" و"ابن الأثير" البلاغية والنقدية.

ثانيا: مبادئ التخاطب الكلامي:

1. مبدأ الاقتضاء أو الاستلزام التخاطبي في المقولات البلاغية:

أ. الافتراض المسبق و التقديم والتأخير:

ننطلق في دراسة هذه المقولات البلاغية من فرضية أنها متعلقة بالاستلزام التخاطبي أثناء انجاز الفعل الكلامي من المتكلم نحو المخاطب، ذلك الاستلزام يجعلنا نتساءل عن تجليات القدرة اللغوية لدى المتكلم في استثمار اللغة وشحنها بجانب دلالي مستلزم في القول، ويستدعي تأويلا من طرف المخاطب من أجل الخروج من الحرفية التعبيرية إلى المعنى المستلزم مقاميا، فكيف تتم عملية الاستلزام هذه؟؛ أي كيف يتم الانتقال من المعنى الصريح إلى المعنى المستلزم خطابيا؟ كيف يمكن معرفة وضبط المعنى الذي تستلزمه المقولات البلاغية التي تنتقل من صيغة معينة إلى صيغة أخرى؟.

بالنسبة لـ"ابن الأثير" فقد ذكر في بداية حديثه عن التقديم والتأخير أنه «باب طويل عريض يشتمل على أسرار دقيقة»¹، و ينقسم في نظره إلى قسمين؛

-الأول: يختص بدلالة الألفاظ عن المعاني ولو آخر المقدم أو قدم المؤخر لتغيير

المعنى.

- والثاني: يختص بدرجة التقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك ولو آخر لما

تغيير المعنى.

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص:216.

ويذهب إلى أن القسم الأول نفسه؛ ينقسم إلى قسمين أحدهما يكون التقديم هو الأبلغ، والآخر: يكون التأخير فيه هو الأبلغ¹.

ومن الأمثلة² التي أوردها وبين مزية التقديم من خلالها قوله تعالى: ﴿أَرَاغِبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾، فإنه إنما قدم خبر المبتدأ عليه في قولك: أراغب أنت، ولم يقل: أنت راغب لأنه أهم عنده، وهو به شديد العناية وفي ذلك ضرب من التعجب والإنكار لرغبة إبراهيم عن آلهته، و أن آلهته لا ينبغي أن يرغب عنها وهذا بخلاف ما لو قال: "أنت راغب عن آلهتي".

و ينبغي الإشارة إلى أن المتكلم يعمل على مراعاة مبدأ التعاون في خطاباته، بالرغم من خرق قاعدة الكيف والذي يتضح في تغيير أماكن الملفوظات، إلا أن مراعاته لمبدأ التعاون يظهر في احترام السياق التخاطبي الذي يتواجد فيه مع مخاطبه، لأن هذا الأخير «يستدل بلغة الخطاب الظاهرة ليفهم الخطاب في قصده الباطن أو المضمرة»³، مما يجعله يرتقي إلى مصافي المعنى المقصود وهو المعنى غير الظاهر والذي يستلزمه المقام.

ب. مضمرة القول و الحذف:

يلتقي موضوع الحذف وارتباطه بالسامع بمفهوم مضمرة القول وبالضبط " الافتراض المسبق" في اللسانيات التداولية، فهو يهتم بدراسة المعارف المشتركة بين المتكلم والسامع أو بين ما ينبغي أن يكون معروفاً أو يفترض العلم به سابقاً قبل إجراء الخطاب» وهذا ما يظهر في كيفية التخاطب بين المتكلم والسامع بمراعاة المعارف المشتركة بينهما، مما يجعل الحذف مرتبطاً بتلك المعرفة المشتركة، فما يحذف يكون قابل لأن يدرك تقديره من طرف السامع كونه مؤولاً للخطاب»⁴، وهنا يظهر الاستلزام التخاطبي بحسب سياق التخاطب.

¹ - ينظر: المصدر السابق ، ج2، ص ص: 216-217.

² - المصدر نفسه ، ج2، ص: 222 وما بعدها.

³ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 201 .

⁴ - خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص: 18 .

كما يظهر الحذف من مظاهر الكفاءة والاعتدال اللغوي، لدى المتكلم والتنبه له يكون من جهة المخاطب، حيث يعمد المتكلم إلى إضمار أو انتزاع أجزاء من الكلام يزداد بها المعنى تأثيراً، وتزداد الرابطة التواصلية ظهوراً من حيث أن المخاطب يسعى إلى فك شفرات الحذف ومضمراته بسيرة من الافتراضات المسبقة والاستدلالات، التي من شأنها أن تساعده في التأويل المناسب للقول، وفي ذلك يقول "ابن الأثير": « وهذا النوع من الكلام شريف لا يتعلق به إلا فرسان البلاغة، من سبق إلى غايتها وما صلى وضرب في أعلى درجاتها بالقدر المعلى، وذلك لعلو مكانه، وتعذر إمكانه والنظر فيه إلى المعاني لا إلى الألفاظ»¹، ومكانة الإيجاز - كما ذكر - مكانة سامية، مصداق ذلك أن البلاغيين والنقاد الأوائل عرفوا البلاغة بأنها الإيجاز؛ أي أن من امتلك مهارة الإيجاز وسيطر على فنيتها يصنف ضمن البلغاء.

وقد تنبه "العسكري" قبله للأبعاد التداولية لـ "الإيجاز"، إذ يبين أن الإيجاز يتحقق لإفهام المطلوب في الكلام مستشهد بقول أحد الحكماء: « عليكم بالإيجاز فإن له إفهاماً، و الإطالة استبهاماً»²؛ فهو مرتبط بفهم السامع و استيعابه للفكرة المرادة، لذا بقيت « مسألة الإيجاز تأخذ المتصل، المرسل في اعتباره أن المتلقي قدرته على الاستيعاب من ناحية، و من ناحية أخرى أن له قدرة محدودة زمنياً للمتابعة»³، و هذه الأخيرة هي التي تجعل المتكلم يجنح أكثر إلى ما قل من الكلام، و أبان المقصود.

ويورد " أبو هلال" ما يدعم تصويره ما نقله عن "الفرزدق" حين سئل « ما صيرك إلى القصائد القصار بعد الطوال؟ فقال: لأنني رأيتها في الصدور أوقع، و في المحافل أجول»⁴؛ إذ أدرك هذا الشاعر فضل القصائد القصار على الطوال بحكم الأثر الذي ستتركه في قلب السامع أو المتلقي من جهة، والمقام من جهة أخرى إذ تقتضي المحافل الإيجاز، وهذا يدعم رأي

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج 2، ص: 265.

² - العسكري، الصناعتين، ص: 179

³ - صالح خليل أبو الأصعب، نصوص تراثية في ضوء علم الاتصال المعاصر، عمان دار مجدلاوي، 2000، ص: 122.

⁴ - العسكري، الصناعتين، ص: 180.

"الحطيئة" والذي نقله "العسكري"، وذلك حينما سألته ابنته قائلة: «ما بال قصارك أكثر من طوالك؟ فقال: لأنها في الأذان أولج، و بالأفواه أعلق»¹، فالملاحظ أن القوائد الموجزة تكون ذات وقع أكثر في النفوس فتمكن العقول من استيعابها، و الأفواه من ترديها.

كما تُظهر بلاغة الإيجاز مقدرة المرسل على التعبير عن مجمل أفكاره تعبيراً موجزاً و شاملاً، ومن شأنه أن يصبغه بالصبغة التي يكون إثرها أبلغ الوقع، و أقوى الأثر ن في نفس السامع²، وهذا ما استحسنته "علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)" بقوله: «ما رأيت بليغا قط إلا و له في القول إيجاز، ز في المعاني إطالة»³.

واعتباراً لهذه الأهمية، نرى أن كل من "العسكري" و"ابن الأثير" حاولا رصد هذه الظاهرة من كل أبعادها، إذ خصص له هذا الأخير جزء كبيراً من كتابه تناولته بشيء من التوسع والتوضيح، بدء بتعريفه وأقسامه إلى شرحه من خلال أمثلة نثرية وشعرية ونصوص قرآنية. فكيف كان تصورهما لهذه التقنية البلاغية و مدى مساهمتها في إنجاح العملية التبليغية...؟

بداية نجد "ابن الأثير" يعرف الإيجاز في جملة قصيرة تقول: «هو دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه»⁴، ولكي يوضح مفهومه أكثر راح يذكر ما هو ضد الإيجاز وهو التطويل بلا فائدة قائلاً: «وهو أن يدل على المعنى بلفظ يكفيك بعضه في الدلالة عليه»⁵، و هو عكس الإيجاز الذي لا يمكن أبداً أن نحذف شيئاً من الكلام فيه وإلا اختل المعنى وبطل الفهم. ومن هذا التعريف نرى "ابن الأثير" يفرع الإيجاز ويقسمه إلى قسمين أساسيين وهما:

1. الإيجاز بالحذف وهو ما يحذف منه اللفظ المفرد والجملة لدلالة فحوى الكلام على

المحذوف ولا يكون إلا فيما يزداد معناه على لفظه.

2. ما لا يحذف منه شيء؛ وهو نوعان:

¹ - المصدر السابق، ن ص.

² - ينظر: إحسان النص، الخطابة العربية في عصرها الذهبي، مرجع سابق، ص: 196

³ - العسكري، الصناعتين، ص: 180.

⁴ - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص: 270.

⁵ - المصدر نفسه، ج2، ص: 270.

أحدهما: ما ساوى لفظه معناه ويسمى التقدير؛

-والآخر: ما زاد معناه على لفظه ويسمى القصر.

و بالعودة إلى " أبو هلال العسكري" نجد قد وضح هذا قبله، و بين أن الإيجاز يكون بالقصر و الحذف، فالأول يكون بـ«تقليل الألفاظ و تكثير المعاني»¹، و يتعلق هذا الصنف بذكر الكلمات القليلة التي توجي إلى المعاني الكثيرة من غير حذف². و قد قيل: «من أبلغ الناس؟ قال من حلّى المعنى المميز باللفظ الوجيز، و طبق المفصل قبل التحزيز- المميز الفاصل، و المزمز الفضل»³.

و نجد " العسكري" يربط بين هذه التقنية البلاغية بالحالة النفسية للمتلقى إذ يجب أن تراعى، وذلك «لأنّ للكلام غاية، و نشاط السامعين نهاية، و ما فضل عن مقدار الاحتمال دعا إلى الاستثقال، و صار سبباً للملال، فذلك هو الهذر و الإسهاب و الخطل، و هو معيب عند كل لبيب»⁴.

ولا يغيب هذا على " ابن الأثير" إذ يشترط الإيضاح و الإبانة طبعاً للمتلقى، وذلك في قوله: «و أما الذي يجب توخيّه و اعتماده فهو أن يسلك المذهب القويم في تركيب الألفاظ على المعاني بحيث لا تزيد هذه على هذه مع الإيضاح و الإبانة»⁵، وهذا يعني أن الحذف من الفعاليات الاقتصادية الخاصة بالكلام، كما تحافظ هذه الفعالية على شرط إلزامي مهم وهو عدم التعمية والاتجاه نحو غرض المعنى، لأن الأهمية العظمى المتأنتية منه(الحذف) هي إثارة الانتباه و أعمال ذهن و فكر المتلقى، الذي يجد نفسه ملزماً بمعرفة المحذوف و موضعه لفهم المراد (قصدياً المتكلم)، عن طريق استلزام معين يقوم به للوصول لذلك، أو هو استتطاق الأبعاد الجمالية و الفنية الواردة في العبارات و الصيغ الكلامية التي تشمل على الحذف.

¹ - العسكري، الصناعتين، ص:181.

² - الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص:76.

³ - العسكري، الصناعتين، ص:181.

⁴ - المصدر نفسه، ص:194.

⁵ - ابن الأثير، المثل السائر، ج 2، ص:259.

ومن أمثلة "العسكري" التي تبين فائدة الإيجاز وفضله قوله عز وجل: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾¹؛ يقول معلقاً: «إذا قرنته بما جاء عن العرب في معناه، هو قولهم "القرآن أنفى للقتل"، فصار لفظ القرآن فوق هذا القول لزيادته عليه في الفائدة، وهو إبانة العدل بذكر القصاص وإظهار الغرض المرغوب عنه فيه لذكر الحياة، واستدعاء الرغبة والرغبة لحكم الله به ولأجازه في العبارة، فإن الذي هو نظير قولهم "القتل أنفى للقتل" إنما هو "القصاص حياة"، وهذا أقل حروفاً من ذلك ولبعده الكلفة بالتكرير، وهو قولهم: "القتل أنفى للقتل"، ولفظ القرآن بريء من ذلك، وبحسن التأليف وشدة التلاؤم المدرك بالحس، لأن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة»²؛ إذ يعكس هذا الشاهد وطريقة شرحه ما يقارب طرح "أندي مارتيني" ضمن مصطلح لساني حديث؛ وهو ما يعرف بـ"الاقتصاد اللغوي" *Economie linguistique*³، حيث بين أنه «لا يمكن أن نحصر معنى "الاقتصاد" في معنى "التقتير" *Parcimonie* كما فعل "Passy" حين قابل كلمة الاقتصاد بكلمة "التبذير" *Emphase*؛ بل إن الاقتصاد يشمل كل شيء: تقليص كل تمييز غير مفيد، وإظهار تميزات جديدة والإبقاء على الوضع فالإقتصاد هو التآلف بين كل القوى المتواجدة»⁴، ويظهر أكثر في أحد أنواعه وهو القصر، وهو ما يثبت هذا، بتعريفه القصر بأنه «تقليل الألفاظ وتكثير المعاني»⁵.

فالقصر يتعلق بذكر الألفاظ القليلة ذات الدلالات الكثيرة، والتي تغني عن ذكرها مع كلمات أخرى، ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾⁶؛ إذ «دخل تحت الأمن جميع

¹ - سورة البقرة، الآية: 189.

² - العسكري، الصناعتين، ص: 181.

³ - VOIR: André martinet économie des changements phonétiques, berne frank édition, 1955, p:97.

⁴ - أحمد مؤمن، اللسانيات النشأة والتطور، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، 2002، ص: 155.

⁵ - العسكري، الصناعتين، ص: 195.

⁶ - سورة الأنعام، الآية: 27.

المحوبات لأنه نفى به أن يخافوا شيئاً أصلاً من الفقر و الموت و زوال النعمة و الجور، و غير ذلك من أصناف المكاره، فلا ترى كلمة أجمع من هذه»¹.

فالقصر يقوم على استيفاء الكلمة المذكورة للمعاني الكثيرة التي قد يتطلب ذكرها المفردات الكثيرة، قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾²؛ فقد جمع الله تعالى «جميع مكارم الأخلاق، لأن في العفو صلة القاطعين و الصفح عن الظالمين، و إعطاء المانعين، في الأمر بالمعروف تقوى الله و صلة الرحم و صون اللسان عن الكذب، و غض الطرف عن المحرمات و التبرؤ من كل قبيح»³، و بلاغة الفعل الكلامي ضمن هذا النوع من الإيجاز ترتبط بهذا القليل، الذي يجعل المتلقي يدرك المقصود في كلام موجز، و مستوفي للإفادة الموجزة.

و من القصر الواقع في الحديث الشريف قوله صلى الله عليه و سلم: " إِيَّاكُمْ وَ خَضْرَاءِ الدَّمَنِ"⁴، و "إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا"⁵، ف«معاني هذا الكلام أكثر من ألفاظه، و إذ أردت أن تعرف صحة ذلك فحلها و ابنها آخر فإنك تجدها تجيء في أضعاف هذه الألفاظ»⁶.

أما الصنف الثاني الإيجاز بالحذف فيتعلق بذكر بعض الألفاظ لأنها مدركة لدى

المتلقي، أي من الافتراضات المسبقة لديه، وقد جعله "العسكري" على وجوده كثيرة منها:

1- حذف المضاف و إقامة المضاف إليه مكانه، وهو أن يحذف المضاف و يجعل الفعل له كقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾⁷، بذكر المضاف إليه و إحلاله محل المضاف، و إنما سوغ ذلك الثقة بعلم المخاطب، إذ الغرض من اللفظ الدلالة على المعنى، فإذا حصل

¹ - العسكري، الصناعتين، ص: 182.

² - سورة الأعراف، الآية: 199.

³ - العسكري، الصناعتين، ص: 183.

⁴ - المصدر نفسه، ص: 184.

⁵ - ن م ص، ن ص.

⁶ - ن م ص، ن ص.

⁷ - سورة يوسف، الآية: (82).

المعنى بقرينة حال أو لفظ آخر استغنى عن اللفظ الموضوع بإزائه اختصاراً، فإذا حذف المضاف أقيم المضاف إليه مقامه، و أعرب إعرابه .. فالقرية من حيث هي مدر و حجر لا تسأل، لأن الغرض من السؤال رد الجواب و ليس الحجز و المدر مما يجيب واحد منهما»¹، و منه كذلك قول المنتهل الهذلي²:

يمشي بيننا حانوت خمر من الخرس الصراصة القطاط

فالمراد هنا صاحب الحانوت، لكن الشاعر أوجز، لأنه يعي أن المتلقي قد تسنى له الوقوف على هذا المقصد، فمن غير المعقول أن يمشي الحانوت، فالمقصود هاهنا أن صاحب الحانوت، لكن الشاعر أوجز كلامه، ولربما كان سبب هذا الإيجاز افتراض الشاعر أن للمتلقي كفاءة تداولية "Compétence pragmatique" تؤهله من إدراك مواضع الحذف انطلاقاً من استدلالات قائمة على استثمار معطيات السياق اللغوي وملابسات المقام. بمعنى أن النقص الذي يمكن أن يشوب أي صياغة لغوية؛ يمكن ملؤه وتكملته بالاعتماد على " ما يرشد إليه سياق الكلام أو دلالة الحال"³.

2- وقوع الفعل على شيئين و هو لأحدهما و يضمم للأخر فعله ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾⁴، فالمقصود بذلك " و أدعوا شركاءكم " فالفعل " أجمعوا" قام مقام الفعل الضمير.

3- أن يأتي الكلام على أنه جواب فيحذف الجواب اختصاراً، فقد يحذف المتكلم الجواب اختصاراً إذ علم أن المخاطب سيقف على المقصود منه، و قد وضح ذلك "العسكري" بقوله عز

¹ - شرح المفصل، ابن يعيش، ج3، ص: 23.

² - العسكري، الصناعتين، ص: 187.

³ - محمد حسنين أبو موسى، دلالات التراكييب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، منشورات جامعة قاريونس، ط1، مصر، 1979، ص: 123.

⁴ - سورة يونس، الآية: 71.

و جل: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾¹، بالسكوت عن الجواب، لأن المقصود منه مفهوم لدى المتلقي.

و منه كذلك حذف كلمة أو كلمتين، و حذف القسم بلا، و إسقاط "لا" و غير ذلك، و في كل هذه الأنواع إيجاز، يبرر ذلك قدرة المتلقي على فهم المراد، من دون حاجة المتكلم من ذكر الألفاظ التي تدل عليه.

و قد نبه "العسكري" بأن لا يخل الحذف بالمقصود، وذلك بحديثه عن **الحذف الرديء** الذي يؤثر على المعنى، و منه قول "الحارث بن حلزة"²:

و العيش خير في ظلال و النوك ممن عاش كدا

و «إنما أراد "والعيش الناعم خير في لظلال النوك من العيش الشاق في ظلال العقل"، و ليس يدل لحن كلامه على هذا، فهو من الإيجاز المقصر، و مثله في نثر الكتاب من كتب بعضهم: "فإن المعروف إذا زجا، كان أفضل منه إذا توفر و أبطأ"، و تمام المعنى أن يقول: "إذا قل وزجا"، فترك ما به يتم المعنى و هو ذكر القلة»³، فمهما تنوعت أنواع الحذف التي تمس الكلام فإنها تظل مرتبطة بعدم ضياع المقصود.

بالنسبة لـ"ابن الأثير" فالإيجاز بالحذف يشكل القسم الأول، ويعني حذف كلمة مفردة أو جملة من الخطاب، وتبقى دلالاته كاملة غير ناقصة يستشفها المخاطب ويفهمها من القرائن اللفظية أو الحالية، وبهذا يكون المخاطب مشاركا في إنتاج معنى الخطاب، فهو لا يقف موقفا سلبيا بل موقفا إيجابيا يشارك في إنتاج الدلالة التي توحى بها الألفاظ وتدل عليها الكلمات المحذوفة، لذا نراه يقول: «أما الإيجاز بالحذف فإنه عجيب الأمر شبيه بالسحر، وذلك أنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، أو تجدك أنطق ما تكون إذا لم تتطرق وأتم ما تكون مبينا إذا لم تبين، وهذه جملة تتكرها حتى تخبر وتدفعها حتى تنتظر

¹ - سورة الرعد، الآية: 31.

² - العسكري، الصناعتين، ص: 194.

³ - المصدر نفسه، ص: 194.

والأصل في المحذوفات جميعها على اختلاف ضروبها أن يكون في الكلام ما يدل على المحذوف، فإن لم يكن هناك دليل على المحذوف، فإنه لغو من الحديث لا يجوز بوجه ولا سبب ومن شرط المحذوف في حكم البلاغة انه متى أظهر صار الكلام إلى شيء غث لا يناسب، ما كان عليه أولاً من الطلاوة و الحسن»¹.

و قد تناول الإيجاز؛ نذكر أولاً **حذف المفردات** الذي فرع منه أربعة عشر فرعاً يمكن ذكرها دون تفصيل؛ وهي كما يلي: حذف الفاعل، الفعل وجوابه، المفعول به، المضاف والمضاف إليه، الموصوف والصفة، الشرط وجوابه، القسم وجوابه، لو وجوابها، جواب لما، جواب أما، جواب إذا، المبتدأ والخبر، لا، الواو.

أما **حذف الجمل** قسمه إلى حذف الجمل المفيدة وحذف الجمل غير المفيدة، واعتبر القسم الأول يشمل ما يلي: حذف السؤال المقدر (الاستئناف)، الاكتفاء بالسبب عن المسبب أو العكس، الإضمار على شريطة التفسير، ما ليس من هذه الثلاثة.

ومن أمثله عن **حذف المفعول به** يقول: «فإن اللطائف فيه أكثر و أعجب كقولنا: فلان يحل ويعقد، ويبرم وينقض، ويبزر و ينفع والأصل في ذلك على إثبات المعنى المقصود في نفسك على الإطلاق...»²، و جاء على منواله قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ

خَيْرٍ فَعِيرٌ﴾³، «فإن في هاتين الآيتين قد حذف المفعول به في أربعة أماكن؛ إذ المعنى: وجد أمة من الناس يسقون مواشيهم وامرأتين تذودان مواشيهما، وقالتا: لا نسقي مواشينا فسقى لهما مواشيهما لأن الغرض أن يعلم أنه كان من الناس سقي، ومن الامرأتين ذود، وأنهما قالتا: لا يكون منا سقي حتى يصدر الرعاء، وأنه كان من موسى عليه السلام بعد ذلك سقي، فأما كون

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص:268.

² - المصدر نفسه، ج2، ص:292.

³ - القصص، الآية:23.

المسقي غنما أو إبلا أو غير ذلك فخارج عن الغرض»¹، ومن الأمثلة التي ساقها قول "البعيث بن حريث":

دعائي يزيد بعدما ساء ظنه وعبس وقد كانا على حد منكب

وقد علما أن العشيرة كلها سوى محضري من حاضرين وغيب

يعلق قائلاً: «فالمفعول الثاني من علما محذوف لأن قوله أن العشيرة في موضع مفعول علما الأول، وتقدير الكلام قد علما أن العشيرة سوى محضري من حاضرين وغيب لا غناء عندهم، أو سواء حضورهم وغيبتهم أو ما جرى هذا المجرى»².

وفي سياق حديثه عن حذف الموصوف والصفة ما جاء منه في الشعر قول "البحثري" من أبيات في صفة إيوان كسرى، فقال في ذكر التصاوير التي في الإيوان، وذلك أن الفرس كانت تحارب الروم فصوروا صورة مدينة أنطاكية في الإيوان وحرب الروم والفرس عليها، فمما ذكره في ذلك قوله:

وإذا ما رأيت صورة أنطا كية ارتعت بين روم وفرس

والمنايا موائل و انوشير ون يزجي الصفوف تحت الدرفس

في اخضرار من اللباس على أصفر يختال في صبيغة ورس

فقوله: على أصفر أي على فرس أصفر، وهذا مفهوم من قرينة الحال، لأنه لما قال على أصفر علم بذلك أنه المراد فرسا أصفر»³، حيث حذف الموصوف والاكتفاء بدله بالصفة التي دلت عليه، ذلك أن المخاطب أو المتلقي لهذه الأبيات بإمكانه أن يتصور مفهوم البيت حتى ولو كان حذف الموصوف وهو الفرس، فالسياق والمقام الذي وردت فيه كلمة أصفر يؤدي حتماً إلى أن يكون المقصود بها الفرس المحذوفة " في اخضرار من اللباس على أصفر يختال في صبيغة ورس " أنه لا يكون شيئاً آخر هنا غير الفرس المحذوفة والتي يتوصل إليها القارئ

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج 2، ص: 292.

² - المصدر نفسه، ج 2، ص: 293.

³ - المصدر نفسه، ج 2، ص: 299.

أو المخاطب بنفسه بالاستعانة بالسياق والقرينة والحال، وبذلك يكون المقام عاملا حاسما في توجيه القارئ إلى الفهم الصحيح وإدراك ما قد يبدو غامضا وهو في الحقيقة من باب فنية القول والكلام والإيحاء بالمعاني عن طريق الاستعمال الغير عادي للغة أي أن في هذا الأسلوب نوع من الانزياح والعدول عن المستوى الأصلي للغة، فبذل أن يذكر الشاعر الموصوف وصفته، ذهب إلى اختزال الكلام وحذف عنصر الموصوف اعتمادا على **نكاء المتلقي وقدرته على الفهم**؛ أي كفاءته التداولية، وقد أشاد بهذا النوع، ولكن لا يعني ذلك الإبهام يقول: « فحذف الموصوف إنما هو شيء قام الدليل عليه أو شهدت به الحال وإذا استبهم كان حذفه غير لائق»¹.

و يستشهد من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ **وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً** ﴾²؛ فإنه لم يرد أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء وإنما يريد "آية مبصرة" فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه³.

و يتضح منه أهمية السياق في الوصول إلى المعنى المقصود بالنسبة للايجاز، والذي يستند إليه المتكلم في بنائه لخطابه، ف« نفس السامع تنتع في الظن و الحساب، و كل معلوم فهو هين لكونه محصورا »⁴؛ فيستعين هذا الأخير - أي المتلقي أو المستمع - بالسياق ليفهم المقصود، هذا ما أكدت عليه التداولية التي اعتبرته الأساس الذي تتشكل في إطاره العملية التواصلية « لأنه يمتلك الخيط التواصلية المشترك بين المرسل و المتلقي، بما في ذلك الوضع الاجتماعي و الثقافي و النفسي، و التجارب و المعلومات الشائعة بينهما»⁵.

و يذكر " ابن الأثير " من **حذف الجمل؛ حذف السؤال المقدر** و يسمى "الاستئناف"؛ الاستئناف ويأتي على وجهين الوجه الأول إعادة الأسماء والصفات، وتارة يجيء بإعادة صفته

¹ - المصدر السابق، ج2، ص:300.

² - سورة الإسراء، الآية: 59.

³ - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص:300.

⁴ - ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج1، ص:168.

⁵ - عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص: 9.

«من ذلك قوله تعالى: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾¹، والاستئناف واقع في هذا الكلام على " أولئك " لأنه لما قال: "الم ذَلِكَ الْكِتَابُ " إلى قوله: "وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ" اتجه لسائل أن يقول: ما بال المستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى فأجيب بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلا وبالفلاح آجلا²؛ ومثله قولك: "أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل لذلك منك"، إذ يفترض المتكلم مسبقا سؤال يمكن أن يسأله المتلقي فتأتي الإجابة عنه في ثنايا الكلام؛ إلا أنه يحذف، وهذا يدل على مقدرة المتكلم على مدى فهمه واستيعابه للمتلقي، وما قد يجول في خاطره وفكره.

أيضا من أنواع التي ذكرها "ابن الأثير" فأما الاكتفاء بالسبب عن المسبب ومنها « ما ورد من ذلك في الأخبار النبوية قصة الزبير بن العوام رضي الله عنه والرجل الأنصاري الذي خصمه في شراج الحرة التي يسقي منها النخل، فلما حضرا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للزبير: " اسق، ثم أرسل الماء إلى جارك " فغضب الأنصاري، وقال: " يا رسول الله: إن كان ابن عمك؟" فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: " اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر" وفي هذا الكلام محذوف تقديره: إن كان ابن عمك حكمت له؟ أو قضيت له. أو ما جرى هذا المجرى فذكر السبب الذي هو كونه ابن عمته، ودل به على المسبب الذي هو الحكم أو القضاء لدلالة الكلام عليه³، فالمتكلم حذف المسبب لأنه يعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم - وهو النبيه - يفهم كلامه من السياق وهو مستلزم من كلامه، والدليل على أنه أثر فعله الكلامي غضبه عليه أفضل الصلاة والتسليم وتلون وجهه.

¹ - سورة البقرة، الآيات من: 1- 5.

² - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص:270.

³ - المصدر نفسه، ج 2، ص:273.

وبناء على هذا تفسر الأفعال الكلامية المبنية على الإيجاز، باعتبار أن مقاصدها البلاغية تظل في أساسها مرتبطة بالسياق، إذ نجد المتخاطبين يميلون إلى اختزال الأداء الخطابي وذلك بحذف بعض العناصر المكررة في الكلام، أو إلى حذف ما قد يمكن للمخاطب أو المتلقي فهمه اعتماداً على قرائن مصاحبة تكون مرشداً له لتقصي المعنى المبتغى من الخطاب الموجه له، لأن القرينة شرط في صحة الحذف لأنه مقترن بها؛ ويظهر في الخطاب الذي يجري بين أطراف هي المتكلم والمخاطب ضمن العملية التواصلية في مجراها التداولي، لكون هذه الآلية الخطابية لا تفهم حمولتها الدلالية إلا باقترانها بالسياق التخاطبي التداولي، والذي يضم أطراف الترسمة التواصلية (المتكلم، المخاطب والسياق الذي يجري فيه الخطاب). أي أن فاعلية الإيجاز تتجلى في كونه يقوم على « طرح الفضول و الاستغناء عن ذكر كل ما يمكن فهمه من سياق الكلام، و عدم الخوض في تفاصيل الأمور و الاجتزاء بالإشارة العابرة و الملمحة السريعة و تجنب الترداد و الحشو و إطالة الجمل»¹، ثم إن المتكلم أو المخاطب يجنح بطبعه إلى الاستغناء عما يمكن أن يقف عليه المتلقي من الفعل الكلامي المنجز، و الإضمار في القول بالحذف هو إضمار يجعل المخاطب يستعين بكفاءته في التأويل وذلك بتقديره للمحذوف والمضمر في القول حتى يصل إلى المعنى المقصود.

ومنه نرى أن الأشكال التعبير تتنوع في اللغة و قد أكد " أوستين Austin " بأننا «نستعمل الكثرة من التعابير التي يضعها غنى لغتنا بتصرفنا، من أجل توجيه الانتباه إلى كثرة و غنى تجاربنا فاللغة تستعمل هنا كلسان حال من أجل ملاحظة الوقائع الحية التي تؤلف تجاربنا»²، و في الأخير نستنتج من هذا كله أن الغنى اللغوي هو الذي يتيح للمتكلم الفرصة لكي ينوع في الأفعال الكلامية بين تقديم أو تأخير أو حذف أو إيجاز أو إطنا ب...بحسب مقتضيات الرسالة البلاغية و ما يحقق النفعية من خطابه.

¹ - إحسان النص، الخطابة العربية في عصرها الذهبي، ص: 196.

² - جيل بلان، عندما يكون الكلام هو الفعل، ترجمة جورج كتورة، مجلة العرب و الفكر العالمي، لبنان مركز الإنماء القومي، العدد الخامس 1989، ص: 37.

2. مبدأ التأدب:

المعلوم أن البلاغة العربية قد ركزت على احترام فكر المخاطب وتقديره، وذلك بترك الأسلوب المباشر، والاعتماد على الإشارة والتلويح والتلميح عن طريق الكناية والتعريض، وكذلك بترك الإطناب والشرح والاعتماد على الإيجاز، ذلك أن المخاطب يمكن أن يفهم هذه الأشياء بنفسه.

حيث تكثر الوسائط بين اللازم والملزوم ومن التلويح، نذكر قولهم: "كثير الرماد"، و هي: "كثرة الإحراق وكثرة الطبخ وكثرة الأكل وكثرة الأطباق".

و من التأدب واحترام مشاعر المخاطب، فنذكر ما يكره سمعه بالتلميح دون التصريح، و هذا رأي "ابن الأثير" إذ يرى أنه « من أجل ذلك حسنت الكناية في الموضع الذي يقبح فيه التصريح»¹.

كذلك يتضح تقطن "ابن الأثير" لهذا المبدأ وذلك من خلال قوله: « ومن أدب هذا النوع ألا يذكر الشاعر في افتتاح قصيدة المديح ما يتطير منه وهذا يرجع إلى أدب النفس لا إلى أدب الدرس، فينبغي أن يحترز منه في مواضعه كوصف الديار بالدثور والمنازل بالعفاء، وغير ذلك من تشتت الآلاف ودم الزمان، لا سيما إذا كان في التهاني فإنه يكون أشد قبحا، وإنما يستعمل ذلك في الخطوب النازلة والنوائب الحادثة، ومتى كان الكلام في المديح مفتتحا بشيء من ذلك تطير منه سامعه»².

كما يراعى هذا المبدأ في مخاطبة الملوك ومنهم أعلى مرتبة، ويضرب مثالا له «فنقول: هل يجوز أن يخاطب الملك فيقال له: وحق دماغك قياسا على وحق رأسك وهذا يرجع إلى أدب النفس دون أدب الدرس، فإذا أراد مؤلف الكلام أن يمدح ذكر الرأس والهامة والكاهل وما جرى هذا المجرى»³. ويضرب مثالا لهذا بما روي عن «أن عثمان بن عفان رضي الله عنه سأل

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص:190.

² - المصدر نفسه، ج3، ص: 97.

³ - المصدر نفسه، ج3، ص: 191.

قباث بن أشيم فقال له: أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر مني وأنا أقدم منه في الميلاد فانظر إلى أدب هذا العربي الذي من شأنه وشأن أمثاله جفاء الخلق والبعد عن فطنة الآداب»¹.

أيضا مما أورده "ابن الأثير" و الذي يمكن ضمه تحت هذا المبدأ قوله: «ومن الطف ما وجدته أنك إذا خاطبت الممدوح أن تترك الخطاب بالأمر بأن تقول: افعل كذا وكذا، وتخرجه مخرج الاستفهام وهذا الأسلوب حسن جدا وعليه مسحة من جمال بل عليه الجمال كله. فما جاء منه قول البحري في قصيدة أولها:

فهل أنت يا ابن الراشدين مختمي بياقوتة تبهى علي وتشرق

وهذا من الأدب الحسن في خطاب الخليفة فإنه لم يخاطبه بأن قال: ختمني بياقوتة على سبيل الأمر بل خاطبه على سبيل الاستفهام وقد أعجبنى هذا المذهب وحسن عندي»². مراعى في ذلك مقام المخاطب لأعلى منه، فالشاعر ينتظر العطاء والقبول من المتلقي الممدوح؛ بل هو يطالب بهذا العطاء ومراعاة للمقام وسمه بمسحة من الجمال بأن جاء الأمر على شاكلة الاستفهام، وهذه يعتبر من الأدب في الطلب.

وهكذا يتضح اعتماد العرب في كلامهم مبدأ التأدب الذي يبنى على حسن العلاقة بين المرسل والمرسل إليه، وخالصة ما سبق أن التراث البلاغي العربي قد ركز على مجموعة من مبادئ وقواعد الخطاب وإن كان بعضها تستشفى من خلال الأقوال، أي أنه موجود في التراث البلاغي العربي بالقوة لا بالفعل كمبدأ التأدب مثلاً.

في ختام هذا الفصل نستطيع أن نقول أن هناك تقارب بين ما عرف بظيرية "الأفعال الكلامية" و بعض ما جاء به "العسكري" و "ابن الأثير" في مصنفينا محل الدراسة؛ إذ اهتما بدراسة الخطابات المنجزة فعلا وربطها بمقاصد المتكلم، كما لاحظنا أنهما وضعا شروطا ومبادئ للخطاب تتقارب في العموم مع بعض التصورات الغربية المعاصرة لمبادئ الخطاب،

¹ - المصدر السابق، ج3، ص:191.

² - المصدر نفسه، ج3، ص:189.

وإن لم تكن واضحة بل جاءت مبنوثة بشكل غي ر منظم في ثنايا كتابيهما وتم استقرائها من تحليلاتهم البلاغية لبعض الخطابات المنجزة.

وقد أُسس الخطاب عند "العسكري" و"ابن الأثير" على ضرورة تحقيق الإفهام و الإقناع والتأثير كغاية قصوى للبلاغة في أسلوبها الحجاجي، وقد شحذت كل الوسائل لتحقيق هذه الغاية، فما الأبعاد الحجاجية التداولية لتلك الأساليب البلاغية، وهل هناك تقارب بينها وبين ما جاء في البلاغة والحجاج عند "بيرلمان" ؟ هذه وأسئلة أخرى سيحاول الفصل الموالي الإجابة عنها.

الفصل الرابع

الحطابين "يرامان" و تصورات "المسكوي"

و "بن الأثير" البلاغية

الفصل الرابع: الحجاج بين بيرلمان و تنظيرات "العسكري" و "ابن الأثير" البلاغية

المبحث الأول: الحجاج من منظور بلاغي

1. حجاجية الألفاظ
2. حجاجية الصور البيانية
 - أ. الاستعارة .
 - ب. التشبيه.
 - ج. الكناية والتعريض.
3. الالتفات.
4. التفسير بعد الإبهام.
5. في الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية والفرق بينهما.
6. الإطناب.
7. التكرار.

المبحث الثاني: الحجاج من منظور تداولي:

1. الحجج المبينة للواقع:

- أ. شاهد حال (الحقائق).
 - ب. الاستشهاد.
 - ج. النموذج.
- #### 2. الروابط الحجاجية:
- أ. حروف العطف.
 - ب. حروف الجر.

المبحث الأول: الحجاج من منظور بلاغي

تحتل البلاغة مكانة جد مهمة في الحجاج، وقد ارتبطت به لدرجة ان اعتبرت حدا من حدودها، وهذا يبدو ماثلا في ما رواه العسكري" بقوله: «جماع البلاغة: البصر **بالحجة**، والمعرفة **بمواقع الفرصة**»¹، بل أكثر من ذلك إذ يقول: «البلاغة قول مفقه في لطف، فالمفقه المفهم، واللطيف من الكلام ما تعطف به القلوب النافرة، ويؤنس القلوب المستوحشة، وتلين به العريكة الأبية المستصعبة.. فتخلص نفسك من العيب، ويلزم صاحبك الذنب من غير أن تهيجه... وتستدعي غضبه»²؛ أي التأثير في المتلقي مع مراعاة مشاعره؛ فالبلاغة أيضا- كما روى العسكري"-: «البلاغة كشف ما أغمض من الحق، وتصوير الحق في صورة الباطل.. وإنما الشأن في تحسين ما ليس يحسن و تصحيح ما لا بصحيح... و ما أكثر ما يحتاج الكاتب إلى هذا الجنس، عند اعتذاره من هزيمة وحاجته إلى تغيير رسم، أو رفع منزلة دني..»³، لذلك تكون «أعلى رتب البلاغة أن يحتج للمذموم حتى يخرج في معرض المحمود، وللمحمود حتى يصيره في صورة المذموم»⁴، حيث تظهر هنا براعة المتكلم في استعمال تقنيات وآليات بلاغية **حجاجية** تساعده على التأثير في المتلقي، أو حتى تغيير معتقداته وهذه أعلى رتب البلاغة، وهو ما تصبو إليه التداولية أيضا.

و قد اعترف رواد البلاغة الجديدة أمثال "بيرلمان" و "تيتكاه" بالدور الفعال للآليات البلاغية المختلفة كالاستعارة و الكناية ... في الحجاج، وقد تناول كل من "العسكري" و "ابن الأثير" في كتابهما محل الدراسة ؛ هذه الأشكال البلاغية المختلفة، لذا سنحاول أن نستخرج الأهم منها فقط و التي يمكن أن نعتبرها كآليات حجاجية قادرة على استمالة القارئ وإمتاعه.

¹ - العسكري، الصناعتين، ص:64.

² - المصدر نفسه، ص:62.

³ - المصدر نفسه، ص:64.

⁴ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

1. حاجية الألفاظ:

المعلوم أن الألفاظ تساهم في جلب المتلقي و لفت انتباهه، لذلك على المتكلم أو المخاطب أن يختارها بعناية بما يتوافق مع حالته وكذا حال ومقام المتلقي ليوفر بذلك كل الظروف التي تسهم في نجاح العملية التخاطبية والتأثير في المتلقي، إذ إن « للكلمة خصائص في ذاتها تستمدّها من اللغة و من التداول تجعلها مؤهلة بطبيعتها لتكون ذات صبغة حاجية و ترشحها لأن تكون من معجم الخطاب الحجاجي و قوام جداوله اللغوية، و إن لها في الخطاب أوغل في الحجاج و أذهب في الإقناع »¹.

ولو عدنا لـ "العسكري" نجده لم يهمل هذه القضية؛ وقد أشرنا لهذه القضية في فصل سابق- بل البلاغة كلها عنده مرتبطة ومعقودة عليها، وذلك يتضح من قوله: « فمدار البلاغة على **تخيّر اللفظ**، و تخيّر أصعب من جمعه وتأليفه»²؛ و يؤكد ذلك في مكان آخر في كتابه بقوله: « أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ »³، وقد وضع عدة مواصفات لهذا اللفظ.

كما أدرك "ابن الأثير" مدى أهمية الألفاظ؛ فأبرز ذلك أيضا عند العرب، حيث صرح بـ « أن العرب كانت تعتني بالألفاظ فتصلحها وتهذبها فإن المعاني أقوى عندها وأكرم عليها وأشرف قدرًا في نفوسها فأول ذلك عنايتها بألفاظها لأنها لما كانت عنوان معانيها وطريقها إلى إظهار أغراضها أصلحها وزينوها وبالغوا في تحسينها ليكون ذلك **أوقع لها في النفس** وأذهب بها في **الدلالة على القصد**»⁴، وهنا يبدو الدور الحجاجي للألفاظ واختيارها وتحسينها.

و اختيار الألفاظ ليست المسألة الوحيدة الرامية إلى التأثير في المتلقي، بل طريقة تركيب الألفاظ وسبكها ونظمها، و موضوع الخطاب الذي من أجله سيقّت هذه الألفاظ، إذ أنه على المتكلم أن يختار الألفاظ الملائمة للموضوع لأنه « لا يتم اختيار المفردات أثناء الحديث بصفة

¹ - عبد الله صولة، 2001، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ج 1، جامعة منوبة تونس، كلية الآداب بمنوبة، ص: 75.

² - العسكري، الصناعتين، ص: 32.

³ - المصدر نفسه، ص: 73.

⁴ - ابن الأثير، المثل السائر، ج 2، ص: 65.

اعتباطية بل هناك اعتبارات خاصة بموضوع الحديث ذاته، الذي يفرض على المتكلم اختيار الكلمات المناسبة»¹؛ فاستعمال الألفاظ في غير موضعها توقع المتلقي في نوع من اللبس و الغموض، وقد يؤدي هذا الغموض إلى النفور و التخلي عن هذا الخطاب، مما يعلن فشل الخطاب.

وقد تناول " ابن الأثير" في كتابه " المثل السائر" قضية الألفاظ ؛ إذ خصص لها مقالة كاملة تحت عنوان " في الصناعة اللفظية "؛ وقد حدد في بدايتها شروط نجاح العملية التخاطبية وهي: اختيار الألفاظ، تركيب الألفاظ و الموضوع أو غرض الخطاب والقصد منه، حيث قال: «أعلم أنه يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه إلى ثلاثة أشياء:

١-الأول منها اختيار الألفاظ المنفردة:

و حكم ذلك حكم اللآلئ المبددة، فإنها تتخير و تنتقي قبل النظم.

- الثاني نظم كل كلمة مع أختها في المشاكلة لها:

لئلا يجيء الكلام قلقا نافرا عن مواضعه وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها.

- الثالث: الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه:

و حكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم، فتارة يجعله إكليلا على الرأس، و تارة يجعله قلادة في العنق، و تارة يجعله شنفا في الأذن. و كل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه»²، والملاحظ أن كل هذه الشروط تخص اللفظة مفردة، وكلها تسعى متضافرة إلى نجاح عملية التأليف و استمالة ال متلقي، و بعد ذكره لهذه الشروط حاول "ابن الأثير" أن يبين فضل ومزية انتقاء الألفاظ؛ إذ شبهها بالعقد، وهذه القضية نفسها أشار إليها

¹ - عمر بلخير، معالم لدراسة تداولية و حجاجية للخطاب الصحافي الجزائري المكتوب ما بين 1989 و 2000، أطروحة أعدت لنيل شهادة دكتوراه، جامعة الجزائر، كلية الأداب و اللغات، قسم اللغة العربية و أديابها، 2005-2006، ص:199.

² - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص:163.

"بيرلمان" و التي هي انتقاء الألفاظ؛ إذ أن انتقاء الألفاظ و اختيارها من أهم النقاط التي تساعد الكاتب على الإبداع في الكتابة من جهة و إقناع المتلقي من جهة أخرى.

وليثبت " ابن الأثير " صحة رأيه في حسن الاختيار اللفظة المفردة وفضله في تحسين المعنى قدم عدة شواهد من القرآن، مثلا من خلال التدقيق في قوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾¹، وقوله تعالى: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾²؛ فاستعمل الجوف في الأولى والبطن في الثانية؛ والمعلوم أن كلا اللفظتين تحملان نفس المعنى، وكذا ثلاثيتان في عددٍ واحد ووزنهما واحد أيضا؛ إلا أنه لم يستعمل الجوف موضع البطن ولا البطن موضع الجوف³، وعلى رأيه ف « لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه بل يفرق بينهما في مواضع السبك وهذا لا يدركه إلا من دق فهمه وجل نظره»⁴؛ إذا الفيصل في الاختيار هو مناسبتها لموضعها في تركيب الكلام.

إذن؛ لم يهتم باللفظ واختياره مفردة لوحده بل في علاقته أيضا مع ما يناسبه في التركيب، وليبين فضل حسن سبك الكلام وتركيبه؛ ونظمه - إن صح التعبير - فقد ضرب لنا مثلا قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾⁵. فمفردات هذه الآية الكريمة على قدر كبير من الدقة في التركيب والنظم، مما أكسبها حسنا؛ و لو حاولنا حذف كلمة أو قدمنا أخرى مكان أخرى، فلربما يختل هذا التوازن الذي يجعل المتلقي أو السامع لها يتأثر بها لدى سماعها أو قرائتها؛ إذ يقول " ابن الأثير " معلقاً عليها: « إنك لم تجد ما وجدته في هذه الألفاظ من المزية الظاهرة إلا لأمر

¹ - سورة الأحزاب، الآية:4.

² - سورة النجم، الآية:11.

³ - ينظر: ابن الأثير، المثل السائر، ج 1، ص:164.

⁴ - المصدر نفسه، ج1، ص:164.

⁵ - سورة هود، الآية:44.

يرجع إلى تركيبها، وإنه لم يعرض لها هذا الحسن إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية و الثالثة بالرابعة، و كذلك إلى آخرها»¹.

ثم يستطرد قائلاً: «ومما يشهد لذلك ويؤيده أنك ترى اللفظة تروقك في كلام ثم تراها في كلام آخر فتكرهها فهذا ينكره من لم يذق طعم الفصاحة ولا عرف أسرار الألفاظ في تركيبها وانفرادها»².

ونفهم من خلال قوليه الأخيرين؛ أن المزية التي ذكرها في قوله الأول يكتسبها الكلام المنجز من نظم الكلام، والمتكلم وحده من يكسب كلامه هذه الخاصية؛ فاللفظة نفسها تروقك في استعمال متكلم، وقد تكرهها في كلام متكلم آخر، لتتخصص مهمة المتكلم هنا في تجسيد المعاني التي تنطلق من المعاني النفسية مجسدة في ألفاظ تم اختيارها بدقة ليصيغها في القول وفق نظم معين يكسبه مزية، والذي تتحقق فيه الخصائص الفنية للإنجاز الكلامي، وهو ما أشار إليه بمصطلح المزية، فالتكلم يحتل منزلة الفاعل في الخطاب ويكون في علاقة مع مخاطب يوجه إليه فعل الكلام.

وغير بعيد عن هذا المعنى نجد "العسكري" يقول: «فإذا كان الكلام قد جمع العنوية، والجزالة، والسهولة، والرصانة، مع السلاسة والنصاعة، واشتمل على الرونق والطلاوة، و سلم من حيث التأليف، وبعد عن سماجة التركيب، وورد على الفهم الثاقب قبله ولم يرده، وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يمجه، والنفس تقبل اللطيف، وتنبو عن الغليظ، وتقلق من الجاسي البشع، وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن إلى ما يوافقه، وتفر عما يضاده ويخالفه، والعين تألف الحسن، وتقذى بالقبيح، والأنف يرتاح للطيب، وينغر للمنتن، والشم يتلذذ بالحلو، ويمج المر، والسمع يتشوف للصواب الرائع وينزوي عن الجهير الهائل، واليد تتعم باللين،

¹ - ابن الأثير، ج1، ص: 166.

² - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وتتأذى بالخشن...»¹؛ وهذا تصوير رائع ومبدع لردة فعل المتلقي ومدى تأثره للكلام حسن اللفظ وحسن التركيب، و هذا إثبات آخر على حاجية الألفاظ وتأثيرها في المتلقي.

وقد لاحظنا أن مقياس حسن اللفظ عند "ابن الأثير" هو الذوق؛ إذ ارتبط هذا الأخير بالسمع و حجته في ذلك « أن الألفاظ داخلة في حيز الأصوات فالذي يستلذه السمع منها ويميل إليه هو و الذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشحرور ويميل إليهما ويكره صوت الغراب وينفر عنه»²، فهو يفرق مثلا بين "السيف" و "الخنشليل"، و "الأسد" و "الفدوكس"...

وهنا يبرز "ابن الأثير" فائدة خاصية الصوت في اللفظ؛ إذ تسهم في استمالة وجلب انتباه المتلقي؛ إذ أنه هناك أصوات لألفاظ ينفر منها السمع، و أصوات أخرى يستمتع بها، و هذا كله راجع إلى مخارج الحروف المكونة لهذه الألفاظ ؛ يقول "ابن الأثير": « إذا سئلت عن لفظة من الألفاظ، و قيل لك ما تقول في هذه اللفظة أحسنه هي أم قبيحة ؟ إني لا أراك عند ذلك إلا تقتي بحسنها أو قبحها على الفور و لو كنت لا تقتي بذلك حتى تقول للسائل، أصبر إلا أن أعتبر مخارج حروفها، ثم أفتيك بعد ذلك بما فيها من حسن أو قبح »³.

وفي حديثه عن الألفاظ الحسنة و القبيحة الصوت ، بين أن بعض الحروف المتقاربة المخارج، اتحادها يكون ألفاظا ذات صوت عذب شجي يجلب المتلقي على حد قول "ابن الأثير" يقول: « ألا ترى أن الجيم و الشين و الياء مخارج متقاربة و هي من وسط اللسان بينه و بين الحنك و تسمى ثلاثتها الشجرية، و إذا تركب منها شيء من الألفاظ جاء حسنا رائقا»⁴ ، مثل لفظة جيش .

¹ - العسكري، الصناعتين، ص:71.

² - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص:169.

³ - المصدر نفسه، ج1، ص:173.

⁴ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

إلا أن هذا أيضا؛ لا يعني أن العكس صحيح؛ أي الكلمات المكونة من حروف متباعدة المخارج حسنة، فهناك حروف متباعدة المخارج تكون ألفاظا غير حسنة الصوت « فمن ذلك أنه يقال ملع إذا عدا، فالميم من الشفة، و العين من حروف الحلق، و اللام من وسط اللسان، و كل ذلك متباعد و مع هذا فإن هذه اللفظة مكروهة الاستعمال ينبو عنها الذوق السليم، ولا يستعملها إلا من عنده معرفة بفن الفصاحة»¹، و بهذا يجدر على كل متكلم أن يحسن اختيار أصوات الألفاظ من أجل استهواء المتلقي و تحريك شعوره و التأثير فيه.

والمثير للانتباه بالنسبة لـ" ابن الأثير " أنه ربط بين اللفظ وموضوع الخطاب ومقامه، وقصدية المتكلم، وعلى أساس ذلك قسم الالفاظ إلى جزلة ورقيقة يقول: « الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة و رقيقة و لكل منها موضع يحسن استعماله فيه، فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب، و في قوارع التهديد و التخويف، و أشباه ذلك، و أما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق و ذكر أيام البعاد ، و في استجلاب المودات ، و ملاينات الاستعطاف و أشباه ذلك»² ، وقد بين ابن الأثير فضل هذه الألفاظ ومساهمتها فعالة في هز إحساس المتلقي و شعوره نظرا لقوة معانيها و عذوبة صورتها، ومن الأمثلة التذي ذكرها لتدليل على هذا؛ فمن الألفاظ الجزلة³ اختيار قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي

السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ

¹ - المصدر السابق ، ج1، ص: 174.

² - المصدر نفسه ، ج1، ص: 275.

³ - ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص: 186.

زُمِرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوُّهُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١﴾، يتأمل هذه الآيات ومن خلال هذه الألفاظ الجزلة و القوية يصور للمتلقي أو القارئ هول الحشر وكيف يساق الكفار لجهنم، و طريقة مخاطبة الله سبحانه وتعالى لهم، وفي الجهة المقابلة بين حال المؤمنين كيف يساقون إلى الجنة فتفتح لهم الأبواب ويسلم عليهم خزنتها، وكذا تصويره سبحانه وتعالى لردة فعلهم عند دخولهم الجنة، كل ذلك يجعل المتلقي يشعر بالخوف من جهنم وعذابها، ويطمع في الجنة وخيرها، هذا الإقناع يدفعه إلى التغيير في مسار حياته من الحسن إلى الأحسن.

أما من الألفاظ الرقيقة فقد اختار ² قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿٣﴾؛ فالتمتع لهذه الآية يقتنع بوجود الله إلى جوار المؤمن في كل وقت و مكان، فإذا أراد تحقيق مسألة معينة يكفي فقط أن يدعو إليه فيستجيب لدعائه، وهذا ترغيب في المسألة من الله سبحانه وتعالى، و كله تجسده تلك الألفاظ الرقيقة و العذبة و السهلة الفهم.

ولتوضيح بذلك لآبأس في ذكر أحد أمثله "ابن الأثير" في الشعر فمن ذلك قصيدة "أبي العتاهية" « التي يمدح فيها المهدي ويشبب فيها بجارسته عتب:

ألا ما لسيدتي مالها تدل فلحمل إدلالها
ألا إن جارية للام-ا م قد سكن الحسن سريالها
لقد أتعب الله قلبي بها وأتعب في اللوم عذالها
كأن بعيني في حيثما سلكت من الأرض تمثالها
فلما وصل إلى المديح قال من جملته:

أنته الخلافة منقاداً إليه تجرر أذبالها

¹ - سورة الزمر، الآية: 69-74.

² - ينظر: ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص:187.

³ - سورة البقرة، الآية:186

فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحدٌ غيره لزلزلت الأرض زلزلها
ولو لم تطعه بنات القلوب لما قبل الله أعمالها

ويحكى أن بشاراً كان شاهداً عند إنشاد أبي العتاهية هذه الأبيات فلما سمع المديح قال: انظروا إلى أمير المؤمنين هل طار عن أعوده يريد هل زال عن سريره طرباً بهذا المديح؟¹، ينقل لنا "ابن الأثير ردة فعل أحد المتلقين لهذا المنجز الكلامي وهو "بشار" لإعجابه بما سمع ودهشته تساءل عن ردة فعل الممدوح و هو الشخص المقصود بالمدح، مع يقينه بأنه تأثر عند سماعه لهذه الأبيات.

ثم يضيف "ابن الأثير" معلقاً على هذه الأبيات: «ولعمري إن الأمر كما قال بشار وخير القول ما أسكر السامع حتى ينقله عن حالته سواء كان في مديح أو غيره»²؛ إذ تعتبر هذه الأبيات من رقيق الشعر في الغزل والمديح، وكما يذكر "ابن الأثير" فقد أذعن لمديحها الشعراء في ذلك العصر.

وبذلك نستطيع أن نقول أن "ابن الأثير" قد أدرك الدور الحجاجي وإقناعي للألفاظ الجزلة و الرقيقة وذلك واضح في قوله: «و بعد هذا فاعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر ، فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، و الألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة، و لين أخلاق، و لطافة مزاج»³ ؛ حيث يصور شدة تأثر المتلقي بمعاني تلك الألفاظ، كأنه يراها على هيئة أشخاص، فالألفاظ الجزلة و الرقيقة تسهم إذن في تجسيد الفكرة و حضورها في ذهن المتلقي وبالتالي الإذعان و التسليم و التصديق لما يستقبله من منجز كلامي.

إلا أن "العسكري" نبه إلى أنه «لا خير في المعاني إذا استكرهت قهراً ، والألفاظ إذا اجترت قصراً، ولا خير فيما أجيد لفظه إذا سخف معناه، ولا في غرابة المعنى إلا إذا شرف لفظه مع

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص ص: 193-194.

² - المصدر نفسه، ج1، ص: 194.

³ - المصدر نفسه، ج1، ص: 194.

وضوح المغزى ، وظهور المقصد¹، فلا يكفي حسن اللفظ وحده فقد اشترط وضوح المعنى ، وكذا قصدية المنجز الكلامي.

2. حجاجية الصور البيانية:

يستعمل المجاز في الحجاج لخلق صور جديدة في محيطه انطلاقاً من تركيب ونسج المعطيات الواقعية بطريقة إبداعية مما يجعل من هذه الصور محط اهتمام، تدفع السامع إلى تصورهما من خلال تركيبه ونسجه الخاص لوقائع أو حقائق أخرى، فتجعله بذلك يشترك مع المتكلم في إبداعه وهو نوع من التوافق الذي يتطلبه الحجاج². ومن هنا نبيّن أن القيمة المجازية للقول قد تكون شرطاً من ضمن الشروط الأخرى في عملية الحجاج ؛ إذ ليس للحجاج من طريق إلا استغلال ما في اللغة من غنى وثراء³.

كما بيّن "بيرلمان Perelman" أنه كي توجد صورة بلاغية لابدّ من توافر خاصيتين:

- أن تكون لها صيغة، فتكون بمثابة بنية أو تركيب يمكن فكّ نظامها.

- أن يتم استخدام هذه الصيغة بشكل ملفت للانتباه، وبعيد إلى حدّ ما عن الصيغة العادية للتعبير⁴.

وفي تصوّره هذا يقارب ما كان حاضراً لدى "العسكري"؛ الذي يرى أن الاستعارة هي « نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة»⁵، لكن هذا العدول يبقى مرتبطاً بالجودة والحسن في بنائه.

¹ - العسكري، الصناعتين، ص: 75.

² - ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغيّر، ص: 123.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص: 122.

⁴ - ينظر: عدنان بن ذريل، النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، ص: 55 .

⁵ - العسكري، الصناعتين، ص: 295.

وقد خصص "ابن الأثير" في المقالة الثانية المعنونة " في الصناعة المعنوية " لدراسة الصور البيانية؛ فلهذه الصور دور كبير في التأثير في المتلقي و توجيهه نحو الوجهة التي يريدها المتكلم، حيث يلجأ إلى استعمالها كل متكلم أو مخاطب في أي مجال ومهما كان موضوعه، سواء في الكلام العادي والممارسات اللغوية اليومية، أو على مستوى الخطابات والنصوص الأدبية الإبداعية، وهاته الصور كالأتي:

أ. حجاجية الاستعارة :

أدرك البلاغون العرب البعد الحجاجي للاستعارة ؛ إذ ربطوها بما عبروا عنه بالمبالغة؛ فإذا قال القائل: " رأيت أسداً"، وهو يعني رجلاً شجاعاً ... فقد استعار اسم الأسد للرجل، ومعلوم أنه أفاد بهذه الاستعارة ما لولاها لم يحصل له، وهو المبالغة في وصف المقصود بالشجاعة، وإيقاعه منه في نفس السامع صورة الأسد في بطشه وإقدامه وبأسه وشدته¹.

و سبق وأن توصلنا إلى أن الاستعارة فعل تداولي يتجاوز فيه المتكلم ما يقتضيه أصل اللغة، وكذا يتجاوز بها ما هو عامي ووضعي وعرفي؛ أي متداول، وهذا ما نفسه ما قصده "العسكري" إذ الاستعارة عنده « نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض»²، وقد حدد هذا الغرض؛ إما:

-إما لغرض الشرح وزيادة التوضيح والإبانة.

-أو تأكيد المبالغة فيه³.

ويبدو في كلا الغرضين؛ أن المتكلم يحاول من خلالهما الزيادة في التأثير على المتلقي ، ولتوضيح هذه الفكرة قدم " العسكري" شواهد منها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾⁴؛ يقول "العسكري" شارحاً: «قول الله تعالى: " يوم يكشف عن ساقٍ " أبلغ وأحسن وأدخل مما قصد له

¹ - ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، ص: 120 .

² - المصدر نفسه، ص: 295.

³ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ - سورة القلم، الآية: 42.

من قوله لو قال - يوم يكشف عن شدة الأمر - وإن كان المعنيان واحداً.. ألا ترى أنك تقول لمن تحتاج إلى الجد في أمره.. شمّر عن ساقك فيه، واشدد حيازيمك له.. فيكون هذا القول منك أوكد في نفسه من قولك جدّ في أمرك»¹، ويعكس قول "العسكري" هنا البعد الحجاجي و الإقناعي للاستعارة؛ إذ تعتبر من أهم آليات الحجاج.

و هذا ما عبر عنه " طه عبد الرحمن " لما قال :« العلاقة الاستعارية هي أدل ضروب المجاز على ماهية الحجاج »²، إضافة إلى أن "بيرلمان" اهتم بالاستعارة، و أعطى لها مكانة مهمة في الحجاج كما رأينا ذلك في فصل سابق.

نعود لتعريف "ابن الأثير" للاستعارة يقول:« حد الاستعارة نقل المعنى من لفظ إلى لفظ، لمشاركة بينهما، مع طي ذكر المنقول إليه، لأنه إذا احترز فيه هذا الاحتراز اختص بالاستعارة، و كان حدا لها دون التشبيه»³، وهنا يضع "ابن الأثير" حدا بين التشبيه والاستعارة؛ إذ الفرق بينهما أن ذكر المنقول و المنقول إليه يخص التشبيه، أما ذكر المنقول الذي هو المستعار و حذف المنقول إليه الذي هو المستعار له يخص الاستعارة.

ولتوضيح مفهوم الاستعارة أكثر، و بيان مهمتها في إقناع المتلقي، أورد "ابن الأثير" بعض الأمثلة فمن القرآن الكريم قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾⁴. ففي هذه الآية استعيرت الظلمات للكفر و النور استعارة للإيمان، فذكر كلا من الظلمات و النور الذي هو المستعار، و حذف كل من الكفر و الإيمان اللذان هما المستعار له، وفائدة استعارة صفة الظلمات للكفر أن يبين الله تعالى لعباده أن الكفر كمن يمشي في الظلام ضالاً لا يعرف الحق من الباطل، أما استعارة النور للإيمان فليبين كذلك أن الإيمان نور يضيء للمؤمن طريقه و

¹ - المصدر السابق، ص:295.

² - طه عبد الرحمن، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، مرجع سابق، ص:233.

³ - ابن الأثير، المثل السائر، ج 2، ص:83.

⁴ - سورة إبراهيم، الآية:1.

يوجهه نحو المسار الصحيح، فالصفة المشتركة بين الظلمات و النور هي الضلال، أما بين النور و الإيمان فهي الهدى، و بهذا نلاحظ أن هذه الألفاظ المستعارة جد لائقة لهذا الموضوع من القول، و ذلك ليوصل الله تعالى رسالته إلى عباده .

كما نقل "ابن الأثير" أمثلة عن خطابات منجزة متمثلة في أحاديث شريفة وخطب وأمثال وأشعر مختلفة، ومن الحديث ما « روي عنه صلى الله عليه و سلم أنه دخل يوماً مصلاه ، فرأى أناساً كأنهم يكثرون فقال : أما إنكم لو أكثرتم من ذكر هادم اللذات لشغلكم عما أرى»¹، نلاحظ من خلال هذا الحديث الشريف أن لفظة " هادم اللذات " استعارة للموت، فذكر المستعار و هو " هادم اللذات " و حذف المستعار له و هو " الموت " ، و لقد استعارة الرسول صلى الله عليه و سلم صفة هادم اللذات للموت - و لقد كان مقنعا في اختياره لهذه اللفظة - ليقرب معنى لفظة الموت إلى أذهان هؤلاء الناس الذين يخاطبهم ، فكأن الإنسان يبني له في الدنيا قصراً كبيراً من اللذات؛ ويأتي الموت في لحظة ليهدم كل ما بناه الإنسان، وذلك كله ليوصل له معنى؛ خلاصته أن الإنسان لو ذكر أو تذكر الموت دائماً لما ألته الدنيا عن طاعة ربه.

ومن الخطب التي أوردها " ابن الأثير" خطبة "الحجاج بن يوسف" عند قدومه العراق في أول ولايته حين « قال: إن أمير المؤمنين نثل كنانته وعجمها عوداً عوداً فرآني أصلبها نجاراً وأقومها عوداً وأنفذها نصلاً" ، فقله " نثل كنانته وعجمها عوداً عوداً " يريد أنه عرض رجاله واختبرهم واحداً واحداً جد اختياره فرآني أشدهم وأمضاهم وهذا من الاستعارة الحسنة الفائقة»²، فقد صور "ابن الأثير نفسه كأنه سهم من سهام الخليفة؛ بل أقواها وأقومها وأحدها نصلاً، وهذا مؤثر ومقنع أكثر للمتلقي لو استعمل الأسلوب المباشر، و ربما لم أثار هذا الشعور في المتلقي، وهو الخوف والمهابة وبالتالي محاولة إلقاء شره- أقصد شر الحجاج- كيف وهو سهم من سهام الخليفة؛ إذن للاستعارة دور في إيضاح المعنى و التأثير في المتلقي من الإفصاح.

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص:97.

² - ن م ص، الصفحة نفسها.

وهذا ما أشار إليه "العسكري" وأكدته؛ إذ يكرر دائما بعد شرحه للاستعارة قوله: "الاستعارة أبلغ"،
فمثلا من الاستعارات التي شرحها قوله تعالى: ﴿اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾¹ يقول: «حقيقته كثر
الشيب في الرأس وظهر، والاستعارة أبلغ، لفضل ضياء النار على ضياء الشيب، فهو إخراج
الظاهر إلى ما هو أظهر منه، و لأنه لا يتلافى انتشاره في الرأس، كما لا يتلافى اشتعال
النار»²، حيث برأيه ساهمت هذه الصورة بإيضاح المعنى وتقريبه.

و هذا الانتقال من معنى إلى معنى آخر المبني على تقريب الصورة - ذات البعد
المقصدي - للمتلقي خليق بتأسيس تفاعل حقيقي بين ذهنه وبين ما ورد في الخطاب أكثر من
استعمال ألفاظ تخيلية بعيدة عن الواقع المحسوس وتشكيلاته، ومن هنا يظهر فضل استعمال
الاستعارة وما شاكلها على الحقيقة أنها تفعل في نفس السامع ما لا تفعل الحقيقة»³، ومنه
نستنتج أن ما تفعله الاستعارة في المتلقي يصب تحت مجال أوسع هو مجال الإستراتيجية
الحجاجية القائمة على الإثبات بآليات وتراكيب تهز النفس وتتحوا نحو الإقناع بمظهرية:
الإثباتي (التقريبي)؛ أو المظهر الذي يقوم بنفي المعتقدات القبلية الموجودة قبل عملية
التخاطب.

ومن الشواهد الشعرية التي ساقها "ابن الأثير" قول "عبد السلام بن رغبان" المعروف بـ"ديك
الجن"⁴:

لَمَّا نَظَرْتُ إِلَيَّ عَن حَدَقِ الْمَهَا وَبَسَمْتِ عَن مُتَفَتِّحِ النُّوَارِ
وَعَقَدْتِ بَيْنَ قَضِيْبِ بَانَ أَهِيْفِ وَكَثِيْبِ رَمْلِ عَقْدَةِ الرُّنَّارِ
عَفَّرْتُ لَكَ خَدِّي طَائِعًا وَعَزَمْتُ فَيْكَ عَلى دُخُولِ النَّارِ

¹ - سورة مريم، الآية:4.

² - العسكري، الصناعتين، ص:300.

³ - المصدر نفسه، ص:296.

⁴ - ينظر: ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص:100.

وقد أثرت هذه الأبيات حتى في "ابن الأثير" نفسه وهو نوع خاص من المتلقين ذي علم وفهم وذوق عال فما بالك بالمتلقي العادي؛ مصرحاً بذلك بقوله: « وهذه الأبيات لا تجد لها في الحسن شريكاً ولأن قائلها شحوراً أولى من يسمى ديكاً»¹؛ فهذه الاستعارات أثرت في المتلقي - المتمثل هنا في "ابن الأثير" - وتعتبر ردة فعله "فعل تأثيري" ناتج عن مقول القول هذا، والذي تمثل في تصريحه بإعجابه بهاته الأبيات الشعرية.

لنمعن النظر في قول "العسكري": « قوله تعالى: ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾² أبلغ من قوله تعالى: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ﴾³، وإن كان هذا أنفى لجميع ما يملك في الظاهر. وتقول العرب: ما زرأته زبالاً. والزبال: ما تحمله الزملة بفيها، يريدون ما نقصته شيئاً»⁴.

نلاحظ أن العبارات الثلاث التي استعملت في الآيتين الكريمتين بالإضافة لقول العرب تحمل نفس المعنى وهو "ما نقصته شيء" أو "ما يملكون شيء" كما صرحت به الآية الثانية؛ إلا أن المعنى في الآية الأولى أبلغ وهذا ناتج عن الصورة التي وصفتنا من خلال تلك الاستعارة، وهي أنهم لا يملكون حتى القطمير وهو القشرة الرقيقة على النواة، وهذا تصوير رائع.

كذلك قول العرب: "ما زرأته زبالاً"؛ ولو لاحظنا هذا "الفعل الكلامي" المتمثل في "الاستعارة" لو جدناه يتمفصل حول مجالين مختلفين؛ فالمجال الأول مرتبط بالنظرة السطحية التي تظهر من خلالها هذه العبارة المشتملة على الاستعارة مجرد جملة ذات محتوى إخباري محض، أما المجال الثاني: وهو المسؤول عن المعاينة الفكرية التحليلية الدقيقة التي تغوص في العمق (الدلالي/التداولي) المرتبط بمقاصد الاستعمال وفنياته وإستراتيجياته، وفي هذا المجال العميق تكتسب تلك العبارة وجهة حجاجية جلية، بحيث تصبح العبارة أو الجملة المشتملة على هذه الاستعارة فعلاً كلامياً ينطوي على طاقات حجاجية، ويأخذ هذا الأخير على عاتقه مهمة

¹ - المصدر السابق، ج2، ص:100.

² - سورة فاطر، الآية:13.

³ - سورة الزمر، الآية:43.

⁴ - العسكري، الصناعتين، ص:296.

إقناع المتلقي وجعلهم يسلمون لحقيقة معينة، وهذا نفسه ما ذهب إليه "ديكرو Ducrot" إذ يعتبر هذا الأخير « أن الكثير من الأفعال الكلامية لها وظيفة حجاجية، والتي توجه المتلقي إلى نتيجة معينة، أو نفيها عن ذهنه، وحين تكون موضوعين ونجانب العمومية يمكن الاعتبار أن الوظيفة الحجاجية تحمل العلامات داخل الجملة نفسها، فالقيمة الحجاجية لمفوض ما ليست فقط نتيجة المحمولات الخبرية له، ولكن للجملة الواحدة عدة دلالات وعدة صيغ أسلوبية، والتي يمكن أن تضيف إلى محتواها الخبري توجيهات حجاجية المفوض، على أساس أنها توجه المتلقي إلى وجهة دون أخرى»¹، وهو ما نراه في الاستعارة قائماً، فبالإضافة إلى المحتوى الخبري الذي يمكن أن تتضمنه، يمكن القول أنها تتطوي على جانب حجاجي أساسه إقناع المتلقي، أو حتى قلب قناعاته وتغييرها باستعمال اليسير من اللفظ مقارنة مع الاستعمال الوضعي القائم على الحقيقة.

ب. التشبيه (التمثيل):

يسهم التشبيه الذي أيضاً في الإقناع « لكن كفاءته في التأثير أدنى من الاستعارة غالباً»²؛ إلا أن الاستعارة تعتبر مركز الحجاج.

بداية؛ لاحظ "ابن الأثير" تفريق علماء البيان بين التشبيه و التمثيل؛ إلا أنه يخالفهم في هذا الرأي؛ قال: « وجدت علماء البيان قد فرقوا بين التشبيه و التمثيل، و جعلوا لهذا باباً منفرداً، وهما شيء واحد لا فرق بينهما في أصل الوضع، يقال شبهت هذا الشيء بهذا الشيء كما يقال مثلته به»³؛ أي أن التشبيه والتمثيل عنده شيء واحد، ونفس الشيء لاحظناه عند "العسكري".

للتشبيه دور في الإقناع؛ وهذا ما أقره "العسكري" حين قال: « والتشبيه يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً، ولهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحدٌ منهم

¹- Voir : Oswald Ducrot ; Les échelle argumentative, Edition de Minuit ; Paris, 1985, p. 15.

²- صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، عالم المعرفة، الكويت، أغسطس 1992، ص:146.

³- ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص:123.

عنه ¹، و لو تأملنا ما أطلق عليها " أوجه التشبيه" لو جدناها تثبت ما قاله، والتي هي كالاتي:

- أ. إخراج ما لا يقع عليه الحاسة ، ومثاله: قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً﴾ ²؛ يقول "العسكري" معلقاً: « فأخرج ما لا يحس إلى ما يحس ، والمعنى الذي يجمعهما بطلان المتوهم من شدة الحاجة وعظم الفاقة، ولو قال: يحسبه الرائي ماء لم يقع موقع قوله: الظمان، لأنّ الظمان أشدّ فاقةً إليه، وأعظم حرصاً عليه» ³.
- ب. إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَتَزَعُّ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ ⁴، فاجتمع الأمران في قلع الريح لهما وإهلاكهما والتخوف من تعجيل العقوبة ⁵.
- ج. إخراج ما لا يعرف بالبديهة إلى ما يعرف بها ، فمن هذا قوله عزّ وجل: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ ⁶، قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بها، والجامع بين الأمرين العظم، والفائدة فيه التشويق إلى الجنة بحسن الصفة ⁷.
- د. إخراج ما لا قوة له في الصفة على ما له قوة فيها ، كقوله عزّ وجل: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ ⁸، والجامع بين الأمرين العظم، والفائدة البيان عن القدرة في تسخير الأجسام العظام في أعظم ما يكون من الماء ⁹.

¹ - العسكري، الصناعتين، ص: 265.

² - سورة النور، الآية: 29.

³ - العسكري، الصناعتين، ص: 262.

⁴ - سورة الأعراف، الآية: 171.

⁵ - العسكري، الصناعتين، ص: 263.

⁶ - سورة آل عمران، الآية: 133.

⁷ - العسكري، الصناعتين، ص: 263.

⁸ - سورة الرحمن، الآية: 23.

⁹ - العسكري، الصناعتين، ص: 264.

فالملاحظ أنه يراعي المتلقي في تقسيمه هذا؛ وبما يناسب إدراكه إذ يصور له ما لا يحس إلى ما يحس وما لا يعرفه إلى ما يعرفه بالبدئية، وكذا بما يحيط به وما جرت عليه العادة؛ وكل ذلك قصد زيادة تأكيد المعنى والتأثير في المتلقي.

أما بالنسبة لـ "ابن الأثير" فقد قسم التشبيه إلى قسمين: تشبيه مظهر و تشبيه مضمّر، إلا نجده يصرح بأن « التشبيه المضمّر أبلغ من التشبيه المظهر وأوجز ، أما كونه أبلغ فلجعل المشبه مشبها به من غير واسطة أداة، فيكون هو إياه، فإنك إذا قلت: زيد أسد، كنت قد جعلته أسدا من غير إظهار أداة التشبيه، أما كونه أوجز فلحذف أداة التشبيه منه»¹، إذ يتأثر المتلقي بالتشبيه المضمّر أكثر و يقتنع به لكونه يوصل الرسالة إليه بإيجاز.

وقد أدرك أيضا؛ "ابن الأثير" الدور الحجاجي للتشبيه ، وذلك واضح في قوله: « أما فائدة التشبيه من الكلام فهي أنك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه. وذلك أؤكد في طرفي الترغيب فيه أو التنفير عنه، ألا ترى أنك إذا شبّهت صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالا حسنا يدعو إلى الترغيب فيها. و كذلك إذا شبّهتها بصورة شيء أقبح منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالا قبيحا يدعو إلى التنفير عنها و هذا لا نزاع فيه»²؛ فالتشبيه إذن؛ يسهم في إقناع السامع؛ إذ يرسم صورة مخالفة لما يتصوره في ذهنه؛ بل قد تكون النقيض، أي أن للتشبيه دور في تغيير معتقدات المتلقي، وهو لب الحجاج و التداولية بشكل عام.

وقد قسم "ابن الأثير" التشبيه أربعة أقسام ؛ وهي: تشبيه معنى بمعنى، تشبيه صورة بصورة، تشبيه معنى بصورة، تشبيه صورة بصورة³، و يقصد بالصورة هنا الصورة المرئية و بالمعنى المجرد.

1. التشبيه معنى بمعنى: وهو كقولنا: " هذه المرأة كالوردة"، أو قولنا: " هذه المرأة كالحية".

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص: 121.

² - المصدر نفسه، ج2، ص: 123.

³ - المصدر نفسه، ج2، ص: 128.

2. تشبيه صورة بصورة: وهو تشبيه صورة مرئية بصورة أخرى؛ كقوله تعالى ﴿وَعِنْدَهُمْ

قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾¹؛ حيث يصف الله تعالى لعباده المؤمنين ما

يحضون به في الجنة من نساء جميلات كأنهن بيض مصون حيث شبه النساء الجميلات و

هي صورة مشاهدة بالبيض المصون و التي هي أيضا صورة مشاهدة ، و الهدف من هذا

التشبيه هو إقناع الله تعالى عباده بجمال تلك النساء اللاتي هن من خيرات الجنة و نعيمها،

الأمر الذي يدفع إلى طاعته و تتبع الطريق الصحيح من أجل الفوز بهذه الخيرات في الآخرة.

3. تشبيه معنى بصورة: وهو تشبيه معنى مجرد بصورة مشاهدة كقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا

أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ

فَوَفَاءٌ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾²؛ حيث شبه الله تعالى أعمال الكفار وهو معنى مجرد

بالسراب الذي نراه وسط النهار عند شدة الحر كأنه ماء و هو صورة مشاهدة ؛ و لقد أقر "ابن

الأثير" بأهمية هذا التشبيه في التأثير قال: « وهذا القسم أبلغ الأقسام الأربعة، لتمثيله المعاني

الوهمية بالصور المشاهدة»³، و نحن نتفق معه في الرأي لأن المستمع يقتنع أكثر بالصورة

المرئية الواقعية التي لا تحمل معها أي موضع للشك على رأي "بيرلمان" ⁴، أثناء ذكره لدور

الوقائع في إقناع القارئ ، لذلك يمكننا القول إن تشبيه معنى بصورة هو التشبيه الذي يخدم

الحجاج أكثر.

4. تشبيه صورة بمعنى: وهو عكس القسم الثالث فهو تشبيه صورة مرئية بمعنى مجرد كقول

ابن تمام ⁵ :

و فَتَكَّتْ بِالْمَالِ الْجَزِيلِ و بِالْعِدَا فَتَكَ الصَّبَابَةَ بِالْمُحِبِّ الْمُعْرَمِ

¹ - سورة الصافات، الآيتين: 48-49 .

² - سورة النور، الآية:39.

³ - ابن الأثير المثل السائر، ج2، ص: 128.

⁴ - Voir :prelmna et Tyteca , Traité de l' argumentation , Op . cit , p 90-92.

⁵ - ابن الأثير، مصدر سابق، ص: 128.

حيث شبه الشاعر الفتك بالمال و بالعدا الذي هو صورة مشاهدة، بفتك الصباية التي هي من درجات العشق و هي معنى مجرد.

إلى جانب هذه الأقسام الأربعة للتشبيه يصف "ابن الأثير" أقساماً أخرى، حيث يقول: «و كل واحد من هذه الأقسام الأربعة المشار إليها، لا يخلو التشبيه فيه من أربعة أقسام أيضاً:

- 1) أما التشبيه مفرد بمفرد.
- 2) وإما التشبيه مركب بمركب.
- 3) وإما التشبيه مفرد بمركب.
- 4) وإما التشبيه مركب بمفرد»¹.

1. تشبيه مفرد بمفرد: معناه تشبيه شيء واحد بشيء واحد ، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ

لِبَاسًا﴾²؛ فشبه الليل باللباس وذاك أنه يستر الناس بعضهم عن بعض لمن أراد هرباً من عدو أو ثباتاً لعدو أو إخفاء ما لا يجب الإطلاع عليه من أمره وهذا من التشبيهات التي لم يأت بها إلا القرآن الكريم فإن تشبيه الليل باللباس.

2. التشبيه مركب بمركب: ومعناه تشبيه شيئين اثنين بشيئين اثنين كقوله صلى الله عليه

وسلم: «أمسك عليك هذا " وأشار إلى لسانه فقال معاذ: أو نحن مؤخذون بما نتكلم به فقال: " تكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصاد ألسنتهم " فقوله " حصاد ألسنتهم " من تشبيه المركب بالمركب فإنه شبه الألسنة وما تمضي فيه من الأحاديث التي يؤخذ بها بالمناجل التي تحصد النبات من الأرض وهذا تشبيه بليغ عجيب لم يسمع إلا من النبي صلى الله عليه وسلم «³؛ حيث شبه النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن القارئ للقرآن وهما صفتان اثنان بالأتربة التي لها طعم طيب و ريح طيب وهما أيضاً صفتان اثنان، وشبه

¹ - المصدر السابق، ج2، ص ص: 128-129.

² - سورة النبأ، الآية:10.

³ - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص: 136.

أيضا المؤمن الغير القارئ للقرآن وهما صفتان بالتمرة التي لها طعم طيب ولا ريح لها وهما صفتان، كما شبه أيضا المنافق الغير قارئ للقرآن بالحنظلة التي لا ريح لها و طعمها مر .

3.تشبيه مفرد بمركب : و معناه تشبيه شيء واحد بشيئين كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ۗ﴾¹، حيث شبه الله سبحانه و تعالى نوره الذي هو شيء واحد بنور المصباح و نور البدر وهما شيئين اثنين.

4.تشبيه مركب بمفرد : و معناه تشبيه شيئين اثنين بشيء واحد، و هذا القسم بالنسبة لابن الأثير قليل الاستعمال و مثل ذلك قول ابن تمام في وصف الربيع²:

يا صَاحِبِي تَقْصِيًا نَظْرِيكُمَا تَرِيَا وُجُوهَ الْأَرْضِ كَيْفَ تُصَوِّرُ
تَرِيَا نَهَارًا مُشْمِسًا قَدْ شَابَهُ زَهْرُ الرَّبَا فَكَأَنَّمَا هُوَ مُقْمِرٌ

فقد شبه الشاعر هنا النهار المشمس و الزهور البيضاء و هما شيئان اثنان بضوء القمر وهو شيء واحد.

ويتأمل هذه الأقسام الأربعة للتشبيه التي أضافها "ابن الأثير" نلاحظ أن القسم الثالث من التشبيه وهو "تشبيه المفرد بالمركب" أقوى هذه الأقسام وأشدها على إقناع الم تلقي و التأثير فيه، ذلك لأن تشبيه شيء واحد بشيئين اثنين يدعم كلام المتكلم و يعطيه قوة أكثر.

ج. الكناية و التعريض:

ويورد "العسكري" نقلاً عن بعض الهنود: « جماع البلاغة البصر بالحجة .. ومن البصر بالحجة، أن يدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها، وذا كان طريق الإفصاح وعراً، و كانت الكناية أحصر نفعاً.. »³ ؛ أي أن استعمال المعنى الخفي وإضماره بدل التصريح به أكثر أقتناعاً وحجة، ومن الآليات التي تعتمد هذا الأسلوب الكناية والتعريض.

¹ - سورة النور، الآية:35.

² - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص: 157.

³ - العسكري، الصناعتين، ص: 25.

إن؛ للكناية والتعريض دور في الحجاج فهما بمثابة الدليل الذي يلجأ إليه المتكلم لإثبات معانيه و إقناع قارئه، قد تعرض لهما كل من "العسكري" و "ابن الأثير"، وقد لاحظ هذا الأخير أن الكثير من علماء البيان يخلطون بين الكناية والتعريض و ذلك نظرا لتشابههما الكبير، و من أجل ذلك وضع حدودا بين المصطلحين فأعطى لكل واحد منهما مفهوما خاصا به، فالكناية عنده هي « كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة و المجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز والدليل على ذلك أن الكناية في أصل الوضع أن تتكلم بشيء و تريد غيره، يقال كنييت بكذا عن كذا ، فهي تدل على ما تكلمت به وعلى ما أردته في غيره »¹ ، و على هذا الأساس نجد أن الكناية هي تلفظنا بشيء و نحن نريد شيئا آخر، وهذا الشيء الذي تلفظنا به له علاقة بالذي نريد هـ، وهذا يعكس توجهها التداولي كفعل كلامي غير مباشر، فمثلا: كقولنا: " شخص كثير الرماد " فنحن تلفظنا بالقول : "كثير الرماد" ؛ و لكن نحن نريد معنى آخر، و هو أنه " كثير الكرم و العطاء "، فنلاحظ أن " كثير الرماد " له علاقة بكثير الكرم و العطاء، ذلك أن كثرة الكرم و العطاء تقتضيان كثرة الطبخ، وكثرة الطبخ تقتضي كثرة الضيوف؛ هذا كنوع من الاستلزام يقوم به المتلقي أثناء سماعه لهذا المقول أو المنجز الكلامي.

أما التعريض فيعرفه " ابن الأثير " بقوله: « هو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم بالوضع الحقيقي و المجازي، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير الطلب : و الله إني لمحتاج، وليس في يدي شيء، و أنا عريان والبرد قد أذاني، فإن هذا و أشباهه تعريض بالطلب و ليس هذا اللفظ موضعا في مقابلة الطلب لا حقيقة و لا مجازا ، و إنما دل عليه من طريق المفهوم »² ، وهذا معناه أن التعريض يفهم من سياق الكلام فهو لا يشير مباشرة إلى المراد، و إنما يلمح إليه، وهنا يشير " ابن الأثير " إلى أن المعلومات المشتركة التي بينه وبين من يستخدم معه هذا الأسلوب تساعد على فهم المقصد، و تكون بمثابة افتراض مسبق يساعد المتلقي على الوصول إلى قصد المتكلم، كما نلاحظ أن مصطلح التعريض عند "ابن الأثير" يقابل مصطلح

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص:62.

² - المصدر نفسه، ج3، ص:56.

التلميح عند "بيرلمان"، و لقد أقر هذا الأخير بالدور الإقناعي و الحجاجي للتلميح و ذلك في قوله بأن التلميح له دائما دور حجاجي، لأنه عنصر الربط و الاتحاد بين المخاطب و الجمهور¹.

وفي التفريق " ابن الأثير " بين الكناية و التعريض، يقول: « والتعريض أخفى من الكناية، لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز، و دلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي و لا المجازي و إنما سمي التعريض تعريضا لأن المعنى فيه يفهم من عرضه و عرض كل شيء جانبه، و أعلم أن الكناية تشمل اللفظ المفرد و المركب معا، فتأتي على هذا تارة و على هذا أخرى، و أما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب، و لا يأتي في اللفظة المفردة البتة و الدليل على ذلك أنه لا يفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة، و لا من جهة المجاز، و إنما يفهم من جهة التلميح و الإشارة، و ذلك لا يستقبل به اللفظ المفرد، و لكنه يحتاج في الدلالة عليه على اللفظ المركب »². فخلاصة القول إن الكناية كما قلنا سابقا هي إذن التلفظ بشيء و إرادة شيء آخر أما التعريض فهو التلميح و الإشارة إلى الشيء المراد الذي لا يفهم إلا من خلال السياق وقد سبق وأن فصلنا في هذا في فصل سابق، و ما أضافه " ابن الأثير " بخصوص التفريق بينهما هو أن الكناية تستخدم اللفظ المفرد و المركب معا، أما التعريض فلا يستخدم إلا للفظ المركب، و ذلك لأن التعريض الذي هو التلميح و الإشارة لا يعبر عنه اللفظ المفرد و إنما اللفظ المركب.

من أمثلة "العسكري" في التعريض « ما ما كتب به عمرو بن مسعدة إلى المأمون: أما بعد، فقد استشفع بي فلان إلى أمير المؤمنين، ليتطوّل عليه في إلحاقه بنظرائه من المرتزقين فيما يرتزقون، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفع بهم، وفي ابتدائه بذلك تعدّى طاعته والسلام. فوقع في كتابه : قد عرفنا تصرّيحك له ، وتعرّيك بنفسك ، وأجبتك

¹-Voir :perelman et Tyteca , Traité de l'argumentation, Op. cit , p :229 .

²- ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص:62.

إيهما ، وأوقفناك عليهما ¹، فيما نقله العسكري " يظهر حتى ردة فعل المتلقي وهو الخليفة المقصود بالكلام، وتحقق الفعل التأثيري بتحقيق مطلبه، وجعله محل شفاعته عنده، مع إن المخاطب هنا لم يصرح مباشرة بطلبه.

أيضا من الكناية ما نقله " ابن الأثير" في ما « ورد في قول الأعرابية في حديث أم زرع في وصف زوجها: " له إبل قليلات المسارح كثيرات المبارك إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك". و غرض الأعرابية من هذا القول أن تصف زوجها بالجوود والكرم إلا أنها لم تذكر ذلك بلفظه الصريح وإنما ذكرته من طريق الكناية على وجه الإرداف الذي هو لازم له ²، ولوقع هذا القول على المتلقي أثر أفضل من تصريحها بأن "زوجها كريم وجواد".

وبهذا نخلص إلى أن كل الصور البيانية الثلاث من: استعارة، تشبيه (التمثيل)، كناية تهدف إلى إثبات المعنى و تقويته، وبالتالي في حجية المعنى وتقويته، و كلها تستعمل نفس الطريقة في الإثبات، وهو الأسلوب غير المباشر؛ إذ نستطيع أن نعتبرها أفعال كلامية غير مباشرة؛ و ذلك لأنها تستعمل لفظا ليس من أجل الدلالة على معنى هذا اللفظ، وإنما للدلالة على معنى آخر يستنتج من هذا اللفظ المستعمل، فقولنا مثلا في الاستعارة " غزال مقنع"، و في التشبيه " زيد أسد"، و في الكناية " كثير الرماد"، فإن هذه العبارات و الألفاظ المستعملة كلها تدل على معنى آخر يستتبط منها؛ فـ "الغزال المقنع" يدل على "المرأة الحسنة"، و "زيد أسد" يدل على شجاعة "زيد" وشهامته، و "كثير الرماد" يدل على "كثرة الكرم و العطاء".

3.الالتفات :

لالتفات كذلك دور مهم في الحجاج، إذ يعتنق « طريقة في الضغط على ذهن المتلقي و لفت انتباهه إلى مواطن مخصوصة في الرسالة ³، و لقد تعرض كل من "العسكري" و "ابن الأثير" لالتفات، وهو عند "العسكري" على ضربين، يقول: « الالتفات على ضربين، فواحد أن

¹ - العسكري، الصناعتين، ص ص:407-408.

² - ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص:60.

³ - عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص:524.

يفرغ المتكلم من المعنى، فإذا ظننت أنه يريد أن يجاوزه يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره به، أخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرني محمد بن يحيى الصولي، قال الأصمعي: أتعرف التفاتات جرير؟ قلت: لا، فما هي؟ قال:

أتتسى إذ تودّعنا سليمي بعود بشامة سوي البشام

ألا تراه مقبلا على شعره. ثم التفت إلى البشام فدعا له¹.

أما الضرب الآخر يتضح في قوله: «والضرب الآخر أن يكون الشاعر آخذاً في معنى وكأنه يعترضه شك أو ظن أن راداً يردّ قوله، أو سائلاً يسأله عن سببه، فيعود راجعاً إلى ما قدمه.. فإما أن يؤكد، أو يذكر سببه، أو يزيل الشك عنه»²، حيث في هذا النوع من الالتفات يراعي المتلقي و يفترض مسبقاً بعض ما قد يدور في ذهنه من شك أو عدم فهم؛ فيعود ليؤكد ما يبغيه ويقصده، وهنا يتضح دور الالتفات الحجاجي. ومثاله قول طرفة:

وتصد عنك مخيلة الرجل ال مشروف موضحةً عن العظم

بحسام سيفك أو لسانك وال كِلم الأصيل كأزعب الكلم

فكأنه ظن معترضاً، يقول له: كيف يكون مجرى اللسان والسيف واحداً، فقال: والكلم الأصيل كأرغب الكلم³.

ويرى "ابن الأثير" أن "الالتفات" في «حقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه و شماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا و تارة كذا . وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة، لأنه ينتقل فيه عن صيغة إلى صيغة، كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب أو خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماض»⁴. فللواضح من هذا

¹ - العسكري، الصنائع، ص: 438.

² - المصدر نفسه، ص: 439.

³ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص ص: 127-128.

التعريف أن الالتفات يسعى إلى التنوع في الضمائر و أزمنة الأفعال الخاصة بالخطاب، و ذلك كله من أجل أن يتفاعل ال متلقي مع هذا الخطاب و يستجيب له، و هذا ما يعبر عنه "بيرلمان" ¹، حيث يجد أن هذا الاختلاف في الضمائر والأزمنة يضع ال متلقي في وسط الأحداث و يتفاعل معها حسب القصد الذي يبيغيه المتكلم.

يقسم "ابن الأثير" الالتفات إلى ثلاثة أقسام:

1) القسم الأول:

في الرجوع من الغيبة إلى الخطاب و من الخطاب إلى الغيبة ، و الذي معنا ه أن المتكلم ينتقل في كلامه من الغيبة إلى الخطاب و من الخطاب إلى الغيبة، الأمر الذي يؤدي إلى التغيير في الضمائر و تنوعها، ومثاله ذلك « قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ ²، وإنما قيل: " لقد جئتم "، وهو خطاب بعد قوله: " وقالوا "، وهو خطاب للغائب لفائدة حسنة وهي زيادة التسجيل عليهم بالجرأة على الله تعالى والتعرض لسخطه وتنبيه لهم على عظم ما قالوه، كأنه يخاطب قوما حاضرين بين يديه منكرا عليهم وموبخا لهم».

-الرجوع من خطاب الغيبة في خطاب النفس، و ذلك من مثل قوله سبحانه و تعالى: ﴿

ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ *

فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ

وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿ ³، إذ تم الانتقال هنا من خطاب الغيبة في قوله تعالى ؛

"اسْتَوَىٰ"، "فَقَالَ"، "فَقَضَاهُنَّ"، "أَوْحَىٰ" باستعمال ضمير الغائب " هو"، إلى خطاب النفس

في قوله تعالى؛ " زَيْنَا" باستعمال ضمير الحاضر " نحن" .

-الرجوع من خطاب النفس إلى خطاب الجماعة؛ و مثاله قوله تعالى: ﴿ حم * وَالْكِتَابِ

الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا

¹ -Voir : perelman et Tyteca , Traité de l'argumentation, Op. cit , p :241.

² -سورة مريم، الآيتان: 88-89.

³ -سورة فصلت، الآيتان: 11-12.

إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾ ؛ فلنظر كيف تم الانتقال هنا من خطاب النفس من قوله تعالى : " إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ " ، " إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ " ، " مِنْ عِنْدِنَا " ، " إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ " باستعمال الضمير " نحن " إلى خطاب الواحد في قوله تعالى : " إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " باستعمال الضمير " هو " و هو ضمير الواحد.

ومن الشعر قول أبي تمام:

وركبٍ يُسَاقُونَ الرِّكَابَ زُجَاجَةً	من السَّيْرِ لَمْ تَقْصِدِ لَهَا كَفًّا قَاطِبٍ
فقد أكلوا منها العَوَارِبَ بالسُّرَى	وصارت لهم أشْبَاحُهُمْ كَالْعَوَارِبِ
يُصَرِّفُ مَسْرَاهَا جُدَيْلٍ مَشَارِقِ	إِذَا أَبْهُ هَمٌّ عُدَيْقٍ مَغَارِبِ
يَرَى بِالْكَعَابِ الرُّودِ طَلْعَةَ ثَائِرِ	وَبِالْعَرِمِ سِ الْوَجْنَاءِ غُرَّةَ آئِبِ
كَأَنَّ بِهَا ضِعْغًا عَلَى كُلِّ جَانِبِ	من الأَرْضِ أَوْ شَوْقًا إِلَى كُلِّ جَانِبِ
إِذَا الْعَيْسِ لَاقَتْ بِي أبا دُلْفٍ فَقَدْ	تَقَطَّعَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّوَائِبِ
هُنَالِكَ تَلْقَى الْجُودَ مِنْ حَيْثُ قُطِعَتْ	نَمَائِمُهُ وَالْمَجْدُ مُرْخَى الدَّوَائِبِ

ألا ترى أنه قال في الأول " يصرف مسراها " مخاطبة للغائب ، ثم قال بعد ذلك: " إذا العيس لاقَتْ بي " مخاطباً نفسه ، وهي هذا من الفائدة أنه لما صار إلى مشافهة للممدوح والتصريح باسمه خاطب عند ذلك نفسه مبشراً لها بالبعد عن المكروه والقرب من المحبوب ، ثم جاء بالبيت الذي يليه معدولاً به عن خطاب نفسه إلى خطاب غيره وهو أيضاً خطاب لحاضر فقال " هنالك تلقى الجود " ، والفائدة بذلك أنه يخبر غيره بما شهده كأنه يصف له جود الممدوح وما لاقاه منه، إشادة بذكره وتنويهاً باسمه وحماً لغيره على قصده ، وفي صفته جود الممدوح بتلك الصفة الغريبة البليغة وهي قوله " حيث قطعت توائمه " ما يقتضي له الرجوع إلى خطاب الحاضر والمراد بذلك أن محل الممدوح هو مآلف الجود ومنشؤه ووطنه وقد يراد به معنى آخر

¹ - سورة الدخان، الآيات من: 1-6.

وهو أن هذا الجود قد أمن عليه الآفات العارضة لغيره من المن والمطل والاعتذار وغير ذلك إذ التمام لا تقطع إلا عمن أمنت عليه المخاوف¹.

-الرجوع من الخطاب إلى الغيبة؛ و مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً

وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٢﴾، حيث تم الانتقال هنا من

الخطاب في قوله: "أُمَّتُكُمْ"، "رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ"؛ باستعمال الضمير "أنتم" وهو ضمير الحاضر، إلى الغيبة في قوله: "أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ"، "رَاجِعُونَ" باستعمال ضمير "هم".

نلمح من خلال هذه الأمثلة، كيف أن الانتقال من الغيبة إلى الخطاب و من الخطاب إلى الغيبة، يصحبه تغيراً في الضمائر، حيث أن لهذا التغير في نوع الضمائر مع بقاء الملتقت عنه واحداً لا يتغير، ويرفض "ابن الأثير"³ القول بأن فائدة الالتفات لمجرد الافتتان في الكلام ولتطرية السامع و تجديد نشاطه فحسب، و لوها نستطيع أن نرجع ذلك لقصد المتكلم توريط المتلقي و الزج به في القضايا التي يتناولها الخطاب و لجعله طرفاً فيها معناها بها⁴ فالسامع أو المتلقي لما ينتقل من ضمير إلى ضمير يشعر و كأنه يشارك في أحداث الخطاب و يتفاعل معها، فمثلاً في الآيتين السابقتين، يعقب ابن الأثير "عليها قائلاً: «الأصل في تقطعوا تقطعتم عطفاً على الأول إلا أنه صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة على طريقة الالتفات كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى قوم آخرين وبقبح عندهم ما فعلوه ويقول: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله تعالى فجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً؟ وذلك تمثيل لاختلافهم فيه وتباينهم ثم توعدهم بعد ذلك بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون فهو مجازيهم على ما فعلوا»⁵، وبتأمل قوله واستناداً للآيتين وقارئتنا لها نلاحظ أن هذا الأسلوب ليوصل سبحانه تعالى إلى المتلقي غضبه من هؤلاء بعد أن خاطبهم مباشرة بقوله: "أنا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ"، التفت عنهم لأنه غير راض عن أفعالهم..، فأحدنا عندما يغضب غضباً شديداً من آخر؛ في رأينا- والله المثل الأعلى- فإنه لا يواجهه بالكلام، لأنه لم يعد يعنيه أمرهم وهم جميعاً مجموعون وراجعون إليه.

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص ص: 175-176.

² - سورة الأنبياء، الآيتان: 92-93.

³ - ينظر: ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص ص: 169-170.

⁴ - عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص ص: 526-527.

⁵ - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص: 178.

(2) القسم الثاني:

- الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر : و مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ * إِن نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ¹ ، إذ تم الانتقال من الفعل المستقبل في قوله تعالى: "أشهدُ " إلى فعل الأمر في قوله : "اشهدُوا".

- الرجوع عن الفعل الماضي إلى الفعل الأمر: مثال قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ ² ، و هنا أيضا نلاحظ كيف تم الانتقال من الفعل الماضي في قوله: "أمر " إلى فعل الأمر في قوله : "أقيموا" و " ادعوه" ، و لقد انتقل هنا من الفعل الماضي إلى فعل الأمر في قوله تعالى "أقيموا" ليؤكد الله تعالى لعباده و ليقنعهم بضرورة الصلاة كما قال "ابن الأثير": « و كان تقدير الكلام أمر ربي بالقسط و بإقامة وجوههم عند كل مسجد فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده في نفوسهم فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده ثم أتبعها بالإخلاص الذي هو عمل القلب» ³.

(3) القسم الثالث:

+الإخبار بالفعل المستقبل عن الماضي: يذكر هنا "ابن الأثير" ملاحظة مهمة وهي قوله: « اعلم أن الفعل المستقبل إذا أتى به في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي، وذلك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها ⁴ ، وهنا يشير إلى أبعاد استعمال الفعل المستقبل وتأثيره في المتلقي.

¹ - سورة هود، الآيتان: 54-53.

² - سورة الأعراف، الآية: 29.

³ - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص: 193.

⁴ - المصدر نفسه، ج2، ص: 181.

ويضيف "ابن الأثير" محاورًا: «فإن قيل: إن الفعل الماضي أيضا يتخيل منه السامع ما يتخيله من المستقبل! قلت في الجواب: إن التخيل يقع في الفعلين معًا، ولكنه في أحدهما و هو المستقبل **أوكد** و **أشد تخيلا** لأنه يستحضر صورة الفعل منه»¹، أي أن المستقبل هو الذي **يحرك خيال المتلقي أكثر** و بهذا نجد إذن أن الفعل المستقبل من أهم آليات الحجاج التي تسهم في جلب القارئ و إقناعه.

وليوضح ذلك قدم أمثلة منها قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْتَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾²؛ و إذا معنا النظر في هذه الآية الكريمة لوجدنا أن الفعل الأول: "أَرْسَلَ" جاء في زمن الماضي، أما الفعل الثاني و هو "تُثِيرُ" جاء في زمن المستقبل، و المفروض أن يأتي الفعل الثاني في زمن المستقبل عوضًا عن زمن الماضي، ذلك لأن المستقبل هو الذي يتيح للقارئ فرصة تخيل حال تلك الرياح المثيرة للسحاب أمامها.

-الإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل : يقول "ابن الأثير": «وَأما الإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل فهو عكس ما تقدم ذكره وفائدته أن الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك **أبلغ** و **أوكد في تحقيق الفعل وإيجاده** ، لأن الفعل الماضي **يعطي من المعنى أنه قد كان** ووجد، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها»³، ثم يضيف: «والفرق بينه وبين الإخبار بالفعل المستقبل عن الماضي أن الغرض بذاك تبين هيئة الفعل واستحضار صورته ليكون السامع كأنه يشاهدها والغرض بهذا هو الدلالة على إيجاد الفعل الذي لم يوجد»⁴.

¹ - المصدر السابق ، ج2، ص: 196.

² - سورة فاطر، الآية: 9.

³ - ابن الأثير، المثل السائر، ج 2، ص: 185.

⁴ - المصدر نفسه ، ج2، ص: 185.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُعَادِرْ مِنْهُمُ أَحَدًا¹ ﴾، ففي هذه الآية الفعل "نُسَيِّرُ" والفعل "تَرَى" في زمن المستقبل، أما فعل "حَشَرْنَاَهُمْ" فقد جاء في زمن الماضي من أجل الدلالة و التأكيد على وجود الحشر و حدوثه، وهنا يشير إلى الدور الإقناعي للفعل الماضي أثناء الإخبار به عن المستقبل . و نستنتج مما سبق أن كلا من الفعل المستقبل و الماضي يلعب دورا مهما في الحجاج، وتأكيد المعنى و تقويته.

4.التفسير بعد الإبهام:

بين "بيرلمان" الدور الحجاجي لظاهرة التفسير ، لما يمنحه للمتلقي من توضيح و شرح للفكرة و بالتالي إقناعه، وقد انفرد بها " ابن الأثير " عن " العسكري " تحت اسم " التفسير بعد الإبهام".

ومن أمثلته؛ قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى * وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾²؛ فقوله: "مَا يُوحَى" مبهم ويجعل المتلقي يتساءل عما أوحاه لها، ثم يأتي الفعل " أَنْ اقْذِفِيهِ " ليفسره، أي إبهامه أولاً وتفسيره ثانيا³.

مثال آخر؛ قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾⁴، يظهر الإبهام في قوله تعالى " أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ " لأن المتلقي يجهل هذه الواحدة التي قصدها الله تعالى، إلا أنه يأتي تفسيرها فيما بعد بقوله: " أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا".

¹ - سورة الكهف، الآية: 47 .

² - سورة طه، الآيات من: 36 - 39 .

³ - ينظر: ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص: 196.

⁴ - سورة سبأ، الآية: 46.

ومن خلال هذين المثالين نستطيع أن نقول أن التفسير بعد الإبهام من أهم الوسائل الحجاجية التي يستعملها المتكلم؛ إذ لها دور فعال في فك الغموض و الإبهام للمتلقى، و إقناعه بالفكرة التي يقصدها.

5. في الخطاب بالجملة الفعلية و الجملة الاسمية و الفرق بينهما:

إن العدول في الخطاب من الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية يهدف به المتكلم التأكيد على المعنى المراد إيصاله إلى المتلقي، وهذا ما صرح به "ابن الأثير" حيث قال: «وإنما يعدل عن واحد الخطابين إلى الآخر لضرب التأكيد والمبالغة. فمن ذلك قولنا: قام زيد، و إن زيد قائم، فقولنا: " قام زيد " معناه الإخبار عن زيد بالقيام، و قولنا: " إن زيد قائم " معناه الإخبار عن زيد بالقيام أيضا، إلا أن في الثاني زيادة ليست في الأولى، و هي توكيده بأن المشددة التي من شأنها الإثبات لما يأتي بعدها، و إذا زيد في خبرها للام، فقيل: إن زيدا لقائم كان ذلك أكثر توكيدا في الإخبار بقيامه»¹، و معنى هذا أن الجملة الاسمية " إن زيد لقائم " تفيد التأكيد على الخبر.

أي أن الجملة الاسمية تلعب دورا فعالا في إقناع المتلقي، هذا يتوافق مع رأي "بنفنيست" الذي يقول: «تهدف الجملة الاسمية إلى الإقناع و ذلك عن طريق التعبير عن الحقيقة العامة (...). و هي لا تبلغ عن معطى حدثي، لكن هي تضع حكما لا زمنيا دائما، و الذي يعمل مثل حجة السلطة»²، و من أدوات التوكيد ما يلي:

لام التوكيد:

و مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾³؛ فانظر إلى هذه اللامات الثلاثة الواردة خبر إن، والأولى وردت في قول المنافقين، وإنما وردت مؤكدة لأنهم أظهروا من أنفسهم التصديق برسالة

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص:269.

² - Voir :Emile Benveniste , problèmes de linguistique générale , édition Gallimard ;1966,p

³ - سورة المنافقون، الآية:1.

النبي، وتملقوا وبالغوا فيه؛ واللام في الثانية لتصديق رسالته، وفي الثالثة لتكذيب المنافقين فيما كانوا يظهرونه من التصديق الذين هم على خلافه.

-لام الابتداء: ومن أمثله؛ قول الشاعر:

والشَّيْبُ إِنْ يَظْهَرُ فَإِنْ وَرَاءَهُ عُمْرًا يَكُونُ خِلَالَهُ مُنْتَفَسٌ
لَمْ يَنْقُصْ مِنِّي الْمَشِيبُ فُلَامَةً وَلَمَّا بَقِيَ مِنِّي أَلْبٌ وَأَكْيَسُ

فقوله " ولما بقي مني " تقديره و "ما بقي مني " و أدخلت اللام على " ما " قصد تأكيد المعنى، لأنه موضع يحتاج إلى التأكيد؛ ففوة العمر في الشباب لا تحتاج لإثبات، ولما أراد هذا الشاعر أن يصف الشيب أتى باللام لتؤكد ما قصده من الصفة؛ أي إثبات قوته في الكبر¹.

1. النون الثقيلة: و مثال ذلك قول "البحثري" في معاتبة الفتح بن خاقان:

هل يجلبن إلى عطفك موقف ثبت لديك أقوال فيه و تسمع

تظهر النون الثقيلة في هذا المثال، في قول الشاعر " يجلبن "، و نظرا لكون " البحثري " هنا بصدد التمني، جاء بهذه النون لهدف التأكيد على أمنيته هذه².

ومن هذا كله نستنتج أن الجملة الاسمية و كل ما يأتي في الكلام من أدوات التوكيد المختلفة، لها دور في التأكيد و التحقيق، و بالتالي الإقناع و الحجاج.

6. الإطناب:

للإطناب دور جداً مهم في توضيح المعنى و تأكيده، و الزيادة في حضور هذا المعنى في ذهن المتلقي كما ذكرنا عند "بيرلمان" سابقاً، وهو ما صرح " ابن الأثير " بقوله: «و بعد أن أنعمت نظري في هذا النوع الذي هو الأطناب وجدته ضرباً من ضرور التأكيد التي تؤتى بها في الكلام قصدا للمبالغة»³.

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج 2، ص: 235.

² - المصدرن فسه، ج2، ص ص: 239-240.

³ - المصدر نفسه، ج2، ص: 342.

وقد تنبه "العسكري" لدور "الإطناب" في الإقناع والحجاج وذلك حين قال: «قال أصحاب الإطناب: المنطق هو بيان، والبيان لا يكون إلا بالإشباع، والشفا لا يقع إلا بالإقناع، وأفضل الكلام أبينه، وأبينه أشده إحاطة بالمعاني، ولا يحاط بالمعاني إحاطة تامة إلا بالاستقصاء»¹، وقد حاول التفريق بين "الإطناب" و"التطويل" مؤكداً في ذلك على دوره في الإقناع؛ إذ يقول: «والإطناب بلاغة، والتطويل عي؛ لأنّ التطويل بمنزلة سلوك ما يبعد جهلاً بما يقرب، والإطناب بمنزلة طريق بعيد نزه، يحتوي على زيادة فائدة»².

كما نجد "ابن الأثير" أيضاً حاول التفريق بين الإطناب والتطويل والتكرار، يرى أن الإطناب «هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة. فهذا حده الذي يميزه عن "التطويل" إذ التطويل هو زيادة اللفظ عن المعنى لغير فائدة، و أما "التكرير" فإنه دلالة على المعنى مردداً، كقولك لمن تستدعيه: أسرع أسرع، فإن المعنى مردد، و اللفظ واحد»³، وبهذا نجد أن الإطناب عند "ابن الأثير" هو الأكثر فائدة في إيصال المعنى إلى المتلقي وتوضيحه، و على عكس التطويل؛ الذي يأتي لغير فائدة، والتكرار الذي منه ما يأتي لفائدة و منه ما يأتي لغير فائدة. وليوضح "ابن الأثير" دور الإطناب في تقوية المعنى وزيادته ذهن المتلقي، ذكر مثالا أورده "ابن الأثير" حول وصف بستان به فواكه، حيث قدم لنا هذا بأسلوب مميز؛ إذ قدم هذا الوصف بطريقتين: طريقة الإيجاز وطريقة الإطناب، وذلك ليبرز فضل أحدهما على الآخر. فوصف البستان بطريقة الإيجاز ممثل في قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾⁴، أما إذا كان وصفه بطريقة الإطناب فيكون كما قال "ابن الأثير": «جنة علت أرضها أن تمسك ماء، و ينبوعها أن تستجدي سماء، و هي ذات ثمار مختلفة الغرابة و تربة منجبة، و ما كل تربة توصف بالنجابة، ففيها المشمش الذي يسبق غيره بقدمه، ويقذف أيدي الجانبين بنجومه،

¹ - العسكري، الصناعتين، ص: 209.

² - المصدر نفسه، ص ص: 210-211.

³ - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص ص: 393-394.

⁴ - سورة الرحمن، الآية: 52 .

فهو يسمو بطيب الفرع و النجار[...]. و فيها التفاح الذي رق جلده و عظم قده و تورده و طابته و طابت أنفاسه [...] و فيها العنب الذي هو أكرم الثمار طينة و أكثرها ألوان زينة [...] و فيها الرمان الذي هو طعام و شراب [...] وفيها التين الذي أقسم الله به تنويها بذكره و استتر آدم عليه السلام بورقه إذا كشفت المعصية من ستره [...] و فيها من ثمرات النخيل ما يزهى بلونه و شكله و يشغل بلذة مظهره عن لذة أكله [...] و فيها غير ذلك من أشكال الفاكهة وأصنافها وكلها معدود من أوساطها لا من أطرافه [...] ولقد دخلتها فاستهوتني حسدا ولم أصاحبها على قوله لن تبيد هذه أبدا¹.

ما يمكن قوله من خلال هذين الأسلوبين، أنه على الرغم من قدرة الإيجاز في المثال الأول على وصف تعدد الفواكه في ذلك البستان بألفاظ قليلة، إلا أن الإطناب في المثال الثاني هو الذي يؤكد أكثر على هذا التعدد في الفواكه، لأن المتلقي لما يتصفح هذا الوصف الذي يمتاز بالتوضيح و التدقيق و إعطاء كل التفاصيل، و إحصاء كل أنواع الثمار، فإنه بالضرورة يقتنع بأن هذا البستان من أكثر البساتين غناء بأنواع الفواكه ، وهذا ما أشار إليه "العسكري" إذ الاستقصاء والشرح والتفصيل يسهم في الإقناع، و بهذا إذن ؛ فإن الإطناب من أهم وسائل الحجاج التي تسهم في الإقناع.

7. التكرار:

يعتبر التكرار عنصرا مهما من عناصر الحجاج المهمة التي أشار إليها "بيرلمان" الذي له نفس دور الإطناب في زيادة حضور الفكرة في ذهن المتلقي و تقريبها ، ذلك من خلال ترديده ا، وهو يتمثل عند " ابن الأثير " « في دلالة للفظ على المعنى مرددا، كقولك لمن تستدعيه: أسرع أسرع، فإن المعنى مردد، واللفظ واحد»².

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص ص: 355-358.

² - المصدر نفسه، ج2، ص: 345.

ويقسم "ابن الأثير" التكرار إلى قسمين: الذي يأتي لفائدة، و الذي يأتي لغير فائدة¹، و

نحن في هذا المقام نصب اهتمامنا على التكرار الذي يأتي لفائدة لأنه هو الذي يسهم في التأكيد على المعنى و بالتالي إقناع المتلقي، ولشرحه يقول "ابن الأثير": « واعلم أن المفيد من التكرير يأتي في الكلام تأكيدا له وتشبيها من أمره وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشئ الذي كررت فيه كلامك إما مبالغة في مدحه أو في ذمه أو غير ذلك ولا يأتي إلا في أحد طرفي الشئ المقصود بالذكر»².

يرى ابن الأثير كذلك أن التكرار يكون في اللفظ و المعنى، وفي المعنى دون اللفظ و أن كل نوع من هذين النوعين ينقسم إلى مفيد و غير مفيد. فمن أمثلة المفيد في اللفظ و المعنى التي أوردها "ابن الأثير" هي قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾³، يظهر التكرار في هذا المثال في قوله تعالى: "فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا"، وذلك من أجل تأكيد "نوح" عليه السلام للذين يخاطبهم، ضرورة اتقاء الله، و طاعته كونه الرسول الأمين.

أما المثال الثاني فهو قول الشاعر⁴:

ألا يا اسلمي ثمت اسلمي

وفي هذا البيت الشعري لفظة واحدة تكررت ثلاث مرات ، وهي لفظ "اسلمي"، و ذلك من أجل تأكيد الشاعر للتي يخاطبها دعاءه بالسلامة.

في هذا يقول "العسكري": « استعملوا التكرار ليتوكّد القول للسامع، وقد جاء في القرآن وفصيح الشعر منه شيء كثير، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ

¹ - ينظر: المصدر السابق ، ج3 ، ص: 4.

² - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

³ - سورة الشعراء، الآيات من: 105-110.

⁴ - ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص: 13.

تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ ، وقوله تعالى: ﴿٢﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٣﴾ . فيكون للتوكيد كما يقول القائل: ارم ارم، واعجل اعجل»¹.

أما من أمثلة التكرار المفيد في المعنى دون اللفظ - حسب تقسيم "ابن الأثير" - فهي مثل "أطعني و لا تعصيني"²، إذ أن لفظة "أطعني" لها نفس المعنى مع "لا تعصني"، و لقد تكرر ذلك من أجل التأكيد للمخاطب بضرورة الطاعة، و مثال ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾³، هنا أيضا نجد أن اللفظة "تعفوا" لها نفس المعنى مع "تصفحوا" و نفس المعنى مع "تغفروا"، و إنما تكرر ذلك من أجل التأكيد للوالد و التثبيت في نفسه ضرورة العفو و الصبح عن أبيه و للزوج ضرورة العفو عن زوجته.

و من تقنيات الإقناع لدى "العسكري" ما يرتبط بالتدليل؛ إذ « في الكلام موقع جليل، و مكان شريف خطير، لأن المعنى يزداد به انشراحا بالمقصد اتضاحا...فهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه، حتى يظهر لمن لم يفهمه، و يتوكد عند من فهمه»⁴. فالإقناع قد يقتضي زيادة الألفاظ في التشكيل اللغوي، من أجل إنهاء المقاصد إلى عقول المتلقين، فهو يهدف إلى « جعل شخص يقوم بفعل ما عن طريق النصح و الحجة و المنطق و القوة»⁵.

ولقد حدد "العسكري" المقامات التي يحبذ فيها استعمال هذه التقنية، حيث: « و ينبغي أن يستعمل في المواطن الجامعة، و المواقف الحافلة ..لأن تلك المواطن تجمع البطيء الفهم و البعيد الذهن، و الثاقب القريحة، و الجيد خاطر، فإذا تكررت الألفاظ على المعنى الواحد توكد

¹ - العسكري، الصناعتين، ص ص: 212-213.

² - ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص:33.

³ - سورة التغابن، الآية:14.

⁴ - العسكري، الصناعتين، ص:413.

⁵ - إبراهيم، أبو يعقوب، الاتصال الإنساني و دوره في التفاعل الاجتماعي، ص:189.

عند الذهن اللقن ، ووضع للكليل البليد»¹ . وكما يتضح من كلامه بمأن التذليل يستعمل في المحافل، فمن البديهي أن تجمع تلك المحافل أنواع مختلفة من المتلقين، منهم الذكي منهم البليد... فاستعمال التذليل ليس محصورا في طبقة معينة، و غالبا ما يكون ذلك في الخطابات الموجهة لعامة الناس، كالخطابة و الكتابة و غيرهما.

لذا كان لزاما على المتكلم الفطن أن يراعي هذا المخاطب الجماعي، و «الحامل للخصائص الجماعية الكبرى التي يتقاطع فيها السواد الأعظم ، إنه بعبارة أخرى: الثقافة و الحضارة و المجتمع و النصوص الخلقية الثابوية في اللاوعي الجماع الموجه للوعي و الفهم و للتعامل داخل الزمرة الاجتماعية الخاصة، بالتالي يكون الخطأ في رسم صورته الفعلية مؤديا حتما إلى نتائج عكسية تماما»² . و هذه المعرفة تستدعي فطنة من المتكلم، وكفاءة تداولية عالية و التي تمكنه من المعرفة الواعية بأحوال المخاطبين الذين قد يوجه لهم الكلام، و خطأ بسيط في التقدير هذا المخاطب قد تن تج عنه ردة فعل عكسية فلا تتحقق مقصدية الخطاب ومنفعيته.

من أمثلته من القرآن: وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾³ ، و من ثم قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾⁴ جميعاً تذييل.

ومن الشعر: قول الشاعر وقول أبي نواس:

عَرَمَ الزَّمَانُ عَلَى الَّذِينَ عَاهَدْتَهُمْ بَكَ قَاطِنِينَ وَلِلزَّمَانِ عُرَامُ

قوله: " وَلِلزَّمَانِ عُرَامُ " ، تذييل.

إذن؛ الشيء الأساسي الذي يحقق التذليل في الفعل الكلامي هو " التكرار " ، أي إعادة الألفاظ المترادفة التي تعبر عن المعنى المعين، لتتعدى الغاية وهنا الإفهام لتصل إلى الإقناع. نستنتج مما سبق، أن للتكرار غاية حجاجية؛ إذ أن ذلك الترييد الذي يحدثه المرسل في خطابه، ينتج عنه زيادة في حضور الفكرة في ذهن المتلقي، وبالتالي الاقتناع بالفكرة والإذعان لها.

¹ - العسكري، الصناعتين ، ص:413.

² - محمد سالم ولد الأمين ، مفهوم الحجاج عند بيرلمان و تطوره في البلاغة المعاصرة ، ص:69.

³ - سورة الأنبياء، الآية :34.

⁴ - سورة الانبياء، الآية:35.

المبحث الثاني: الحجاج من منظور تداولي في تصورات "العسكري" و"ابن الأثير" البلاغية:

1. الحجج المبنية للواقع:

إن الحجج المبنية للواقع من أهم الحجج التي ذكرها "بيرلمان" وأكثرها قوة في تقريب المعنى إلى ذهن المتلقي، و ذلك نظرا لكونها ناتج من وقائع متتابعة و متعايشة، إذ أن هذه الوقائع هي عبارة عن حقيقة لا تحمل معها أي شك ، و إذا ما بحثنا عن الحجج في "الصناعتين" لـ "أبي هلال العسكري"، و "المثل السائر" لـ "أبن الأثير" فإننا نجد منها :

أ. شاهد حال (الحقائق):

لاحظ "ابن الأثير" أن بعض المؤلفين سواء في الشعر أو في النثر، يعتمدون في تأليفهم على المعاني المستخرجة من شاهد الحال، وذلك بتركيزهم على وصف جميع الوقائع و الحقائق التي يحضرونها و يرونها من غير إفراط ، وهذا المعنى المستخرج من شاهد الحال ، وفي هذا يقول "ابن الأثير": «يبتدعه مؤلف الكلام من غير أن يقتدي فيه بمن سبقه وهذا الضرب ربما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة، و يتنبه له عند الأمور الطارئة»¹؛ كالذي يوصف حادث مرور قد وقع أمامه فجأة، فهذا الوصف ليس بمجرد ذكر حادث فحسب، وإنما هو وصف للحقيقة، لأن هذا الشخص لازم مكان الحادث، و دقق النظر في كل كبيرة و صغيرة، و المتلقي في هذه الحالة لا يتردد أبدا في تصديقه.

وقد تناول "العسكري" ما يشبه هذا؛ إذ قسم المعاني إلى نوعين؛ حيث يقول: «والمعاني على ضربين: ضربٌ يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدى به فيه ، أرسوم قائمة في أمثلة مماثلة يعمل عليها. وهذا الضرب ربما يقع عليه عند الخطوب الحادثة، ويتنبه له عند الأمور النازلة الطارئة. والآخر ما يحتديه على مثال تقدم ورسم فرط»².

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص:7.

² - العسكري، الصناعتين، ص:84.

من أمثلة " ابن الأثير " لهذه المعاني المستخرجة من شاهد الحال ، و بين كيف أن النفس تميل إليها ، ومنها قول المتنبي انشغل بوصف الحمى و ذلك حين قال ¹:

وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بِهَا حَيَاءً فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ

بذلت لها المطارفَ و الحشايَا فعَاقَتُهَا و باتتْ فِي عِظَامِي

كَأَنَّ الصُّبْحَ يَطْرُدُهَا فَتَجْرِي مَدَامُعُهَا بِأَرْبَعَةِ سِجَامِ

أُرَاقِبُ وَقَنَّهَا من غير شوقٍ مُرَاقِبَةُ المَشُوقِ المُسْتَهَامِ

الملاحظة من خلال هذه الأبيات، فإن الشاعر لم يصف ما شاهده على غيره، بل يصف ما حدث له بالذات، و ذلك من خلال الضمير المستعمل في الأبيات و هو الضمير أنا "؛ في قوله: زَائِرَتِي، بذلتُ، عِظَامِي، أُرَاقِبُ، وهذا الأمر من أقوى الحجج إقناعاً للمتلقي، وصف صادق، و ذلك أن هذا الوصف نفس لم تشاهد الحمى فقط، بل تذوقت ألمها ومرارتها ، وعليه فإن المتلقي في هذه الحالة لا يشك فيما قال المتنبي كون أن هذا الأخير بصدد وصف حالته مع الحمى وصفاً صادقاً، وكلما كان الكلام صادقاً أثر أكثر في تلقيه.

أما المثال الآتي فهو مثال يصف فيه "ابن الأثير" القتال بالمنجنيق حيث قال : « فنزلنا بمرأى منه ومسمع، و استدرنا به استدارة الخاتم بالأصبع، ونصبت المنجنوقات فأنشأت سحباً صعبة القيادة مختصة بالربا دون الوهاد، فلم تزل تقذف بالسور بوبل من جلودها، و تفجؤه ا برعودها قبل بروقها، وبروق السحب قبل رعودها، حتى غادرت الحزن منه سهلاً، و العامر بلقعا مخلى» ².

استطاع "ابن الأثير" في هذا المثال، أن ينقل المتلقي إلى قلب تلك المنازلة و يجعله يعيش تلك الأحداث التي عاشها هو بنفسه، و ذلك من خلال تمكنه من وصف المعركة بكل تفاصيلها.

وقد ذكر "ابن الأثير" الكثير من الأمثلة من هذا النوع، ولعل المثالين السابقين كافيين لشرحها.

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ص:13.

² - المصدر نفسه، ج2، ص: 19.

ونستشف منهما أن شاهد الحال، من بين أهم الحجج الواقعية إقناعاً للمتلقي وتأثيراً فيه، ذلك أن المخاطب الشاهد للحالة التي يعرضها يكون بصدد نقل أحداث مشاهدة و معايشة و مطابقة للواقع نقلاً مفصلاً ولعل هذا الأخير - أي ذكر التفاصيل الصغيرة- ينم عن صدق المخاطب مما يؤثر في المتلقي ومشاعره، على عكس المخاطب غير الشاهد الذي يكتفي فقط بذكر معاني مصورة، إذ تفتقد إلى هذا الصدق في نقل الصورة والمشاعر الخاصة اتجاهها. إلا أن "العسكري" ينصح المتكلم بقوله: «ينبغي أن يطلب الإصابة في جميع ذلك ويتوخى فيه الصورة المقبولة، والعبارة المستحسنة، ولا يتكل فيما ابتكره على فضيلة ابتكاره إياه، ولا يغرّه ابتداعه له، فيساهل نفسه في تهجين صورته، فيذهب حسنه ويطمس نوره، ويكون فيه أقرب إلى الذم منه إلى الحمد»¹؛ أي أن لا يبالغ في ذلك، فيحدث العكس وينفر منه المتلقي.

ب. النماذج:

هناك الكثير من الأشخاص الذين يتأثرون بسلوكيات أشخاص و أفكارهم، فيتخذونها نموذجاً لهم يمشون على منواله، و لعل هذا يوافق الضرب الثاني من المعاني التي ذكرها "العسكري"، وهو ما ينقله على مثال سابق. وهذا نفسه ما ذكره "ابن الأثير" إذ عرّف هذا الضرب من المعاني التي ينتجها المحدثون على أنه «الذي يحتذي فيه على مثال سابق، و منهج مطروق»²، وهو يعتبر العرب القدامى هم الأسبق إلى المعاني ثم اتبعهم وحذا حذوهم المحدثون. ومن الأمثلة التي أوردها "ابن الأثير" حول ذلك، قول "الحارث بن خالد" في أبيات الحماسة³:

إني و ما نَحَرُوا غَدَاةَ مِنِّي عند الجِمارِ يُوَدُّهَا العُقْلُ
لو بُدِّلَتْ أَعْلَى مَسَاكِنِهَا سِفْلاً و أَصْبَحَ سِفْلاًهَا يَعْلُو

¹ - العسكري، الصناعتين، ص: 85.

² - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص: 58.

³ - المصدر نفسه، ج2، ص: 63.

لَعَرَفْتُ مَ عْأَهَا بِمَا ضَمِنْتُ مَنِّي الضُّلُوعُ لِأَهْلِهَا قَبْلُ

هذه الأبيات تحمل معان مبتدعة للحارث بن خالد، يتمثل مضمونها في صور المنازل التي تمثلت في القلوب، والتي حتى وإن زالت واضمحت فأنها لم تعف صورها من القلوب وأول من أتى بذلك العرب- برأي "ابن الأثير"- "الحارث بن خالد"، ومن الشعراء المحدثون من نسج على هذه المعاني عبروا عنها في قصائدهم كقول أبي تمام(231هـ)¹:

وَقَفْتُ وَ أَحْشَائِي مَنَازِلُ لِلْأَسَى بِهِ وَهُوَ قَفْرٌ تَعَفَّتْ مَنَازِلُهُ

أو كقول "البحثري"(ت 284هـ)²:

عَفَّتِ الرُّسُومُ وَ مَا عَفَّتْ أَحْشَاؤُهُ مِنْ عَهْدِ شَوْقٍ مَا تَحُولُ فَتَنْدُهِبُ

أو كقول "المتنبي"(ت 345هـ)³:

لَكَ يَا مَنَازِلُ فِي الْقُلُوبِ مَنَازِلُ أَقْفَرْتُ أَنْتِ وَهْنٌ مِنْكَ أَوْاهِلُ

فكل هؤلاء الشعراء تدور معانيهم حول فكرة واحدة، و هي وصف الشوق و الحنين إلى صور تلك المنازل وساكنيها، و المتلقي في هذه الحالة لن يجد إشكالا في استيعاب هذه المعاني و تلقيها، لأنها معاني معروفة و متداولة .

و قد قدم "ابن الأثير" أمثلة أخرى ليثبت أسبقية العرب إلى الابتداع في المعاني ، منها ذكره لظاهرة البكاء على الأطلال، هذه الظاهرة التي شاعت في الشعر العربي القديم، حيث قال : « أول من بكى على الديار في شعره رجلا يقال له ابن حذام و كان هو المبتدئ لهذا المعنى أولا»⁴.

وقد تأثر به الشعراء من بعده، و ساروا على نهجه حتى صاروا هذا الرجل نموذجا يحتذى به

لمن أراد الكتابة في رثاء رياء الديار، فقد قال "امرؤ القيس"⁵:

¹ - المصدر السابق ، ج2، ص:61.

² - المصدر نفسه، ن ص.

³ - ن م، ن ص.

⁴ - المصدر نفسه ، ج2، ص: 61 .

⁵ - ن م ص ، ن ص .

عَوَجًا عَلَى الطَّلِّ الْمُحِيلِ لَعْنًا نَبْكِ الدِّيَارِ كَمَا بَكَى ابْنُ حُدَامِ

وقد قدم "ابن الأثير" ملاحظة قيمة فيما يخص هذا الأمر بقوله: « إلا أنه لا ينبغي أن يرسخ هذا القول في الأذهان لئلا يؤسس من الترقى إلى درجة الاختراع بل يعول على القول المطمع ... لكن قد تقاصرت الهمم ونكصت العزائم وصار قصارى الآخر أن يتبع الأول وليته تبعه ولم يقصر عنه تقصيراً فاحشاً¹، أي ليس مجرد التقليد فقط، إذ ذاك ينقص من الابتكار والتجديد لدى المتكلم وروح الإبداع، بحيث يبقى الشعراء و الكتاب المحدثون متفوقون في المعاني القديمة و متمسكين بها، إلى جانب هذا أيضا يمكن للنموذج أن يكون سيئا فينعكس الأمر على المؤلف الذي تأثر به، ما ينتج عن ذلك نفور القراء منه و تجنبه، وهذا رمى إليه بقوله تقصيراً فاحشاً.

ج. الاستشهاد:

و قد خصص "العسكري" فصلا كاملا سماه " في الاستشهاد و الاحتجاج"، و « هو أن تأتي بمعنى ثم تؤكد به معنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول، و الحجة على صحته»²، فالحجة ههنا طريقة من طرق البيان، و التي تتطلب في أساسها بناء لغويا معينا يلجأ إليه المرسل حينما يريد توضيح معنى ما، و تأكيده لدى السامع.

ومن أمثلته « من النثر ما كنت به كافي الكفاة في فصل له: فلا تقس آخر أمرك بأوله، ولا تجمع من صدره وعجزه، ولا تحمل خوافي صنعك على قوادمه، فالإناء يملؤه القطر فيفعم، والصغر يقترن بالصغير فيعظم، والداء يلمّ ثم يصطلم، والجرح يتباين ثم ينفثق، والسيف يمس ثم يقطع، والسهم يرد ثم ينفذ».

إذن لا يمكن لأي مؤلف أن يستغني عن ظاهرة الاستشهاد في كتاباته، من أجل الدلالة على صحة أقواله و إقناع متلقيه، و ذلك باست عانة بججج و براهين مختلفة سواء من القرآن

¹ - المصدر السابق، ج 2، ص: 58.

² -العسكري، الصناعتين، ص: 434.

الفصل الرابع: الحجاج بين "بيرلمان" وتنظيرات "العسكري" و "ابن الأثير" المبحث الثاني

الكريم أو الحديث الشريف أو الشعر، و هذا ينطبق على مدونتينا اللتان تعجان بالاستشهادات، إذ يقصد كل منهما إثبات صحة ما يقوله، حيث يستشهدان بالقرآن الكريم والحديث الشريف، و الشعر وكذا بعض أقوال العرب.

و من بين الاستشهادات التي أوردها "ابن الأثير" للتأكيد على الفكرة المرادة، ما ذكره حول عدد حروف اللفظة حيث أنه بالنسبة إليه هناك ألفاظ على الرغم من طولها، فإنها لا تعيب الكلام الذي جاءت فيه حيث قال: «والدليل على ذلك أنه قد ورد في القرآن الكريم ألفاظ طوال، وهي مع ذلك حسنة، كقوله تعالى: ﴿ فسيكفيكم الله ﴾ فإن لهذه اللفظة تسعة حروف، و كقوله تعالى: ﴿ ليستخلفهم في الأرض ﴾ فإن في هذه اللفظة عشرة حروف و كلاهما حسنة رائقة»¹، نلاحظ هنا كيف عاد "ابن الأثير" إذن إلى القرآن الكريم، وأتى لنا منه بدليل يدل على صحة ما قاله.

و مثال ذلك أيضا، استشهاده بالحديث الشريف لما أراد بيان الدور لإقناعي للتكرار فقال: «و عليه ورد الحديث النبوي، و ذلك أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن بني هاشم بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم عليا، فلا آذن ، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا أن يطلق على ابنتي و ينكح ابنتهم فقوله: " لا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن" من التكرار الذي هو اشهد موقعا من الإيجاز، لانصباب العناية إلى تأكيد القول في منع على رضي الله عنه، من التزوج بابنة أبي جهل بن هاشم»².

و قد استشهد "ابن الأثير" كذلك بالشعر، أثناء محادثته الكشف عن الأثر السلبي الذي تتركه الألفاظ الوحشية الغليظة في نفسية المتلقي، وذلك في قوله: و على ذلك ورد قوله أبي تمام من أبيات يصف فرسا من جملتها:

نعم متاع الدنيا حباك به أروع لا حيدر ولا جيس

لفظة " حيدر " . و أغلظ منها قول أبي الطيب المتنبى :

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص: 300.

² - المصدر نفسه، ج3، ص: 14.

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم شيم على الحسب الأغر دلائل

فإن لفظة " جفخ " مرة الطعم ، و إذ مرت على السمع اقشعر منها¹.

أما بالنسبة لأقوال العرب، فقد استشهد بقوله واتخذوه مثالا يبين فيه أن الاستعارة يطوى فيها ذكر المستعار له فقال: « و بلغني من العرب أنهم يقولون عند رؤية الهلال " لا مرحبا باللجين مقرب أجل و محل"، و هذا من باب الاستعارة على طي ذكر المستعار له»². والمتلقي في هذه الحالة يقتنع بأن الاستعارة لا يذكر فيها المستعار له، و ذلك من خلال عدم ظهور هذا الأخير في المثال.

في المقابل نجد كذلك "العسكري" قبله ينتهج هذا الأسلوب إذ يعتمد بالاستشهاد ليثبت فكرته، من ذلك في التكرار، يقول: « وقد كَرَّرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة الرحمن قوله: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، وذلك أنه عدَّد فيها نعماءه وأذكر عباده الآءه، ونبَّههم على قدرها، وقدرته عليها، ولطفه فيها، وجعلها فاصلة بين كل نعمة ليعرف موضع ما أسداه إليهم منها. ثم يقدم شاهدا من الشعر وهو قول مهلهل:

عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كَلْبٍ

فكرَّرها في أكثر من عشرين بيتاً.

وهكذا قول الحارث بن عبَّاد:

قَرَّبًا مَرَبَطَ النَّعَامَةَ مِنِّي

كرَّرها أكثر من ذلك، هذا لما كانت الحاجة إلى تكريرها ماسّة، والضرورة إليه داعية، لعظم الخطب، وشدة موقع الفجعة، فهذا يدلُّك على أن الإطناب في موضعه عندهم مستحسن»³، وبذلك نجد "العسكري" حاول أن يثبت حجية فكرته من خلال الشواهد سواء من القرآن أو الشعر.

¹ - المصدر السابق، ج1، ص: 271.

² - المصدر نفسه، ج2، ص: 103.

³ - العسكري، الصناعتين، ص: 213.

ومن استشهاده بأقوال العرب، في الاستعارة والمجاز قوله: « وأما ما جاء في كلام العرب منه، فمثل قولهم: هذا رأس الأمر ووجهه .. وهذا الأمر في جنب غيره يسير، ويقولون: هذا جناح الحرب وقلبها.. وهؤلاء رؤوس القوم وجماعهم وعيونهم.. وفلان ظهر فلان.. ولسان قومه ونابهم وعضدهم .. وهذا كلام له ظهر وبطن. . وفي العرب بالجمام .. والقبائل، والأفخاذ، والبطون.. وخرج علينا عنق من الناس.. وله عندي يد بيضاء .. وهذه سرّة الوادي .. وبابل عين الأقاليم، وهذا أنف الجبل، وبطن الوادي..»¹.

إذن؛ حاول كل من "العسكري" و "ابن الأثير" أن يقدم أمثلة من القرآن والسنة والحديث النبوي، وحتى أقوال العرب من أمثال وحكم، وحتى نقل بعض المواقف محادثاتهم اليومية ، والمميز عند "ابن الأثير" أنه استشهد ببعض كتاباته؛ وذلك قصد إيصال الفكرة إلى المتلقي، وإقناعه.

2. الروابط الحجاجية:

حدد "ديكرو" Dicrot العناصر اللغوية الفعالة في الحجاج، والتي تسهم إسهاما فعلا في انسجام الخطاب و تماسكه ؛ إذ أن « هناك بعض الأدوات اللغوية التي يكون دورها هو الربط الحجاجي بين قضيتين ، و ترتيب درجتها بوصف هذه القضايا حججا في الخطاب ومن هذه الروابط : غني عن القول، لكن، حتى، فضلا عن و غيرها»²؛ فكل خطاب يحمل هذا النوع من الروابط التي تجمع بين القضايا، إلا و ينتج عنه **سلم حجاجي** يعمل على ترتيب هذه القضايا حسب قوتها الحجاجية.

و قد تعرض "ابن الأثير" لهذه الظاهرة و ذلك في المقالة الثانية المخصصة للصناعة المعنوية، حيث عرض علينا مجموعة من حروف العطف و حروف الجر، وبيّن لنا أن هذه الحروف يجب أن توضع في مواضعها الصحيحة لتؤدي معناها الصحيح، وذلك كله من أجل إيصال الرسالة إلى المتلقي.

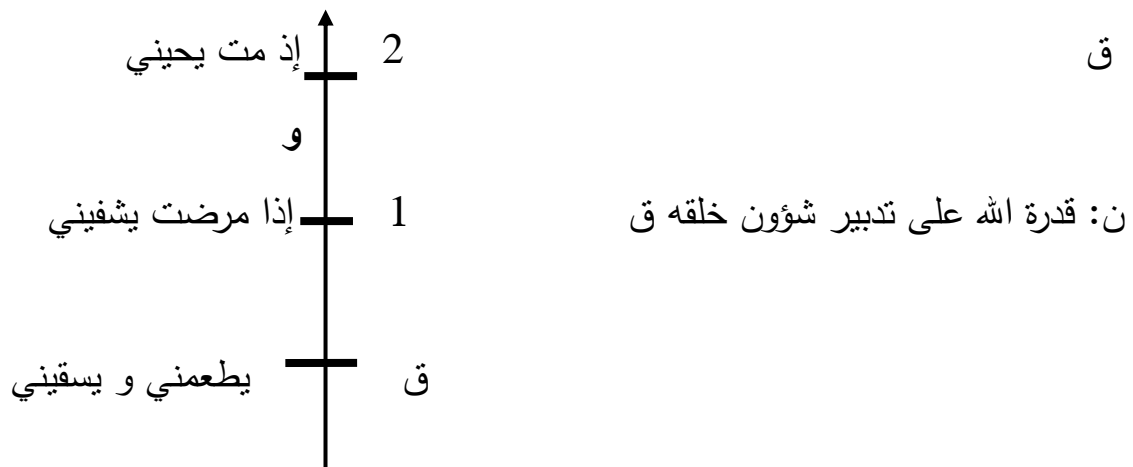
¹ - المصدر السابق، ص:304.

² - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص:508.

أ. حروف العطف:

و من الأمثلة التي أوردها "ابن الأثير" لهذا النوع من الحروف، قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾¹، و نلاحظ في هذا المثال كيف جاءت حروف العطف فيه مختلفة، استعملت في الأول "الواو" ثم في الثاني "الفاء"، يقول "ابن الأثير" معقياً: « فالأول عطفه بالواو التي هي للجمع وتقديم الإطعام على الإسقاء، والإسقاء على الإطعام جائز لولا مراعاة حسن النظم ثم عطف الثاني بالفاء لأن الشفاء يعقب المرض بلا زمان خال من أحدهما، ثم عطف الثالث بثم لأن الإحياء يكون بعد الموت بزمان ولهذا جيء في عطفه بثم التي هي للتراخي، ولو قال قائل في موضع هذه الآية: الذي يطعمني ويسقيني ويمرضني ويشفين ويميتني ويحييني، لكان الكلام معنى تام إلا أنه لا يكون كمعنى الآية إذ كل شيء منها قد عطف بما يناسبه ويقع موقع السداد منه»².

و الملاحظ كذلك أن هذه القضايا التي وردت في الآيات، التي هي الإطعام و الإسقاء - المرض و الشفاء - الموت والإحياء، و هي بمثابة حجج متسلسلة ومترابطة، بحرف الواو تبين نتيجة وتثبيتها، وهي قدرة الله تعالى على تدبير شؤون خلقه، إذا أردنا نوضح ذلك أكثر برسم السلم الحجاجي لهذه الآيات على النحو التالي:



¹ - سورة الشعراء، الآيات من: 79-81.

² - ابن الأثير، ج 2، ص: 228.

و الحجة الأقوى من هذا السلم ، هي الحجة ق 1 ، لأنها ليست كالمرض و الشفاء و ليست و كالإطعام، و لأن الموت و الإحياء لا يقدر عليه إلا الله جلى و على.

و مثال ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾¹ ، و في هذا المثال كذلك وردت حروف عطف مختلفة حسب اختلاف وظيفتها التي ذكرناها سابقا حيث :

- تم العطف بين الخلق من نطفة و بين التقدير **بالفاء**، و ذلك لأن التقدير يكون بعد الخلق مباشرة.

- تم العطف بين خلقة الإنسان من نطفة و تقديره، و بين تسيير سبيله إلى الحياة ب ' ثم ' لأن بين المسألتين مهلة من الزمن.

- بما أن الإنسان لما يبعث إلى الكون يعيش ما قدره له الله من زمن ثم يموت ، فمن أجل ذلك عطف بين الولادة و الموت ب " ثم " .

- و نظرا لكون الإنسان لما يموت يدفن مباشرة ، فإنه قد عطف بين الموت الدفن بالفاء.

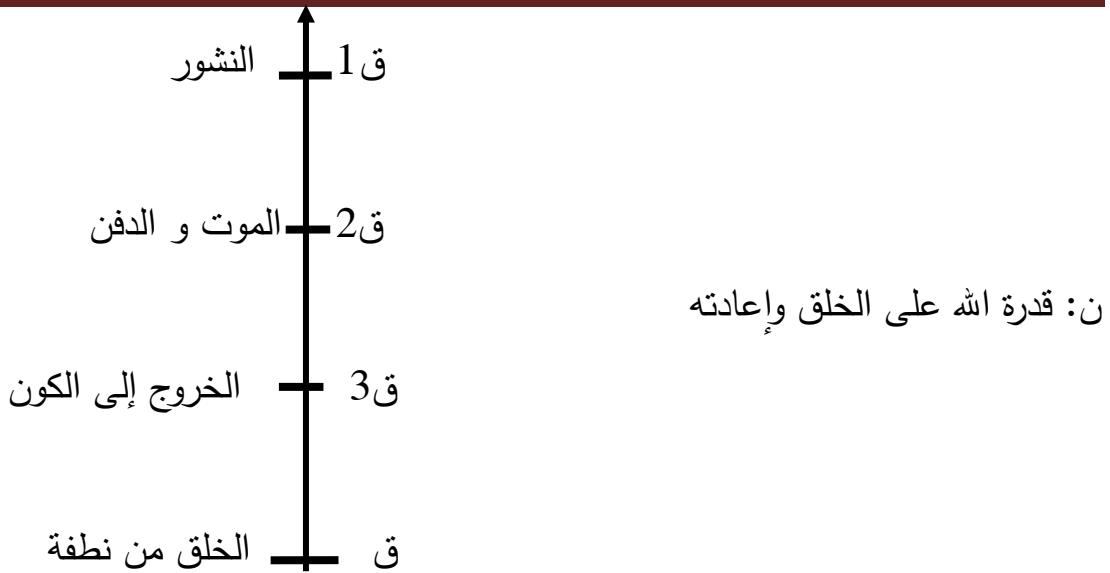
- أما في الأخير فقد عطف بين الموت و النشور ب " ثم " و ذلك لما بينهما من وقت.

و كل هذه القضايا التي وردت في هذه الآيات ، هي بمثابة حجج كذلك تم الربط بينها ب

" ثم " لتكون بذلك سلما حجاجيا لنتيجة تتشابه مع نتيجة المثال الأول و هي قدرة الله تعالى

على خلقه ، فيكون السلم الحجاجي كالاتي:

¹ - سورة عبس، الآيات من: 17-22.



و الحجة (3ق) هي الحج الأقوى، لأن المنشور الحوادث العظيمة التي لا يقدر عليها إلا الله و من الأمثلة التي ذكرها "العسكري" ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾¹ ، ف « هذه دلالة واضحة على أن الله تعالى قادر على إعادة الخلق، مستغنية بنفسها عن الزيادة فيها لأن للإعادة ليست بأصعب في العقول في الابتداء »².

نشير هنا إلى أن الحجاج في الآية قد تم بألية لغوية تداولية ترتبط باستعمال الاستفهام "من يحي العظام؟"، و الربط الحجاجي "واو الحال" في "وهي رميم". و قد وضحه "أبو هلال" انطلاقاً مما يسميه "ديكرو Dicrot" بـ "قواعد السلم الحجاجي"، فالذي خلق الإنسان أول مرة، بإمكانه خلقه مرة أخرى حتى و إن كان رميماً.

مثال آخر أورده "ابن الأثير" و هو قوله تعالى: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾³ ، جاء العطف في هذا المثال في قوله تعالى: " فَأَجَاءَهَا "، و لقد تم العطف هنا بين الحمل و المخاض بالفاء ليبين الله تعالى و ليؤكد لعباده أن مريم - عليها السلام - ليست كباقي النساء

¹ - سورة يس، الآية: (78-79) .

² - العسكري، الصناعتين، ص: 27.

³ - سورة مريم، الآيتان: 22-23.

الفصل الرابع: الحجاج بين "بيرلمان" وتنظيرات "العسكري" و "ابن الأثير" المبحث الثاني

في حملها، و ذلك أن مخاضها جاء بعد حملها بوقت قصير فاستعمل "الفاء" التي تدل على التقارب بين الأحداث، و هذا ما عبر عنه "ابن الأثير" فقال: «و في هذه الآية دليل على أنه حملها به، ووضعها إياه كانا متقاربين، لأنه عطف الحمل و الانتباز إلى المكان الذي مضت إليه، و المخاض الذي هو الطلق **بالفاء** و هي **للفور**، و لو كغيرها من النساء اعطف ب " ثم " التي هي **للتراخي و المهلة** »¹، فنلاحظ كيف أن هذه الرابط البسيط استطاع إذن أن يوصل إلى المتلقي المعنى الصحيح لهذه الآية و يؤكد، فلو استعملت أداة أخرى غير الفاء لأصبح معناها مختلفا.

و ما يمكن أن نستنتجه من كل هذه الأمثلة، أن حروف العطف المتمثلة في: الواو، الفاء، ثم تحدث عنها "ابن الأثير"، لها قيمة حجاجية كبيرة، فبالإضافة إلى ربطها بين قضيتين (حجتين) لنتيجة واحدة، ووضعها سلما حجاجيا ترتب فيه هذه الحجج حسب قوتها، كما رأينا ذلك عند "ديكرو"، فإنها تسهم أيضا في بداعة المعنى المقصود و خاصة إذا استعمل كل حرف و استغلت وظيفته في الموضع المناسب كما رأينا ذلك في مثال مريم - عليها السلام - فذلك يزيد من الإثبات على المعنى من جهه، و يلقي على الخطاب نوعا من التنظيم و الانسجام من جهة أخرى.

ويضيف "العسكري" في هذه الموضوع: «و ينبغي أن تتجنب إعادة حروف الصلات والرباطات في موضع واحد إذا كتبت مثل قول القائل: منه له عليه. أو عليه فيه. أو به له منه. وأخفها له عليه، فسبيله أن تداويه حتى تزيله بأن تفصل ما بين الحرفين، مثل أن تقول: أقمت به شهيداً عليه»².

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص: 261.

² - العسكري، الصناعاتي، ص: 176.

ب. حروف الجر:

هذه الحروف أيضا من مثل "في" ، و "اللام" تشير إلى المعنى المراد، إذا استعملت في موضعها المناسب و حسب وظيفتها، مع العلم أن "في" للوعاء، و "على" للاستعلاء¹، و ذلك أن "في" يبيّن هيئة الشخص أو الشيء المتحدث عنه ، و كأنه منغمس داخل منخفض، أما "على" فإنه يبين تلك الهيئة و كأنها مستعلية تقع في مكان مرتفع .

و من الأمثلة التي أوردها "ابن الأثير" حول هذه الحروف قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾²، و يظهر لنا من خلال هذه الآية أن الله تعالى لما أراد أن يبيّن لعباده منزلة المؤمنين و منزلة الكفار، استعمل في الأول "على هدى"، ثم استعمل في الثاني "في ضلال"، و ذلك أن المؤمن كمن يمشي على مكان عال و مستقيم، و يبصر من خلاله و يتوجه أينما يشاء، أما الكافر فيتخبط داخل الظلام لا يدرك الطريق الصحيح، فتظهر بذلك منزلة المؤمن عالية و مرتفعة و ذلك باستعمال الحرف "على"، و منزلة الكافر منخفضة و متدنية، و ذلك باستعمال الحرف "في". و بهذا نجد أن هذه الحروف قد أدت دورا مهما في إيصال المعنى الحقيقي لهذه الآية إلى السامع، و ذلك باتخاذ كل واحدة منها المكان المناسب، فلو عكسنا مثلا مكان هذين الحرفين لجاء المعنى مختلفا تماما .

و مثال ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾³، في هذا المثال كذلك اختلاف في استعمال حروف الجر، حيث استعمل في الأول "اللام" في قوله "لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ"، ثم انتقل في الثاني إلى استعمال "في" "الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ"، و ذلك كي يؤكد الله

¹- ينظر: ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص:261.

²- سورة سبأ، الآية: 23.

³- سورة التوبة، الآية:60.

سبحانه و تعالى أن الرقاب و الغارمين وسبيل الله و ابن السبيل هم الأحق بالصدقة أكثر كما قال "ابن الأثير": « فإنه إنما عدم عن اللام إلى (في) في الثلاثة الأخيرة للإيدان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره باللام، لأن (في) للوعاء فنبه على أنهم أحق بأن توضع فيهم الصدقات، كما يوضع الشيء في الوعاء، و بأن يجعلوا مظنة لها»¹. و من بين هؤلاء الذين يستحقون النفقة أكثر ، كذلك يؤكد الحرف " في " أن سبيل الله هو الأكثر استحقاقا للصدقة من الذين سبق ذكرهم، و ذلك أثناء تكرير هذا الحرف في قوله: " في الرقابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ "، حيث قال "ابن الأثير": « و تكرير (في) في قوله: " و في سبيل الله دليل على ترجيحه على الرقاب و على الغارمين (...)، فلما جيء بفي ثانية وفصل بها بين الغارمين و بين سبيل الله، علم أن سبيل الله أوكد في استحقاق النفقة فيه »².

و خلاصة الأمر حول هذه الحروف كلها سواء حروف العطف أو الجر ؛ أنها بمثابة أدوات لغوية بسيطة تسهم في الربط بين قضايا الخطاب ، و إيراد المعنى المراد فيه و التأكيد عليه ، و ذلك بالاستناد إلى وظائفها التي رأيناها فيما سبق، حيث يوضع الحرف الملائم الذي تتماشى وظيفته مع المعنى المقصود في المكان الملائم، و عليه فإنه يمكن اعتبار هذه الأدوات حججا ليست كحجج "بيرلمان" المتوافرة في الواقع الخارجي، إنما هي حجج تكمن داخل اللغة ذاتها ولا تخرج عن نطاقها، لذلك سميت نظرية " ديكرو " بالحجاج في اللغة.

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص:265.

² - المصدر نفسه، ج2، ص: 265.

الأختام

الخاتمة

وفي ختام هذا البحث الذي حاولنا فيه إنارة جانب مهم من الدراسات اللغوية العربية التراثية؛ المتمثلة في إسهامات كل من "أبي هلال العسكري" (ت 382هـ)، و "ضياء الدين ابن الأثير" (ت 637هـ)؛ في كتابيهما "الصناعتين" و"المثل السائر"، وذلك من خلال توظيف المنهج التداولي، أسفرت هذه المقاربة على مجموعة من النتائج، نذكرها كالآتي:

- تعمق القدماء في دراسة البلاغة وبيان حيثياتها المعرفية، بحيث تدرج تحديدهم لها إلى أن وصل الأمر إلى وضع تعريفات متعددة للبلاغة، مما أدى إلى حدوث التقاء بين مفهومي البلاغة القديمة والجديدة، ولاسيما التركيز على مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وتعيين العناصر التداولية؛ أي مدى المشاركة في عملية التخاطب عند القدماء عموماً، من (متكلم، مخاطب أو منلقي، مقام)، وهذا ما شكّل نقطة التقارب والالتقاء بين البلاغة والتداولية.

- تظهر قصيدة "العسكري" و"ابن الأثير" في فعل التواصل من خلال الطريقة التي عرضا بها خطابهما، خاصة أننا قد وجدنا كلايهما قد راعى كيفية نقل الخبر إلى مخاطبه، للوصول إلى المقصدية في الأخير، والتي تتمثل في وضع شروط لصناعة الخطاب الناجح من خلال تزويد المتكلم بكل ما قد يؤهله ليكون متكلماً أو كاتباً بارعاً؛ وهنا يتضح التوجه التداولي في التأليف؛ فكلاهما يسعى إلى تزويد المتكلم سواء أكان شاعراً أم كاتباً بالآليات والوسائل التي تساعده في إنتاج الكلام الناجح؛ وكذا التأثير في المتلقي.

- إن أسلوب "ابن الأثير" اختلف عن "العسكري"؛ إذ مال إلى طريقة **المحاجة** من أجل التأثير في المتلقي، والتي يمكن إرجاعها لظروف عصره.

- إن الدراسات اللغوية العربية التراثية؛ وخاصة البلاغية منها ذات توجه تداولي في الأصل؛ لأنها أولت عنايتها بعناصر التخاطب؛ فاهتمت بالمتكلم وحاولت تزويده بكل الآليات اللغوية والأساليب البلاغية التي تؤثر في الطرف الثاني المتلقي (السامع)، وكذا تركيزها على ضرورة مناسبة الكلام أو الرسالة اللغوية (الخطاب) للمقام و كل من حال المتكلم والسامع.

• لقد ورد في المدونتين اهتمام كبير بالمتلقي؛ إذ له دور مهم لا يمكن إغفاله في العملية التواصلية؛ و قد وضعت شروط تضمن نجاحها، منها أن يحسن الاستماع فهذا يضمن وصول الرسالة اللغوية، أيضا قدرة هذا المتلقي على فهم تلك الرسالة؛ أي قدرته على فك رموزها، فعلى المتكلم مراعاة قدراته الفكرية، إذ ركز "ابن الأثير" على تزويد المتلقي بآليات تساعد على فهم الكلام الموجه له، وتأويله بما يناسب قصد المتكلم.

• لقد شكل المقام مرتكز أساسي في التراث البلاغي العربي عموماً، وقد تجلى إدراك "العسكري" لهذه المقولة من خلال بعض التعريفات التي ساقها في كتابه عن البلاغة وشروطه، وكذا في بعض تحليلاتهم لبعض الخطابات، وكذا أولاه "ابن الأثير" بالغ الاهتمام إذ اعتبره الركيزة الأساسية لتأويل الكلام والوصول إلى قصد المتكلم.

• إن تصورات "العسكري" و"ابن الأثير" تتقارب في العموم مع التصورات الغربية المعاصرة لمبادئ الخطاب، وإن لم تكن واضحة، حيث جاءت مبنوثة بشكل غير منظم في ثنايا كتابيهما.

• إن التصور العام لدى كل من "العسكري" و"ابن الأثير" في تشكيل الخطاب يتقارب مع ما عرف في التداولية بـ"نظرية الأفعال الكلامية"؛ إذ قرن "العسكري" البلاغة بالكلام المنجز البليغ الذي يحرز المنفعة المقصودة، و قد بدا واضحا عند "ابن الأثير" كيفية إذ ربط بين قصدية اختيار الألفاظ وتركيبها بما يتناسب وقصد المتكلم، و هذا هو بالضبط ما أصطلح عليه "الفعل الكلامي".

• تتضح رؤية "أبي هلال العسكري" لبعض الأفعال الكلامية؛ إذ تنبه للدور التواصلية الكتابي لـ"الأمر" و"النهي باعتبارهما فعلين كلاميين، حيث تم ضبطهما من قبله، ووضع شروط تداولية لاستعمالهما بما يتوافق وحال المتكلم ومقامه ووضع الاجتماعى والمتلقي ومقامه؛ و"الاستعطاف" و"الاعتذار" كحدثين كلاميين.

• تنبه عالمانا إلى ما يمكن تسميته بـ "الفعل التأثيري"، وذلك أثناء حديثه م عن الأثر الذي تحدثه الرسالة أو الفعل الكلامي في قلب السامع أو المكتوب إليه، و نقل استجابة السامع ومدى تأثره، كما هو حال في بعض الشواهد الشعرية.

• اهتمام كل من "العسكري" و"ابن الأثير" بتوضيح المعاني المجازية، وهذا الصنف الدلالي أصبح من أبرز المجالات الدلالية عند البلاغيين والتداوليين، لأن الأغراض البلاغية والمكونات الدلالية تتحقق عبر تلك الدلالة بحدوث العدول في الخطاب، لتظهر مختلف الأفعال الكلامية غير المباشرة داخل الخطاب، وذلك في ما يخص المجاز (الاستعارة، الكناية والتعريض)، وبعض الآليات البلاغية التي اهتمت بتركيب الرسالة اللغوية من: تقديم وتأخير، حذف، وقد منحا فرصة للمخاطب في البحث عن المعنى المقصود المضمرة داخل الخطاب، فضلا عن بيان كفاءته في التأويل، والتي غالبا ما ربطها "ابن الأثير" بكيفية ترجيح معنى على آخر.

• وجود تقارب شديد بين طروحات "العسكري" و"ابن الأثير" البلاغية، والبلاغة الجديدة عند "بيرلمان؛ فكلاهما ركز على الدور التأثيري للبلاغة، إذ معظم تعريفات التي نقلها "العسكري" للبلاغة تقوم على الإفهام والتأثير وكذا إقامة الحجة، وكذا دور البلاغة الجديدة عند "بيرلمان" يقوم كذلك على التأثير في النفوس واستمالتها عن طريق الحجاج.

• تقترب نظرة كل من "أبي هلال العسكري" و"ابن الأثير" للدور الذي يؤديه التمثيل

البياني في الحجاج؛ بنظرة "بيرلمان" للتمثيل (الاستعارة).

• لا تختلف نظرة "بيرلمان" لمجموعة من الأشكال البلاغية الأخرى التي تعد وسائل عرض حجاجية؛ كالتكرير والإطناب والالتياف، و ما جاء به "العسكري" و"ابن الأثير" بدوره ذكر هذه الأساليب ذكرا مفصلا، إلا أنه ينبغي الإشارة هنا إلى أن هناك تفاوت بين "العسكري" و"ابن الأثير" في التركيز على جزئية دون أخرى، فقد اتسم "ابن الأثير" بالتفصيل أكثر، بحكم نضج البلاغة وتقيدها في عصره.

• يتوافق "ابن الأثير" مع "بيرلمان"، في ضرورة اعتماد المتكلم أو المؤلف في كتاباته على الحجج الواقعية، فإن تأثيره على متلقيه يكون أكبر، وقد تنبه "العسكري" لهذا أيضا، حيث عقد فصلا سماه "في الاستشهاد و الاحتجاج".

• إن الروابط الحجاجية التي تحدث عنها "ديكرو"، أعطاهما "ابن الأثير" أيضا دورا مهما في تأدية المعنى وانسجام الخطاب وذلك مثل حروف العطف والجر، هذه الأخيرة التي تنحصر وظيفتها الحجاجية داخل اللغة بذاتها.

• يعد كتاب "المثل السائر ل" ابن الأثير" من أهم كتب التراث البلاغي العربي الذي يمكن أن تنطبق عليه إجراءات النظريات الحجاجية المعاصرة خاصة نظرية البلاغة الجديدة لـ"بيرلمان" وذلك للاتفاق الحاصل بينهما.

ومن خلال هذا كله؛ نستطيع أن نقول أن كلا من "العسكري" و"ضياء الدين ابن الأثير" ومن خلال كتابيهما محل الدراسة؛ استطاعا أن يلما ببعض ما جاءت به النظريات الحديثة، مع أن ذلك جاء بالقوة، وجاء مبنوًا في تنظيراتهم البلاغية، وتم استنباطه واستقراؤه منها، ولم يقصده أي منهما، وسيظل العامل والفارق الزمني بين طروحات التراث والنظريات اللسانية المعاصرة هو الفيصل إذ تطورت هذه النظريات وأسس لها قواعد وآليات تطبطها، كذلك الاختلاف في التوجه؛ فالقصد من هذه التنظيرات بالنسبة للبلاغيين لم يكن التنظير لنظرية في الخطاب؛ بل قصدوا التأسيس لخطاب بليغ وناجح مؤثر؛ وذلك ضمن دفاعهم وإثباتهم لقضية الإعجاز القرآني.

سيبقى هذا العمل محاولة علمية، ابتغينا فيها خدمة لغتنا العربية، وهذا جهدنا ونسأل الله تعالى التوفيق والسداد، وأن يجعل عملنا خالصا لوجهه، هو حسبنا ونعم المجيب.

المراجع والمصادر

المراجع والمصادر :

* القرآن الكريم، رواية ورش

1. إبراهيم أبو يعقوب، الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي، عمان دار مجدلاوي، (د.ت).
2. أبو القاسم جار الله محمد بن عمر بن احمد الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق، محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط1988، ج1.
3. أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق وضبط أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت دار المعرفة، 1974 .
4. أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1989، 2.
5. أبوبكر العزاوي، الحجاج و المعنى الحجاجي، ضمن كتاب: التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 134، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، المغرب، ط1، 2006.
6. ابن الأثير ضياء الدين ، المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، قدم له و حققه و علق عليه أحمد الحوفي و بدوي طبانة، منشورات دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة، دط، دتط.
7. إحسان النص، الخطابة العربية في عصرها الذهبي، دار المعارف، 1962 .
8. إحسان عباس، تاريخ النقد عند العرب، ط4، دار الثقافة، 1983.
9. أحمد العاقد، المعرفة والتواصل - عن آليات النسق الاستعاري -، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، 2006.
10. أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1985.

11. أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان للنشر و التوزيع، الرباط، ط1، 2001.
12. أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير، مكتبة لبنان، بيروت لبنان، 1987.
13. أحمد حساني، دراسات في اللسانيات التطبيقية حقل تعليمية اللغات، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، 2000 .
14. أحمد حسن صبره ، وسعد سليمان حمودة، التفكير الاستعاري والدراسات البلاغية، الإسكندرية دار المعرفة الجامعية، ط2، 2002.
15. أحمد شايب، تاريخ الشعر السياسي، القاهرة دار المعرفة، (د.ت).
16. أحمد عزوز، المدارس اللسانية أعلامها ومبادئها ومناهج تحليلها للأداء اللغوي، التواصل، الجزائر، دار الأديب للنشر، 2005 .
17. أحمد محمد فارس، الكتابة والتعبير، بيروت دار الفكر اللبناني ط3 / 1989.
18. أحمد مطلوب، القزويني وشرح التلخيص، بغداد منشورات مكتبة النهضة ط1، / 1967.
19. أحمد مؤمن، اللسانيات: النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية - بن عكنون - الجزائر، ط4، 2008.
20. أحمد يوسف، سمائيات التواصل وفعالية الحوار المفاهيم والآليات، منشورات مختبر السمائيات وتحليل الخطاب، جامعة وهران، 2004 .
21. أحمد يونس، القراءة النسقية و مقولاتها النقدية، دار النشر، ط 2000/2001.
22. الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، دمشق، إتحاد كتاب العرب، 2001، ط1.
23. إدريس مقبول، الأسس الابدستولوجية و التداولية في النظر النحوي في كتاب سيبويه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط2006، 1.
24. أسعد أحمد علي، صناعة الكتابة، دمشق دار السؤال، ط- / 1981 .

25. إسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: احمد عبد الغفور عطار، دار الملايين، ط4، 1990، المجلد4.
26. أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة وتقديم سعيد بنكراد، المغرب المركز الثقافي العربي، ط2، 2004.
27. الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق أحمد صقر، مصر دار المعارف، ط1، 1961.
28. أندري مارتيني، مبادئ في اللسانيات العامة، ترجمة سعدي الزبير، الجزائر، دار الآفاق، (د.ت).
29. أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، مجموعة من الباحثين، إشراف حمادي، جامعة الآداب والفنون، كلية الآداب منوبة، تونس، (دط)، (د.ت).
30. بدوي بطانة، أبو هلال العسكري و مقاييسه البلاغية و النقدية، بيروت دار الثقافة، ط/ 3، سنة 1981.
31. بدوي طبانة، البيان العربي دراسة في تطوّر الفكرة البلاغية عن العرب ومناهجها الكبرى، مصر الأنجلو المصرية، 1968 .
32. بسام بركة، علم الأصوات العام، أصوات اللغة العربية، لبنان الإنماء القومي، (د.ت).
33. بيار أشار، سوسولوجيا اللغة، تعريب عبد الوهاب تزو، منشورات عويدات، بيروت، دط، لبنان 1995.
34. تمام حسان، الأصول دراسة إستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي، عالم الكتاب، القاهرة، 2004.
35. تيفين سامبول، التناص ذاكرة الأدب، ترجمة نجيب غزاوي، منشورات الكتاب العربي، دمشق، 2007 .
36. الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت دار الجيل، (د.ت).

37. الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت دار الجيل،1992 .
38. جان سيريفوني، الملفوظية، قاسم المقداد، دمشق اتحاد الكتاب العرب،1998.
39. جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، مصر، دار غريب،2000 .
40. جورج لايكوف ومارك جونسون، الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة عبد المجيد جحفة، المغرب دار توبقال،1996 .
41. جورج يول؛ جورج براون، تحليل الخطاب، ترجمة محمد الزيطي و منير التركي، جامعة الملك سعود، الرياض،1997 .
42. الجويني، الكافية في الجدل، تحقيق فوقية حسين محمد، مطبعة عيسى البابي الحلبي،القاهرة،1979.
43. جيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة :محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية،الجزائر، 1992 .
44. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، بيروت دار المغرب الإسلامي،1986 .
45. حافظ إسماعيلي علوي وآخرون، التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، ط 1، 2011 ، الأردن.
46. حبيب مونسي، النص الأدبي بين الترجمة والتعريب، الجزائر، دار الغرب للتوزيع، .2005
47. حبيب مونسي، نظرية الكتابة في النقد العربي القديم، الجزائر، دار الغرب،2003.
48. حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية،1981 .
49. حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، ط5 ، 2003.

50. خالد إبراهيم يوسف، الكتابة العربية وبلاغتها، لبنان مؤسسه الرحاب الحديثة، ط 1 (د.ت).
51. الخطابي، بيان إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (الخطابي والرماني وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد خلف الله و محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، (د.ت).
52. خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، ط1، 2009.
53. دافيد كريستال، التعريف بعلم اللغة، ترجمة حلمي خليل، بيروت، دار الطليعة د.ت).
54. دوجلاس براون، أسس تعلم اللغة وتعليمها، ترجمة عبده الراجحي وعلي أحمد شعبان، بيروت، دار النهضة العربية، 1998 .
55. دي سوسير، محاضرات في اللسانيات العامة، ترجمة يوثيل يوسف عزيز، مرجعة مالك يوسف المطايع، العراق بيت الموصل، ط 2 ، 1988
56. رابح بوحوش، الخطاب والخطاب الأدبي وثورته اللغوية على ضوء اللسانيات وعلم النص، جامعة عنابة، الجزائر، 1999.
57. ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق مفيد قميحة، لبنان دار الكتب العلمية، 1983 .
58. رمضان عبد التواب، لحن العامّة والتطوّر اللغوي، مصر دار المعارف، ط1/ 1967
59. رومان جاكبسون، قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، المغرب دار توبقال، ط 1/ 1988.
60. زكى مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، القاهرة دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، (د.ت).

61. الزمخشري أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمي، ط1، سنة 1981.
62. زنيصلاف وورزنيال، مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، ترجمة سعيد حسن البحيري، مصر مؤسسة المختار.
63. زبييله كريم، اللغة والفعل الكلامي والاتصال، ترجمة، سعيد بحيري، ط 1، 2011.
64. سعد أبو رضا، في البنية والدلالة رؤيا لنظام العلاقات في البلاغة العربية، دار المعارف، بالاسكندرية، د ط، د تط.
65. سعيد حسن بحيري، علم لغة النص المفاهيم و اتجاهات، القاهرة مؤسسة المختار للنشر و التوزيع، ط1، سنة 2004.
66. سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي " الزمن، السرد، التبيين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1989.
67. ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، مصر مطبعة المدني، (د.ت).
68. ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، تحقيق عبد المتعال المولى الصعيدي، مصر مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، (د.ت).
69. سيوييه، كتاب سيوييه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، ط1، (د.ت).
70. السيوطي، المزهرة في علوم اللغة، تحقيق محمد أحمد المولى وعلي محمد البجاوي وأبو الفضل إبراهيم، بيروت دار الجيل، (د.ت).
71. شاهر الحسن، علم الدلالة السمانتيكية و البراغماتية في اللغة العربية، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان، ط1، 2001.
72. شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ط13، دار المعارف، 2011.

73. شوقي ضيف، البلاغة تطوّر وتاريخ، مصر دار المعارف، ط 2 (د.ت).
74. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي القديم، مصر دار المعارف.
75. صابر الحباشة، في المعنى، مباحث دلالية معرفية، المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء، ط 1، 2008.
76. صابر حباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، الإصدار الأول، 2008.
77. صالح بلعيد، التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، 1993.
78. صالح خليل أبو الأصبع، نصوص تراثية في ضوء علم الاتّصال المعاصر، عمان دار مجدلاوي، 2000.
79. صلاح إسماعيل، نظرية المعنى في فلسفة بول جرابيس، دار قباء للطباعة، ط 1، 2007.
80. صلاح الدين جوهر، علم الاتّصال مفاهيمه نظرياته مجالاته، القاهرة، عين شمس، (د.ت).
81. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الكويت عالم المعرفة، 1992.
82. طالب سيد هاشم الطبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية بين الفلاسفة المعاصرين والبلاغيين العرب، الكويت، 1994.
83. ابن طباطبا، عيار الشعر، تحقيق محمد زغلول، مصر منشأ المعارف، ط 3 (د.ت).
84. طراد الكبيسي، في الشعرية العربية قراءة جديدة في نظرية قديمة، دمشق اتّحاد الكتاب العرب، 2004.
85. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1998.

86. طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الرباط، المغرب، 1993.
87. طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2000.
88. عادل فاخوري، تيارات في السيمياء، بيروت دار الطليعة، دط، (د.ت).
89. عادل فاخوري، محاضرات في فلسفة اللغة، دار الكتاب الجديد المتحدة، دط، 2012.
90. عباس أرحيلة، الأثر الأرسطي في النقد و البلاغة العربيين إلى حدود القرن الثامن الهجري، جامعة محمد الخامس، 1999.
91. عبد الجليل مرتاض، التحليل اللساني البنيوي للخطاب، الجزائر دار الغرب للنشر والتوزيع، 2000.
92. عبد الجليل مرتاض، اللغة والتواصل، الجزائر دار هومه، 2000.
93. عبد الرحمن بدوي، فن الخطابة عن أرسطو، مصر النهضة المصرية، 1959.
94. عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ليبيا الدار العربية للكتاب، (د.ت).
95. عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير - مقارنة تداولية ومعرفة الآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق، المغرب، (د.ط)، 2006.
96. عبد العزيز شرف، علم الإعلام اللغوي، مصر لوجمان للطبع، 1995.
97. عبد العزيز شرف، نماذج الاتصال في الفنون والإعلام والتعليم والإدارة والأعمال، مصر دار المصرية اللبنانية، (د.ت).
98. عبد العزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي، دار النهضة العربية بيروت، ط3، 1984.
99. عبد العظيم عبد السلام الفرجاني، تقنيات الاتصال التعليمي في القرآن والسنة، دار المغرب، 2000.
100. عبد القادر الغزالي، اللسانيات ونظرية التواصل، سوريا دار الحوار، 2003.

101. عبد القادر هني، نظرية الابداع في النقد العربي القديم ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 1999 .
102. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، بيروت دار المعرفة، (د.ت).
103. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، الجزائر سلسلة الأنيس، 1991 .
104. عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت ، لبنان، ط1، 2001،
105. عبد الله صولة، في نظرية الحجاج- دراسات وتطبيقات-، مسكيلياني للنشر، ط1، 2011.
106. عبد المجيد جيدة، صناعة الكتابة عن العرب، بيروت دار العلوم العربية، ط1، 1998.
107. عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف، نحو بلاغة جديدة، القاهرة، دار غريب، (د.ت).
108. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، الكتاب الجديد، ط1، 2004.
109. عبد الواسع الحميري، الخطاب والنص "المفهوم ، العلاقة، السلطة"، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 2008.
110. عدنان ابن ذريل، النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000 .
111. عز الدين الناجح، ا لعوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين للنشر والتوزيع، صفاقس، تونس.
112. ابن عصفور، دراسة في التراث النقدي، القاهرة دار الثقافة للطباعة والنشر، 1987.
113. العقد الفريد، ابن عبد ربه ، شرحه و صححه و عنون موضوعاته و رتب فهارسه : أحمد أمين أحمد الزين، إبراهيم الأبياري- دار الكتاب العربي، بيروت، مج3.

114. ابن العلوي، كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الأعجاز، بيروت دار الكتب العلمية، 1980 .
115. علي أوشان، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، المغرب دار الثقافة، (د.ت).
116. علي بن محمد الأمدي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1986، ج2، ج1.
117. عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، ط1، 2003 .
118. عيسى شاهين، حاسة السمع، عمان المؤسسة العربية للدراسات و النشر، 1986.
119. ابن فارس، الصحابي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العربية في كلامها، تحقيق عمر فاروق الطباع، بيروت مكتبة المعارف، 1993 .
120. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام هارون، دار الجبل، ط 2، ج2.
121. فاروق سعد، فن الإلقاء العربي الخطابي والتمثيلي، بيروت دار الكتاب اللبناني، 1987.
122. فاطمة طبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكسون، دراسة و نصوص، لبنان المؤسسة الجامعية للنشر، 1999 .
123. فان ديك، النص و السياق (استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي)، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، ط 2000.
124. فان ديك، علم النص؛ مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة وتعليق سعيد حسن بحيري، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط1، 2001.

125. فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق بكرى شيخ أمين، بيروت دار الملايين، 1985 .
126. فرانسوا أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي ، دط، (د ت).
127. فريدنار دوسوسير، علم اللغة العام، ترجمة: يونيل يوسف عزيز، مراجعة النص العربي مالك يوسف المطليبي، دار الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيت الموصل بغداد، 1988.
128. فليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة صابر حباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، اللاذقية، دط، دتط.
129. فيليب بروتون و جيل جوتيه، تاريخ نظرات الحجاج، ترجمة محمد صالح ناحي الغامدي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز ، السعودية، ط 1، 2011.
130. فينسنتي كانتارينو، علم الشعر العربي في العصر الذهبي، ترجمة محمد مهدي الشريف، دار الكتب العلمية، ط2004، 1.
131. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، بيروت دار الثقافة، (د.ت).
132. قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مصر مكتبة الخانجي، دط، 1963.
133. قدامة بن جعفر، نقد النثر، بيروت دار الكتب العلمية، (د.ت).
134. القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق عبد المنعم خفاجي، بيروت دار الكتاب اللبناني، ط5/1980.
135. القلقشندي، صبح الأعشى، تحقيق وضبط أحمد أمين وأحمد الزين، القاهرة، (د.ت).
136. كثير، تفسير القرآن العظيم، قدّم له عبد القادر الأرنؤوط، دمشق دار الفيحاء، والرياض دار السلام، ط1/1994.

137. كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، ترجمة سعيد حسن بحيري، القاهرة مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط1 / 2005.
138. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط، راجعه: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، دط، 2008.
139. محمد ابن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، ضبطه: عصام فارس الحرستاني، دار عمار، الأردن، ط9، 2005.
140. محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، 1994 .
141. محمد العبد، النص والخطاب و الاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط1، 2005.
142. محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، إفريقيا الشرق، ط2، 2012.
143. محمد العمري، البلاغة العربية أصولها و امتداداتها ، المغرب، أفريقيا الشرق، دط، 1999.
144. محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجاً، المغرب أفريقيا الشرق.
145. محمد الكشاش، علل اللسان وأمراض اللغة رؤية لغوية إكليلينكية وانعكاسات ها الاجتماعية، بيروت المكتبة المصرية، ط1 / 1998.
146. محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر، مصر مطبعة المدني، (د. نظ).
147. محمد خطابي ، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز العربي للدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006.

148. محمد زعلول سلام، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري، مصر دار المعارف، (د.تظ).
149. محمد عبد الرحيم عدس، فن الإلقاء، الأردن، دار الفكر، ط3، (د.تظ).
150. محمد عبد الغني حسن، الخطب والمواعظ، مصر دار المعارف، (د.تظ).
151. محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، مصر ال هيئة العلمية لصناعة الكتاب، 1984.
152. محمد عبد المطلب، جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم، بيروت مكتبة لبنان ط 1/ 1995.
153. محمد علي سلطاني، النقد الأدبي في القرن الثامن الهجري، منشورات دار الحكمة، دمشق، (د ، ط)،
154. محمد عناني، المصطلحات الأدبية الحديثة ، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، مصر، (د،ط)، 1996.
155. محمد محمد يونس علي، المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية، دار المدى الإسلامي، 2007.
156. محمد محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات، دراسة الكتاب الجديد المتحدة، ط2004، 1، بيروت، لبنان، .
157. محمد محمد يونس علي، مقدمة في علم التخاطب الاسلامي-دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص، دار المنار الاسلامي، ط1، 2006.
158. محمد مزيان، مدخل إلى نظريات الاتصال المعاصرة، الجزائر منشورات دار لالة سكيينة، ط1 ، (د.ت).
159. محمد مصطفى صوفية، المباحث البيانية بين ابن الأثير و العلوي، المنشأة العامة للنشر و التوزيع طرابلس، ليبيا، ط1، 1994.

160. محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص، المغرب المركز الثقافي العربي، ط 3، 1992.
161. محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في اللغة والأدب، دار النهضة، 1996.
162. محمد منير حجاب، مهارات الاتصال للإعلاميين والتربويين والدعاة، بيروت دار الفجر للنشر والتوزيع، ط 1/ 1999.
163. محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، (دط)، 2006.
164. محمود عباس عبد الواحد، قراءة النص وجماليات التلقي بين المواهب العربية، والحديثه وتراثنا النقدي، دراسة مقارنة، مصر دار الفكر العربي، ط 1/ 1996.
165. مسعود صحراوي، التداولية عند العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، بيروت دار الطليعة للنشر والتوزيع، ط 1/ 2005.
166. مصطفى درواش، خطاب الطبع والصنعة (رؤية نقدية في المنهج و الأصول)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2005 .
167. معن عبد الغني حسن، الخطب والمواعظ، مصر دار المعارف، دط، د تط.
168. ابن المقفع، الأدب الصغير و الأدب الكبير ورسالة الصحافة، يوسف أبو حلفة، بيروت، منشورات مكتبة البيان، ط 1964، 3.
169. موريس أبو ناصر، إشارة اللغة ودلالة الكلام، بيروت منشورات مختارات، ط 1/ 1990
170. ميشال زكريا، الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة)، بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، 1983.
171. ميشال زكريا، الألسنية علم اللغة الحديث المبادئ والأعلام، بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 2 / 1983.

172. نعمان بوقرة، المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، دط، 2000.
173. نواري سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي، المبادئ والإجراء، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، ط1، 2009.
174. نور الدين السد ، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دراسة في النقد العربي الحديث، تحليل الخطاب الشعري والسردى، الجزائر ، دار هومة، ج2، ط1، 1977.
175. هادي نهر، اللسانيات الاجتماعية عند العرب، بيروت دار الأمر للنشر والتوزيع، (د.ت).
176. هنريش بليت، البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سميائي لتحليل النص، ترجمة محمد العمري، المغرب منشورات داراسات سال، (د.ت).
177. ابن يعيش، شرح المفصل، بيروت، عالم الكتب، (د.ت).
178. اليمامي، الاقتضاء وانسجام الخطاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 2013.
- 2-المصادر و المراجع الأجنبية:**

- A . Reboul et j .Moeshler :Pragmatique du discours de l'interprétation de l'énoncé à l'interprétation du discours,paris , armand colin, 1998.
- André martinet, économie des changements phonétiques, berne franik édition,1963.
- Chaïm Perelman et Lucie Olbrechts- Tyteca, (1992) Traité de l'argumentation- la nouvelle rhétorique, Préface de Michel Meyer, 5éme édition, édition de L'université de Bruxelles.
- Emile Benveniste , Problemes de linguistique generale 1,2 Gallimard , paris1966
- J. c. Ancombre et Ducrot : L'argumentation dans la langue, philosophie et langage,. troisième édition, MARDAGA.
- Jaque Moeschler ;Ane Reboul ;Dictionnaire de la pragmatique ;ed de suil,paris ;1994
- John Dubois : dictionnaire de linguistique, Larousse, paris 1973.
- John Searle, les actes de langage essai de philosophique du langage,

- Katherine Karbrat- Orchéoni « Ou en sont les acts de langage ?» in l'information gramaticale, paris, 1995.
- Patrick charaudeau ,Domonique Maingueneau :
Dictionnaire d 'Analyse de discours : édition de discours ;édition du seuil ;paris ;VI^e ;2002
- Petit LAROUSSE ;LIBRARAIE LA ROUSSE,PARIS 6 ;1980 .
- Simon Dick , Advances in Functional Publications Grammar , In language Sciences ; Series , Foris Publication , Dordrecht- Holland , 1983.
- Simon Dick , Functional Grammar , Publications , in language Sciences , Series , Foris publications , Dordrecht* Holland, USA , 1981 .
- Webster's Third New International Dictionary of the English Language unbraided

3- الرسائل الجامعية:

- الحاج لونيس بلخياطي، نظرية الكلام في بلاغة أبي هلال العسكري، الدكتور محمد طول، جامعة تلمسان، 2005 .
- سامية بن يمينة، الاتصال اللساني وآلياته التداولية في الصناعتين لأبي هلال العسكري، مذكرة ماجستير، اشراف أحمد عزوز، مذكرة ماجستير تخصص العلوم اللغوية والاتصال، كلية الاداب واللغات والفنون،السانيا جامعة وهران، 2007.
- مسعود صحراوي، الأفكار المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي، اطروحة دكتوراه في اللسانيات، إشراف عبد الله العشي، جامعة باتنة، 2004 .
- نعيمة يعمرانن، الحجاج عند ابن الأثير، مذكرة ماجستير، اشراف عمر بلخير، مذكرة ماجستير تخصص بلاغة وخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2012.

- يحيى بعبطش، نحو نظرية وظيفية للنحو العربي، أطروحة دكتوراه في اللسانيات الوظيفية الحديثة، إشراف عبد الله بوخلخال، كلية الآداب واللغات جامعة منتوري، قسنطينة، 2006.

4 - المجالات:

- أحمد يوسف، سيميائيات التواصل و فعالية الحوار المفاهيم والآليات، الجزائر، منشورات مخبر السيميائيات وتحليل الخطاب، ط1، 2004.

- آمنة بلعلی، الاقناع المنهج الأمثل للتواصل والحوار نماذج من القرآن و الحديث، مجلة التراث العربي، تصدر عن إتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع 89، 2003.

- بشير إبرير، في تعليمية الخطاب العلمي، مجلة التّواصل، جامعة عنابة، الجزائر، ع 8، جوان، 2001.

- بشير إبرير، من لسانيات الجملة إلى علم النص، مجلة التواصل، عدد 14، جوان 2005.

- تمام حسان، قضايا المصطلح الأدبي، مجلة فصول، مجلد 7 العددان الثالث والرابع، أبريل - سبتمبر 1987 .

- جيل بلان، عندما يكون الكلام هو الفعل، ترجمة جورج كتورة، مجلة العرب والفكر العالمي، لبنان مركز الإنماء القومي، العدد الخامس 1989 .

- حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي عناصر استقراء نظري (مقال)، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، تقديم حافظ إسماعيل

علوي، عالم الكتب الحديث، اريد، الأردن، ط1، 2010.

- خولة طالب الإبراهيمي - قراءة في اللسانيات النصية، مبادئ اللسانيات النصية جان ميشال آدم، مجلة اللغة والأدب، الجزائر، ع12، ديسمبر، 1997.

- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، العدد 162، أغسطس 1992.

- عادل فاخوري، الاقتضاء في التداول اللساني، مجلة عالم الفكر، ع 3، المجلد 20، منشورات

وزارة الإعلام بالكويت، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر 1989 .

- عبد الحليم بن عيسى، المرجعية اللغوية في النظرية التداولية"، مجلة دراسات أدبية، مركز البصيرة للبحوث و الاستشارات والخدمات التعليمية، الجزائر، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، العدد الأول 1429هـ/2008.
- عيد بلبع، "التداولية ، إشكالية المفاهيم بين السياقين الغربي والعربي ، مجلة الفكر، مجلد 8 ، العدد 3 يناير /مارس 2000 .
- كمال بخوش، الأسس المعرفية لمقاربة النصوص الحجاجية،(مقال)، مجلة تعليميات، جامعة يحي فارس، المدينة، 2016.
- لطف الله الشلبي، تحليل الخطاب الروائي: المفاهيم و التشاكلات، مجلة الراوي، ع 17 ، النادي الأدبي الثقافي، جدة 2007.
- محمد السيدي، إشكال المعنى من الاستعارة إلى الاستلزام الحواري، مجلة فكر ونقد، الرباط، المغرب، ع 3 ، 2000.
- محمد الصغير بناني، مفهوم النص عند المنظرين القدماء ، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد 12، ديسمبر، 1997.
- محمد الولي، مفاهيم بلاغية، الكناية والشاهد والتشبيه والاستعارة والتمثيل والأسطورة، مجلة علامات، العدد 17 .
- محمد بوعزة، من النص إلى العنوان، علامات في النقد،(جدة)، الجزء : 53 ، المجلد 14 ، رجب 1425 هـ / 2004.
- محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند بيريلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، مجلد 28 ، العدد 3 يناير/مارس 2000 .
- محمد صلاح الدين الشريف، الشرط والإنشاء النحوي للكون، سلسلة اللسانيات، مج 16 ، منشورات كلية الآداب، جامعة منوبة، تونس

- محمود طلحة، قوانين التخاطب في البلاغة العربية، مجلة الخطاب ، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة تيزي وزو، ع 25 ، 2017.

- مقبول إدريس، البعد التداولي عند سيوييه، عالم الفكر، المجلد 33، العدد1، سبتمبر 2004.

5 مقالات في الأنترنت:

- رويض محمد حول مفهوم الحجاج في الفلسفة، مقارنة فلسفية لسانية ديداكتكية، مجلة فكر ونقد، المغرب، العدد26 ك www.fikrwanakd.aljabriabed.n26_04rueyd.ht

- عادل الثامري، التداولية واللسانيات، الثلاثاء 2006/4/2،

www.elaph.com/elaphweb/elaphwriter/2006/